منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الروح القدس (٣)



نؤمن

تأليف
تيودول ري - مرميه

تعريب
الخوري يوسف ضرغام

الكسليك - لبنان ١٩٨٣

منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الروح القدس (٣)

نؤمن

تأليف
تيودول ري - مرميه

تعريب
الخوري يوسف ضرغام

الكسليك - لبنان ١٩٨٣

قانون الرسل

أؤمن بالله
الآب الضابط الكل
خالق السماء والأرض
وبيسوع المسيح
ابنه الوحيد
ربنا
الذي حبل به من الروح القدس
وولد من العذراء مريم
تألم على عهد بيلاطوس البنطي
وصلب ومات وقبر
وهبط الى الجحيم
وقام في اليوم الثالث من بين الأموات
وصعد الى السماء
وجلس عن يمين الله
الآب الضابط الكل
وسوف يأتي ليدين الأحياء والأموات
أؤمن بالروح القدس
وبالكنيسة المقدسة الجامعة
وبشراكة القديسين
وبمغفرة الخطايا
وبقيامة الأجساد
وبالحياة الأبدية
آمين .

مقدمـة

هناك جوع في صميم القلب ، في صميم الحياة ، في صميم الموت ، في صميم العالم وتاريخه : لماذا نحيا ؟.. لماذا نحب ؟... لماذا نموت ؟... لمَ العالم والبشر وكفاحهم ؟..

كذلك هناك سؤال يطرق أبواب الكثيرين وبطريقة ملحة أبواب المسيحيين : بمَ يؤمن المسيحيون بالضبط ؟

هذا النداء يطلقه العديد من غير المؤمنين الذين لا يرتاحون الى الحياة اذ لا يجدون معنى لذواتهم ولا لما يعملون ولا لمن يحبون .

وهذا النداء بالذات يطلقه أيضاً مؤمنون يتكاثر عددهم يوماً بعد يوم وبقلق مشابه : بعضهم ، وهم قلقون على « الوديعة التي يجب الحفاظ عليها » (١ تيمو ٦/٢٠) ، يشعرون بالضياع تجاه اعادة النظر في كل شيء والتنكر لاشياء وان بسيطة والتعابير الجديدة والشروح المختلفة لما كانوا يعتبرونه « العقيدة الصحيحة » (١ تيمو١/١٠) . فهم يطالبون بضمانة ، بأرضية متينة وثابتة ، أي بعرض يستحق الثقة . هم يسألون : ما هو « محتوى » الإيمان ، بم يجب أن نؤمن بدون أي شرط وعن أي شيء يمكن أن نتخلى ؟ ما الشيء الأكيد ، والأقل تأكيداً وغير الأكيد ؟..

إحفظ الوديعة الصالحة بعون الروح القدس الذي يسكن فينا (٢ تيمو ١/١٤) .

ويعلم البعض الآخر أن ليس الإيمان مجموعة عقائد بل علاقة شخصية وحيوية بيسوع المسيح . هذا لا يعني مطلقاً انهم لا يبالون بوضع قائمة كاملة وواضحة وصحيحة « بمواضيع » الإيمان ، بالحقائق التي يجب الايمان بها . لكنهم يتمنون تصميماً إجمالياً للمواضيع الجوهرية ، درساً يميز الأشياء الأساسية عن المعطيات

الثانوية التي تدور في فلكها . ويتساءل الشباب بصورة خاصة يوماً بعد يوم : ما هي نواة الإيمان الصلبة والتي لا عودة عنها ؟ لا تعني كلمة « نواة » ذاك العنصر القاسي الذي لا يؤكل فيترك في القصعة ، بل هذا الوسط الحيوي المتفجر حياة ، المعد لأن يزرع في قلب الأرض ؛ اذ هناك تصميم لشجرة كبيرة لا بد من أن تخرج منه . أما سؤالهم فهذا هو : ما هي البشرى السارة التي يجب أن نعيشها ؟ البشرى السارة التي يجب أن نوجهها الى إنسان اليوم من على السطوح ؟

الإنسان اليوم

نقول « إنسان اليوم » لأن « **التعبير عن الإيمان يكون بصيغ مرتبطة بثقافة عصر** » (مونسنيور ماتاكرين) . من المفروض أن تجري الأمور على هذا النحو . من المؤسف أن نكون قد تمسكنا بكلمات وتعابير موروثة عن ماض سحيق للتعبير عن ايماننا المسيحي . للكلام عن الاله الحي لا نعرف أن نستعمل غالباً سوى لغة ميتة . النتيجة : انسان القرن العشرين لا يفهم ما نقول .

علينا إذاً أن نجدد لغتنا وان نعبّر عن الإيمان الدائم بصور وأفكار ولغة تناسب بلادنا وزمننا — هذا الزمن الذي يمر سريعاً — وبكلمات كل يوم وكل إنسان . هذا هو معنى « بشروا جميع الأمم » ، أمم اليوم كما أمم الأمس . هذا هو معنى « اكرزوا الخليقة كلها بالإنجيل » حتى وان كانت خليقة أمية ، حتى وخاصة ان كانت غير مؤمنة . وإلاّ نكون قد احتفظنا بالإنجيل الذي هو للجميع لبعض المحظوظين ونكون سائرين في خطى خطيئة اسرائيل .

يقول الأب كارل رهنر في بدء سنة الإيمان : « فليجتهد الكارزون بالإنجيل في أن يعلنوا الإيمان الارثوذكسي القديم بطريقة يفهمها إنسان اليوم . فليضعوا نصب أعينهم في وعظهم لا الاتقياء ولا من نفترض فيهم التقوى ، الجالسين قرب منبر الكرازة ، بل

الذين ليسوا هنا ، المترددين ، غير المؤمنين ، الملحدين الذين هم حقاً ملحدون أو الذين يظنون أنهم ملحدون .

فلو وجهنا الوعظ إلى إنسان اليوم ، كما يبدو هذا الإنسان في شخص غير مؤمن وكما هو بين جمهور السامعين ، حتى ولو بدا وكأنه غائب ، فنصل لا إلى تخفيف محتوى الإيمان بل إلى تكثيفه . فما يجب ان نكرز به هو نواة المسيحية : الله... يسوع المسيح..»
(الأخبار الكاثوليكية العالمية ١٥ حزيران ١٩٦٧)

اضبارة أم لقاء

«**الله — يسوع المسيح — أي أشخاص . فليس الإيمان اذا مجموعة تأكيدات وعقائد . انه لقاء مع شخص ، هو ولوج في سر.**

وليس السر باباً موصداً نصطدم به ، بل هو ، على العكس ، باب مفتوح وكشف عن أشياء جد مهمة بحيث أن الإنسان لا ينتهي أبداً من تفهمه اياه ، تماماً كما لو رمينا بذواتنا في البحر بغية اجتيازه سباحة ..

بالإمكان القيام **بدراسة علمية** حول شخص : بطاقة بيانية ، تحليل شكلي ، كيمائي ، طبي ، دراسة خطّه ونفسيته الخ... نخرج من هذه الدراسة بملف صحيح وكامل .

إنما بالنسبة الى شخص ، يمكن أيضاً القيام **بلقاء شخصي** ، إنساني ، حياتي ... تعارف ، نزهة مشتركة ، صداقة ... قد يؤدي ذلك إلى حب ، الى ثقة متبادلة ، الى زواج .

الطريقة الأولى تعطينا عدة معلومات عن إنسان ، وبالطريقة الثانية نتعرف اليه ونحبه .. اما بالنسبة الى الله ، فالطريقة الأولى هي نوع من التعليم المسيحي وعلم اللاهوت المتطور . اما بالطريقة الثانية فنحن نكتشف حباً ، حباً ليومنا وللحياة وللموت وللأبدية .

إن الله شخص . هذه أروع ترجمة في نظري لعبارة «نؤمن باله» انها تعني لي شيئاً . بينما سائر التعابير التي تريد أن تعطي فكرة عن الله إنما تتكلم عن اله هو فكرة وليس كائناً حياً ، عاملاً ، فعّالاً ، أي ليس شخصاً . نحن لا نتعلم الله ، لا يتعلم المرء شخصاً ، أراد الله أن نعرف انه شخص يعمل ويحب.. ونحن نعلم أن هذا الاله هو معنا . (مادلين دلبرل) .

هذا يعني أن وضع قائمة بمحتوى الإيمان والقيام بجردة حول الله لا جدوى لها إذا لم يكن جهدنا الإيماني هو أولاً لقاء بشخص ، شخص يظهر في حياتنا ، في تاريخنا ، في اختبارنا الإنساني... شخص قادر على أن يجيب غير المؤمن في قلقه ، في عذابه ، في تساؤله الحياتي .

اله الفلاسفة والعلماء ، اله نظري ، بعيد عن تاريخ الناس ، خارج عن الاختبار البشري ، متسام وبعيد عن المغامرة البشرية ، هذا الاله لا يمكن أن يكون الاله الحقيقي ، أو على الأقل لا يهمنا أمره .

معرفة الله

لا شك ان هناك علماً دينياً مسيحياً كما ان لكل دين علماً : بالإمكان جمع معلومات حول اله المسيحيين أو المسلمين أو البوذيين . هناك علم الأديان . لكن الإيمان هو أكثر من علم ؛ انه حياة . وهو أيضاً عقيدة لكن عقيدة حياة . هو بدون شك علم لكن ليس مجموعة معلومات ، بل **معرفة شخص حي** . لذا لا يمكن التفقه دينياً إلا بطريقة حياتية ، تنطلق من الحياة وتؤدي إلى الحياة ، **فيحيا بها الإنسان** .

فالحب لا يولد ولا ينمو عن طريقة تجميع المعلومات حول شخص ما ، بل بالتعمق في معرفته . والطريقة لذلك هي المعاشرة والحضور . **فلتعليم الصغار وكرازة الكبار تبقى كلمة الطريقة الأولى والأخيرة معاشرة الله ، سماع كلمته ، الشعور بحضوره ، العبادة ، التسبيح ، الصلاة . نحبه لنعرفه أكثر ونعرفه لنحبه أكثر** .

ننطلق من قانون الرسل

لأجل السهولة ولأن غالبية قراءنا هم من المؤمنين ، فسوف نتبع ، في مراجعة فهم إيماننا ، قانون ايمان الرسل . وترتيب هذه

الدراسات ، ونحن لا نفرضه مطلقاً ، سهل الاستعمال لكرازة عامة موجهة لقراء مجهولين ومتفاوتي الثقافة . فهو يتبع عن كثب تصميم تاريخ الخلاص... نبدأ فنتساءل : ما معنى كلمة « قانون » ؟

في العصور الغابرة ، كان الضيوف والأصدقاء والشركاء والتجار يكسرون قطعة نقود أو ختماً أو لوحة... ويتقاسمون القطع الصغيرة . وكان كل منهم يحتفظ بقطعته التي تتناسب والقطع الباقية . بعد زمن ، وقد يطول سنوات ، كانت القطع اذا ما جمعت تسمح لهم بالتعارف في احد اللقاءات أو تذكرهم بالتزام أو بترهن عن شرعية مبعوث مفوض برسالته . كانت هذه القطعة — الشاهد — علامة تعارف مثل كلمة السر أو بطاقة الهوية . وكانت تدعى « رمزاً » أي باليونانية «شيئاً موضوعاً مع شيء آخر» ؛ إذ بوضع القطع جنباً إلى جنب كان الناس يتعارفون وان لم يكونوا قد التقوا في الماضي . ففي الحرب العالمية الثانية كان رجال المقاومة الفرنسية يتعارفون بواسطة ورقة الخمسمئة فرنك .

قانون نيقيا — القسطنطينية الذي نرتله أو نردده في قداس الآحاد والأعياد هو قانون عماد شرقي قد نقحته مجامع عامة يحمل اسمها ليحدد العقيدة الصحيحة ضد الهرطقات التي تدور حول سر الثالوث وألوهية المسيح يسوع . لذلك فهو يحتوي على بعض تعابير مجردة وصعبة تجعل من بعض فقراته ، كما يقولون ، «قانوناً للأساقفة» .

قانون إيماننا ، « نؤمن » ، هو رمزنا لأنه يشبه كلمة السر. هو علامة تعارف ووحدة بين المسيحيين . سموه قانون الرسل لأن قاعدة الإيمان هذه ترجع بجوهرها إلى زمن الرسل ، إلى القرن الثاني على الأقل ، كما يشهد بذلك القديس ايريناوس في شرحه لهذا القانون (حوالي ١١٥ — ٢٠٣) .

« استمرارية هذا الإيمان منذ نشأته . الإيمان هو هو في كل زمان ومكان . يتناقلونه دون تبديل منذ القرن الأول . وعندما نعلن اليوم ايماننا فإننا نرتكز حقاً على شهادة رسل المسيح الأولين . هي هذه الشهادة وصلتنا في سلسلة متواصلة . وهي تتطلب اليوم أيضاً جواب إيماننا » (هنري دي ليباك) .

قد فرض هذا القانون ذاته باكراً وبشكله الحالي على الغرب

المسيحي . لذلك ، فبعد بروتستانتية القرن السادس عشر ، لا تزال كنائس الاصلاح تعترف به قاعدة ايمانها الأساسية .

ان بروتستانت فرنسا ، عند الكلام عن الكنيسة ، استبدلوا مؤخراً كلمة «كاثوليكية» بكلمة «جامعة» . لكن المعنى لم يتغير . مما لا يمنع اذاً من أن يكون هذا القانون قانوناً مسكونياً وأساساً مشتركاً . فالكاثوليك والبروتستانت يحملون في إيديهم القطعة — الشاهد — للإيمان الواحد الأساسي .

قانون العماد

قانون الرسل هذا هو قانون للعماد . أي منذ بدء الكنيسة إلى اليوم . هو شهادة إيمان المؤمن الجديد الذي يقبل العماد «باسم الآب والابن والروح القدس» . فهو إذاً قانون المبتدئين .

في زمن الصوم الكبير وبعد خمسة أسابيع من التعليم ، كان الموعوظون ، أي طلاب العماد ، يتقبلون «قانون الإيمان» . وكان ذلك يتم في احتفال رسمي حيث كان الأسقف يطلب منهم أن يحفظوه غيباً .

«تجنباً من أن تموت النفس اذا ما جهلته ، فنحن نحمّل هذه الفقرات كل تعاليم الايمان . هذا ما أريد ان تحفظوه حرفياً» (كيرلس الأورشليمي) .

هذا الحفظ غيباً ، الذي كان يستبعد كل اثر للكتابة ، كان احتياطا ضرورياً زمن الاضطهادات . وكان ، بنوع خاص ، ولا يزال تكملة لتقليد الكنيسة الشفوي .

بعد تسلمهم هذا القانون ، وطيلة خمسة عشر يوماً ، كان يجري شرحه بطريقة مكثفة ، جملة جملة ، على يد الأسقف ، كل يوم وطيلة ساعات . بعدئذ ، في أحد الشعانين ، كان على الطالب ،

عمق أزمة الإيمان ؟ هو جهل معنى الإيمان وليس جهل التعبير عنه فحسب . يجب أن نلج قانون الرسل كما ندخل في ماء باردة تستوفي على كل أعضائنا ..

نحن في عصر يتعرض فيه الإيمان للفقر اذ يتحول إلى عواطف غامضة أو إلى ايديولوجيات برّاقة . بوسع الإيمان اليوم أن يكون ملتزماً وسخياً وشجاعاً عندما يواجه واقع الحياة . لكنه غالباً ما يتلعثم عندما يتكلم عن محتواه أو عندما لا يهتم بمحتواه وهذا شر من ذلك . عندئذ ، وهذا لا مفر منه ، يتبخّر ويضيع . فالتحدي الموجه الينا لكي ننسق بين الايمان «وعالمنا الجديد» هو أكبر تحد في التاريخ (مونسنيور انشكاراي) .

وهو بين عرابه وعرابته ، ان يتلو القانون . فكان يتلوه بطريقة احتفالية وعن ظهر القلب أمام الأسقف والكنيسة . وكان ذلك دليلاً على أنه استعد وأصبح بوسعه أن يقبل العماد . لكن هذا الاستعداد لم يكن سوى «بدء» ، أي لم يكن التعليم قد انتهى بعد.

فكان على حديثي الإيمان ، بعد العماد ، أن يعيشوا مرحلتين تعليميتين : كان على الكنيسة أن «تكشف لهم عن الأسرار» وأن «تسلمهم» الصلاة الربية . أما بالنسبة إلى الأسرار ، فكان الاعتقاد سائداً على أنها أحداث لا أفكار وعلى أن تفهمها يقوم بممارستها وليس بتعلمها . أما الصلاة الربية فهي صلاة المسيحي المميزة ، لا يقدر أن يتلوها سوى الأبناء أي المعمدين . فقانون الإيمان إذاً على الأسرار وخاصة الأفخارستيا . فهناك تدرب على فهم الإيمان يجب أن يكتمل بعد العماد بتعليم يدور على الأسرار والصلاة . ودراستنا ستكرس لهذا الموضوع كتاباً آخر بعد عرض قانون الإيمان بالذات . وانه من الافادة بمكان أن نعود إلى التربية الكنسية العريقة . فهي تطور وحياة . وهي تدين نفاد الصبر الأرعن عند الذين يريدون أن نعلم الصغار كل شيء وفي آن واحد فيما يتعلق بالتعليم المسيحي . فالكنيسة تتصرف تدريجياً حتى مع الراشدين : تبدأ أولاً بالبشرى السارة التي تدور حول الله الذي أظهر قوته وحبه في شخص يسوع المسيح وفي مجيئه . ثم يصير تعمق حياتي لدى المهتدين الذين قبلوا المسيح في حياتهم .

عظائم الله

إذ ما يقوم عليه قانون ايماننا هي الحياة ولا شيء سوى الحياة : حياة الله في حياة الإنسان والعكس بالعكس . فالذي يتلو قانون الإيمان لا يرصف أفكاراً مجردة : الله ، الخلق ، التجسد ، الفداء ، القيامة ، الصعود ، نهاية الأزمنة . بل على العكس فهو يذكر أشخاصاً وأحداثاً وتاريخاً ، يذكر أعمال الله منذ الخلق حتى

نهاية الأزمنة وذلك بواسطة أفعال فاعلها هو الرب الهنا .

« أؤمن بالله الآب ... وبابنه المولود الذي تألم على عهد بيلاطس البنطي ، ومات وقام وصعد إلى السماء ... ومن ثم سوف يأتي ... أؤمن بالروح القدس ... » . أشخاص ثلاثة تتجلى في ذات الله خلال هذا الترتيب التاريخي حيث يلتزم الله بمحبته نحونا . « إيمان الرسل » هذا ليس فلسفة وضعوها ولا ايديولوجية حفظوها . بل هو وحي عبر التاريخ ، هو اختبار مثير : يقول القديس يوحنا : « الذي سمعناه ، الذي رأيناه بعيوننا ، الذي تأملناه ، الذي لمسته ايدينا من جهة كلمة الحياة... لأن الحياة ظهرت ورأيناها ، ونحن نبشركم بالحياة » (١ يو ١/١ – ٢) . **وفي وسط كل هذا ، موت وقيامة يسوع المسيح .**

عندما يعرض اللاهوتيون الكاثوليك العقيدة ، عليهم الآ ينسوا أن هناك نظاماً أو هرمية بين حقائق العقيدة الكاثوليكية نظراً إلى علاقاتها المختلفة بأسس الإيمان المسيحي (الفاتيكاني الثاني) .

هذا هو الحدث الأساسي الذي أعلنه بطرس في قلب الحدث الكبير (أعمال ٢٣/٢) ، البشرى الرائعة التي يجب نشرها في العالم إذ هي عمل الخلاص بالذات : يسوع الناصري ، الذي أرسله الله وكفله ، الذي رذله اليهود وأسلمه بيلاطس وصلبه الوثنيون ، أقامه الله في اليوم الثالث كما أنبأ بذلك ، فرفعه إلى يمينه «كرب الاحياء والأموات » .

« هذا الحدث الأساسي ، الذي يبدو كحدث تاريخي مثبت شرعاً ، هو قلب الكرازة (ما ينادى به أولا عند حمل البشرى السارة) ، وهو جوهرها حقاً . لكنه لا يظهر وحيداً بل هو محاط بدوائر سابقة لاحقة من أحداث تاريخية تبرهن عنه وتعطيه كل قيمته (بيار بنوا) . اذاً :

.في البدء : الله محبة ، الله أب ، ينبوع حياة ، يعطي ابنه .

في الوسط : يسوع المسيح ، يسوع المسيح مصلوب وقائم من الموت .

اله ابراهيم واسحق ويعقوب ، اله آبائنا ، هو الذي مجّد فتاه يسوع الذي أسلمتموه الى أعدائه وأنكرتموه أمام بيلاطس وكان قد عزم على اخلاء سبيله . أجل أنكرتم القدوس البار وطلبتم العفو عن قاتل . قتلتم ملك الحياة . لكن الله أقامه من بين الأموات ونحن شهود لـه بذلك (أعمال ١٣/٣ — ١٥) .

ثم : الآب والابن يعطيان الروح ، يؤسسان الكنيسة ، جماعة الأخوّة والغفران والحياة في هذا الروح عينه ... وذلك بانتظار تجلّي « يوم الرب » يوم مجيئه بالمجد في نهاية الأزمنة « ليدين الأحياء والأموات » .

« ثلاث مراحل تاريخية تنسب ببساطة الى أقانيم الثالوث الثلاثة ، الآب الخالق والابن المخلص والروح المقدس » (بنوا) .

هذا هو الإيمان الأول كما يبدو في الرسائل والأناجيل . هذه هي « شهادة إيماننا التي يجب أن نتمسك بها بقوة » (عبر ١٤/٤) لأنها آتية من الرسل . قانون الرسل ينقل إلينا اليوم ، عبر ألفي سنة ، هذا الإيمان الذي انتقل الى المسيحيين كاملاً والذي يجب أن نجاهد في سبيله » (يهوذا ٣) .

بي شوق شديد ، أيها الأحباء ، أن أكتب إليكم بأمر خلاصنا المشترك ، بعدما شعرت بضرورة تشجيعكم على الجهاد في سبيل الإيمان الذي تسلمه القديسون كاملاً (يهوذا ٣) .

١

أؤمن بالله

« أؤمـن » ...

الناس جميعهم مؤمنون وجميعهم غير مؤمنين . والقول المأثور «لا أؤمن إلا بما أرى» قول خاطىء يناقض ذاته . انا أتبيّن أني واقف ، ان الساعة هي السادسة ، إن المطر يتساقط أو إن الطقس مشمس ، ان امرأتي تبتسم ، إن الماء ساخن .. هذه كلها أمور تفرض ذاتها على حواسي . لذا فأنا لا «أؤمن بها» بل «أراها» . ولو ذهبنا إلى أبعد من هذه المعطيات الأكيدة والمباشرة ، فالمؤمن وغير المؤمن لا ينفكان يراهنان بحياتهما وحريتهما على أكثر مما يريان . «يؤمن» المرء بالعلم ، بالصحيفة ، بالمال ، بالطقس ، بماوتسي تونغ ، تؤمن المرأة برجلها والرجل بامرأته ، بطبيبه ، وذلك ما يفوق ما يعرف من هذه الأمور . ويستحيل على المرء أن يعيش بدون هذا الإيمان .

وعلى العكس ، فكل اقتناع معيوش ، نبني عليه كل يوم وجودنا ، يرتبط باختبار ماض أو حاضر . حتى هذه الساعة لم يسمم لي خبازي ولا امرأتي ؛ لم تسقط الجسور عند مروري فوقها . ما عدا اليوم الأول من نيسان ، كل ما تقوله جريدة التلفزيون هو صحيح . وإذا ما صعدنا في سلّم القيـم : الذين يؤمنون بالملائكة يستشهدون ببعض أحداث تبرر إيمانهم بينما أعلن كاكارين أنه لم يلتقهم في رحلته الفضائية . يؤكد المتصوفون على وجه العموم على أنهم التقوا الله بطريقة ما . بينما يرجع الملحدون الى اختبارهم لينفوا وجود الله : «الله موجود وقد التقيته ــ الله غير موجود فإني لم ألتقه أبداً» .

وهكذا فغير المؤمن يؤمن أكثر مما يظن . وهو يمثل دوره بكثير من

التخوف بحيث يشبه الفتاة التي تلقي من على المسرح قصيدة وهي فرحة بينما تود أن تبكي . وكذلك فالمؤمن هو أقل إيماناً مما يدعي لأنه ، لكي يبقى مؤمناً ، عليه أن يتغلب على بذور الشك والالحاد التي تنهض دوماً في داخله .

ذلك أن الله يتكلم دوماً بقوة بحيث أنه لا يترك الملحد في نومه ؛ كما انه يتكلم بلطف بحيث انه لا يجبر المؤمن على الإيمان . فالله محبة هو . . .

اختبار وإيمان

فالمؤمن وغير المؤمن يعودان إذاً في النهاية إلى نوع من الاختبار... إنما هناك اختبار واختبار .

* هناك أولاً **اختبار الذات** المباشر وبطريقة حميمة . «أنا موجود ، أنا أحيا . أنا أشعر بالراحة أو بالتعب جسدياً أو نفسياً ، لهذا السبب أو ذاك . أحب أو أبغض أو أبقى غير مبال . أفكر بهذا أو بذاك . . . » هذا **شعور مباشر** ، من الصعب اشراك الآخرين فيه . أخاف أن أراوح مكاني . وقد يجعلني أيضاً أنفتح على الآخرين وعلى الله . . . فأدعوهم واستقبلهم . حقل داخلي وشخصي جداً وخاص ، فهو لا يقع في حيّز العلم . ومع ذلك فهو لدى كل إنسان **حقل التأكيد اليقيني الأول** . هو للجميع الاختبار الأول .

* **لقد اختبرنا جميعاً الأشياء والأحداث** ، يبدأ هذا الاختبار لدى الإنسان مع الطفل الذي يكتشف بفمه ويديه وعينيه . ويبلغ كماله في الاختبار العلمي . هو اختبار عام للأشياء ، تحليل لتركيبها الكيمائي ، وتوضيح لعملها الفيزيائي .

وان كان موضوعنا هو الإنسان وتاريخه ومواقفه العامة ، فإن شريعة الاعداد الكبرى تسمح بأن نعامل البشر كأشياء وان نرتكز بفطنة على اختبار مقبول من الجميع . حقل الأشياء هذا هو حقل

العلم وحقله الوحيد ، حقل الصدفة والضرورة ، بقوانينه العامة وبارتكاز على **براهين** . ليس هذا حقل الأشخاص الأحرار المميزي الشخصية .

* وهناك أخيراً **اختبار الآخرين** ، اختبار الأشخاص . نلتقي ، نتعارف ، نتواد ، نعود فنلتقي ، أو نعيش معاً : رجل وامرأته ، أم وولدها ..

لقاءات ودية ، حضور محب ؛ هذا ما نفهمه عبر **علامات** . لكن هذه العلامات ليست ببراهين ؛ نبقى تجاهها أحراراً . هذا هو حقل الإيمان الديني أو البشري : نؤمن — وقد يكون ذلك أكيداً — انطلاقاً من اختبار شخصي أو مما سمعنا من أشخاص يستحقون الثقة . هكذا يولد التاريخ ، التاريخ الكبير وتاريخي الصغير ، التاريخ الذي لا يقل تأكيداً عن العلم إنما على صعيد آخر ، وهو أهم من العلم بالنسبة إلى المؤمن وإلى غير المؤمن . هكذا تولد وتعيش الأسر والعيال في عالم المؤمنين وغير المؤمنين : في الثقة المتبادلة . اذ لا شرح للحب .

لقد كتب أحدهم رسالة حب ... بوسع العلم أن يوضح وزن من كتبها وحجمه وفئة دمه وحالته الصحية . بوسعه أن يحلل كيمائياً ورقها وحبرها . بوسعه أيضاً أن يدرس ميزات الخط .. لكن العلم يبقى مقصراً عن بلوغ الصعيد الشخصي ، ذاك الصعيد الوحيد الذي يعطي الرسالة أهميتها : صعيد الحب والحرية والإيمان .

لا يقدر العلم أن يعلن عن العواطف والقرارات التي تحملها هذه الرسالة أو التي سوف تحدثها . هل ستؤدي الى زواج أم لا ؟ لقد بلغنا صعيد الإيمان حيث يراهن المؤمن وغير المؤمن على حياته .

* وان كان الجميع يعيشون الحب البشري أو يفتشون عنه ، فجميعهم أيضاً وبأشد الحاح ، وإن لم يكن لهم حق التعبير ،

زمننا الحاضر زمن مبارك إذ يطرح أسئلة يجب الجواب عليها . على الشعب المسيحي أن يجيب على سؤال البشرية وقلقها إذ يفهمها ان كل شيء في النهاية هو وسيلة لبلوغ الغاية .

— أية غاية ؟

— العودة الى بيت أبينا . كفاح البشر كله ليس بغاية .

ليس سوى وسيلة لبناء الملكوت في نهاية مسيرة البشرية هذه الطويلة : أنـا أتيت وسأذهب وسوف يـأتي غيري .. وهكذا حتى نهاية الأزمنة نسير نحو الشخص الوحيد (روجيه بوتني) .

بحرقهم سؤال أشد إيلاماً . بطريقة جلية أم لا ، فإن قلبهم وعقلهم يصرخان فيهم إنهم ليسوا وحدهم وانه لا يمكنهم أن يتحملوا وحدهم الألم والموت وخاصة ذاك الشر العميق الذي نئن منه جميعاً والذي يسميه المسيحيون : الخطيئة .

هن يكمن **اختبار الله** وإن سلبياً : حضور إله نعيه أو لا نعيه .

لقد ظهر الله

فإن كان الله ، وسط العديد من الضغوط والجهل والتشويه ، هو غاية شوق البشرية ، فذلك يعني انه ظهر . إن باسكال ينسب هذا الكلام الى الله : « لو لم تكن وجدتني ، لما كنت تفتش عني » . وبالفعل فالإنسان جائع إلى الله لأن الله حاضر في الإنسان . والإنسان الذي ينكر الله ، إنما يراهن على شخص أكبر منه . إنه يراهن على الإنسان وعلى الإنسانية... على شخص يمنعه خمول المسيحيين من أن يعرفه ، لكنه هو الله بالذات . أما المسيحيون فيقولون : ان هذا الشخص قد ظهر ولا يزال منذ الأزل يكشف عن ذاته . هو ينير ويتكلم ويجيب على السؤال الحي الكائن في قلب الإنسان ، وهذا هو الوحي .

الوحي هو كلام الله إلى الإنسان لكي يعرفه بذاته .

لأن الله شخص ، وكل شخص هو سر . إن كل شخص هو فريد بأفكاره ومشاريعه وذوقه وماضيه وحبه .

الله سر ولا نعرفه إلا إذا كشف عن ذاته .

يجب قراءة الكتاب المقدس أولا ككل كتاب لا تنسلخ الجملة عن اطارها ، لا نحمّل النص الا ما أراد الكاتب أن يحمّله . والكاتب هو الله والإنسان . لا نقرأ القصة كمثل ولا المثل كقصة . لا نفتش في الكتاب المقدس عن معرفة سرية علمية نكتشفها بين السطور، تتكلم مثلاً عن الصحون الطائرة أو التطور أو القنبلة الذرية . ما يقول لنا الكتاب المقدس هي الحقيقة المتعلقة بخلاصنا . والباقي يتركه الله لعقلنا ، للتفتيش العلمي ، لعملنا (جوليان هرفي) .

لكن الله هو أيضاً محبة ، محبة للبشر ، والمحب يتكلم ، يستودع حبيبه أسراره ويكشف له عن نفسه . لا حب بدون بوح ؛ لا حب بدون كشف عن الذات ، الله يكشف عن ذاته في الخليقة . عالم الكائنات المنظورة يومي إليه : علامات تدل على العقل والجمال والحب . ينتج عن ذلك عند الكثيرين إيمان بدائي : إيمان من يؤمن

بالله موجوداً ومستحقاً كل عبادة .

وبنوع خاص إن الله مشغوف بالإنسان خليقته ، فهو يكلمه في التاريخ أي عبر حضور طويل مليء بأعمال الحب وتعابيره . الوحي اليهودي — المسيحي هو تدخل الله في مجرى الزمن المادي وهو يكمل ظهور الله في العالم . والكائن اللامحدود الذي يدعوه الإنسان ويرمز إليه الكون هو شخص يلمسه التاريخ بأصبعه ، ليس فقط عبر غشاء الرموز بل في هذا الجسد بالذات ، جسد هذا الإنسان — يسوع المسيح — حيث يسكن — على حد قول بولس الرسول — « ملء اللاهوت » . لذا فلم يعد المهم الإيمان بوجود الله بل الإيمان باله يتكلم ويوحي ذاته ، الإيمان بما يقول عن عائلته المثلثة ، عن مشروع حبه لنا ، عن الخلاص الذي يجذبنا إليه ، عن الزواج الذي يدعونا إليه . حتى نؤمن بإنسان ، يكفينا أن نراه أو أن يكلمنا عنه أحد . لكن لكي نؤمن به حياً فاعلاً متكلماً... يجب أن يحبنا وان نبادله هذا الحب ولو قليلاً .

حضور الله هذا في تاريخنا البشري يعرف مراحله كل من تاق إليه : حسبنا ان نفتح الكتاب المقدس ، كتاب العائلة ، حيث الله مع الإنسان والإنسان مع الله يخبران قصة حب الله وخلاصه لنا ، لأن الله ، ككل حب ، يعمل أكثر مما يتكلم . انه يعمل ما يقول ، أو بالأحرى إنه يعمل ويشرح ما يعمل . فذراعه وفمه يتوجهان إلى القلب . وإذا ما انفتح القلب على هذا الحب ، كان الإيمان .

« بالله .... » لماذا ؟

كانون الأول ١٩٦٨ . هناك مركبة فضائية تدور لأول مرة حول القمر . العالم كله ينتظر ويصغي ...

إنه يسمع روّاد أبولو ٨ — اندرس ، لاول وبورمان — يقرأون

بصوت عال صفحة الكتاب المقدس الأولى : «في البدء خلق الله السماء والأرض — وقال الله : ليكن نور فكان النور . ورأى الله أن النور جميل وفصل الله النور عن الظلام ... وقال الله ليكن نيّرات في جلد السماء للفصل بين النهار والليل ولانارة الأرض . فكان كذلك . وصنع الله النيّرين الكبيرين ، الأكبر لحكم النهار والأصغر لحكم الليل ، والنجوم ... » .

وبورمن ، الأخصائي بمراكب الفضاء وهو أيضاً قارىء في الفريق الليتورجي في رعيته ، يزيد :

« أعطنا يا رب القدرة على رؤية حبك في العالم ، رغم نقائص الناس . أعطنا الإيمان والثقة والصلاح رغم جهلنا وضعفنا . أعطنا المعرفة لكي نتمكن من مواصلة الصلاة بقلوب متفهمة ... » .

الإنسان في ذروة علمه ... يعترف بالله ... الإنسان في ذروة قدرته ... يمجد الله ...

الإنسان سيد التقنية ... يصلي إلى الله لا لكي يسيّر مركبته بل ليغير نظره وقلبه ...

الله لم يره أحد قط

منذ خلق العالم ، وصفات الله الخفية ، أي قدرته الأزلية وألوهيته ، واضحة جلية تدركها العقول في مخلوقاته . فلا عذر لهم إذن . عرفوا الله فما مجدوه ولا شكروه كإله ، بل زاغت عقولهم وملأ الظلام قلوبهم الغبيّة (روم ١/٢٠ —٢١) .

* ومع ذلك ، فعندما نُستسلم إلى حواسنا ، لا يعود لله وجود . يظن البعض انه لو كان لله وجود لبهر وجوده العيون . هذا كان رأي كاكارين الذي أكد جدياً أن مركبته الفضائية لم تلتق الله في طبقات الأثير . كثيرون ، على مثاله ، يقصون الله عن حياتهم لأنهم يلتقوه في شوارعهم أو في زاوية كنيسة أو دير مظلم . وغيرهم ، وهؤلاء هم المؤمنون ، يعتبرون أن كل عقل صادق مع ذاته يمكنه أن يعرف الله بدون تردد أو صعوبة . ويخلصون إلى القول بأن الملحدين هم إمّا مجانين أو غير صادقين . ألم يؤكد القديس بولس أن الوثنيين الذين لم

يعرفوا الله من أعماله .. هم بدون عذر؟... ليست القضية بهذه السهولة .

يعلم المجمع الفاتيكاني الأول انه في استطاعة الإنسان ، بواسطة العقل ، أن يصل إلى معرفة أكيدة لله . لكن هذا يفترض ألاَّ يكون الجو ملوثاً بالإلحاد وألاّ يعطي المؤمنون وكنائسهم صورة مرفوضة عن الله . . .

في الواقع أن المنطق البشري لم يتوصل إلى بناء برهان قاطع عن وجود الله . ولا يمكن الكلام عن **براهين** بل عن طرق نحو الله فقط ، عن تلمس الله بواسطة العقل . وهذا لطف من الله الذي لا يريد أن يفرض ذاته مثل « إثنان واثنان أربعة » . والا لكان جميع العلماء والفهماء ، الصادقون وغير الصادقين ، يؤكدون على وجود الله كما يؤكدون على أن الأرض تدور حول الشمس . لا . ليس وجود الله أمراً واضحاً .

* **وطبيعة** الله أقل وضوحاً من وجوده .

« الله لم يره أحد قط » يقول القديس يوحنا (١٨/١) . ويتكلم القديس بولس عن « الذي لم يره إنسان ولا يستطيع أن يراه » (١ تيمو ١٦/٦) . أضف إلى ذلك أنه لا مجهر اليكتروني ولا رادار فضائي قد استطاع قط أن يلتقط وجوده . لم يلتقط أحد عنه أي اشعاعات ... فهل نستخلص أن لا وجود لله ؟

هذا استنتاج ساذج على نحو محزن . لأنه ان كان الله موجوداً فلا يمكن أن يكون إلا غير منظور . من جهة لأنه روح محض ، ومن جهة أخرى لأنه محبة . والمحبة لا تريد أن تحطم الأبواب ...

يجيب المخرج السينمائي كلوزو على أسئلة فيليب الكسندر : « هناك شيء ساعدني وهو عدم وجود براهين على وجود الله . فالله محتجب . بالنسبة إلي ، عدم وجود براهين هو البرهان الأول : لأنه

إن كان الله يحترم الإنسان ، فيجب أن يطلب منا انتماء حراً ؛ يجب ألاّ يجبرنا على الإيمان» .

فالله غير منظور والا فهو غير موجود . ولا يمكن أن يكون الاله الحقيقي إلا غير منظور .

الله ظاهر للقلب

ليس هو غير منظور كأحد الكواكب وإلا أصبح بعيداً جداً عن مراصدنا . بل هو غير منظور كعقلي ، كحبي الحميم ، مع أني أشعر بقوته وحياته . هو غير منظور كمبدأ الحياة فيّ الذي يجعل قلبي يدق ليلاً نهاراً . مثل روحي وحبي ومبدأ الحياة فيّ ، إنما أكبر من ذلك إلى ما لا حدّ له ، بمقدار لا يحده مدى ولا قياس .

أجل ، إن الله هو إله محتجب لأنه الله . هو أبعد من كلماتنا وتعابيرنا وتصوراتنا وتشابيهنا ، أبعد من براهيننا وتفكيرنا ، أبعد من عوزنا ورغباتنا ...

أبعد أي أعمق من ذلك ، **في الداخل** ...

ليس الإيمان بالله أمراً عقلانياً بل قضية حياتية ، نلزم حياتنا كالتنفس والمعرفة وفهم الآخرين ، كحبنا للغير وحب الغير لنا ، كاستقبالنا للغير وعطائنا ...

ليس الله شيئاً نعمل على اكتشافه بل شخصاً يدعونا إلى الاتحاد به . ليس حقيقة تفهم ، بل هو الحي .

لذا فهو لا يكتشف ذاته إلا لصميم الحياة بالذات ، حياة الأشخاص والشعوب ، عبر تفتيش لا ينتهي أبداً ...

لكن هذا القلب «الظاهر للقلب» (باسكال) قد يكون وهماً جميلاً ؟.. يتابع القديس يوحنا : «الله لم يره أحد قط . لكن الابن الوحيد هو الذي أظهره لنا» (١٨/١) .

«الابن الوحيد أظهره لنا»

الذي كان من البدء ، الذي سمعناه ورأيناه بعيوننا ، الذي تأملناه ولمسته أيدينا من كلمة الحياة ، والحياة تجلّت فرأيناها والآن نشهد لها ونبشركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وتجلت لنا ، الذي رأيناه وسمعناه نبشركم به (١ يو ١/١ — ٣).

* هذا صحيح : إننا لم نر الله قط . لكننا ، نحن المسيحيين ، إن كنا نؤمن ، فذلك يعني ان الله تكلم . لقد تكلم الله في التاريخ...

لقد نادى الإنسان ليقول له أنه موجود ، ليوحي له باسمه ، ليكشف له حبه ومشاريعه .

وهذا أهم حدث في التاريخ . هو الحدث الحاضر أبداً والذي يحرقنا والذي يفوق كل حدث آخر .

كان بإمكان الله أن يدع الإنسان يشتبه بآثاره في عجائب المخلوقات . لا ! لقد رفض أن يمكث في برج عاجي ، ففاجأنا بولوجه عالم الإنسان ، وذلك عن محبة . فكلم أولاً إبراهيم وابناءه ، ثم موسى في العليقة الملتهبة : «أنا هو الكائن» (خر ١٤/٣) . ثم كلم جميع شعب إسرائيل لما سار معه ، إن صح التعبير ، من جيل إلى جيل . ثم بواسطة بشرية يسوع الناصري المنظورة المحسوسة : صار الله إنساناً كما تنبأت عنه الكتب ، تجسد في التاريخ منذ ألفي سنة ، في فلسطين ، ومات على عهد بيلاطس البنطي ، وقام وتمجد ، وهو دائماً حاضر في الكنيسة ، دائماً فاعل في الكون... سوف نعود إلى هذا الموضوع مطولاً .

هذا هو نبع المسيحية .

* لكن المسيحيين ليسوا وحدهم من يؤمنون بالله . شئنا أم أبينا ، إن هذا الكائن ، الله ، يهيمن على تاريخ البشرية دون استثناء . طيلة أجيال والعالم المعروف بأسره يؤكد على وجود الله تحت شكل من الأشكال . واليوم ، سواء أكنا معه أو ضده ، لا يزال يشعل جدلاً لا تبرد رحاه . لا شك أن كثيراً من الملحدين يعلنون أن الزمن قد تخطى هذا الموضوع فأصبح نافلاً . هذا لا يمنع أنه يبقى ، حتى في أيامنا ، أحد المواضيع الأكثر إلحاحاً في مجتمعنا .

قليلون هم الذين يرفضون دينا دون أن يلجأوا الى آخر ، فالتخلص من الله ليس بسهل . وبواعث الإيمان بالله كثيرة .

بواعث الإيمان بالله

ما هي إذاً الجذور التي لا تموت لهذا الاختبار الديني الذي يخلق عند غالبية الناس وبشكل أو بآخر الشعور بالله ؟ لماذا لم ننته بعد من الله ؟

* هناك أولاً اختبار **الإنسان لحالته الحقيرة** ، المحدودة والعابرة واختباره لضعفه ، هذا التوق إلى اللامحدود .. والذي سوف يتحطم في النهاية . جهلنا وعجزنا ، ضيقاتنا وطرقنا المسدودة وأهمها الموت .. كل هذا النقص في طبيعتنا يطلب نجدة من مخلص . منذ القدم والإنسان يشعر أنه لا يقدر أن يحقق ذاته الا بتخطي هذه الذات وان لا تخط للذات بدون التطلع إلى آخر ، إلى عظيم لا مثناه . صحيح ان إنسان القرن العشرين يفضل التعنّت على الصلاة .. لكن هذا يبقى شكلاً من أشكال الدفاع ضد شخص : فالمرء لا يتعنّت ضد اللاشيء .

* وعلى العكس ، فالذين **اختبروا الحياة** بملئها وغناها وجمالها وعظمتها — الشباب ، الصحة ، الذكاء ، النجاح ، الحب ، الأولاد — قد شعروا دائماً وعفوياً بأنهم مدينون بهذا لشخص آخر ، وان الينبوع آت من مكان ما ، من أبعد من ذواتهم ومن الآخرين .. فراحوا يفتشون ولا يزالون عن شخص يرفعون إليه صراخ الفرح وهتاف الشكر ..

* وهناك **الوحشة البشرية** . رفيقة الإنسان هذه ، هذه الوحدة التي لا يملؤها أشد الأجواء حرارة والتي ينميها اشتداد غوغاء مدننا ... فالوحدة كانت دوماً أحد مراكز اللقاء بالله الأساسية . فبقدر ما يشعر الإنسان بوحدته ، يختبر وجوده كصرخة نحو الآخر ، نحو « الانت »

فطبيعته لم تخلق « للانا » المنعزل . لا شك أنه بالإمكان تخفيف وطأة هذا الشر : لقاء « الأنت » البشري قد يحمل دواء أوكمالاً إلى حين . لكن لا يطول هذا الزمن حتى يشعر الإنسان ان كل « أنت » أرضي يبدو وعداً يستحيل تحقيقه . وهكذا يعود للتفتيش عن هذا « الأنت » المطلق ، العظيم الذي يقدر أن يملأ فراغ « الأنا » إلى الأبد .

* ثم يقف الإنسان **أمام العالم** ، أمام هذا النظام العجيب من الأجسام والحياة والنجوم... أمام هذه القوات الرهيبة التي يجب أن يجابهها ، فمن جهة جمال الكون وملؤه ، ومن جهة أخرى توحي الناحية المأساوية والبشرية منه بقوة متسامية تحمل الإنسان وتهدده في آن ... هنا أيضاً ، كثيراً ما ينتصب إنسان القرن العشرين رافضاً ، ويروح شارعاً تقنيته قائلاً : « سوف نرى » لكننا لا ننسى صلاة رواد الفضاء حول القمر...

يورد الفرد كسْلر ، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩٦٦ ، في مقابلة مع كريستيان شابانيس ، هذا المثل : « إني أفترض أن الإنسان ، في إحدى رحلاته القمرية المقبلة ، توصل إلى اكتشاف الوجه المجهول للقمر ، أي الوجه المعاكس لنا والذي بإمكان الرواد الوصول إليه... وافترض أنهم فوجئوا بوجود معمل أوتوماتيكي منتج للألومنيوم : يوجد اليوم على الأرض معامل تعمل أوتوماتيكياً بكاملها . فسوف يرون رفوشنا تنبش الأرض وتجمع الألومين وقضبان الومنيوم خارجة من المعمل ، سوف يجدون أدوات فيزيائية وطرقاً للالكتروليز . وبتعبير آخر ، بعد أن يتفحصوا هذا المعمل ، سوف يتحققون من أن كل ما يحصل هو مظاهر فيزيائية عادية يمكن شرحها بسهولة بقوانين البيئة . فهل يستنتجون أن الصدفة خلقت هذا المعمل أو أن كائنات عاقلة حطت يوماً على القمر قبلهم وبنت هذه المعامل ؟

فهاتان إمكانيتان للشرح . لكنني أطرح السؤال : هل من المنطق في شيء أن نفكر بأن الصدفة جمعت الجزئيات بحيث كونت معملاً أتوماتيكياً كهذا ؟ لا عقل يقبل بهذا الشرح . والحال اننا نجد في الكائن الحي نظاماً أشد تعقيداً بكثير من معمل أتوماتيكي . فلو سلمنا بأن الصدفة خلقت هذا ، فالأمر يبدو مناقضاً للعقل . فإن كان هناك برنامج ، فأنا لا أتصور برنامجاً بدون عقل مبرمج ... »

* وأخيراً **هناك حياة أشخاص لا تشرح إلا باللقاء مع الله** : خوري أرس ، تيريزيا الصغيرة ، شارل دي فوكو ، دون بوسكو ، نحن لا نتكلم إلا عن النجوم الحديثة ... وغيرهم قريبون منا نلتقيهم كل يوم ... أشخاص لا تفهم حياتهم بدون الله ... والحال أن حياتهم أجمل حياة !..

لكن الله سرّ

لكن الله سر... « الله روح محض ، كلي الكمال ، أبدي ، كلي القدرة ، خالق ورب الكل » كما يقول كتاب التعليم المسيحي القديم . لم تكن هذه التعابير الكبيرة تعني لنا شيئاً . لم تكن تعني سوى أن الله سر .

إذا كان شخص بشري بسيط — خطيبك ، امرأتك ، ابنك — هو بحر من الأسرار ، فكيف لا يكون الله سر الأسرار ؟ علينا أن نحترم الله بحيث لا ندعي فهمه كما نفهم صفحة جريدة ... كل مرة حاولنا ادانة الله : « لماذا صنع الله كذا ؟.. لماذا سمح بكذا ؟.. » نرتكب خطيئة عبادة الأوثان اذ ننزل الله إلى مستوانا . فهو لم يعد الاله الحقيقي ، الاله الشخصي ، الإله السري ككل شخص ، لم يعد ذاك الشخص السري أكثر من كل شخص آخر . لقد أصبح الهاً منحولاً ، من صنعنا . لا شك أن الكلمات الكبيرة ليست أشد احتراماً له : « الله روح محض... » انها كلها تحجّم الله ، « تضعه في علبة » رغم حسن النيات . إنه تضعه في متناول عقلنا الصغير . وهو قد نبهنا

إلى ذلك : «ليست أفكاري أفكاركم» «اله الفلاسفة والعلماء» هو ثمرة عقلنا الهزيلة . هل تريد الزواج بإنسان آلي ، بالرجل أو المرأة كما يتصورهما أرسطو؟ أيها الرب الهنا ، إنك تفاجئنا كثيراً ، اذ أنت حياة وحب لا متناهيان !...

لكن أي اله؟

أتريد التعرف إلى الإنسان؟ إذهب إليه ودعه يتكلم . اصغ إليه جيداً .. وهكذا تعرف عنه أكثر مما تقرأ في الصحف والمجلات والمعلومات العامة والأبحاث الفلسفية والبسيكولوجية . هكذا فالله وحده يقدر أن يتكلم عن الله كما يجب . أتريد أن تعرف الله ؟ اقرأ الكتاب المقدس والإنجيل أكثر من مرة .

ولكن قبل كل شيء يجب التنبه إلى طرق التعبير عن الله ، هذه الطرق التي لا تزال نجدها في الكتب وفي تفكير البعض مثل ضباب الخريف الذي يسحب ذيوله على الأرض بصعوبة ، طرق وتعابير قد تؤدي إلى الالحاد وتفسد إيمان الكثيرين من المؤمنين .

مرايا مشوّهة

إذهب إلى متحف كريڤان . أول شخص مضحك تراه هو أنت . أنت أمام المرايا المشوهة ... أنت إنما أطول مما أنت أو أعرض ، أو ملتوٍ . يصعب عليك التعرف الى صورتك ! ومع ذلك فهذا أنت .

اقرأ النصوص الآتية عن الله ... إنه الله اذ لهذه النصوص صفة سامية... لكنه ليس الله اذ أن الله يتكلم عن ذاته بغير هذه التعابير :

« اننا نؤمن ونؤكد بكل بساطة ان هناك إلهاً واحداً حقيقياً ، أبدياً ، غير محدود ولا متغير ، غير مدرك ، كلي القدرة ، لا يوصف ، كلي البساطة... لا ابتداء له ، دائم ، لا نهاية له ، المبدأ

فاكتشافات العلوم والأبحاث الأخيرة بما فيها التاريخية والفلسفية تثير مشاكل جديدة تحمل طيها نتائج للحياة نفسها وتتطلب من اللاهوتيين أنفسهم أبحاثاً جديدة . فهم مدعوون إذاً ، مع احترامهم للأساليب والقواعد الخاصة بالعلوم اللاهوتية ، أن يبحثوا دون توقف عن الطريقة الفضلى لايصال التعليم إلى معاصريهم البشر. فالوديعة

الوحيد لكل شيء.. » .

نفسهـا وحقـائق الإيمان شيء ، وطريق التعبير عنها شيء آخر ، شرط أن يحافظ على معناها وفحواها . (الفاتيكاني الثاني) .

هكذا تبدأ شهادة ايمان أربع مئة أسقف في المجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥ .

هذه هي لغة كتب التعليم المسيحي المنتشرة قبل الحرب :

« ما هو الله » ؟

الله روح محض ، كلي الكمال ، كلي القدرة ، أزلي ، خالق ورب الكل » . هل كانت هذه التعابير المجردة والفخمة يوماً موضوع اهتمام أحد ؟.. قد تهم الأساتذة ؟ على كل حال إنها لا تهم الجماهير الشعبية وبخاصة الأولاد ... وهي اليوم لا تهم أحداً .

تعابير خاطئة إذاً ؟

كلا . تماماً كما لم تكن صورتك في متحف كريڤان خاطئة ، لكنها صورة غير موفقة ومشوهة . فالله لا يتكلم هكذا عن ذاته... وعلى كل حال لم يعد لهذا الكلام تأثير . كلام وصيغ وقوالب تفكير لم تعد تناسب ذهنية إنسان اليوم . وحتى في الماضي لم تكن طرق التعبير هذه تهم سوى الطبقات العليا ، طبقات « ذوي الشأن » الذين كانوا يعملون ويشرحون نصوصاً رسمية . بينما كان شعب الله يسمع كلام الكتاب ويتأمل في زجاج الكنائس الملون . وقد طلب الينا المجمع الفاتيكاني الثاني أن نغير تعبيرنا .

تحوّل العالم والفكر واللغة

ذاك انه منذ مئة سنة والبشرية تمر بأكبر تحول في تاريخها تماماً كما تتحول الدودة الى فراشة الى الشرغوق إلى ضفدع . تغيير لم نشهد مثله بعد . ليس هذا أول تغيير ، بل أكبر تغيير . فلم يزل كل شيء على حاله في الظاهر . البشرية هي هي والله هو هو . لكن كل شيء قد تغير أفقياً وفي العمق . البشرية ذاتها هي في تطور مذهل . الله هو ذاته لكنه يريد أن « يقال » لهذه البشرية ، من أجل هذه البشرية .

يريد صقل التعابير القديمة لأنها لم تعد تعني شيئاً لشعبه . لأنها تختلف كثيراً عن الوحي الكتابي . لأنها تحجب الله وتشوهه بقدر ما تدعي التعريف عنه . هذا يعني أن الكنيسة ، لابلاغ عقيدتها ، يجب ألا تستعمل سوى تعابير وثقافة الزمان والمكان حيث تعلّم . هذه أفضل طريقة ان شئنا أن يفهمنا الآخرون .

لو قيل لنا أن الماء يتجلد إذا بلغ ٣٧ درجة ، فإننا نحتج على ذلك . مع أن هذا صحيح في بعض البلدان ، صحيح لو حسبنا وفقاً لدرجات فارانايت . بينما نحن نتكلم وفقاً لدرجات سلسيوس ، بالسنتيغراد حيث يذوب الماء عند درجة الصفر ويغلي عند درجة المئة . تغيرت اللغة لكن الماء هو هو ودرجة البرد والحرارة هي هي أيضاً . وهكذا عندما نتكلم عن المسافات والأوزان والأوقات ، فإننا نعبر وفقاً لطريقة السنتيمتر والغرام والثانية . وعلى هذا الأساس نتفاهم لكن الانكليز يستعملون غير هذه المقاييس... وإذا ما عدنا إلى الأقدمين نرى أنهم كانوا يتفاهمون في هذا الميدان بلغة تختلف تماماً عن لغتنا وغالباً ما كانت أقل وضوحاً وكمالاً .

فلنعد إلى الحقائق الموحاة . كثير من المفكرين اهتدوا إلى المسيحية منذ العصور الأولى . وكانوا قد تثقفوا في المدارس الفلسفية الاغريقية خاصة في مدرسة أفلاطون (٤٢٨ — ٣٤٧ ق.م.) . فكان من الطبيعي أن يستعملوا المفهوم **الأفلاطوني** للإنسان والعالم والله لكي يعبروا بطريقة فضلى عما يعلم **الإيمان** حول الإنسان والعالم والله ، بما في ذلك من خوف على تحجيم نور الوحي الساطع ، بواسطة حكمة بشرية محضة وانطلاقاً من طريقة فلسفية معينة . هذه أولى المشاكل .

لكن فلسفة أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م .) ، وهي المنافسة لفلسفة أستاذه أفلاطون ، اجتاحت الغرب في القرن الثالث عشر فهي تعبر عن مفهومها للإنسان والعالم والله بطريقة مختلفة عن سابقتها . فخوفاً على الإيمان المسيحي الذي كان قد تجلبب بمقولات

أفلاطون ، حرّمت الكنيسة قراءة أرسطو . لكن رغم هذا التحريم ، ظهر نوابغ أمثال القديسين ألبر الكبير وتوما الاكويني ، فغيروا اللغة باعتمادهم فكر أرسطو وقد ألبسوه العقيدة المسيحية وراحت الكنيسة ذاتها تعتبر هرطقة المساس بسلطة أرسطو . مشكلة ثانية وهكذا بحركتي تأرجح تتبنّى الكنيسة لاهوتاً أفلاطونياً ثم لاهوتاً أرسطاطاليسياً ، واللاهوتان اغريقيان . لا شك أن جوهر الوحي بقي محفوظاً في الحالتين — والا لما بقي هناك مسيحيون — لكن النظرة المسيحية إلى الإنسان والعالم والله حملت ولا تزال تحمل عناصر اغريقية ، غير مسيحية ، عناصر أفلاطونية في الزمن الأول (من القرن الثاني حتى الثاني عشر) وعناصر أرسطاطاليسية (من القرن الثالث عشر حتى العشرين) .

نظرتنا إلى الله — التي نظن أنها مسيحية — هي في الواقع غالباً ما تكون النظرة الفلسفية الوثنية وقد ألصقناها بكلام الكتاب المقدس وبنوع خاص بالانجيل . فإله الاغريق مثلاً ليس شخصاً ولا يعرف العالم ، لأنه «متسام» عن العالم ، خارج العالم ، يعيش في «عالم آخر» ... هو مجبر على أن يكون في «عالم آخر» وأن يكون «فوق» ، حتى يظل كلي الكمال ، غير محدود ولا متغير ، أبدي الخ ... ، كيلا يلطخ قدميه . فليس بإمكانه إذاً ، على غرار اله الكتاب المقدس ، ان يتدخل في تاريخ البشر ويقطع عهداً مع شعب . ليس بإمكانه أن «يتجسد» . هذه العبارة مدعاة عثار للفكر الاغريقي !

وبالإجمال إن الفكر المسيحي ما انفك يمشي على حبل مشدود ؛ يريد من جهة الحفاظ على «صفات الله الفلسفية» — روح محض ، لا يتغير ، أبدي الخ ... — ومن جهة ثانية يريد أن يبقى أميناً للوحي «المجنون» الذي يتكلم عن إله قريب منا ، ملتزم في تاريخنا ، متجسد ، متضامن مع البشر حتى الموت في سبيلهم ... انه لمن الصعب أن تبقى النضفة فراشة ونضفة في آن : يجب

الاختيار بين الشرنقة والأجنحة . هذا التوتر الذي لا يطاق ولّد الأزمة الدينية في العصور الحديثة .

لقد مات الله

العقيدة المسيحية الأكيدة واللامتبدلة والتي يجب أن تُحترم بأمانة ، يجب أن تعمّق وأن تقدّم للناس بأسلوب يتلاءم ومتطلبات عصرنا . إذ وديعة الإيمان أي الحقائق التي تحويها عقيدتنا المحترمة شيء والصيغة التي تعبر عن هذه الحقائق شيء آخر ؛ وذلك بالحفاظ على المعنى ذاته والوزن ذاته . فيجب تعليق أهمية كبرى على هذه الصيغة والعمل بصبر ، إذا اقتضى الأمر على إعدادها . (يوحنا الثالث والعشرون) .

تفجرت النهضة في القرن السادس عشر ؛ هذا التجديد الفني والأدبي وأيضاً العلمي والسياسي . وقد أذكاه اختراع المطبعة . فإذا بأطر التفكير الارسطاطاليسي القديم قد تراجعت أمام تطور العلم وأهملت بسبب غليان الفكر الفلسفي والسياسي . فما عسى الكنيسة صانعة وقد أهملت لغتها هكذا ؟..

لقد أحكمت مزج ايمانها الأبدي بفكر عابر وقابل التعديل ، إلى حد صعب عليها فيه التمييز بين الاثنين : فتمسكت بفلسفة أرسطو ورفضت التطور العلمي والفلسفي والسياسي . فمنذ القرن السادس عشر لاقى العلماء والفلاسفة صعوبات مع الكنيسة . وأخذوا يعتبرونها عدوة للعلم والعقل . وهكذا عم العداء للمسيحية في القرن الثامن عشر بينما لم تكن بحاجة إلى كل هذا .

عندئذ اندلعت الثورة الكبرى التي لم تكن معادية للدين المسيحي . لكنها أجبرت على معاداته نظراً لما كان يربط الكنيسة الرسمية بالنظام القديم . ثم في القرن التاسع عشر وقفت الكنيسة حاجزاً في وجه الجمهورية وحالفت القوة الصناعية القاسية التي كانت تسحق عالم العمال كما دافعت عن الملكية الخاصة التي يتمتع بها ربع البشرية (الأمر الذي كان يحرم من الملكية الثلاثة أرباع الباقين) . كما أنها ناهضت التقدم العلمي (حاربت نظرية تطور الأجناس) وتطبيق الطريقة التاريخية على النصوص الكتابية .

فكيف نعجب بعد هذا إذا ما حدد التيار التقدمي نفسه — العلمي والفلسفي والسياسي — كمناهض للمسيحية ومن ثم لله ، لأن المسيحية كانت تدعي الكلام باسم الله ؟ كيف نعجب إذا ما اختصر

نيتشه (١٨٤٤ — ١٩٠٠) الفكر الحديث والنضال في سبيل التقدم البشري بصرخته الشهيرة: «لقد مات الله! لقد قتلناه!»... أي الاله الذي «تتكلم عنه الديانة المسيحية»؟

مع العلم أنه ظهر في الكنيسة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما ظهر توما الاكويني في القرن الثالث عشر، رجال شجعان وعباقرة نشطوا لاعادة الحياة إلى الفكر المسيحي على صعيد الفلسفة واللاهوت والسياسة والعلم والدروس الكتابية. لكن ويا للأسف! «كل مرة قام رجل يعمل لتقدم الفكر المسيحي في علاقاته مع علوم الطبيعة والتاريخ والفلسفة والنقد، في الفلسفة أو اللاهوت، كانوا يهاجمونه ويوشون به ويثلبونه ويهددونه ويضطهدونه، وقد يطول هذا مدى الحياة. والمضطهدون شلة من الناس يعتبرون ذواتهم حماة الارثوذكسية والمحافظين عليها كما يفهمونها هم» (كلود تريمونتان: مشاكل الالحاد — يجب قراءة هذا الكتاب بكامله وبالأخص الجزء الثاني: بواعث وأسباب الالحاد). وهذه لائحة أسماء لمن قد يرغبون في الإيضاح: مونسنيور ديتان، الأب لابروتونيار، موريس بلوندل، الأب لاغرانج، برغسون، الأب يوجيه، الأب تيار دي شاردان...

لقد كان هؤلاء يتمتعون بنعمة الروح ليزيلوا الرمال عن وجه الكنيسة وعن الهها. بالإمكان الجدل حول نقطة معينة من آراءهم وقد قامت بينهم أحياناً مشادات. لكن هذا لا يمنع من أنهم اختلفوا فيما بينهم لاعادة الحياة إلى الفكر المسيحي نظراً إلى ما نعرفه عن العالم والطبيعة والخليقة وتاريخها والإنسان وأعماقه والمجتمع الاقتصادي والسياسي وكلمة الله في الكتاب المقدس وتحرك البشرية نحو المستقبل والحرية وامكانية الخلق عند الإنسان... ومحبة الاله الذي هو محبة...

هذا ما حمل المجمع الفاتيكاني الثاني على هذا التصريح: «قد

يكون للمؤمنين في نشأة الالحاد قسط غير يسير بقدر ما يحجبون وجه الله الصحيح سواء بإهمال العناية بإيمانهم وبعدم تغذيته أو باظهار وعرض العقيدة عرضاً غاشاً (أفراح وآمال) . ثم يضيف : «ويتمثل بعضهم الله بشكل يحملهم ، إذا ما رفضوه ، يرفضون إلهاً لم يتكلم عنه الإنجيل مطلقاً » . هذه حجتهم ، وهذا ، موضوع انها منا ، نحن المسيحيين .

هذا الاله المائت ، هذا الاله الذي لم يعد من الممكن الإيمان به ، هل هو الهنا ، اله الكتاب واله يسوع المسيح !... فإن كان الاله المائت ، كما يقول نيتشه ، هو إله أفلاطون وأرسطو ، فالهنا ليس معنياً بهذا القول . ولا شك في أنه من اليسير الإيمان باله المسيحيين إذا ما ميزناه عن إله الفلاسفة . قال أحد الملحدين مؤخراً : «لا يمكنني الاهتمام بإله لم يمت لأجلنا » .

الله حي

علينا إذاً أن نؤمن باله الوحي ، بإله ابراهيم واسحق ويعقوب ، بإله يسوع المسيح . والمعلوم أن إله الوحي هو إله حي . ليس كوكباً ثابتاً ولا فكرة جامدة في سماء الفلسفة . بل هو إله يتحرك — والحياة في الحركة — هو إله الأمس واليوم الذي يسير نحو الغد . اله تاريخي يسير في تاريخنا معنا ، وسط بين البشر ، على أرضنا البشرية . إذا ما قبلنا بالتجربة القائلة بوجوب عزل الله في عالم آخر نسميه سماء ، إذا كنا عندما ندعوه «متسامياً» نضعه خارج العالم وبعيداً عن التاريخ ، فسوف يكون إيماننا مرفوضاً كإحدى الايديولوجيات : كحكم فريق من الناس يرفضون تلويث أيديهم . فإنسان اليوم لا ينتظر أن يحدَد أو أن يحدِد الله بعبارات مجردة — «الإنسان مركب من نفس وجسد» — «الله روح محض» — يريد الإنسان أن نقول له إلى أين يسير التاريخ وما هو معناه إذا كان هناك من معنى . إنسان القرن العشرين لا يوجه قلبه وأذنيه الا صوب الكنيسة ، وصوب الله ملتزم في عالم

أظهرت اسمك للناس الذين وهبتهم لي وقد حفظوا كلمتك وعرفوا الآن ان جميع ما وهبته لي هو من عندك وان الكلام الذي بلّغتنيه بلّغتهم إياه فقبلوا وعرفوا حقاً أني من لدنك

عابر حيث يحدث شيء ما . وفي الواقع لقد ظهر الهنا كاله تاريخي ملتزم في تاريخ البشر...

خرجت وآمنوا بأنك أنت أرسلتني (يو ١٧/٦ — ٨) .

فلنتنبه ! لا كروح كلي القدرة يأتي ليطارد التاريخ أو ليزيّفه بضربات نزوية من ابهامه الخفية . بل هو الكائن الحي الأسمى ؛ هو هنا حيث تعيش الكائنات ، هو معهم ، في وسطهم ، وهو يعمل على جمعهم **أحراراً** في إنسانية متآخية ، وعلى توجيههم **أحراراً** في سيرهم نحو السعادة . فهو ليس في موضع آخر . هذا الموضع الآخر لا وجود له . هذا « الفوق » لا وجود له . لا يوجد سوى « الهنا معنا » عمنوئيل ...

لأن تدخل الله الأهم والوحيد ، في التاريخ ، اذا ما حاولنا أن نتفاهم ، هو يسوع المسيح . لذا فالمسيح هو في النهاية الشخص الوحيد الذي يقدر أن يعرّفنا بالله على حقيقته . هذا الاله الذي يكشفه لنا يسوع ، هذا الإله غير المنتظر والمقلق ، هو الذي نؤمن به وبه يجب أن نبشر أبناءنا والعالم .

فلا يجب إذاً أن نخاف من أن نغيّر تعبيرنا .

بإله واحد

« نؤمن بالله » . لا يعني هذا البند الأول من قانون الرسل « **أؤمن** بوجود اله أو آلهة » فحسب ، بل « أؤمن بأن الله موجود » أي « **أؤمن بإله واحد** » هذه هي كلمات مجمع نيقيا .

هذا « لنؤمن باله » هو نقل مسيحي ، عمره الفا سنة ، لشهادة ايمان الشعب اليهودي العائدة إلى ثلاثة آلاف سنة : « اسمع يا اسرائيل ، إن الرب الهك واحد » (تثنية ٤/٦) . كان الشعب الإسرائيلي في بلاد الكنعانيين غارقاً في « تلوث » الأمم الوثنية

أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من دار العبودية ، ولم يكن لك آلهة أخرى تجاهي . لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لها ولا تعبدها (تثنية ٦/٥ — ٩) .

المجاورة ، وكان عليه كل يوم أن يدافع عن ذاته ضد إيمانهم بآلهة متعددة . إذ كان لكل شعب إلهه أو آلهته . فكان على الإسرائيليين أن يحاربوا دائماً حرب أجسام هاجمتها الجراثيم ، والسلاح المضاد كان هذا القانون الأساسي في إسرائيل : « الرب إلهك هو إله واحد » .

الجوع والحب والقدرة

« أؤمن بإله واحد » ، شهادة الإيمان هذه هي اللوحة الخلفية لإيماننا ، لكن فلنتنبه ! يجب أن تعني لنا ، كما للإسرائيليين ، الرفض العملي لآلهة الشعوب المجاورة ، لا يكفي أن تكون **نظرية** وان أكيدة ننقلها من فم إلى أذن كل يوم أحد . يجب أن تصبح اختياراً حياتياً ، **اختياراً** معيوشاً يومياً ، اختياراً وجودياً ، كما يقولون اليوم ، اختياراً داخل الأحداث ، داخل الأعمال ، داخل الوجود . إيماننا ايمان يعاش لا إيمان يقال ...

« أؤمن باله » يعني إذا رفض الآلهة في حياتنا ، رفض اضفاء صفة المطلق عليها وتأليه القوى الكبرى الفردية أو الجماعية ، الحيوية أو السياسية ، رفض تأدية أية عبادة لها . ما هي تلك القوى الكبرى التي يسجد لها العديد من الناس ؟ فربما أكون ساجداً لها أنا أيضاً ؟

القوى الثلاث التي تحرك الإنسان هي الجوع والحب والقوة . لذا فالديانات الثلاث للشعوب المجاورة هي الخبز والجنس والسلطة . هذا طبعاً مع عبادة المال كقاسم مشترك لأن المال يشتري الخبز والجنس والسلطة .

« ملحدون » ليكونوا أحراراً

شهادة اسرائيل : — « الرب الهكم هو اله وحده » — عندما ترددها شفاه المسيحيين **ويعيشونها** ، هي إعلان حرب على هذه الوثنية المثلثة .

— رفض عبادة السلطة القائمة ... في الامبراطورية الرومانية المنحطة ، كانت تجب عبادة الامبراطور مع آلهة أخرى .

لذا كان المسيحيون الأولون يضطهدون كملحدين . فقد كتب القديس يوستينوس يقول (استشهد حوالي ١٦٥) : « هذا صحيح . بما أننا لا نؤمن بأصنام الوثنيين ، فنحن ملحدون بالنسبة إلى هذه الآلهة الكاذبة » .

— رفض عبادة الاستهلاك والنمو الاقتصادي المطرد الذي لا يتوقف ، والرفاهية والمال .

— رفض عبادة اللذة ...

إنه لمن الأهمية بمكان ، إذا ما أردنا الاستمرار في تلاوة قانون إيماننا ، أن نأخذ من جديد طرق الحرية هذه التي تؤدي إلى الاله الحقيقي الواحد . كان المسيحيون الأولون يرفضون ، ولو كلفهم الرفض حياتهم ، كل مساومة في موضوع عبادة الامبراطور. ولم يكن ذلك من قبيل التعصب أو التحدي غير المجدي والمشهور الذي قد ينسب إلى شباب الكنيسة المتدفقة حياة آنذاك . بل ذاك مثال يحتذى .. ويعود الفضل لهذا المثال في صيرورة الغرب مسيحياً في مدة أربعة قرون ...

أما اليوم ، وكأننا تعمدنا بماء الورد ، فنحن نتكلم عن « ولاء مدني ضروري » وعن « مساومة ممكنة » . كأن نقول : ليست البطولة للإنسان العادي ... دون أن نقع في التعصب المحدود ، فلنقر بأن انصاف الحلول تسمح لنا بأن نتبع بعض آلهة كذبة في مدار فلكي محظر على كل من ليس الاله الواحد .. « أؤمن بالله » أي « اله » ؟ « أؤمن » بالخبز أي اني آكله وأحيا به . فنتساءل : « **بأي اله نحيا؟** » ليس الإيمان بالله ملحة أو نكتة ، بل التزام بحرب في سبيل الحرية الشخصية والجماعية . «أنا إلهك ، أنا الكائن الذي اخرجك من

أرض مصر، من بيت العبودية : لا يكن لك إله غيري» (خر ٢٠/١...) .

السلطة والجنس والخبز : هذه الثلاث وأعظمهن المال

أيحق لنا أن نمنح هكذا كلام القديس بولس (اكور ١٣/١٣) بالنسبة إلى لعبة الآلهة الكذبة الذين يفشّلون قانون ايماننا المسيحي منذ البدن الأول منه ؟... لأنهم يفشلونه في حياة الكثيرين من المعمدين ؟..

* ومع ذلك فعبارة «أؤمن بالله» تعارض تماماً **السلطة** المطلقة ، أية سلطة حتى السلطة الدينية . هي رفض قاطع لعبادة القوة ، كائناً من كان القوي : «حط المقتدرين عن الكراسي !» وهكذا هدم نظام التوتاليتارية نهائياً في السياسة والدين .

كشف عن شدة ساعده فشتت المتكبرين في قلوبهم . خلع الأقوياء عن العروش ورفع الوضعاء . أشبع الجياع من الخيرات والأغنياء صرفهم فارغين (لو ١/٥١ — ٥٣) .

الاعتراف بالاله الواحد ، لأنه براء من كل نية سياسية ، يؤلف برنامجا سياسياً لا حد لأهميته . فهو من جهة يعطي كل شخص بشري طابعاً مطلقاً بسبب علاقته بالله . ومن جهة أخرى يطبع بطابع نسبي كل الجماعات السياسية والدينية وغيرها اذ تجد كل ادعاءاتها جذورها في هذا الاله الواحد... والاّ فلا جذور لها مطلقاً .

لو لم يقدم بعض المسيحيين للسلطة الهتلرية عبادة عمياء ، لكانت بقيت النازية مستحيلة وكذلك حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ . كان يكفي أن يقول شعب بكامله : «أؤمن بالله» بالروح والحق... ترداد قانون الإيمان بطريقة فاترة لأمر مليء بالنتائج ..

الشيء الوحيد المطلق بالنسبة إلى الإله الكاذب أي السلطة هو أن السلطة المطلقة تفسد كل شيء ...

* لكن ما يفسد الإنسان ليس السلطة وحدها ، هناك **أيضاً الجنس** ، هذا الاله الكاذب هو أيضاً .

في الواقع أن في كل حب شيئاً مطلقاً . عندما يحب يعقوب

خطيبته ، فهو ينتظر أن يعطي هذا الحب كل معنى لحياته . والحال أن هناك حباً واحداً متيناً ومطلقاً وهو حب الله لنا . لكي نفهم أن الحب بين الرجل والمرأة هو وحيد ونهائي وغير قابل التجزؤ ، علينا أن نرجع إلى الله . وما عدا ذلك ، فما يدعونه التحرر في الحب ، لصالح النزوات الغريزية الجامحة ، يخضع الإنسان لاستعباد الاله — الجنس . وهنا أيضاً يجب الاختيار : إما عبودية الحب اما الإيمان بالإله الواحد .

ونزيد أن الخوف والوسواس بالنسبة إلى خطيئة الجسد هو أيضاً نوع من اعتبار الجنس مطلقاً ، أي شكل من أشكال التعبد له .

* وبقدر ما يبتعد الإنسان عن إله قانون إيمانه ، بمقدار ما ينسى في بحر الأسبوع القانون الذي «لبسه» يوم الأحد ، بهذا المقدار هو يعبد ليس فقط الخبز بل الزبدة والمربيات ، أي يعبد الاستهلاك والرفاهية والغنى والرغبة والحسد وهذا وذاك...

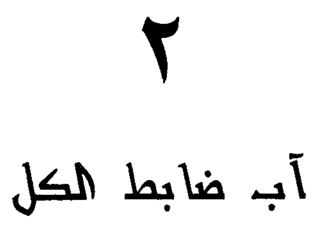
وهنا أيضاً ، ما هو اختيارنا الوجودي ؟ ضيّق هو الباب المؤدي إلى الإله الواحد . هو لا يتسع للذين يحملون الكثير من المتاع . يجب إذاً الاختيار بين الله والمتاع . خارج هذا الاختيار يبقى قانون الرسل قطعة صغيرة من الأدب القديم ، ليس إلاّ .

* لكن الاله الكاذب هو خاصة **المال** . هو عجل الذهب لدى الإسرائيليين . المال هو حقاً كلي القدرة اذ به نحصل على ما نريد . نحصل على كل شيء ما عدا «الاله الواحد» . فهو لا يشترى بمال ..

«أؤمن بالله» أو «أؤمن بالمال» . هذا أو ذاك . لنقف قرب الميزان ولنزن بدقة : «أية كفة هي الراجحة في الواقع ؟ لا يمكن أن نخدم الله والمال ، إذ هما ربّان . فإن أحببنا الواحد ، أبغضنا الآخر» (متى ٦/٢٤) .

ما من خادم يستطيع أن يعمل لسيدين لأنه إما أن يبغض أحدهما ويحب الآخر وإما أن يلزم أحدهما ويزدري الآخر . فأنتم لا تستطيعون أن تعملوا لله وللمال . (لو ١٦/١٣) .

«أؤمن باله واحد»؟ .. يجب ألاّ أقول هذا الكلام بتسرّع ...



٢

آب ضابط الكل

« الله ... الآب »

فلنفرض استفتاء محدوداً في شارع الشانزليزيه مع عدد من المارة : « من هو الله بالنسبة إليك » ؟ ولنتصور الأجوبة أو بالأحرى السكوت والعقول الفارغة والأفواه الفاغرة .

بينما كان القديس بولس يمر في شوارع أثينا ، استرعى انتباهه هيكل كتب على عتبته : « للاله المجهول » . ففكر بولس : أخيراً ! ها هو اله وثني يكشف عن اسمه !

فوقف بولس في وسط الاريوباغس وقال : يا أهل اثينه ، أراكم مغالين في التديّن من كل وجه . فإني وأنا سائر أنظر إلى أنصابكم وجدت هيكلاً كتب عليه : إلى الإله المجهول ، فما تعبدونه وأنتم تجهلونه ، فذاك ما أبشركم به . (أعمال ١٧/٢٢ — ٢٣) .

وهكذا عندما **ترك الإنسان وحده** ، أي بدون الوحي الكتابي ، لم يَستطِع اكتشاف أمور تقريبية وغير ذات قيمة عن الاله الحي والحقيقي : الروح ، الطبيعة ، القدر ، الكائن الأسمى .. أقول « وحده » « الإنسان وحده » « بدون وحي » ... لكنني أسارع فأقول ان « الإنسان الطبيعي » الذي يتركه الله لوحده غير موجود . **فالله يحب كل إنسان ولا يهمل أحداً** . فالمسيحي إذاً « النور الحقيقي ينير كل إنسان » بوحي أولي . يجب ألاّ ننسى أبداً هذه الحقيقة ؛ لكي نأخذها بعين الاعتبار فينا وفي الآخرين ...

« ينير المسيح كل إنسان » . كل ما يتمتم به الفلاسفة والعلماء وقلبنا عن الله ، وبقدر ما هم منفتحون على هذا النور بطريقة ايجابية وباستعداد للقبول ، ما يتمتمون به عن الله هو نوع من التقرب منه لكنه غالباً ما يبقى بعيداً !... كما نقترب من الجبل الأبيض عندما ننزل في انفر أو في مرسيليا !

النور الحقيقي الآتي إلى العالم والمنير كل انسان (يو ١/٩) .

لكي ينتقل الإنسان من « الاله المجهول » الغامض إلى معرفة الاله

« الله الآب الضابط الكـل »

الحقيقي ، عليه أن يقبل الوحي الذي ينزله هذا الاله عن ذاته عبر التاريخ والمسيح في كنيسته . يجب الرجوع إلى قانون إيماننا البالغ من العمر ألفي سنة : « **نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل** » . « ضابط الكل » ، أمر خطر في بالنا قبلاً ... الخلق ، عاصفة « الله » ، خوفنا في طفولتنا (مع الأسف !) ، « العين وهي تنظر إلى قايين في القبر » ، جهنم... أمور تقربنا من الله ، أليس كذلك ؟ لكنها مبهمة إلى حد أنها تباعد بيننا وبين هذا الاله الذي كدنا نسميه : غواصة ذرية ، راجمة صواريخ ، المخيف ، الرهيب ، الصاعق ، الصارم .

بينما الحقيقة هي على عكس ذلك تماماً ! سوف نعود إلى هذا الموضوع .. «كلي القدرة» أجل ، لكن أية قدرة ؟.. وبالانتظار فعبارة «كلي القدرة» تناسب الله تماماً — الله كلي القدرة — كما لو كنا فهمنا شيئاً ، كما لو كنا وجدنا الحل وحدنا . ان الله هو ما نقول عنه... على كلٍ ، ليس هذا أمراً مشجعاً ...

لكن قانون الإيمان يفحمنا بكلمة تحيرنا تماماً : « آب » ، « الله الأب الضابط الكل » ...

هنا تنفجر أفكارنا . لقد انتهى أمر « الله الكلي القدرة » . نحن لا نؤمن « باله كلي القدرة » بل « بالله الأب » . نحن نعترف « بالآب الكلي القدرة » . فكلمة « أب » تسطع هنا كحقيقة غير منتظرة تغيّر كل شيء . « الله » لم يعد له ذات المفهوم . وكذلك «كلي القدرة» .

الأنوار التي كنا نملكها عن الله جعلت منّا عبّاد « الاله المجهول » . أما الآن فقد تبلورت واغتنت ، لا بل تغيرت تماماً هذه الأنوار لأن « الأب » هو كائن محب... فالله إذاً هو اله محبة لا شيء سوى ذلك .

لذلك فقد اقترب منا ، أصبح قريباً جداً ، أقرب ما يمكن أن يكون ، أصبح «قريب» تلك البشرية التي هي ابنته الحبيبة ، والتي

قبل أن تتوصل إلى فهم ما هو «الأب» كان قد قال اسمه... لكي نعرف أن شخصاً ما هو هنا. ولكي تستطيع أن تصرخ نحوه كما يصرخ الولد نحو أبيه أو أمه.

لقد أوحى اسمه

الله أبونا أوحى ذاته لنا بتدخلاته في تاريخنا..

منذ ما ينيف عن الأربعين قرناً، وبظهورات تدريجية، يتقرب الله منا: فقد ظهر لرجل ثم لعائلة فلشعب ثم لسائر الشعوب لكي يعيش جميع الناس هذه العلاقات البنوية معه، فهو أبوهم.

تاريخ طويل لم ينته بعد...

اله يتكلم

وهذه مواليد تارح. تارح ولد ابرام وناحور وهاران. هاران ولد لوطا. ومات هاران قبل أبيه تارح في أرض مولده في أور الكلدانيين. واتخذ ابرام وناحور لهما امرأتين اسم امرأة ابرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يَسْكة. وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد. وأخذ تارح ابرام ابنه ولوط بن هاران ابن ابنه وساراي كنّته امرأة ابرام ابنه فخرج بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فجاؤوا إلى حاران وأقاموا هناك. وكان عمر تارح مئتي سنة وخمس سنين ومات تارح بحاران (تك ١١/٢٧ — ٣٢).

نحن الآن في التاريخ، تاريخ المؤرخين، وذلك قبل المسيح بألف وثماني مئة سنة. يعيش السيد تارح مع عائلته على شاطىء الفرات في مدينة أور الكلدانية. تدل حفريات حديثة على قدم هذه المدينة وغناها وحضارتها آنذاك. فهي لحسن حظها تقع على خليج العجم تدللها الشمس والأمطار والأنهار.

ومع ذلك فإبراهيم ابن تارح لم يلزم هذه المنطقة الحلوة. لقد سمع كما يقول الكتاب، (تك ١/١٢ — ٥) صوتاً يقول له:

«**ابعد عن بلادك وشعبك... إلى الأرض التي أريكها.. سوف أجعل منك شعباً كبيراً وأباركك... وبك تتبارك جميع أمم الأرض**». سمع ابراهيم هذا الصوت الداخلي ومشى... فوصل مع عائلته إلى أرض كنعان.

لكن ما هو هذا الصوت يا ترى؟

معطيات الكتاب، التي تطابق التاريخ العام، تخولنا القول بأنه الاله «ايل» الذي يمكن ترجمته — وإن كان لم يزل اسم جنس —

« الكلي القدرة » . إله غير منظور ، طبعاً ، لكن ابراهيم يعرف أنه قريب منه جداً ويشعر ، بطريقة لا تخطىء ، بحضوره وبصوته .

لم يكن معاصروا ابراهيم يجهلون هذا الاله « ايل » . فقد وجدنا نصوصهم الميثولوجية . فهم يعرفون الاله إيل « القوي » « الخالق » . . . ويسمونه أيضاً « العطوف » و« الأب » بالمعنى الواسع . فهم يتصورونه بعيداً ، غير مدرك ، قلما يهتم بالإنسان . هو الإله الحقيقي إنما قبل أن يوحي ذاته . لذا فمعاصروا إبراهيم يفضلون الرجوع إلى آلهة ثانوية ، إله العاصفة واله الينابيع وآلهة الخصب ... كما لوكانوا ضباط صف قريبين من الإنسان . أما ابراهيم فيعلمنا أن الكلي القدرة هو ، على عكس ذلك ، قريب جداً وأنه يريد أن يسير معنا في الطريق وأن يترأس القافلة البشرية ويقودها إلى بلد سوف يريناه . فتعهد إبراهيم بالسير على طريق الرجاء واشركنا بتعهده طوال السفر ، سيعرفنا الله بذاته أكثر فأكثر . فهو ليس أباً بالمعنى الواسع فقط كما كان يظن أسلاف إبراهيم ، بل أب حنون لكل واحد منا وللجميع ، هو محـور وينبوع لكل أبوة في الماء وعلى الأرض . هو أبونا الشخصي **الذي يحمل اسم علم** مثل أي شخص آخر .

« ما اسم أبيك ؟ »

طوال ست مئة سنة ، كان هناك متسع من الوقت لاسحق ويعقوب ، ذرية ابراهيم المؤمن ، لكي يصيروا شعباً . هذا الشعب مستعبد في مصر . والله سوف يوحي ذاته بطريقة أعمق : **سوف يوحي اسمه ويضرب بقوة** الأمران معاً . كما تساعد هذه الضربة على حفظ الاسم . ولكي يبقى اسم « الله الأب » ملازماً لعمل لا ينسى ، هو عمل تحرير وحرية . فاقترب الله كثيراً من موسى بينما كان يوماً يرعى قطيع حميه ما وراء صحراء سيناء . وانتهره الله من وسط عليقة تحترق : « أنا اله آبائك ، اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب ... لقد رأيت آلام شعبي في مصر ، وسمعت صوت عذابه تحت وطأة ظالميه .. فقررت تحريره .. امضِ الآن ...

لا أؤمن أبداً باله الفلاسفة . لم اقتنع البتة ببرهان واحد على وجوده . ايماني مرتبط بالذي كلم قلب ابراهيم واقنع موسى بالمغامرة لتحرير شعبه وأثار ايليا ضد ظلم آحاب . أؤمن بنجار الناصرة بالاله الفقير المتجول بين اليهودية والجليل ، بالاله المحكوم عليه بالموت ، بالاله الحي .. (سرج دي بوركاي) .

— سأقول إذا لبني اسرائيل أن اله آبائهم يرسلني إليهم . وان سألوني عن اسمه ، فبماذا أجيب ؟

— **أنا الكائن** . هذا ما تجيب به بني اسرائيل . **الكائن** يرسلني إليكم . هذا هو الاسم الذي سأحمله دائماً وبه ستدعوني الأجيال المقبلة (خر ٣) .

هذا وحي اسم « يهوه » — أنا هو — لحظة خارقة يخطو فيها الله خطوة الصداقة الحميمة فيعطي الآخر سلطة على ذاته بقوله : « اسمي فلان ، من الآن **تعرف كيف أدعى** ، **بوسعك إذاً أن تدعوني** ، **يكفيك أن تدعوني** » .

الله هو واحد منا

علينا أن نفكر الآن بسر الاسم هذا .
ما هو الاسم ؟ ماذا نفهم عندما نرى الله يوحي اسمه ؟

اعطاء شيء أو شخص اسماً يختلف تماماً على تحديده أي اعطاء فكرة عنه أو « معنى مجرداً » . عندما نتفق على اعطاء اسم لمكان ما ، لزهرة ، لجبل ، أصبح بالإمكان التكلم عنه ، والتسلط عليه . هكذا يرينا الكتاب آدم يتسلط على النبات والحيوان بفرضه اسماً عليها . وبالنسبة إلى الأشخاص ، الاسم هو قبل كل شيء قضية علاقات : ان عرفت اسم شخص ، أصبح بوسعي دعوته ، استجوابه ، مراسلته ، وبكلمة نسج علاقات معه . لم يعد بالنسبة إليّ غريب أو مجرد رقم .

واذا ما سمّى الله ذاته فذلك يعني أولاً أنه حلّ بيننا كشخص ، كإله شخصي : « أنا فلان » .

وبذلك يسمح للناس بالتلفظ باسمه : لكي يسلمهم ذاته هكذا ، لكي يصبح بإمكانهم دعوته . بهذا يصبح واحداً من

جماعة ، واحداً منا ، يمكننا الكلام عنه ، يمكننا الوصول إليه ، يمكننا الصلاة له ، فهو هنا لأجلنا .

من كان يتصور هذه الطواعية الرائعة لدى الهنا ؟

شخص « ماثل هنا »

قد ظن بعضهم أنهم وجدوا في العبارة « **أنا هو الكائن** » تحديداً لله كالذي يبحثون عنه لقواميسهم : « الله هو الكائن » الكائن المطلق القائم بذاته » . ان شراح الكتاب مجمعون على رفض هذا المفهوم الخاطىء .

* ليس للاسم الموحى هنا أية صفة تحديدية . **فهواسم علم** ، اسم شخص محسوس ، شخص « ماثل هنا » شخص نلتقيه ، على عكس الآلهة المبهمة . الضبابية المنتشرة في قوى الطبيعة أو الروح .

* **هواسم حضور وقرب وخلاص** : « **انا هنا** » ... **أنا هنا لأجلكم وسوف تروني في العمل** . **أنا هنا** قربكم ولن أترككم أبداً . **أنا هنا** معكم وسط تقلبات تاريخكم . **أنا هنا**. أنا هنا « **ولو قليلاً** » بامكانكم الاتكال عليّ » ...

* وأخيراً هواسم **يعني الامانة** والصمود : « **أنا هنا** ودائماً والى الأبد . بينما آلهة جيرانكم الوثنيين المتعددة والصغيرة تمضي وتتلاشى وسط دائرة من الذباب » . وسط مظاهر الدمار العام وسلاطين يوم واحد وجميلات يوم واحد وثروات يوم واحد ، « **أنا هو** » : أنا يهوه ، أنا الأول وسأكون أيضاً مع الآخرين ... » .

« أنا الأول والأخير . بدوني لا آلهة » (اش ٤٤/٦) .

وتدعين اسمه يسوع

وتمر العصور حيث يدعو اسرائيل « يهوه » وينسى « يهوه » — **أنا هو** — لكي يعبد من « لا كيان لهم » . فيعود إلى يهوه ويمدح يهوه « الذي صنع العظائم » هذه حياة المراهق الصاخبة مع أبيه ...

ابراهيم أبوكم ابتهج حتى يرى يومي فرأى وفرح . فقال له اليهود : لم يأت لك بعد خمسون سنة وقد رأيت ابراهيم؟ فقال لهم يسوع : الحق الحق أقول لكم : قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن . (يو ٨/٥٦ — ٥٨) .

وفي الوقت المعين سوف يولد في بيت لحم ولد بُشِّر به وهو منتظر منذ الدهور . يأتي رسول من قبل يهوه ليخبر يوسف : «سوف تدعو اسمه يسوع (ومعناه : الله يخلص) لأنه سوف يخلص شعبه من خطاياهم» (متى ١/٢١) . ويسوع هذا سوف يعلن يوماً :

«إن لم تؤمنوا أني أنا هو ، فسوف تموتون في خطاياكم . . .»

«عندما ترفعون ابن الإنسان ، عندئذ تعلمون أني أنا هو. . .» (يو ٨/٢٤ و ٢٨) .

هكذا يبدو يسوع تلك العليقة الملتهبة حيث يحقق الله وحي اسمه للبشر ، لا من خلال كلمة فهمها الشارحون كفكرة بدل من أن يروا فيها شخصاً ، بل في شخص من لحم ودم ، الله المتجسد الذي اقترب بعضهم منه ورأوه ولمسوه ، «الله معنا» عمنوئيل . . . ويسوع ، قبل موته وقيامته ، اختصر حياته ورسالته بقوله : «يا أبت ، قد أظهرت اسمك للناس» (يو ١٧/٦) .

فيظهر الرب يسوع إذاً في قمة الوحي كاسم الله الحقيقي والحي ، به صار الله حقاً «الشخص» الذي أصبح بإمكاننا أن نلتقيه والذي أصبح بإمكاننا أن ندعوه . فيه أصبح الله منذ الآن فصاعداً واحداً من جمهورنا بكل معنى الكلمة ، واحداً منا .

«الله لم يره أحد قط ، الابن الوحيد الكائن في حضنه ، هو أظهره لنا» .

الأب المشبوه

«أهم ما استرعى انتباهي عند قراءتي العهد القديم ، هو أن الله شخص . طبعاً لا نقدر أن نراه لأنه روح . لكنه يوحي ذاته . فنراه تارة يتدخل مباشرة في تاريخ الشعب اليهودي وطوراً في حديث ودي

مع الإنسان كشخص يقول لأصدقائه : «اجلسوا لنتكلم قليلاً» . الاله الذي يوحيه لنا الكتاب مخيف وقريب في آن» (جاكلين ٢٤ سنة) .

«مهيب وقريب» : هكذا ريشة الرسام تصور الآب . وقانون الإيمان يوجه إيماننا رأساً نحو هاتين الحقيقتين : «نؤمن بالله الآب» . الله هو المهابة والآب هو القرب .

فلسفات الشبهة

لكن «الله الآب» توكيدان يطرحان معاً مشكلة صعبة . لسبب أولي المسح إليه هنا فقط إذ سوف نتوسع فيه فيما بعد : يبدو أن هناك تناقضاً في أن يكون «الله القادر على كل شيء» أبا أو أن يكون «الاب» هو «الله القادر على كل شيء» . سوف نعود إلى هذا الموضوع .

ولسبب ثانٍ يأخذه علينا بعض علماء النفس المحدثين : رمز «الأب» مليء بالالتباسات تشتم منه رائحة اختمار موبوءة ، خاصة إذا ما طبقناه على الله .. سنرى ذلك بعد قليل . في عصر التكنيك هذا نتوق أكثر فأكثر إلى لغة أوضح وأكثر فاعلية . علينا أن نعرف عما نتكلم حتى نعرف كيف نستعمل الكلام . كلام جلي ، «لغة ذات معنى واحد» كما يقول العلماء : كلمة واحدة للشيء وشيء واحد للكلمة .

لا خلاف مبدئياً حتى ولو كان هذا الهوس مصطنعاً . حتى ولو كانت كلمات : أومو ، برسيل ، لافكس ... مأخوذة من برميل صابون للغسيل واحد . لكن سيدتي تطلب أومو وتقدم الأسباب ! ألهذا يوجد من يشكون حتى باللغة الواضحة ؟ هم يتهمونها بأنها غالباً ما تكون نوعاً من الخداع .

المهم هنا هو أن من سميناهم «فلاسفة الشبهة» يتهمون خاصة لغة

الدين . ففي نظرهم « الله الآب » ليس سوى شبح يتستر ويحمي استغلال الأغنياء للفقراء عبر علاقات الإنتاج (ماركس) أو الحقد المستتر والمتعهّد (نيتشه) أو أميالاً خفية يصعب الافصاح عنها مكبوتة في اللاوعي (فرويد) أو لعبا على الكلام ورموزاً اجتماعية مكنونة في قلب الإنسان لا تتجاوب والفراغ كأوراق نقدية لا رصيد لها (التوزر والبنيويون) ...

علينا أن نعتبر هذه الملاحظات أسئلة موجهة إلينا . فهي تحملنا على إيمان شخصي ، راشد ، منزّه ملتزم بالجهاد من أجل الإنسان . إنما لا يظنن أحد أن الأديان عامة والمسيحية خاصة ليست سوى أوهام تؤثر فينا . لا يجب ألاّ نقلع عن الكلام عن « الله الآب » كما يتكلم قانون إيماننا ، ولا عن « الآب السماوي » كما يعلم يسوع في الإنجيل . فالحب أوحي إلينا بكلماتنا البشرية التي لا نفهم سواها . وليست هذه الكلمات قنابل موقوتة ، بل على العكس ، مهما كانت هذه الحقائق البشرية صغيرة بالنسبة إلى الله ، فهي تستمد جمالها وصلاحها من الحقائق الالهية المطابقة لها والتي هي ينبوعها . فلنر ذلك عن كثب :

قتل الأب ؟

نبدأ بالاقرار بأن الكلام عن الله «كأب وكأبوة» يبدو تحدياً للأجيال الحديثة المطبوعة على الثورات والتحليل النفسي ، والروح العلمية التي ترفض كل أبوة . فقد بلغ الشباب عمر « قتل الأب » أي عمر مقاومة الوالدين عموماً والأب خصوصاً . هم يريدون اثبات ذواتهم برفض غيرهم ... وإن كان الله كلي القدرة ، فقد أصبحت صورته ملوثة في نظر البعض : « لقد مات الأب » ... « لقد مات الله » . لا شك أن الأب المثالي لا وجود له **بالنسبة إلى أولاده** ، وهؤلاء المساكين هم على حق ! كان « أبي » ضعيفاً أو مستبداً ، محظوظاً أو منكود الحظ ، ساذجاً أو قاسياً ، متعجرفاً أو متواضعاً ، بعيداً أو

متعقباً لنا دائماً ، مشجعاً أو مبسطاً عزائمنا ، وغير ذلك ، وقد تكون الأم أيضاً **في نظر أبنائها** ، خاصة أثناء تطورهم ، لا هذا ولا ذاك : استئثارية مهيمنة ، محدودة الآفاق ، صورة ، متطلبة ... على كل حال ، في نظر الولد ، كلمة « أب » أو « أم » مليئة بالحنان والقوة ، بالإيمان والحرارة ، إلا إذا لم يعرف الولد سوى والدين متوحشين ، هي ثمرة خبرة أساسية وايجابية للغاية .

ويجب التنبه خاصة إلى أن سيدنا يسوع المسيح ، عندما يكشف لنا عن الله الآب ، لا يرتكز على **اختبارنا كأبناء بالنسبة الى والدينا** ، **فهو** لا يقول : « تذكروا أباكم وأمكم : فأنا مثلهم ! » بل على العكس ، انه يرتكز **على خبرتنا الراشدة** ، **خبرة الأب والأم تجاه أبنائهم** :

« هل تنسى الأم ولدها الذي تغذيه ؟
ألا تشفق على ابن احشائها ؟
وحتى إذا نسي هؤلاء
فأنا لا أنساك ! » (اشعيا ١٥/٤٩) .

« أي أب منكم يسأله ابنه سمكة فيدفع إليه حية !.. فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تعطوا أبناءكم الأشياء الحسنة ، فكم بالأحرى أبوكم السماوي يعطي روحه القدوس الذين يطلبونه » (لو ١١/١١ — ١٣) .

إذا كان إسرائيل صبياً أحببته ومن مصر دعوت ابني . قد دعوهم لكنهم أعرضوا عنهم ذابحين للبعليم ومقتربين للتماثيل . وانا درّجته افرائيم وحملتهم على ذراعي لكنهم لم يعلموا أني أنا أبرأتهم . إني اجتذبهم بحبال البشر ، بربط الحب وأكون لهم كمن يرفع النير عن فكوكهم وأمد له وأطعمه (هوشع ١/١١ — ٤) .

أتوقف عند هذه الاستشهادات . فأساس الوحي هو هنا ! **يتوجه الله الآب إلى اختبار الوالدين** . اقرأوا : اشعيا ١٣/٦٦ ، مزمور ١٠٣/ ١٣ ، أمثال ١١/٣ — ١٢ ... وبخاصة لوقا ١١/١٥ ... « كان لرجل ابنان ... » .

يجب إذاً ألاّ ننظر إلى « رمز الأب » في الوحي الالهي وفي اللغة الدينية من الناحية السلبية ، ناحية الابن وحقده الممكن ، الواعي أو اللاواعي ، بل من الناحية الايجابية ، **ناحية الوالدين المحبين** الذين هم

كثر في العالم ، من ناحية الحنان الأبوي الذي يختبره الأبناء بدورهم عندما يصبحون راشدين . عندئذ يعرفون ما كانوا يجهلون تماماً : ما معنى أن نكون آباء وأمهات . يقول بلزاك على لسان الأب كوريو : « أما أنا فلما صرت أباً فهمت كيف هو الله » .

لا يوجد سوى آب واحد : الله

وأزيد أن الآباء والأمهات أنفسهم قد ينظرون إلى الآب السماوي بطرف منظارهم الصغير .

إذ ليست أبوتهم البشرية ، مهما كانت رائعة ، المثال لأبوة الله . بل على العكس ، إن ابوة الله هي الأولى ، هي نبع كل أبوة في السماء وعلى الأرض ، كما يقول القديس بولس (أفسس ١٥/٣) . وبعبارة أخرى ، ليس الله الآب على صورة الإنسان الأب . بل على العكس : الإنسان مخلوق على صورة الله . فالله أب بدون حدود أكثر من أي أب بشري . وقد قيل : « لا أحد يتمتع بصفة الأبوة مثل الله » .

فإذا ما ساعدنا اختبار الابوة البشرية ، مهما كان بليغاً ، على فهم أبوة الله ، فعلينا رأساً أن نكبر الصورة : أن نعي أن أروع قلب اب أو أم ليس سوى شعاع ضئيل ، شرارة... من حب الله الأبوي ، هذا الأب القادر على كل شيء . وفي الواقع ، لا أب سوى الله : « لا تدعوا لكم أباً ، فأبوكم واحد وهو الله » (متى ٩/٢٣) .

هو أب الكل وأب كل واحد

« الله الأب الكلي القدرة علمنا اسمه في العليقة الملتهبة ، اسم شخص واسم حضور .

حضور « أب » يقول قانون الإيمان . فلم نعد نخاف هذا التعبير « المشبوه » . لكن أين وجده الرسل فركزوه هكذا في قلب الإيمان ؟ ...

افتحوا الكتاب المقدس الذي هو خبرة شعب ، افتحوا الإنجيل الذي هو خبرة الرسل ، تجدوا في كل صفحة هذا الاله وهو يعمل كأب وسط أبنائه البشر .

هذا « **الأنا هنا** » في سيناء ، هو هو عبر التاريخ ، التاريخ الذي لم ينته بعد ، الاله الذي كانت تريزيا الصغيرة ، من ضمن خبرتها أيضاً ، تحب دائماً أن تدعوه « بابا ، الاله الصالح » .

أب شعبه اسرائيل

تلتمس مشاجريك فلا تجدهم ومحاربوك يصيرون كل شيء ومثل العدم . لأني أنا الرب الملك آخذ بيمينك قائلاً لك : لا تخف فإني قد نصرتك . لا تخف يا دودة يعقوب ويا نفر اسرائيل فإني أنا نصرتك يقول الرب وفاديك هو قدوس اسرائيل (اش ٤١ /١٢ — ١٤) .

منذ ابراهيم أخذ اسرائيل ينمو حتى أصبح أمّة . منذ موسى واسرائيل يعرف أن الله أبوه في وسطه . وبفضل اسمه ، أصبح بإمكانه أن يمسك بيده أو بمعطفه ، لو صح التعبير . ما يجب التنبيه إليه أولاً هو انه ، وسط الذين يدعوهم خاصته ، سوف لا يستعمل الله كلام الحب الخلاّب ، سوف لا يضيع في اعلانات فارغة مثل الآباء السلطويين... إنه يدعى « **أنا هو** » . وتتحقق عائلته الكبرى بحضوره وعمله الجبار في احداث حياتها . الله يعمل أولاً . ولا يتكلم إلا فيما بعد ليفهموا من هو :

« أليس الله أباك الذي خلقك ،
الذي صنعك ووضعك ؟ ...
إنك تنسى الاله الذي وضعك في العالم » (تثنية ٣٢/٦ و ١٨) .

لذلك وطوال تاريخه المضطرب ، بينما كان يجب على اسرائيل الابن العاق ، أن ينتظر أن يمحوه النبي ، كان يعرف إلى من يصرخ وعلى أي وتر يضرب : فهو يتذكر ذلك التحرر الذي لا يُنسى :

« هل احتبس زفير احشائك ومراحمك لي !
فإنك أنت أبونا ..
أنت يا رب أبونا وفادينا ، منذ الدهر اسمك » (أشعيا ١٥/٦٣ — ١٦) .

والكلمة النهائية لثقة اسرائيل الذي لا يتوب :
« أليس اسرائيل ابناً لي عزيزاً ، ولدا يلذ لي !
فإني منذ كلمته لم أزل أتذكره !

لذلك حنت أحشائي إليه . إني سأرحمه رحمة ، يقول الرب » (إرميا ٢٠/٣١) .

هو أب كل واحد وكل الناس

طيلة هذا الوقت الهنا وأبونا ، وهو المربي الصبور لأنه أب كامل ، لم يكشف بعد سوى زاوية صغيرة من القناع الذي يغطي سر أبوته اللامحدود ، طوال تاريخ العهد القديم ، لم يظهر ذاته كأب الاّ لفئة معينة : الشعب الإسرائيلي .

ثم قال لتلاميذه : فلهذا أقول لكم لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون . فإن النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس . تأملوا الغربان فإنها لا تزرع ولا تحصد وليس لها مخزن ولا هري والله يقوتها . فكم أنتم بالحري أفضل من الطيور ... (لو ٢٢/١٢..) .

بينا هو أب جميع الشعوب وجميع الناس . هو أب كل إنسان وكل الناس مهما كان أصلهم ومهما كانت خطيئتهم .. هذا هو وحي الإنجيل .

وهكذا فأبونا « السماوي » ، أبونا « الذي في السماوات » ، يعرفني شخصياً باسمي ويهتم بي (فلنفهم نهائياً أن كلمة « سماوي » و« في السماوات » لا تدل على عالم آخر يقيم الله فيه . لا وجود لهذا العالم الآخر... كلمات من تعبير القديس متى يعتاض بها عن كلمة « الله » التي لم يكن المسيحيون المتحدرون من أصل يهودي يجرؤون على التلفظ بها . أما معناها فهو : « أبونا الذي هو الله ؛ أبونا الاله الصالح ») . « أبونا الاله الصالح يهتم إذاً بكل واحد كما لو كان ابنه الوحيد أو ابنته الوحيدة :

« أليس عصفوران يباعان بفلس ؟ ومع ذلك فواحد منهما لا

يسقط على الأرض بدون أبيكم !.. أما أنتم فشعور رؤوسكم كلها محصاة . فلا تخافوا فإنكم أفضل من عصافير كثيرة ! » (متى ٢٩/١٠ — ٣١) .

لذا فالقلق بخصوص السكن والعيش والملبس في نظر ابن الله ليس في موضعه . لا شك في أن الفطنة والعمل ضروريان . أما القلق فلا : « هذا كله يطلبه الوثنيون . أبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون هذا كله... لا تهتموا إذاً للغد .. يكفي كل يوم شره » (متى ٣٢/٦ — ٣٤) .

أب الكفرة

هذا القلق بالنسبة إلى الغد لا يجب أن يوجد حتى لدى الكفرة لأن الله هو أب الكفرة أيضاً ...

تعرفون المثل الذي شهره أحد الأفلام : « يجب ألاّ نعتبر أبناء الله الصالح كبط وحشي » . من دون أن نحتقر حكمة الامثال ، « البط الوحشي » في عالم الإيمان والأخلاق هم مثل سواهم « أبناء الله الصالح » : الأسود والأبيض ، العربي واليهودي ، اللص والقديس ، المؤمن والملحد ... فالله يعاملهم جميعاً كالأبناء وبقلبه الأبوي عينه :

« أبوكم الذي في السماوات (أبوكم الاله الصالح) يشرق شمسه على الأشرار والأخيار وينزل غيثه على الأبرار والفجار. فإن أحببتم من يحبكم ، أي أجر لكم ؟ أو ليس العشارون هكذا يفعلون ؟.. كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي كامل (متى ٤٣/٥ ..) .

أب اسرائيل هو أب كل الناس ، أب كل واحد ، أب الخطأة (لو ١١/١٥) . هذا هو الاله الذي أوحى اسمه لموسى في العليقة الملتهبة .

« أب ضابط الكل »

لما أوحى الكتاب والإنجيل ثم قانون الإيمان أن الله أب ، انقلبت عظمة الله رأساً على عقب . لقد أصبح بالامكان القول « يا أبي ، أيها الأله الصالح » . وذلك ليس محض كلام بل حقيقة : « أنظروا أية محبة خصنا بها الآب لندعى أبناء الله **واننا لكذلك** » (١ يو ٣/١). هذا الكلام يفتح في قلوبنا شلالاً دائماً من الفرح المتدفق ...

ويزيد قانون إيماننا ان هذا الأب « قادر على كل شيء » . ما معنى ذلك ؟ أهي طريقة لإنكار أبوته وحنانه لنعود من جديد فنقع في عظمة الله ؟

لما كنا أطفالاً ، كنا نظن عفوياً أن أبانا كلي القدرة أو ما يعادل ذلك . كان يرفعنا إلى السقف كالقشة . كانت ذراعاه معضّلة بحيث كان بإمكانها رفع العالم . وكانت هذه القوة تسحرنا وتطمئننا كما لو كانت قوتنا نحن ، إذ كانت في خدمتنا . فهي لم تكن تخيفنا .

لكن قانون الإيمان لا يتوجه إلى أطفال ، بالنسبة إلينا نحن الكبار ، قد تكون هذه القدرة مخيفة ...

« إله الكون »

في الواقع ان عبارة « كلي القدرة » ، كما يقول القانون ، مأخوذة من العهد القديم : « إله الجماهير » ، « إله القوات » ، « إله الجيوش السماوية » . هذه الجماهير وهذه القوات وهذه الجيوش هي جيوش النجوم التي تتحرك بأوامر الله على شكل استعراض عسكري فخم ومثالي . هذا ما ندعوه في صلاة « القدوس » الصباؤوت والتي تترجمه طقوسنا اليوم بكلمة « الكون » . « إله الكون » . كون الكواكب على الصعيد الكوني أو عالم الملوك والرؤساء والسادة من كل درجة على الصعيد السياسي ... هذه العبارة تدعو الله سيد الأشياء كلها والأشخاص جميعها .

وهكذا فعندما يدعو قانون إيماننا الله أباً وسيداً للكون كله ، فهو ، ليعرفنا بالله ، يجمع بين الصورة العائلية البسيطة وذكر قوة لا متناهية رهيبة .

ومع ذلك فلسنا نعبر عن هذه النظرة المسيحية إلى الله الاّ بهذا النوع من التناقض : في الله تلتقي التناقضات : القوة المطلقة والحب المطلق ، البعد المطلق والقرب المطلق ، الكائن المطلق والكائن المرتبط بالإنسان بنوع عجيب ...

القدرة المطلقة مجردة من سلاحها

قد لا نفهم جيداً هذا الكلام المجرد ؟ هذه لغة اللاهوتيين ، لغة المحترفين ، فاطمئن إذاً .

هذه اللغة ، سوف يأتي أبونا القادر على كل شيء «لينقضها ويترجمها لنا ليس بكلمات بل بأعمال ، أعمال بسيطة ، واضحة جداً ، يومية ، وذلك عند تجسد ابنه يسوع ، لأن «الله أحب العالم إلى حد أنه اعطاه ابنه الوحيد» (يو ١٦/٣) .

في القسم الثاني من قانون الرسل : «نؤمن بيسوع المسيح الابن الوحيد» سوف يتضح تماماً القسم الأول : «نؤمن بالله الآب الضابط الكل» . قدرة سيد الكل المطلقة لن تتوضح — وبوضوح مثير وغير منتظر — الاّ قرب مغارة بيت لحم ومشغل الناصرة وصليب الجلجلة . هناك يقع المفكرون الأكثر تعمقاً في حيرة تامة : كل ما كانوا قد قالوه عن الله ، بتعابيرهم الضخمة المجردة ، إن لم يكن خاطئاً تماماً ، فهو لا يعطي المعنى بتمامه !

احكموا أنتم : لما وصل الكلي القدرة إلى أقصى حدود العجز — طفل يصرخ في مذود ، يجرح وينازع على خشبة — عندئذ فقط عرفنا على ما ترتكز سيادة الله .

من لا يحب فإنه لا يعرف الله لأن الله محبة . بهذا تتبين محبة الله لنا ان الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لنحيا به . والمحبة في هذا اننا لم نكن نحن أحببنا الله بل هو أحبنا فأرسل ابنه كفارة عن خطايانا (١ يو ٨/٤ — ١٠) .

أمام هذا المشهد ، علينا أن نعيد النظر في كل مفاهيمنا حول القوة والسلطة والسيادة . فالله يكشف لنا أن قوته هي غير قوة البشر . قوة البشر عضلات وسلاح يقعقع .. لأنها ليست القوة السميا ، لأنها ليست سوى قوة صغيرة تشبه فرقيعة صغيرة » . يكشف لنا يسوع أن القوة السميا هي التي يمكنها أن تتخلى كلياً عن القوة : لا تأتي قوتها من العنف والسلاح بل من الحب الذي ، وان رفضناه ، يبقى أقوى من القوة التي تنتصر على جميع قوى الأرض . في عالم الحب ، الصغير هو الأكبر والضعيف هو الأقوى والعبد هو السيد .. والعكس بالعكس والمعلوم أنّ الله محبة . وقدرته هي **قدرة الحبّ** ...

الله محبة

عندما نخرج من دائرة المحبة وننسب إلى الله عناصر غريبة عن الحب ، عندما نفكر أن الحب شيء في الله أو مظهر من مظاهره وليس الله ذاته ، فإننا نخلق الهنا . هذه الوثنية موجودة في قلبنا وتبلل الإيمان عند المسيحيين عندما لا يكون الإيمان صريحاً ولا قوياً بحيث ينتقد الأفكار والصور العديدة التي هي كظل الإنسان. (فرنسوا فاريون) .

« الله محبة » : هذا تحديده ، طبيعته . ومن ادعى تحديده على غير وجه فقد حدد الها كاذباً ونحت صنماً .

لا شك في أن الله قادر وحكيم وقدوس وعادل والى ما ذلك... هكذا شعر به قلب الإنسان . إنما « قادر وحكيم وقدوس » هي صفات لا أسماء ويجب ألاّ نجعل منها اسماء . لا يجب أن نقول : « الله قوة وحكمة وعدل » . اذ لا يمكن أن نحدد الله بالقوة والحكمة والقداسة والعدل . فلا الفلاسفة فهموا هذا ولا حلم به قلب الإنسان بعد . طبيعة الله هي المحبة .

— أهذا يعني أنه ليس قديراً وحكيماً وعادلاً ..؟

— بلى ، طبعاً . لكن هذه الصفات لا تحدد شخصه بالذات . إنها تعبر عن **صفات** تتعلق بشخصه . بينما **شخصه هو الحب** ... الهنا الذي هو الحب هو قادر وحكيم وقدوس وعادل والى ما هنالك من أوصاف لا نهاية لها . لكنه ليس قوة وحكمة وقداسة وعدلاً... إنه محبة . لا شيء غير ذلك . محبة **محضة** .

إليكم هذا التشبيه : تشتري بيتاً على شاطىء البحر ، إنه جديد

أبيض ، منير وفسيح ومعرض للشمس الخ... فما تملك على الشاطىء ليس البياض ولا النور ولا الوسع .. بل بيتاً ولا شيء غير ذلك . لكن هذا البيت جديد وأبيض ومنير.. هذه صفات بيتك . وهكذا فالحب ليس **صفة** من صفات الله لكن صفات الله كلها هي **صفات** الحب .. فلننتقد تصوراتنا إذاً ، ولنرفض بشجاعة الاله الكلي القدرة ، ولنندهش «بالأب الكلي القدرة» الذي يوحيه الكتاب ونعترف به في قانون إيماننا...

لا «للاله الكلي القدرة»
نعم «للأب الكلي القدرة»

محبة الهي هي الأولى ، إنها مجانية ، لا دافع لها ولا شرط . لا باعث لها سوى رغبة الله في أن يحبني .

ككل حب صادر عن أب أو أم .

فالولد يحمله والداه — إذا كانا جديرين بهذا الاسم — في احلام حنانهما حتى قبل أن يريا وجهه... عجيب هذا الحب : هذا الولد الذي رغبا فيه وانتظراه . والداه لا يعرفانه بعد ، لا يعرفان إذا كان سيأتي ذكراً أم أنثى ، ولا كيف ستكون طباعه ولا شيء آخر سوى أنه سيكون ولدهما .. حب عجيب فهو لا ينتظر الآخر لكي يحبه ، حب أكيد مضمون كائناً من كان المحبوب ، حب لا يثبط من شجاعته شيء مدى الحياة ..

يقول الحبيب لحبيبه : أنت فرحي . أي : بدونك أنا بحاجة إلى الفرح . أو : أنت كل شيء بالنسبة إلي . أي : بدونك لست شيئاً . المحبة هي في أن نكون في الغير وللغير.. الأشد حباً هو إذاً الأشد فقراً . المحب الى ما لا نهاية — الله — هو الفقير إلى ما لا نهاية . (فرنسوا فاريون) .

هكذا والى أسمى الدرجات هو حب أبي السماوي : هو لا يفترض شيئاً من قبلي . ولا أنا أملك أية قيمة سابقة أقدمها له . وهو لا ينتظر حبي له لكي يعطيني ذاته . كما أنه لا ينتظر أن أستحق هذا الحب لكي يحبني . ليس هذا الحب جواباً على شيء ما : هو البادىء وهو مستقل عن كل شيء وبدون أي شرط ... حتى حب الخطيبين والأزواج ليس مجانياً بل هو مشروط ، انه حب متبادل . أما المجانية المطلقة والأبدية في الحب فهي في حب الله الأبوي الكلي القدرة .

لا شك في أن حبي سيروق له كثيراً إذا ما تجاوبت مع حبه . «أبي الكلي القدرة» هو متسول حب . قدرته على الحب تجعله شحاذاً وفقيراً : **هو الفقر في كل قدرته** .

الفقر بدون حدود ، فقر الوالدين أمام ولد عاق لا يزالان يحبانه .. فهما يحترمان حريته مهما صنع ...

هذا هو حب إلهي ... فلو كان «الها كلي القدرة» لكان أخضع الإنسان لإرادته عن طيبة خاطر أو بالقوة . **لا وجود لهذا الاله الكلي القدرة** . بينما الاله الأب ، فلحبه من القدرة ما يجعله يحترم حرية ابنائه إلى أقصى حد ، وأكثر مما يمكننا أن ننتظر من أفضل أب بشري . «كان لرجل ابنان ...» (لو ١٥) .

الأب الحقيقي يولي ابنه ثقته مهما كلف ذلك من المجازفة . فهو يراهن على ابنه بكل شيء : بخيراته واسمه وشرفه وعمله ... وما الذي سيفعل الولد بكل هذا ؟ بإمكانه أن يخسر كل شيء ، أن يبذر ، أن يشوّه ... هذا ثمن الحرية . لا يمكن بناء إنسان بأقل من هذا . قد يقول بعضهم : «إن كان الله صالحاً ، فلماذا الشرّ في العالم» ؟ ... لماذا لا يوقف فلاناً أو فلاناً ... ؟

ذلك أن الله «أب كلي القدرة» . لذلك فبإمكانه بل من واجبه أن يترك الابن المبذر يذهب في طرقه الحرة . فإمكانه أن يصبر أمام الزؤان الذي يجتاح الحقل . أليس عن حب قد خلق ازاءه أشخاصاً كاملي الحرية ؟

يقول أحد أشخاص سارتر : «إن كان الإنسان حراً ، فالله غير موجود» . وفي الواقع ان هذا الإله الكلي القدرة هو غير موجود ، لأن الإنسان حر . وبالعكس فإن الإنسان حر لأن الأب موجود ولأنه كلي القدرة في حبه .

وهو الذي يدفع ثمن الآنية المحطمة .. «إن الله يربط تقاريره بهذيان وشطط النعجة الضالة» (پيغي) .

وهكذا فالهنا مرتبط بنا إلى أقصى حد . «الحب وارادة الاستقلال لا يتفقان إلا سطحياً . والأكثر محبة هو الأقل استقلالاً . والذي يحب إلى ما لا حد له — الله — هو مرتبط بمحبوبه إلى ما لا حد له (هذا لا يفهم لو لم يكن الله حباً **محضاً**) (فرانسوا فاريون) .

الاله الحقيقي هو كلي الغنى إنما غنى الحب — كلي الحرية إنما حرية الحب ...

٣

خالق السماء والأرض

« في البدء خلق الله »

الأبوة تعني الخلق .

تعرض أولى صفحات الكتاب المقدس مشهداً رائعاً لأصل الإنسان والعالم . لكنها تطرح أيضاً مشكلات مثل : كيف توصل الكاتب إلى معرفة ما جرى وقت الخلق ؟ كيف نوفق بين تعليمه والعلم ؟ : ليس لآدم وحواء وجود اذ ان الإنسان ظهر تبعاً لنظرية النشوء والإرتقاء . كيف نؤمن بالأيام الستة ؟ وبهذا الاله العامل الذي صنع الإنسان من التراب ؟ بهذا الإله الجرّاح الذي استل حواء من جنب آدم ؟ الخ ... ومع هذا فهذه النصوص تدعي أنها أجوبة وأجوبة موحاة معصومة عن الخطأ ! ...

أمام هذه المعطيات ، يظن البعض ذواتهم مجبرين على الاختيار : الإيمان أم العلم ؟ فمنهم ، حفاظاً على كتاب طفولتهم ، يضربون عرض الحائط بالنظريات العلمية الحديثة . ومنهم ، وقد تأثروا بالعلوم ، يظنون أنه من واجبهم رفض الكتاب المقدس الذي تعلموه في التعليم المسيحي اذ يرون خطيئتهم في أنهم لم يشرحوا الفصول الاحدى عشر الأولى من سفر التكوين وهم بعد صغار سنة ١٩٨٠ أو ١٩٢٠ .

ومع هذا فالإيمان والعلم مدعوان للعيش متفقين بشرط أن يلزم كل منهما نطاقه : فالعلم يفتش عن شرح «**كيفية**» الأشياء والعالم ، والإيمان يفتش عن شرح «**غائية**» الحياة والإنسان والخلق . العلم والإيمان شقيقان ، ابنان لله ، خلقا ليحب واحدهما الآخر وليساعد واحدهما الآخر شرط أن يبقى كل في نطاقه .

على الإنسان أن يحترم كل ذلك ويقر الوسائل الخاصة لكل من العلوم والتقنيات . ولذا فالبحث المنهجي في كل فرع من فروع المعرفة لا يكون منافياً للإيمان ان قاده الإنسان بطريقة علمية صرفة مراعياً قواعد الأخلاق : فللحقائق الدنيوية وللحقائق الايمانية مصدر واحد هو الله . (الفاتيكاني الثاني) .

فلنقرأ اذاً هذه الفصول بإيمان وبروح علمية .

التفكير العكسي

يقول العلم ان الفصل الأول من سفر التكوين يرجع إلى القرن الخامس قبل المسيح . بينما الفصل الثاني ، وهو أقدم بكثير ، فإنه يعود إلى القرن العاشر قبل المسيح .

إذا عندما يكتب المؤلف الأول ، يكون قد مضى على موت ابراهيم ثمانية قرون . وقبل أن يمسك الثاني بقلمه ، يكون الأنبياء بغالبيتهم قد أبلغوا رسالتهم ..

لذا وان وضع في أول الكتاب ، فليس سفر التكوين أول أسفار الكتاب . ما هو إذاً هذا الكتاب وماذا يقصد بقوله : « في البدء »؟

وقال الله : لتكن نيّرات في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين . وتكون نيّرات في جلد السماء لتضيء على الأرض . ولتحكم على النهار والليل وتفصل بين النور والظلام . ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوم رابع . (تك ١٤/١ — ١٩) .

مغامرة الوحي التاريخية تبدأ مع ابراهيم حوالي ١٨٥٠ قبل المسيح . ومغامرة شعب الله التاريخية كشعب تبدأ مع موسى والخروج حوالي ١٢٧٥ قبل المسيح. وقد عاش هذا الشعب اختباراً عجيباً مع الله ، هو اختبار التحرر من مصر . بعد ذلك فقط ، وبعد أن مرّ زمن على حلوله في أرض الميعاد ، راح اسرائيل يكتب تاريخه . يبدؤه بإبراهيم انطلاقاً من أحاديث الشيوخ ويتناقله مشافهة وبأمانة عبر العصور .

ويصل طبعاً إلى طرح هذا السؤال : « هذا هو تاريخ شعبنا وعلاقاتنا بالهنا وتاريخ الآخرين ؟ تاريخ البشرية ... كيف بدأ ؟

ويبدأ بالتفكير العكسي . إنهم يفتشون عن شرح كامل للعالم الذين يعيشون فيه ولذواتهم في هذا العالم ... ويقود الروح القدس هذا التفتيش .

فالإنسان هو هنا في العالم ... وأول ما يلاحظ هو أنه لم يعطِ ذاته الوجود ؟ ليس هو أصل حياته . اين هو هذا الأصل إذاً ؟ والداه ؟ وقبل ؟.. أليس هذا الاختبار هو الأساسي الذي لا شك أننا نعيشه

جميعاً ؟ إنه سؤال مهم . . .

وفي ذات الوقت ، وإذ هو يكتشف أنه موجود ، يكتشف الإنسان أيضاً المحيط الذي يدور فيه ، العناصر : الماء والهواء والتراب . والمخلوقات التي تعيش في هذه العناصر : الكواكب والنبات والحيوان والبئر والشعوب المختلفة .. فيتساءل الإسرائيلي عندئذ ليرى إذا لم يكن لكل شعب الهه يهتم بحصته من الكون . فالشعوب المجاورة لا تعبد الاله الذي يعبده هو! . . . وتبدو آلهة الشعوب الأخرى كأنها مادية . وتتساءل هذه الشعوب إذا كان العالم أو بعض مخلوقاته (الجبل ، البحر ، الينبوع ، الكوكب. . .) لا تكوّن إلى حد ما جسد الاله ، شيئاً مكرّساً . فإن كان الأمر كذلك ، فهم يخافون ولا يمسون هذه الأشياء والا شعروا أنهم في بيتهم .

وقال الله : لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض . فخلق الله الإنسان على صورته . (تك ١/٢٦ — ٢٧) .

وما القول بالنسبة إلى الحياة والأرض ؟ ماذا نفهم عن الكون ؟.. ويجد الإسرائيلي في إيمانه ، وفي وحي الاله الذي يرافقه منذ ابراهيم ، وفي خبرته مع اله خروجه من مصر ، الاجوبة الكبرى : شعور خفي لا يخطىء بمحبة الله ومخططاته. . . ويتصورها وكأنها في البدء وذلك في رؤية رائعة .

هذه هي الفصول الأحدى عشر الأولى من سفر التكوين : لاهوت رائع في صور ، لكنه ليس تاريخاً .

لا تقليد ، بل تفكير

لقد كتب الفصل الأول من سفر التكوين حوالي ٤٥٠ قبل المسيح ، أيام السبي إلى بابل أو بعدها بقليل . أمر مزعج إذا ما فكرنا أن أصل الإنسان يعود إلى أكثر من مليون سنة بينما يعود أصل الأرض على وجه التقريب إلى عشر مليارات من السنين. . . كان يظن في الماضي أن كتابات العهد القديم تؤلف **تقليداً** حقيقياً ، أي مجموعة ذكريات انتقلت إلينا منذ القرون الأولى للبشرية . وراح بعضهم

فأكملت السماوات والأرض وجميع جيشها . وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي

يجمع أعداد الكتاب المقدس التي أوصلتهم إلى أربعة آلاف سنة قبل المسيح . وقد أنشدنا جميعاً أنشودة الميلاد التي تقول : « منذ أكثر من أربعة آلاف سنة » ، أي منذ خطيئة الفردوس الأرضي « ونحن ننتظر هذا الزمن السعيد » أي ولادة المخلص . أما بالنسبة إلينا اليوم ، فلم تعد واردة قضية التقليد أو بالأحرى قضية الذكريات . اذ ليس هناك سوى **قضية تفكير** ، **تحت الهام الروح** ، حول الإنسان والعالم ، تفكير حصل على عهد الكاتب الملهم أي حوالي ٤٥٠ قبل المسيح . وكشف هذا التفكير عن حقائق أساسية بينما يجهل أموراً ثانوية عديدة . وقد استعمل الأساطير المتداولة للتعبير بطريقة تصويرية ومفهومة من المعاصرين . لا ننس أنه في سنة ١٤٩٢ بعد المسيح كان كريستوف كولمب والجميع يظنون أن الأرض مسطحة ! فبإمكاننا أن نميز بوضوح ما يعرف الكاتب — وهذا مهم جداً بالنسبة الينا — وما لا يعرف .

عمل . وبارك الرب اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه الله ليصنعه . هذه مبـادىء السموات والأرض إذ خلقت . (تك ٢/١ — ٤) .

ما يعرف الكاتب الملهم

* إنه يعرف أولاً أن **العالم ليس الله** : هذا رفض لكل حلولية (نظرية القائلين بأن الله والكون واحد) ، وأن **الله ليس العالم** : وهذا رفض لتعدد الآلهة (تأليه قوى الطبيعة) . لا ننس أن الديانات الثلاث التي تقول بخلق الله للعالم — اليهودية والمسيحية والإسلامية (الثلاثة تتقيد من وحي الله في الكتاب) — هي وحدها تجنبت القول بمزج الله في العالم .

* ويعرف أيضاً أن **هذا العالم** ، من حيث وجوده بالذات ، **مرتبط بإرادة شخص حرّ يفوقه** . هذا ما تعني له كلمة « مخلوق » .

* لقد ظن الاسرائيليون في البدء أن الهه ليس سوى اله قبائله وأرضه ، لكن الكاتب الملهم يعرف الآن أن **إله اسرائيل هو « اله جميع الأرض »** ، **« اله الكون »** . **فهو** خلقه بكامله .

وان الرب الاله جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حية . وغرس الرب جنة في عدن شرقاً وجعل هناك الإنسان الذي جبله . وأنبت الرب الإله عن الأرض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر . (تك ٧/٢ — ٩) .

* وهو يعرف أن العالم لم يخلق على أثر حرب بين الله وقوات الشر والفوضى . لذا فيجب **ألاّ نخاف من أن نزعج الشياطين في الخليقة** . فالخليقة بكاملها هي من صنع الله وبكاملها خلقت للإنسان . هنا يكمن العهد الأول والأساسي : الخليقة كلها من صنع الله وكلها للإنسان ، إنه حضور الله وأمانته نحو الإنسان .

فكاتبنا الملهم يعرف إذاً أن الكواكب ليست آلهة ، إنما لها دور عملي في لعبة التوازن في الكون وفي خدمة الإنسان : هي ساعات لتحديد الوقت ونيّرات لإنارة الإنسان . وهو يعرف أيضاً أن الماء والسماء والأرض ليست آلهة ، بل عناصر للزينة أو موضوعات لعمل إنساني . وهكذا فالمقدسات التي كنا نراها في كل مكان قد نبذناها من كل مكان : ولم يبق في المواجهة سوى شخصين يتحاوران : الإنسان وقد خُلق كل شيء له والله الذي صنع كل شيء . **فلا حاجة** بعد اليوم في هذا الكون المخلوق **للتفتيش عن** «**مقدسات**» **خارجاً عن الإنسان** .

وأخذ الرب الاله الإنسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها . وأمر الرب الإله الإنسان قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً . (تك ٢/١٥ — ١٧) .

* ويعرف كاتبنا أيضاً أنه إذا كانت الخليقة كلها تحيا في علاقة مستمرة بالله فهذه العلاقة بالنسبة إلى الإنسان هي علاقة مميزة ، علاقة قرابة وحياة : وحده الإنسان هو من «روح الله» ، **وحده الإنسان هو** «**صورة الله**» ، **هو ابنه** . فالجد الأول ، أب شعب الله ، ليس ابراهيم ، بل جوهرياً هو الله بالذات .

* وهو يعلم أن الإنسان والكون مرتبطان بالله كما بالينبوع . ومع ذلك **فالإنسان والكون يظلان حرّين تجاه الله لأن** الله محبة . وهاكم شرح ذلك :

خلق الكون للإنسان لكي نكون في بيتنا في هذا الكون ، نستعمله بانتباه وشجاعة وعدل ومحبة . فالإنسان هو الوصي على الكون وله عليه كل سلطان : «آدم» «الإنسان» أي كل إنسان (وليس بعضهم بصرف النظر عن الآخرين) يضع يده على الخليقة ليكملها .

لم يضعنا الله على الأرض إذاً لنكون عبيداً له . بل لنكون أسياداً ، ممثلين ملكيين للخالق في الكون . جميعنا وكل واحد منا . فلا يوجد كائن بشري واحد هو عبد لآخر جوهرياً ، ما دام ليس عبداً لله ذاته . رسالة كل إنسان هي إخضاع الأرض — وليس اخوته — لحريته الذاتية .

لكن الكون أيضاً — وبمعنى آخر — هو حر. انه مستقل ، له نواميسه . ولا يتدخل الله فيه بطريقة تعسفية أو على هواه . هنا تكمن جدية الله ، جدية الخلق ، إمكانية العمل فيه . أما نواميس الطبيعة ، فليكتشفها الإنسان وليستخدمها وليركن إليها . فسوف لن يأتي الله للتلاعب بها .

* وهو يعرف أخيراً ، هذا الكاتب الملهم ، **أن المرأة** هي مادة خلق سام **كالرجل** ، وأنهما خلقا معاً ومتساويين ، وانهما معاً « صورة الله » . هذه الحقائق الأساسية تبدو مغلفة في اخراج قال عنه القديس اغسطينوس قديماً انه من السخافة أن نفهمه بطريقة حرفية . لا شك أن الله خلق الإنسان عبر تطور بلغ آلاف السنين وطبقاً لنواميس التطور العامة . لكنه خلقه على مثاله : حب ، رجل وامرأة ، اثنان في واحد . نجد هنا بدء وحي يكشف سر الأسرار ، سر « اله واحد في ثلاثة أقانيـم » . . .

ما يجهل الكاتب الملهم

من جهة أخرى يجهل الكاتب الملهم أشياء عديدة . فلا يجب أن ننسُب إليه أقوالاً لم يقلها .

فهو لا يعرف شيئاً عن عمر الكون : **فهو يظنه أقل قدماً مما هو**. وهو لا يعرف شيئاً عن تركيب الإنسان البيولوجي . ملاحظاته اليومية هي في أساس رؤيته للأشياء . يعود الإنسان إلى الأرض عند الموت ؛ فالأرض هي إذاً عنصر من عناصر الكائن البشري . من هنا

فأوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام فاستلّ احدى أضلاعه وسدّ مكانها بلحم . وبنى الرب الاله الضلع التي

أخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم. فقال آدم : ها هذه المرة عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تسمى امرأة لأنها من امرئ أخذت ولذلك يترك الرجل اباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً . (تك ٢١/٢ — ٢٤) .

اسم الجنس الذي يمنحه اياه «آدم» أي الأرض ، الترابي . وهو يفكر بديهياً بزوجين فقط في البدء . بينما لا يزال أصل جنسنا لغزاً مغلقاً بالنسبة إلى علماء اليوم . فوحدة الزوجين الأولين تساعد على **فهم وحدة الجنس البشري وتساعده في دعوته ومصيره** . لكننا نعلم أن أساس هذه الوحدة ليس آدم بل يسوع المسيح .

وهو يجهل أيضاً اين ظهر الإنسان الأول : جنة عدن مكان خيالي ؛ لا وجود لها على الخرائط الجغرافية .

وهو لا يعرف كيف تتركب الأرض . في تلك العصور السحيقة كان الناس يعتبرون السماء كقبة واسعة ، متينة وشفافة حيث تتنزه بنظام رائع الكواكب والنجوم . بينما الأرض صحن مسطح تقريباً يرتكز على المياه السفلى . لكن هل كانت رسالة الكاتب أو رسالة الروح القدس اعطاء دروس في الجغرافيا والجيولوجيا ؟

وهو أخيراً لا يعرف ترتيب ظهور المخلوقات : **فهو يضع النور** قبل الكواكب والحيوانات المتقدمة قبل النبات ...

لكن ما يريد أن يكشف لنا باسم الله لا تنقص من قيمته الأمور التي يجهلها .

أخلاقية لعصرنا

أضواء هذا الوحي تكشف أخلاقية لعصرنا .

وكانت الحية أحيل جميع الحيوان البرية الذي صنعه الرب الإله فقالت للمرأة : أيقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله : لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن

* **نحن في بيتنا داخل هذه الخليقة** . فنحن إذاً مسؤولون عنها . علينا أن نحافظ عليها وأن نستثمرها : هي مسكن الناس ، كل الناس ؛ التوزيع طبيعي ولا مكان للتمييز .

* نعرف أيضاً أننا **إنما خلقنا للعمل على تطويرها** . **لذلك فعمل** الإنسان في الطبيعة لذو قيمة . **فهو ليس قصاصاً** للخطيئة ، بل جزء لا يتجزأ من دعوة الإنسان الاولى . ليس العمل إذاً نتيجة للشر بل

التعب في العمل... من أنا بالنسبة إلى هذا العالم ؟ أنا من يجب أن أحرثه . والحراثة تعني خلق الحياة على الأرض وجعلها في هذا العالم الصعب ممكنة .

* نعرف أن هناك **احتراماً للعالم** يفرض علينا . وهذا بدء الأخلاق . فالذي يفسد الأرض ويقلل من قيمتها ويلوثها يخطىء ضد الله وضد أخوته البشر . إذ لا يوجد كوكب آخر يصلح كقطعة غيار !

* ونعرف أن **هوية الرجل هي ذاتها هوية المرأة وان كرامتها متساوية** . فلما ظهر المخلوق البشري الثاني أمام الرجل ، صرخ هذا الأخير : « هذا أنا » . وهكذا وُضع الإنسان أمام قريبه : **فهو يتعرف اليه** كذاته الثانية .

* في الوقت الذي وضع فيه الإنسان في هذه الواحة من الفردوس الأرضي ، وضع **«ككائن أمام اختيار»** . هو اختيار ديني وأخلاقي ، اختيار الطاعة لله . ليس على سبيل اللعب أو بدون أهمية : هو اختيار حياة أو موت... باستطاعة المرء أن يصم أذنيه عن السماع ، ألاّ يثق بالله ، أن يتهرب من الذي يدعوه . **ليس هذا قصة قديمة** . بل هو سؤال موجّه إليَّ أنا ، شخصياً ، في حياتي... ليس المهم أن نعرف ما إذا كان قد وجد قبلنا إنسان ارتكب حماقات لا تزال تحمل وزرها . المهم هو أن ننظر إلى حياتنا ونعرف إذا ما كنا ، في حياتنا اليوم ، نختبر ذواتنا ككائن رافض أو منفتح لاستقبال الغير .

تموتا ! إنما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كالهة عارفي الخير والشر . ورأت المرأة أن الشجرة الطيبة للمأكل وشهية للعيون وان الشجرة منية للعقل فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت بعلها أيضاً معها فأكل (تك ٣/١ — ٦) .

سؤال مطروح على الإنسان الحي

وهكذا ، وفي القرن العشرين ، كما منذ ثلاثة آلاف سنة ، عندما نعتبر ذواتنا مؤمنين ونؤكد أن إيماننا مرتكز على الكتاب المقدس ، نقبل أن يطرح الكتاب سؤالاً على حياتنا ، أي أن تكون

حياتنا جواباً للكتاب المقدس . فالكتاب لا يطرح سؤاله علينا كما يطرحه العلم . **فهو يسألنا أو بالأحرى يجبرنا على التساؤل بالنسبة إلى حياتنا بكل أبعادها** . ولا يتوجه هذا السؤال إلى إنسان العلم بل إلى **الإنسان الحي** . هو سؤال سابق لأي إنسان ولأية ثقافة وأي تطور علمي . **فهو لا يدور حول الإنسان بل هو موجه إلى الإنسان** .

إن تأكيدي : «أنا أؤمن» لا يعطيني أي نور خاص على ما في الكون ، على الحقبات الواسعة حيث بزغ العالم في ليل الأزمان ، ولا على ظهور هذا الكائن الغريب الذي دعاه علماء الحياة الإنسان العاقل . نحن ننتظر هذه الأنوار من العلم . لكننا نملك أنواراً على حاضرنا ومستقبلنا . من نحن ! لماذا نحن ! بداعي الحب اللامتناهي (شارل بليار) .

هو سؤال « المعنى » أو « اللامعنى » هل لحياتنا معنى ؟ هل بإمكاننا اعطاء معنى لاستعمالنا هذا العالم ! . . .

وللحال هناك أشياء عديدة تبدو سخيفة ، خالية من كل معنى . سخيف تهافتنا وراء الغنى ! سخيف ركضنا نحو الكواكب بينما يموت الناس جوعاً ، سخيف الازدهار الاقتصادي اللامحدود وكذلك زيادة ساعات الفراغ . . .

وحده الإنسان ، وسط هذا الكون المخلوق ، يقدر أن يكون ذا معنى أو تافهاً . وذلك نظراً إلى نوعية علاقته بخالقه وباخوته البشر . لذا علينا أن نعود إلى ذلك المخلوق المميز : الإنسان .

« وكان يخرج نهر من عدن »

لقد تصوّر كاتب النص الثاني للخليقة ، وهو أقدم من الأول ، نهراً خارجاً من الفردوس الأرضي ليسقي الجنة . يرى الأب فاريون في هذا الرمز الكتابي والتقليدي ، رمز الينبوع ، صورة صائبة وايحائية لعمل الخلق .

ليس الله ذاك « العازب الدائم في الأرض » (شاتوبريان) ليس وحيداً ، منكمشاً على ذاته وعلى غناه اللامتناهي كما ينكمش البخيل على كنز له . بل على العكس أن الله محبة : أي سخاء دفّاق ، «ينبوع فيّاض » كما يقول آباء الكنيسة . « قال فكان كل شيء » . **فالخليقة تصدر عنه كما النهر عن الينبوع** .

وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن ثم يتشعب فيصير أربعة ارؤس . اسم أحدها فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الـــذهب . وذهب تلك الأرض جيد . هناك المقل وحجر الجزع .

فلنتابع هذا التشبيه المعبّر ولنَسْتلهِم الأب فاريون .

* أولاً ، **يخلق الله عن محبة** كالينبوع الذي لا يدين لأحد بشيء . لكنه لا يكون ينبوعاً إذا لم **يعط ماءه مجاناً** .

فلنقلها بجرأة : عطاء ضروري . **فالله يخلق انطلاقاً من هذه « الحرية الضرورية التي هي صفة الحب »** .

فلنأخذ تشبيهاً آخر لشرح هذا التناقض الذي قد نجده بين الحرية والضرورة . ترى الأم ولدها وقد شارف على الهلاك في النار ... إنها بدون شك حرة في أن تسرع إلى نجدته ، لكنها **مدفوعة من الداخل بقوة « ضرورية »** لا تقهر وبناموس خاص وملحّ هو ناموس الحب ... فإن ترددت ، لا تكون أماً .

هي حرة . لكن بما **أنها تحبّ** ، **فهي** لا تقدر إلاّ أن تهرع لنجدة ابنها في خطره ... هذا هو ناموس الحب الذي لا علاقة له بالمنطق .

وهكذا فمن الواضح أن الله حر في أن يخلق أو لا يخلق لأنه يكفي ذاته تماماً . ورغبات أبوته يملؤها تماماً في ابنه الأزلي الذي يجد فيه كماله ومعه يتبادل حباً يجعلهما واحداً حقاً ... وها هو يدعو إلى الوجود أبناء وبنات آخرين مع هذا الكون الرائع المحيط بهم . فنستنتج انه مدفوع من الداخل إلى خلقهم لأنه محبة . انه مدفوع بطريقة لا تقهر — وهذه هي الضرورة ، لكنه مدفوع من داخل ذاته — وهذه هي الحرية .

* تساعدنا صورة الينبوع أيضاً **على أن نفهم أن العالم المخلوق هو على صورة الخالق** مع أن الخالق هو « الآخر المطلق » . وفي الواقع ، أن كل ما في الساقية يأتي من الينبوع مع أن الينبوع هو غير الساقية : الينبوع دافق بينما الساقية « مدفوق فيها » . الينبوع يعطي الحياة والساقية تستقبلها ، لكن هذه المياه تأتي من الينبوع .

واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض الحبشة . واسم النهر الثالث حدّاقل وهو الجاري في شرقي أشور . والنهر الرابع هو الفرات . (تك ٢/١٠ — ١٤) .

أنت تخلص البشر والبهائم يا رب . اللهم ما أجلّ رحمتك ان بني البشر بظل جناحيك يعتصمون . يرتوون من فيض بيتك ومن نهر لذاتك تسقيهم . لأن عندك ينبوع حياة وبنورك نعاين النور (مز ٣٥/٧ — ١٠) .

وهكذا فكل مخلوق يشبه الله لكن الله هو وحده إله .

* وصورة الينبوع تخولنا **رفض فكرة الخلق كشيء مضى** . **فلا تزال** هذه الفكرة الخاطئة تشغل عدة رؤوس وتضع العقول على طريق خاطئة . اذ تميز بين الخلق والمحافظة على المخلوقات .

في البدء خلق كل كائن . هو الله يضع الكون على طريق العصور الآتية ، كما نرمي بكرة على ملعب . ثم يحافظ على هذه الخلائق التي دفعها للسير بسرعة محدودة بحيث «لا شيء يضيع ولا شيء يخلق» . هذا تصور غبيّ لاله أعطى **قديماً** الوجود للكون بدفعة أولية **وهولا يزال** يسهم في استمراره وتقدمه . هي قصة الساعة المحكمة الصنع ، المضبوطة المحددة والمدارة والمزينة التي ينظر إليها الساعاتي ويداه في جيبه ، بينما هي تشير إلى الساعات والأيام .

الساكنون في الاقاصي يخافون من آياتك . وتجعل مطالع الصبح والمساء ترنم . تعهدت الأرض وأسقيتها وأغنيتها كثيراً . (مز ٦٤/٩ — ١٠) .

فكرة الخلق الصحيحة — وقد أشار إليها القديس توما بإلحاح — هي فكرة «التبعية في الوجود» . مثل فكرة التيار الكهربائي بالنسبة الى المعمل الذي ينتجه . ومثل فكرة الساقية بالنسبة إلى الينبوع . فالينبوع لم يخلق الساقية في الماضي بل هو لا يزال يخلقها اليوم ودائماً . فالساقية مرتبطة بالينبوع كل آن وبكل كيانها . وهكذا **فالله لم يخلق الكون في الماضي** . هو يخلقه منذ أن وجد ، الآن ودائماً ، **فالكون يصدر عن الله بلا انقطاع** . الخلق والمحافظة على الخليقة شيء واحد تماماً . لكن الكتاب يقول : «في البدء خلق الله السماء والأرض» ؟

فأجاب يسوع وقال لها : كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً . وأما من يشرب من الماء الذي أنا أعطيه فلن يعطش إلى الأبد . بل الماء الذي أعطيه له يكون فيه ينبوع ماء ينبع إلى الحياة الأبدية . (يو ٤/١٣ — ١٤) .

— لا يجب أن نفهم عبارة «في البدء» بالمعنى الحصري : فقط في البدء ولا شيء بعد ذلك . الينبوع هو دون شك في «بدء» النهر . لكنه بعد ذلك يخلق الساقية دائماً كما في اليوم الأول . فطوال مدة بقائه وتفتحه واكتماله ، يجد العالم أساسه وأصله في عمل الخلق . خلق الله «في البدء» أي انطلاقاً من أزليته ، انطلاقاً من ذاته .

وهذه العلاقة بين الله والكون تبقى هي هي . فالله يعمل دائماً . وهو الذي يعطي العالم حقيقته كل ساعة ، هذه الحقيقة التي تتطور دائماً . «**في البدء**» **أي في** «**أساس الينبوع**» .

* وتساعدنا صورة الينبوع أيضاً على **فهم تطور الخليقة المستمر** ولو بطريقة محدودة . كان يظن آباؤنا أن الإنسان الأول ظهر على الأرض بمستوى عقلي وأخلاقي يوازي مستوانا أو بالأحرى يفوقه بكثير . والحال أن العلماء ، بعد اكتشافات عديدة في هذا المجال ، متفقون على الفرضية التطورية العامة كناموس أساسي للطبيعة بأسرها . فالمادة معبأة بقوة تجعلها في حركة اكتمال دائمة . وفي خط التقدم هذا وبعد مليارات السنين ، راحت تظهر الحياة الحيوانية ثم الإنسانية .

لا شيء هنا يناقض الايمان إذ الله هو ينبوع هذا التطور . فالساقية ليست ماء آسناً انها تتدفق من ينبوع حي فهي إذا ماء حي . واذا ما تركناها وقوتها ، فهي تغير دائماً خلق مجراها وتطوره . هي غنية بتدفق مياهها المخصبة ، وهي تحول الصحاري الى أرض تصلح للزرع وتغذي عشب الربيع والصيف والخريف...

يمر الجنس البشري من مفهوم جامد لنظام الأشياء الى مفهوم متحرك ومتطور . من هنا يولد طرح جديد للمسائل يدعو إلى تحاليل جديدة وتراكيب جديدة (الفاتيكاني الثاني) .

وهكذا فإن الله يخلق عالماً يتطور . وخلقه المتواصل لا يزال يرافق الكون والإنسانية نحو كمالها التام . وهو يتطور دائماً مدفوعاً بقوة الينبوع بسرعة تتزايد وبنوع يتعقد يوماً بعد يوم .

هذه النظرية التطورية — مستقبلية ، تطلعية : كلمات دارجة — تتحدى المسيحيين . إذ بما أن الإنسان هو ابن الله ، **فالثقافة** الإنسانية والمسيحية هي في أن «نحمل المستقبل في فكرنا» . هذا التعبير هو لجان روستان ، الرجل الملحد . لكنه تعبير ايماني ، تعبير إلهي . ففي زمن السرعة هذا ، وذلك أكثر من كل يوم ، أصبحت الثقافة الإنسانية بالنسبة إلى الفرد والشعوب والكنيسة ، القدرة على التكيف مع واقع الحياة المتغير وعلى تأنس الركض نحو المستقبل .

فالينبوع يدفع الساقية للسير إلى الأمام...

* وأخيراً ان صورة الينبوع **تجنبنا فهم الحب كمحض صفة من صفات الله**. بينما الحب هو الله بالذات. فكما أن صفات الماء — الصفاء والشفافية والخصب — تأتي من الينبوع، كذلك صفات الله — قداسة، عدالة، حكمة الخ — هي صفات الحب الذي هو جوهر الله بالذات. كل حب هو ينبوع، عطاء مجاني. الحب في الله ينبوع غير محدود، قدرة تدفق لا محدودة، عطاء وانتشار واخصاب وتطهير...

بدون شرط ولا انتظار عطاء مقابل. كالينبوع ...

«خالق السماء والأرض»

«السماء والأرض»، في نظر العبرانيين ونظرنا، تعني **الأرض** وعالم الكواكب والفضاء، **السماء** المادية. «السماء والأرض» هما من طبيعة واحدة، وهما يؤلفان معاً الكون المادي.

لكن الكتاب يتكلم عن السماء (أو السماوات) كما لو كانت نقيض الأرض: الأرض حيث يسكن الإنسان والسماء حيث يشعر الله وحده أنه في بيته. في كل حال، السماء هي هذه التي نراها، سماء النجوم التي «تعلن مجد الله» وحيث يسكن الله، ولكنه يتخطاها الى اللامحدود. «لا السماوات ولا سماء السماوات تستطيع أن تسعه» (١ ملوك ٢٧/٨). بنوع أن كلمة «سماء» أو «سماوات» أصبحت مرادفة لكلمة «الله». فالسماء هي قوة الله الأبوية اللامنظورة والساهرة والتي تضم الكون وعصافير السماء والصالحين والأشرار، بمحبة الله، التي لا تدرك (متى ٧/٥). فالسماء هي «العالم اللامخلوق»، عالم يسوع، منه أتى وهو فيه وإليه يرجع ليهيىء لنا مكاناً: هي أبوه (يو ١٣/٣؛ ٣٣/٦ — ٦٢)، هذا

الأب الذي هو السماء المفتوحة من حيث يأتي الروح (متى ١٦/٣ ؛ يو ٣٢/١ و ٥١ ؛ أعمال ٢/٢ ؛ ٣/٩ ؛ ١١/١٠) . بهذا المعنى ليست السماء مكاناً مميزاً كما أنها ليست السماء المخلوقة ، بل الشركة الأبدية مع الرب (١ تسا ١٧/٤ ؛ ٢ كو ٨/٥ ؛ فيلبي ٢٣/١) « في بيت الله » .

كل ما يرى وما لا يرى

لأنه به خلق جميع ما في السموات وعلى الأرض ، ما يرى وما لا يرى ، عروشاً كان أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين . به واليه خلق الجميع (كولسي ١٦/١) .

رأى الكتّاب الملهمون ، عن طريق الوحي ، أن الكون أغنى من السماء والأرض المنظورين . **فهم يؤكدون على وجود عالم غير منظور** ، هو عالم الأرواح ، عالم **الملائكة والشياطين** الروحي . لذا فقانون نيقيا الذي نعلنه في قداس الأحد يوضح : «ما يرى وما لا يرى» . **هذا الوحي الخاص** بالملائكة والشياطين ، في الكتاب ، يؤكد على ذلك مراراً . لكن التعبير عن هذا الوحي **جاء بلغة شرقية** ، مزركشة ، واقعية ، منوعة : إخراج ، هرمية ، تصنيف (درجات الملائكة التسعة !) ، أسماء علم...

ما القول بهذه التصورات ؟ إنها عنصر ثانوي فقط ، بياني قبل كل شيء ، صفته التصويرية مأخوذة عن الأساطير الفارسية والتقليد اليهودي . فإن كان لها من قيمة ، فتقويم هذه الرموز المتنوعة ذات التعرجات الفضفاضة يبقى دقيقاً وغير أكيد . والوحي الخاص بالملائكة والشياطين هو في غير مكان : يوضح العهد الجديد الصورة اذ يجعلها تدور حول يسوع المسيح .

من جهة ثانية ، **لهذه العبارات في الكتاب واللغة العادية معنى قياسي محض** . كمثل قول المسحي لبطرس : «أنت شيطان» (متى ٢٣/١٦) . أوكمثل قول امرأة لزوجها : «أنت ملاك» . **فلا يجب** إذاً أن نرى ملائكة وشياطين كلما وقعنا على هذه الكلمات . فالكتاب المقدس ، أكثر من كل كتاب ، يتطلب قراء أذكياء لبقين .

وأخيراً يجب فهم **ظهورات** الملائكة والشياطين كزخارف بيانية . والأشكال المنظورة التي تتخذها ان هي سوى أشكال خادعة غير حقيقية لأنها تنتمي إلى عالم الأرواح **غير المنظور** .

الشيطان ، ابليس ، الشرير

وحدث قتال في السماء ، ميكائيل وملائكته كانوا يقاتلون التنين وكان التنين وملائكته يقاتلون . فلم يقووا ولا وجد لهم موضع بعد في السماء . فطرح التنين العظيم ، الحية القديمة ، المسمّى ابليس والشيطان الذي يضل المسكونة كلها ، طرح إلى الأرض وطرحت ملائكته معه ... فغاضب التنين المرأة وذهب ليحارب باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله ولهم شهادة يسوع المسيح (رؤيا ٧/١٢ — ٩ ... ١٧) .

عندما يتكلم الكتاب عن الشيطان (العدو) أو عن ابليس (المفتري) **فهو يعني شخصاً معيناً** غير منظور بحد ذاته لكن أعماله أو تأثيره تظهر إما في اعمال أشخاص آخرين (الشياطين أو الأرواح النجسة) اما في التجربة (قاموس اللاهوت الكتابي) .

حية سفر التكوين (رؤيا ٢٠/٢) هي من خلق الله كسائر المخلوقات (تك ١/٣) . ملاك حر ، ملاك ثائر ، ملاك ساقط ، لذا فهو يحسد سعادة الإنسان (حكمة ٢٤/٢) وهو عدو لمخطط الله . وهو تنّين سفر الرؤيا وقد طرد من السماء مع ملائكته الشياطين وألقي على الأرض . وقد كان « أمير هذا العالم » لكن « المسيح جاء ليرميه أرضاً » (يو ١٣/١٢) .

تبدأ قصة حرب المسيح الكبرى بهذه المبارزة الاحتفالية : « ثم سار الروح بيسوع الى البرية **ليجربه ابليس** . فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى جاع . **فدنا منه المجرب** ... » (متى ١/٤ ..) . **وهكذا فالشيطان يقترب دائماً من البشر كمجرّب** ، كما نرى في الصورة المثالية التي تصور الخطيئة والتي نقرؤها في الفصل الثالث من سفر التكوين . الإنسان ضعيف بطبيعته . وكونه في جسد يجعله أقل ذكاء من الروح المحض . منذ الابتداء إلى اليوم . الخطيئة هي قبل كل شيء عمل القدرة المراوغة ، الحية القديمة ، أب الكذب ، الشيطان . فإن كان لا بد من تسمية هذه القدرة ، فقد يكون أفضل اسم لها هو « المجرب » .

صراع المسيح ضد العدو أدى إلى انتصار جوهري . إنما ، ككل عمل قام به المسيح ، يجب أن يتابع ، أن يتحقق في صراع المسيحي

الروحي . خطة المجرب هي هي دائماً : هو الحية الذي يزحف ، وهو الكذاب . لكن المسيحي المتواضع والحذر ورجل الصلاة ، وقد تقوى بالمسيح ، لا يخافه : «أنا لا أفهم لماذا المخاوف التي تجعلنا نقول : الشيطان ! الشيطان ! بينما نقدر أن نقول : الله ، الله ! » (القديسة تريزيا الكبرى) .

الملائكة

يختم القديس متى قصة تجربة المسيح في الصحراء كما يلي : « فتركه ابليس واذا بعض الملائكة دنوا منه ليخدموه » .

ليست كلمة « ملاك » اسماً طبيعياً بل **اسم وظيفة** : **يعني « الرسول »** . فيجب فهمه في الكتاب كرسول ، حامل رسالة ، على جميع المستويات وتحت أشكال شتى ابتداء « بملاك يهوه » الذي ليس سوى يهوه بالذات وقد تجلى ؛ حتى المرسل الأرضي ، « مرسل » « رسول » ، قد تكون الرسالة داخلية يعبر عنها التصور الكتابي بقوله : « ظهر ملاك في الحلم »... فلنفهم : وحي الهي قوي ، نوراني ، خارق الطبيعة ، ساطع . فلنتجنّب أن نرى دائماً ملائكة محددين ، كما قلنا سالفاً .

كما أنه يجب أن نتجنب أيضاً ألاّ نرى ملائكة البتة . **نصبح خارج الإيمان اليهودي والمسيحي ان نحن أنكرنا وجود الملائكة أو الشياطين . كذلك فإنه من الإيمان الاعتراف بهم أشخاص روحية** (لا جسدية) ، **مخلوقة ، خالدة ، عاقلة وحرة** .

فالملائكة رُفعوا ، بعطية من الله مجانية ، **إلى ما يسمونه « الحياة الفائقة الطبيعة »** . أي أن يشتركوا ، بالمسيح الذي هو رأسهم ، في حياة الله بالذات . مثلنا نحن البشر . هذه هي النعمة ولا شيء أكثر من ذلك . هي مجانية ، لا تخضع لأي استحقاق : وهي أن نكون أبناء الله !

احذروا أن تحتقروا أحد هؤلاء الصغار فإني أقول لكم : ان ملائكتهم في السموات كل حين يعاينون وجه أبي الذي في السموات . (متى ١٨/١٠) .

فنحن إذاً أخوة الملائكة وأخواتهم ، نحن البشر ، أرواح مثلهم ، أبناء الله مثلهم . لكننا أحط منهم قدراً لأننا ماديون أي أرواح « متجسدة » . فالإنسان وسط بين العالمين ، المنظور وغير المنظور ، عالم الأرواح وعالم الأجساد . فينا تلتقي الوحدة التامة بين العالمين ، أي تمام الخليقة . لذلك **فلما أراد ابن الله الأزلي أن يجمع كل شيء** ليؤلّه كل شيء ، صار إنساناً لا ملاكاً . فبطبيعته البشرية هو أحط من الملائكة (عبر ٢/٧) لكنه أرفع منها بكثير بطبيعته الإلهية (عبر ١/٤..) . **وظيفة الملائكة** ؟ يصورهم يسوع كائنات حقيقية نشيطة . فإذ هم يسهرون على البشر ، يرون وجه الآب (متى ١٨/١٠) . حياتهم هي بمنأى عن عبودية الجسد (متى ٢٢/٣٠) . هم في خدمة يسوع (متى ٤/١١ ؛ ٢٦/٥٣ ؛ لو ٢٢/٤٣) (قاموس اللاهوت الكتابي) . هم « حاملو رسالة لخير الذين يجب أن يرثوا الخلاص » (عبر ١/١٤) .

أتظن أني لا أستطيع أن أسأل أبي فيقيم لي في الحال أكثر من اثنتي عشرة جوقة من الملائكة ؟ (متى ٢٦/٥٣) .

« الإنسان على صورته »

هاكم كلمة عميقة لدوشوبوفسكي . تزعج الحياة ايڤان كرامازوف الملحد الثائر ، فيفتش ويتعذب ... فيقول له اليوشا : (أحبَّ الحياة : يكفي أن تحب الحياة ؛ بعدئذ تفتش عن معناها » . محبة الحياة تعني الشعور بهذه النعمة ، أي أن لا وجود لنا إلا بالله ولا نقدر أن نعيش سعداء إلا به . هذا هو المعنى العميق لعبارة : « خلق الله الإنسان على صورته » .

فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه . ذكراً وأنثى خلقهم (تك ١/٢٧) .

« خلق الله الإنسان »

فالإنسان لا يكفي ذاته . واختبارنا اليومي هو اختبار محدوديتنا وضعفنا . أليس هذا تناقضاً ؟: بواسطة العلوم والتقنية ، يهيمن الإنسان أكثر فأكثر على الكون . وفي الوقت عينه تسخر الفلسفات العصرية من « أحلام » « إله — إنسان » المسيحية أو « إنسان —

جديد» الماركسية ، أو «الإنسان الخارق» كما يراه نيتشه ، أو «الإنسان الحر» كما تفهمه الوجودية . وهي تعلن «موت الإنسان» باسم العلم (البنيوية) . «نحن نؤمن أن الهدف الأخير للعلوم الإنسانية ليس بناء الإنسان بل اهلاك الإنسان» (كلود ليڤي ستراوس من الاكاديمية الفرنسية) . «لم يعد بالإمكان اليوم أن نفكر الا بفراغ الإنسان الزائل... وجميع الذين يتكلمون عن الإنسان ومملكته أو تحريره ، وجميع الذين لا يزالون يطرحون أسئلة حول ماهية الإنسان... نحن نجابههم بضحكة فلسفية» (ميشال فوك ، أستاذ في كولاج دي فرانس) .

دون أن نصل إلى هذا اليأس ، على كل منا أن يعترف بحدود الإنسان المتعددة . أولها هذه المحدودية الأساسية التي هي ولادتي... للموت ، وبين الاثنين حياتي التي يجرفها الزمن...

ما العمل إذاً ؟ أنستسلم إلى اليأس كالمراهقين الذين هم أقرب من البالغين إلى حقيقة وجودهم والذين لم يستعبدهم «لهو» الأعمال بعد ؟.. إننا نجد في الإسلام فكرة رائعة وهي أن صرخة الوليد الأولى ونفس المنازع الأخير يؤلفان ويعلنان اسم الله . أمام المحدوديات البشرية ، ليست هذه النظرة نظرة تشاؤم الفراغ حيث يضيع الإنسان الزائل ، بل على العكس هي الإعلان التفاؤلي حول **الإنسان المخلوق المرتبط بما هو فوق** . فإن ما تعنيه كلمة الله ليس أن الإنسان لا يعطي ذاته الوجود ، فهذا واضح للغاية ، وليس ان وجودنا آت من هذا الوجود — الينبوع ، هذا يمكن اكتشافه بالتفكير . إن ما توحيه لنا كلمة «الله» هو أن هذا الوجود — الينبوع ليس قوة دفاقة وغامضة بل هو شخص ، هو الكائن ، هو الذي كان قبل البدء ، أو بالأحرى هو الذي كان ولا يزال وسوف يبقى «**البدء الدائم للعالم وللحياة وللإنسان وللزمن**» .

فالإنسان إذاً مطبوع في جوهره على التبعيّة . وهذه التبعية قد تحط من

كبريائه ومن رغبته الجنونية في أن يكون مساوياً لله . لكنه إذا قبلها بإيمان ورضي بها بحرية فهي ترسخه في وجود متين ، مليء بالمعاني وتحمله إلى آفاق تلغي فيها المحدوديات جميعها ولا يبقى من قلق سوى أن يحب وأن يحب ما فيه الكفاية .

« على صورة الله خلقه خالقاً »

وجبل الرب الإله من الأرض جميع حيوانات البرية ، وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها . فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه ، فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء بأسماء (تك ١٩/٢ — ٢٠) .

دعوة هذا الإنسان المنتصب على رجليه هي في أن يكون خليقة واعية تعرف كيف تؤدي الشكر... ومع هذا « فالإنسان مأخوذ من الأرض » . أي أنه مستمد بالطبيعة المادية حتى أعماق جسده وروحه . انه يأكلها ويشربها ويستنشقها ويلبسها ويتزين ويتعطر بها... إلى أن يعود إلى التراب الذي أخذ منه . إنه آدم الترابي ، من التراب .

لكنه ، وهو الحيوان الوحيد المنتصب على رجليه ، واقف بين الأرض والسماء . إنه يبدو في الكتاب مخلوقاً مميزاً ، رجلاً وامرأة ، خلق وحده في يوم خاص به ، يهتم الله بخلقه . ويأتي شرح ذلك مثيراً إذا ما انتبهنا إليه : « على صورته خلقهما » .

هذا يعني أن الإنسان **صنع ليكون خالقاً بدوره** . فنراه فوق سائر المخلوقات المادية وقد أعطي سلطاناً لكي يخضعها ويتسلط عليها . فبعد أن خلق الله سائر المخلوقات « جاء بها إلى الإنسان ليرى كيف يسميها » . اعطاء الاسم عند الساميين هو علامة التملك ، كل شيء صنع للإنسان : « أعطيك جميع النبات... جميع الأشجار... » : إنه بستاني هذه الجنة . سلمه الخالق سلطانه : « اخلق أنت بدورك... على صورتي ... »

وباركهم الله وقال لهم : انموا وأكثروا وأملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض . وقال الله : ها قد اعطيتكم كل عشب يبزر بزرا على وجه الأرض كلها وكل شجر فيه ثمر يبزر بزراً يكون لكم طعاماً (تك ٢٨/١ — ٢٩) .

لهذا الوحي الأول بعد عميق . فهو يناقض بشدة مدنيتنا . كتب البر كامو : « مأساة عصرنا هي أن العمل ، وقد أخضع بكامله للإنتاج ، لم يعد خلاّقاً . فالمجتمع الصناعي لن يفتح الطريق للمدنية إلا إذا أعطى العامل كرامة الخالق أي إذا وجد مصلحته وفكره نحو

العمل بالذات بقدر ما يوجهه نحو الإنتاج . فالمدنية ، وقد أصبحت ضرورية ، سوف لن يعود بإمكانها الفصل ، لدى الأفراد والطبقات ، بين العامل والخالق » . «كل خليقة هي في ذاتها رفض لعالم السيد والعبد . مجتمع الطغاة والعبيد البشع ، حيث لا نزال نعيش ، سوف لا يجد موته وتجليه إلا على مستوى الخلق » .

« عندما ينتهي الخلق ، في أي قطاع من قطاعات العمل البشري ، يفسد الإنسان إذ يتجرد من انسانيته . وهكذا فكل عمل لا تدخل فيه إمكانية الخلق ليس عملاً إنسانياً . إذا كان كل شيء مفروضاً ، إذا لم يكن للعامل أية إمكانية تقرير أو مراقبة ، إذا لم يستطع أخذ أية مبادرة ، يكون عمله استعباداً : ونحن نعيش هذا الواقع كل يوم » .
(بيار غان ، الخلق ص . ١٩) .

أنا صورة الله الخالق ، ولكن هل أنا خالق على مثاله ؟... هل اجتهد في أن أكوّن تفكيراً شخصياً ! وكلمة لا تكون ترداداً لكلام الغير أو لكلامي السابق ؟ واختياراً سياسياً شخصياً أكون أنا مسؤولاً عنه ! هل قوة الخلق فيّ في حالة سبات أم وعي ؟ وفي أي ميدان : عمل ، فن ، محبة ؟ ألا يوجد داخل امكانياتي حدائق بائرة ؟ وفي وظيفتي ، مهما كان دوري ، هل أدركت كل امكانياتي الخلاّقة وجندتها في سبيل الغير وفي سبيل مصلحتي ؟.. من لا يأخذ مبادرات ومسؤوليات ليس انساناً لأنه لم يعد «على صورة الله» .

«على صورة الله خلقه ابناً»

فالإنسان ، وهو على صورة الله ، مدعو إذاً لأن يكون خالقاً . وهذا يحدد علاقته بالعالم : **بالإشتراك مع الله** ، **علاقة عمل يشترك فيه** الإنسان ذاته ويمد ذراعيه نحو الكون ليجدده .

لكن هذه العبارة الموحاة «مخلوق على صورة الله» تكشف سراً

آخر أعمق بكثير من السابق : **هناك علاقة قرابة بين الله والإنسان** ، علاقة بنوية . إذا ما وعاها الإنسان يمد ذراعيه أيضاً نحو خالقه ويضع يده في يده قائلاً : « يا أبي » .. لم نعد هنا في معرض علاقة المخلوق التي تحدثنا عنها في بدء هذا المقال . بل في معرض شركة الحياة والحب وكل ما بين الأب وابنه . فالإنسان مدعو لتخطي الطبيعة ، لتخطي طبيعته ، لا ليصبح « مثل اله » كما ورد في قصة خطيئة الكبرياء الأصلية ، بل ليصبح حقاً الهاً في شراكة حياة وحب .

الإنسان مدعو إذاً ليكون ابناً لله لا بزوال بشريته بل بتجليها ، بإبلاغها ملء الحياة في حياة الله المعروضة عليه . وهذا السر لا ينجلي تماماً إلا في يسوع المسيح . إنما منذ الخلق ، يبدو الإنسان شريكاً بنوياً لله ، جديراً بحوار ودّي .. — يتنزهان في الفردوس — وبعلاقات عاطفية ... انه بدء تاريخ طويل للبشرية ولكل إنسان ، **تاريخ حب** ، **إذا تاريخ حرية** أيضاً ، إلى أن يبلغ الاتحاد بالله .

لا للاله الذي لا يتغير ، نعم للأب الذي لا يتغير .

اعتراض أساسي : كيف نكون أحراراً ونحن مرتبطون بخالق ! كيف نعيش تاريخاً مع الله والله لا يتغير ؟ كيف نخلق بالاشتراك معه ما دام هو أبدياً ، ثابتاً ، جامداً ، لا يتغير منذ الأزل والى الأبد ؟ ...

كلما تقدمنا في قراءة الكتاب المقدس وبخاصة الانجيل ، اكتشفنا الحقيقة التي تؤلف لبّ قانون ايماننا : من هو الخالق هو أيضاً الحب . الحب وحده خلاّق . وحده يقدر أن يصيّر الإنسان أخيراً شخصاً . وحده يقدر أن يحرر قوى الحرية والعقل

اعتراض ذو منطق مجرد لا يقبل الجدل وهو في أساس الكثير من أنواع الإلحاد... إذا كان الخالق هو قوة القدر التي لا تتغير والتي تتخطى البشرية ، فليس هناك أي مجال لحرية الإنسان الخلاّقة . فلا يجب أن نتكلم بعد عن التاريخ : فليس هناك سوى تمثيلية كتبت وأخرجت سلفاً ، ميلودراما حيث الواقفون على الأمور يعرفون سلفاً متى سيضحكون أو سيبكون .

هذه النظرة الخاطئة تنطبق على اله الفكر الفلسفي . إله الفلاسفة لا تاريخ له . هو «دائماً» خارج الزمن ، **فوق** معترك الناس . هو «غير متغير» في هنيهة لا بدء لها ولا نهاية حيث ماضي العالم وحاضره ومستقبله ماثلة أمام عينيه في آن . كل سياق التاريخ البشري هو أمامه منذ الأزل ككتاب مفتوح : منظر يتحرك أمام أنظار لا تتحرك . . .

إذا كان الأمر كذلك ، فتاريخ البشرية متهم بالتزوير . إذا لم يكن الخالق شريكاً فيه ، إذا بقي فوق «المنصة الرسمية» **فهو** ليس فقط ينظر إلى المباراة تجري **خارجاً عنه** ، بل إذا كان يرى بنظرة واحدة أبدية كل مجراها وكل أحداثها حتى الشوط الأخير ومنذ انطلاقها ، فلماذا المباراة إذاً ؟ الألعاب مجهزة سلفاً ولا يغير أحد منها شيئاً . فكيف يكون اللاعب حراً ، قادراً على اتخاذ مبادرات ، خلاقاً ؟.. إنما من حسن الحظ أن الكتاب المقدس ويسوع المسيح يكشفان لنا عن إله هو غير هذا الإله . فإذا ما خلق الإنسان على صورته ، فلكي يعيش معه كما مع ابن ، لكي يعمل معه . هو يأتي إلى ابراهيم وموسى وشعب اسرائيل . يأخذ المبادرة في **مغامرة كبرى مشتركة** حيث يكثر القلق والمفاجئات .

هكذا **يلتزم الله في سياق تاريخ طويل مشترك** بينه وبين البشرية جمعاء . . . وقد قرر عازماً منذ الأزل على صنع هذا التاريخ . لكنه لم يقرر مخططاً **للإنسان** في كون مصنوع سلفاً ، كلا . **فتصميم الله هو الإنسان بالذات ، في عالم الإنسان ، حيث يستعمل حريته الخلاّقة** . . .

فالارتباط والحرية لا يتناقضان إلا في كتب الفلسفة الرخيصة ، لا في الحياة . **فالمحبان يرتبطان كلياً واحدهما بالآخر ويظلان تامّي الحرية !** ولأن الله محب ، **فهو** يتابع مخططه الذي لا يتغير بالشراكة مع بشر أحرار يريدهم شركاء بكل معنى الكلمة . والالعاب لم تقرر سلفاً لا بالنسبة إلى الإنسان ولا بالنسبة إلى الله ، لأنهما يلعبان معاً وبدون

الخاملتين . بمقدوره وحده احداث شيء في صميم التاريخ ، شيء ، لا العدم . اننا نختبر ذلك كل يوم. . . بوسع القوة أن تقيم بنايات فخمة ، بوسع العنف أن يغير مجرى التاريخ . وحده الحب يقدر أن يخلق الأثمن والـذي في سبيلـه نضحي بكـل شيء ، والذي لا يحوله الموت ذاته إلى تراب . وحده يقدر أن يخلق الفرح الذي لا ينتزعه أحد . (شارل بليار) .

غش . هما متحدان في السرَّاء والضرّاء ، في المسيرة نحو المستقبل . وهذا يناقض الجحود في أبدية لا تتغيّر . أنا لا أؤمن بالاله الأبدي الذي لا يتغير . أنا أؤمن **بالآب** الذي لا يتغير في قرار حبه للبشر ، أؤمن بالآب الأبدي في تصميمه على الحب ليخلص الإنسان أي ليجعل منه ابناً . وباختصار ، لما خلق الإنسان على صورته ، خلقه كما يخلق الأب ابنه : ليقيم ازاءه شخصاً آخر ، حراً مسؤولاً وقادراً على حبه ؛ إذا قادراً أيضاً على رفضه...

فلم يبق أمام هذا الأب ، هذا الاله ، سوى وسيلة واحدة ، **لأنه هكذا شاء** : «اغراء» الإنسان والبرهان عن «حبه المجنون» نحوه . هذا ما يسطع وسط مأساة خطيئتنا ، أي : تجسد الله والمذود والصليب . طرق جنونية يستعملها الله ليجتذب حريتنا التي لا تؤسر...

لكننا قد بلغنا القسم الثاني من قانون إيماننا . وهو سوف يقودنا إلى أبعد من هذا بكثير في سر الإنسان المخلوق في يسوع المسيح .

٤

وبيسوع المسيح

أؤمن بيسوع المسيح

تمتد شهادة ايماننا **المسيحي** على ثلاث مراحل : « أؤمن بالله ... أؤمن بيسوع المسيح ... أؤمن بالروح القدس ... » حاولنا التعمق في المرحلة الأولى . وها قد بلغنا الثانية **والأهم** : « أؤمن بيسوع المسيح ... » .

— كيف ذلك ؟ هل وحي يسوع المسيح أهم من وحي الله الآب ؟

— **إن وحي يسوع هو وحي الآب** ... لذلك ، وحتى لا نزيّف « الله الآب الخالق والكلي القدرة » ، رجعنا في الفصول السابقة أكثر من مرة إلى يسوع المسيح .

— أفكان يجب إذاً أن نبدأ بالقسم الثاني من قانون الإيمان : « أؤمن بيسوع المسيح » ؟

— هكذا نهجت الكنيسة الأولى . اقرأ كتاب أعمال الرسل وأنظر ... وفي رسالة القديس بولس الثانية إلى أهل قورنثية ١٣/١٣ ، لا شك في أن القديس كان يرجع إلى صيغة قديمة جداً لقانون الإيمان : « نعمة سيدنا يسوع المسيح ، محبة الله الآب ، وشركة الروح القدس فلتكن مع جميعكم » . يسوع أولاً ... الذي يكشف لنا الآب والروح .

الابن يكشف الآب

في هذه اللعبة الكبرى ، لعبة اكتشاف الله ، حيث كان المفكرون يظنون أنهم انتصروا ، يخلط الله الأوراق ، بواسطة تجسده ، بنوع أنه يجعلهم دائماً خاسرين :

أعلن المفكرون ان الله روح محض غير منظور .

« اعلموا أن ليس للروح لا لحم ولا عظام كما ترون لي » ، يقول الاله الذي كشفه لهم يسوع القائم من الموت ليلة الفصح (لو ٢٤/٣٩) .

في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله ... والكلمة صار بشراً وحلّ فينا فرأينا مجده مجداً يفيض نعمة وحقاً ، ناله من الأب كابن له أوحد . شهد له يوحنا فنادى : هذا هو الذي قلت فيه : يجيء بعدي ويكون أعظم مني لأنه كان قبلي . (يو ١/١... ١٤ — ١٥) .

— يقول الفلاسفة : الله كلي القدرة .

— لقد أوقف الله وأوثق واقتيد ، يجيب الانجيل (يو ١٨/١٢ — ١٣) .

— الله أبدي لا يتغير .

— لقد بشر به الأنبياء وانتظره الشعب . لقد ولد وعاش ومات وقام من الموت وصعد إلى السماء ، وسوف يعود . **إنه معنا** ، في تاريخنا .

— الله خالق .
— وهو أيضاً « بكر جميع الخلائق » (كول ١/١٥) .
— الله موجود في كل مكان .
— ولد الله في بيت لحم وجاء الناصرة وبشر في كفرناحوم وصعد إلى أورشليم وانزوى في المدن العشر ...

تناقضات ! نعم ولا . ايضاحات مثيرة أي أنها تغير كل شيء . نور جديد مسلط على الأمور يدل على **أن الله أكبر بكثير مما كانت ترجو عقولنا وعلى أن عظمته تمتد إلى اللامحدود ضمن بُعد لم نكن ننتظره ، بُعد الحب** .

الترتيب الذي تنتظم فيه بنود قانون ايماننا يتبع تدرج **وحي الله التاريخي** . بكلام آخر : إنه يرافق **الطريق المادي** ، إذا صح التعبير ، الذي تبعه الله عبر الأجيال ليظهر ذاته للناس : الخلق ، التجسد ،

العنصرة ، أي : الله ، يسوع المسيح ، الكنيسة ...

« أؤمن بالله ... يسوع المسيح ... بالروح القدس العامل في الكنيسة » لهذا الترتيب أهميته : هو ترتيب خطى تدريجية لوحي يتطور في الزمن : لكننا لا نريد أن نبني لاهوتاً (أي عرض لعلم أمور الله) على هذا الترتيب؟... عندما تسير في سهل ، ترى في البعيد بيتاً . كيف تراه ! السطح أولاً ثم الطابق الأول ثم الطابق الأرضي ثم القبو فالأساسات . لكن هذا لا يكفي لبدء البناء بالسطح أولا وبالأساسات أخيراً !

لاهوت مسيحي يتبع ترتيب قانون الإيمان يصل ، تقريباً ، إلى هذه الصورة : « هناك حقائق يمكن معرفتها بالعقل وحده ، وأخرى لا تعرف إلا بالوحي .

١ — « يبرهن العقل على أن هناك الهاً واحداً ، مميزاً عن العالم ، سابقاً للعالم ، ذاتياً ، كلي القدرة ، وبكلمة : هو شخصي ، كلي الكمال : حكيم عادل قدوس ... خلق العالم والناس من لا شيء » .

هناك هوة لا محدودة تفصل الله عن خلائقه ، بفضل طبيعتهم . ويدل الاختبار على أكثر من ذلك وهو ان الإنسان انفصل عن الله بنوع مأساوي لما صنع الشر» .

هذه هي الحقائق التي يقدر أن يتوصل إليها العقل .

٢ — بينما يدلنا الوحي ، وذلك بعد وقت ، ان الله ليس شخصاً بل ثلاثة في اله واحد : هذا هو سر الثالوث الأقدس .

وان الأقنوم الثاني تجسد — هذا هو سر التجسد — لان الإنسان أخطأ . وأنه ضحى بذاته ليخلصه بموته على الصليب — هذا هو سر الفداء . وهكذا يكون الله — وهو الروح المحض والمحرك الأول — مع خليقته الحقيقتين الأساسيتين الأوليين والمستقلتين .

وباستطاعتنا فهمها بحد ذاتها بقطع النظر عن الحقائق الاضافية : الثالوث والتجسد والفداء . بهذا الطحين ، طحين الحقيقتين اللتين نعرفها بالاختبار وبالعقل وحده — الله والخليقة — نقدر أن نصنع جزءاً جيدا لعلم اللاهوت . أي أننا نتوصل إلى معرفة الاله الحقيقي حتى ولو لم يكن الابن قد صار انساناً ، حتى ولو لم نعرف ان الله ابناً . نقدر أن نشرح الخليقة كما يجب دون أن نعرف تجسد الله . بدون الخطيئة ، لم تكن من حاجة إلى التجسد ! ولا للفداء ! بدون الموت ، نتيجة الخطيئة ، لما كان للقيامة فائدة...

هو يسوع المسيح القائم في الوسط

هو صورة الله الذي لا يرى وبكر الخلائق كلها . به خلق الله كل شيء في السماوات وفي الأرض ما يرى وما لا يرى... كان قبل كل شيء وفيه يتكون كل شيء . (كول ١٥/١ — ١٧) .

كلا وألف كلا ! فوحي الاله الحقيقي في يسوع المسيح يقول للعقل الواثق من ذاته أكثر مما ينبغي : لقد كنت على شطط ! لو لم يكن الله ثالوثاً لما كان خالقاً إذ لما كان حباً . لما كان الله ذاته موجوداً لأن الاله الحقيقي حب هو ولا يمكن كذلك إلا لكونه ثالوثاً : من كان وحيداً لا يمكنه أن يحب لأن ليس هناك شخص يحبه !

لا ! ليس الإنسان الخاطىء هو الذي كان سبب التجسد ... إنه لتناقض فظيع أن نجعل الإله السيد والغير المتغير مرتبطاً بأعمال الإنسان الشريرة . لا ! ليست الخطيئة هي التي تفهمنا معنى النعمة . ليس الموت هو الذي يفهمنا معنى الحياة . بل بالعكس فيسوع المسيح القائم في الوسط هو الذي ينير كل شيء . في يسوع المسيح نعرف أن الله محبة وأنه ثالوث محبة . وبما أنه ثالوث محبة فهو يعطي ذاته في الخليقة . والابن المتجسد هو الحلقة الأولى في سلسلة المخلوقات ، الأول والأخير ، وهو السلسلة ذاتها التي بها يستقيم الجميع : « هو كائن قبل كل شيء وكل شيء قائم فيه » .

يجب أن تكون النعمة في البدء حتى تبدو الخطيئة لنا خطيئة . يجب أن تكون الحياة في البدء حتى يبدو لنا الموت موتاً .

أي لاهوت ؟

فكل ما أتمناه وأرجوه أن لا أخزى أبداً ، بل أكون الآن وفي كل حين جريئاً في العمل بكل كياني لمجد المسيح سواء عشت أو مت . فالحياة عندي هي المسيح والموت ربح . (فيلبي ١/٢٠ — ٢١) .

هي هذه الرؤيا «الموحاة» ما سيدرسه بتوسيع القسم الثاني من قانون ايماننا» : «نؤمن بيسوع المسيح ابن الله الوحيد ، ربنا ...» ليس هو لاهوت أفكار ، أفكارنا ، إنما إذا ما انطلقنا من يسوع المسيح ربنا ، لا ننطلق من فكرة بل من رجل وأي رجل !

يكتب القديس بولس لمسيحيي فيلبي . يكلمهم في كل سطر عن رجل يعرفونه جيداً وهو حاضر بينهم وقد استولى عليهم ، رجل امتلأ منه بولس ذاته ، اسمه يسوع المسيح . ويكلم بولس «خدام المسيح يسوع» ، «جميع القديسين في المسيح يسوع» . إنه يحبهم جميعهم «في حنان المسيح يسوع بالذات» ، ويريدهم «ممتلئين من القداسة التي استحقها لنا يسوع المسيح»... وهو بدوره ، بولس ، لا يحيا إلا بيسوع هذا . وفوق ذلك ، إنه لا يحيا إلا فيه ومنه : «حياتي هي المسيح» .

منذ عهد بولس والرسل ، لا يزال يسوع يسحر الناس ؛ لا كموضوع تعجب باديء ذي بدء ، بل كشخص حي ، كمعلم للتفكير والحياة ، خاصة كصديق وكرجاء عالم متخم ، يوماً بعد يوم ، بنحو اقتصادي لا يحمل له السعادة ولا الحب ولا الحياة .

«يسوع الناصري هذا الإنسان...»

«يسوع الناصري ، هذا الإنسان الذي أيده الله عندكم... هذا الإنسان الذي قتلتموه على الصليب...» إنه القديس بطرس «وقد وقف مع الأحد عشر» يكلم الاسرائيليين هكذا في أورشليم يوم العنصرة بالذات» .

«يسوع الناصري هذا الإنسان» .

يسوع هو اسم علم كثير الانتشار بين اليهود ، نجد كثيرين بهذا الاسم في الجليل واليهودية حتى بدء القرن الأول المسيحي . عندئذ

كف اليهود عن اعطاء أولادهم هذا الاسم حتى لا يبقى شيء مشترك بينهم وبين المسيحيين . وكذلك لم يعطه المسيحيون أولادهم احتراماً للذي جعل من هذا الاسم اسم الله الابن بالذات . (لم يرضخ اشراف اسبانيا لهذا المنع وظلوا يعطون في العماد اسم يسوع) .

يسوع بين آخرين

لكل أسماء العلم معنى في العبرية ، كما في الفرنسية ، دزيري ، بنوا (مبارك) روز ، لوسي (نور) عطالله... « يسوع » في نظر الفلسطينيين تعني « الله يخلص » . تسمية الولد « يسوع » كان فعل رجاء بيَهوه مخلص شعبه اسرائيل .

وقد يكون أيضاً رغبة في تحميل الحفيد اسم جده ، والعادة خففت من انتباه الناس إلى المعنى . مما يفكر اليوم أن « فرنسوا » تعني « الفرنسي » و« دومينيك » تعني « الرب » ؟ لكن القديس يوسف ، لما دعا « يسوع » الولد الذي وضعته مريم في بيت لحم ، كان يطيع أمراً إلهياً : « يا يوسف بن داود لا تخف من أن تأخذ مريم زوجتك ، لأن المولود منها هو من الروح القدس . فستلد ابناً تدعو اسمه يسوع لأنه هو الذي سيخلص شعبه من خطاياهم (متى ١/٢٠ — ٢١) . فرأى يوسف ومريم عندئذ — وسيرون منذ الآن كل يوم — في هذا الاسم ذي المعنى نبوءة مصير « المخلص » الوحيد : « هو الذي سيخلص شعبه » . . .

أما بالنسبة لمعاصريه ، فهو « يسوع » بين آخرين : « يسوع الناصري » كما سيقولون فيما بعد ، تمييزاً عن يسوع قانا أو نائين أو كفرناحوم .

يسوع الناصري « ما يوحي لنا هذا الاسم هو أولاً انه يدل على أنه يهودي بين اليهود ، رجل معروف ، يدعونه بكل بساطة ، محبوب لدى البعض ، لغز أو رجل غريب لدى الآخرين . يسوع هو

اسمه البشري اليومي . من أين لنا هذا الميل المزعج وهو أننا نريد أن نترك جانباً الواقع البشري ! (أ.م. بينار) .

تجربتنا نحن ...

عدد من اللاهوتيين والوعاظ لم يكن لهم من غاية سوى جعل وجود يسوع التاريخي دون كبير فائدة بعلة تعظيم لاهوته . هذا العمل إن هو سوى تأويل للعهد الجديد انطلاقاً من فكرة متبعة عن الألوهة . بينا الطريق المؤدية إليها هي الواقع التاريخي والبشري ليسوع . هذه المقاومة العنيدة ، عبر تاريخ المسيحية ، لهذه المعطيات الانجيلية تعني اختياراً بخصوص طريقة علاقتنا بالله ، بالنسبة إلى يسوع ، نتوقف عند نظرة غير إنجيلية بل ثقافية أو دينية . هذا الاختيار جعل ألقاب الشرف المنسوبة إلى يسوع تلعب دوراً لم يكن لها في الأصل... هذه العملية محت ما كان مميزاً عند يسوع وجعلت منه مثالاً لنظرة لاهوتية أو فلسفية مسبقة .

وهكذا توارى يسوع تاركاً المجال لابن الله دون أن تعرف شيئاً عن الابن (كريستيان ديكوك) .

نحن الذين لم نعرفه في حياته على الأرض معرضون الى تبخير بشريته . ترجع بنا هذه التجربة إلى ماضٍ بعيد . فقد كانت هذه احدى البدع الأولى . وهي حاضرة دائماً في العقلية المسيحية : «إذا كان يسوع هو الإله الصالح» ، فلا بأس أن يكون أخذ «جسداً» لأنه تأنس . لكنه لم يأخذ عقلاً ولا إرادة بشريين كعقلنا وإرادتنا : ولماذا يأخذهما ما دام شخص ابن الله الأزلي ؟ في نظرنا نحن المولودين في عائلات مسيحية ، يسوع هو الله ، وذلك منذ نعومة أظفارنا . هو الله قبل كل شيء آخر . علينا أن نعمل جهداً شاقاً لندرك أن يسوع هو إنسان ، إنسان كامل ، إنسان شبيه بنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ، لنقبل أن يسوع لم يكن يعلم كل شيء وأنه تعلم ، وأنه كان حراً وأنه تجرب وأنه كان محروماً من رؤية أبيه المباشرة . يصعب علينا أن نأخذ بالمعنى الحرفي هذا المقطع الرهيب من الرسالة إلى أهل فيليبي (٢/٦ — ٧) :

«يسوع ، مع أنه هو الله وقد صار منظوراً ، لم يفتخر بمساواته بالله ، لكنه تخلى عن ذاته آخذاً صورة عبد وصائرا شبيهاً بالناس ...»

«تخلى» عن أي شيء ؟ «ترك» ماذا ؟ ليس طبيعته الالهية طبعاً . إنما ترك المجد والفرح اللذين كانا من حقه أن ينعم بهما واللذين كان يملكهما في السماء قبل تجسده واللذين كان يجب أن ينعكسا بديهياً على بشريته . لقد اختار حراً أن يحرم منها ليكون شبيهاً بالناس في كل شيء إلى أن يقبلهما من جديد من يد أبيه كثمن تضحيته .

إننا نعرف ذلك مبدئياً فالانجيل يقول إنه كان ينمو في الحكمة

وأنه تجرب وأنه يجهل يوم الدين وأنه واجه في بستان الزيتون اختياراً مريراً — «لتكن مشيئتك ، يا أبت ، لا مشيئتي» — اختياراً حقيقياً تصور لنا جهاده قصة الآلام . هذا الجهاد الحر الذي لم ينته بكارثة : «لتكن مشيئتك لا مشيئتي» . نحن نستبعد بشرية يسوع ... ونبني يسوعاً من طابقين» . يصعد الى الثاني عندما يزعجه الأول كثيراً ، كما يقول الأب جاك كيّاه .

إن هذه النظرية تضع المسيحية في خطر . لو لم يكن المسيح إنساناً مثلنا شبيهاً بنا في كل شيء ما عدا الخطيئة . لو لم يأخذ إنساناً كاملاً . نفساً وجسداً ، كما نقول ، لما كان بمقدوره أن يصير مخلصنا : لما كان اشترك في كل حقارتنا ، لما كان بمقدوره أن يفهمنا في تفتيشنا ، في محنتنا وفي رجائنا . لما كان أحب اباه وأخوته في حالتهم البشرية . لكان خدعنا ولما كان له الحق في الكلام ... على كل حال الإنسان الذي جدده بموته وقيامته لما كان إنساناً كاملاً . كما كتب البابا داماز سنة ٣٧٤ : «لو كان قد أخذ انساناً ناقصاً ، لكانت عطية الله ناقصة وخلاصنا ناقصاً لأنه لم يخلص الإنسان بكامله . فأين يصبح عندئذ كلام الرب : «جاء ابن الإنسان ليخلص ما كان هالكاً ...» بينما نحن الذين نعرف أننا خلصنا بكاملنا وتماماً حسبما تعلم الكنيسة الكاثوليكية ، فإننا نعترف أن الله الكامل قد تحمل مسؤولية الإنسان الكامل» . لحسن الحظ فالتلاميذ قد استعملوا الطريق المناقض لطريقنا ليعرفوا يسوع وسره .

اختبار معاصري يسوع

وجاء يسوع إلى بلده يتبعه تلاميذه . وفي السبت أخذ يعلّم في المجمع . فتعجب أكثر النـاس حين سمعوه وقالوا : «من أين له هذا» وما هذه

عندما نريد اكتشاف يسوع ، ننطلق من الله إلى الإنسان . ونجد صعوبة في اكتشاف «إنسان حقيقي» . بينما أخذ معاصرو يسوع ، وبخاصة الرسل ، الطريق المعاكس : لقد عرفوا أولاً الإنسان . بين يديهم «بطاقة هوية» يسوع الناصري هذا لقد ولد في بيت لحم ، من مريم — ونظراً لوضعه المدني قانونياً — من يوسف سليل داود .

وذلك قبل المسيح بأربع سنوات تقريباً (هناك خطأ في تحديد زمن مولده). صنعته: نجار. شهود ختانته: سمعان وحنة. أولاد عمه (كانوا يدعون أخوته): يعقوب ويهوذا ويوسف وسمعان. لهذا الرجل تاريخ نشوء: تحمله أمه وتلده، يكبر في السن ويعمل ويموت. كل هذا ضمن حدود جغرافية معروفة، محددة.

الحكمة المعطاة له وهذه المعجزات التي تجري على يديه؟ أما هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسف ويهوذا وسمعان؟ أما اخواته عندنا هنا؟ ورفضوه (مر ١/٦ — ٣).

في سن الطفولة تعلم كيف يتكلم ويلعب ويصلي ويقرأ. كان مطيعاً لوالديه. بعد زمن عرفه الرسل رجلاً. رأوا في يسوع انساناً. لما دعاهم يسوع على شاطىء بحيرة طبريا، لم يكن بعد ذلك الواعظ العظيم. لم يكن يحمل «اجازة» وهذا ما لامه عليه الدكاترة. هو يتكلم الارامية مثلهم وبلهجة أهل الجليل. مدة سنتين أو أكثر مشوا معه وأكلوا وشربوا وناموا بقربه. وكان خبز يومهم أن يتبادلوا السلام في الصباح الباكر وأن يأتوا بالحطب ويوقدوا النار وينتشلوا الماء ليغتسلوا في ذات الوعاء. وكم هربوا معاً من شرطة رؤساء الشعب...

وأخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وبدأ يشعر بالرهبة والكآبة. فقال لهم: «نفسي حزينة حتى الموت. انتظروا هنا واسهروا». وابتعد قليلاً ووقع على الأرض يصلّي حتى تعبر عنه ساعة الألم إن كان ممكناً. فقال: «أبي، يا أبي! أنت قادر على كل شيء فابعد عني هذه الكأس ولكن لا كما أنا أريد بل كما تريد أنت». (مر ٣٣/١٤ — ٣٦).

رأوه فرحاً (لو ٢١/١٠)، شفوقاً (لو ١٣/٧؛ مر ٣٤/٦)، دامع العينين (لو ٤١/١٩ — ٤٢؛ يو ٣٣/١١...). ورأوه غاضباً أيضاً (متى ٢٣/١٦؛ مر ٥/٣؛ ١٢/٨؛ ١٤/١٠؛ يو ١٥/٢؛ ٣٣/١١).

من الممكن إذاً أن نغضب دون أن نخطأ، كما يقول صاحب المزامير. يجب ألاّ نطمس هذه الملاحظات المعيوشة والا ننكرها لاعتبارات تقوية. «لقد كان ليسوع جهاز عصبي. والجهاز العصبي وجد... لثورة الأعصاب» (وبري).

ورأوا فيه أكثر من ذلك: رأوا هذا الإنسان يسوع يصلي وكان يقضي ليالي في الصلاة. ابتداء بصلوات كفرناحوم اذ هو يشكر بعد العجائب الأولى (مر ٣٥/١) حتى بستان النزاع. يسوع هذا ساجد

أمام الله . ما معنى هذا السجود لو لم يكن إنساناً حقاً ؟

رأوه أيضاً يرتجف ويخر على الأرض في نزاعه هذا . أمام العذاب والعار والموت . سمعوه يصرخ إلى أبيه شاكياً وحشته الرهيبة على الصليب .

هناك ظاهرة لم تسترع كثيراً الانتباه لكنها معبرة : بما يخص الدينونة » لا أحد يعرف اليوم ولا الساعة . يقول يسوع . ولا ملائكة الله ولا الابن الا الآب وحده » (متى ٣٦/٢٤) . لا نحملن هذا النص ما لا يحتوي ولا نرفض ما يقول بوضوح ساطع . يقول يسوع أنه لا يعرف . والقراءة النزيهة تقتضي أن ندعه يقول انه لا يعرف . فلا ننسبن إليه (malhonnête restriction mentale)
« الابن لا يعلم ... (والمضمر) لا يعرف ليقول لكم ...

يسوع يعرف كل ما هو ضروري لاتمام رسالته : لقد ابتدأ الملكوت . إنه هو المسيح . وهو ابن الله ... وكل أنواع النظريات التي أرادت أن تنسب إلى يسوع معرفة شاملة . معرفة لا تنفع مشروعه . تتطلب اعادة نظر . أو يجب أن نرفض الأناجيل .

مدهش هذا الرجل

لا . لم يلبس يسوع الناصري لباساً يستتر تحته رجل آخر . فهو ليس دمية الهية يحرك خيوطها الآب أو الكلمة . إنه إنسان . لا إنسان آلي : بل إنسان حر .

ولكن . أي إنسان هو ؟

« إنه يعلم بسلطان . وهو يأمر أيضاً الأرواح النجسة فتطيعه » (مر ٢٧/١) .

« إنه يجدف . من يمكنه أن يغفر الخطايا غير الله وحده » (مرقس ٧/٢) . « حتى الريح والبحر يطيعانه » (مرقس ٤١/٤) .

وقال يسوع : « الله جعل السبت للإنسان وما جعل الإنسان للسبت » . وابن الإنسان هو سيد السبت » (مر ٢٧/٢ — ٢٨) .

معاصرون مدهوشون ، مرتعبون ، مشككون . سؤال مطروح عليهم : وتلاميذه ؟... في قيصرية فيليبس ، سألهم يسوع :

من أنا في نظركم ؟
— أنت المسيح !

بطرس الذي أجاب (مر ٢٧/٨ — ٢٩) : الإنسان يسوع هو **المسيح ... ما معنى ذلك ؟**

المسيح أي الممسوح

يسوع الناصري هو « المسيح » . بنوع أن الإسمين أصبحا متلازمين . بينما ليست كلمة «مسيح» علماً ككلمة « يسوع » . فالمسيح ليس اسماً آخر ليسوع . وكذلك القول في كلمة « ماسياً » . مسيح تعريب يوناني للصفة الارامية « ماسيا » . وهكذا أدخل العهد الجديد كلمة مسيح وكلمة ماسيا اللغة الفرنسية . **فهما** أصلاً كلمة واحدة **لها المعنى ذاته** .

يذكر لنا يوحنا الانجيلي الكلمة الآرامية التي نادى بها اندراوس أخاه بطرس : « لقد وجدنا ماسياً » . ثم يشرح باليونانية : « الذي تفسيره المسيح » . ماسياً أو المسيح يعني مَن قبل المسحة بالزيت . **فهو** مسيح (الرب) .

المسحاء ... المسيح

كان سكب الزيت على رأس إنسان في العهد القديم ، الطقس الذي يكرس به الله نبياً أو رئيس كهنة أو ملكاً بنوع خاص . علامة حسية **وفاعلة** — كالسر عندنا — **لعطاء الروح القدس من حمله الله رسالة لخدمته** ولخدمة شعبه اسرائيل (خر ٢٢/٣٠) .

فالطقس والكلمة ينطبقان تماماً على **داود . الملك الذي أسَّس**

ثم قال صموئيل ليسى : « أهؤلاء جميع الغلمان؟ » فقال له : « قد بقي الصغير وهو يرعى الغنم » . فقال صموئيل ليسّى : أرسل فجئنا به لأنّا

أورشليم . **ومن بعده على الملوك المتحدّرين منه** . فيجب أن يملك مسيح الله كعلامة ووسيلة لملك الله . والله معه في كل أعمال ملكه (مز ٢٠) .

لا نتكيء حتى يأتي إلى ههنا » . فأرسل وأتى به وكان أشقر حسن العينين وسيم المنظر . فقال الرب : «قم فامسحه لأن هذا هو» . فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط أخوته (١ ملوك ١٦/١١ — ١٣) .

والحال أن الله وعد داود ونسله ، و« للعصور المقبلة » ، بابن لداود » ممسوح **أي ماسياً ، مسيح ، وذلك لملك دائم وشامل**... وكل تاريخ اسرائيل سوف يتوق منذ ذلك اليوم إلى هذا القطب المضيء . وبخاصة منذ سبي بابل . «فالأنبياء لا يزالون ينظرون إلى تحقيق الوعد الذي قطعه الله لداود . وسوف يوضحون شيئاً فشيئاً قسمات هذا الماسيا المنتظر الذي ، إكمالاً لرسالة الخلاص الملقاة على عاتقه بأمانة وقوة ، يجب أن يلبس ملء روح الله (اشعيا ١/١١ ... — ١/٤٢ ...) وأن يكون نبياً بقدر ما هو ملك وأن يحمل حتى النهاية دعوته كخادم الله ، هذه الدعوة التي سوف تقوده حتى الكفارة بالآلام (اشعيا ١٣/٥٢ — ٥٣) . ففي مفهوم الأنبياء ، المسحة الحقيقية المعدة لهذا المخلص سوف لا تكون مسحة بسيطة طقسية بل مسحة من نوع آخر . سوف تكون قبل كل شيء وضع يد الله على مسيحه » (فبارد) فلنقلها علانية : سوف تنزل الالوهة كاملة على الإنسان يسوع وتلج أعماق كيانه منذ اللحظة الأولى .

ولما ظهر يسوع ، كان اسرائيل ينتظر ماسياً ، المسيح .
ولكن ، إذا كان اسرائيل ينتظره ، فلماذا صلبه ؟

يسوع المسيح ؟ ماسيا ؟.. نعم ولا

ذلك أنه كان بين يسوع واسرائيل سوء تفاهم أساسي حول ملك الله ورسالة «ابن داود» الملكية . فاسرائيل ينتظر بحرارة ماسيا ، المسيح . وكان هذا اللقب يتراكض على شفاه المعجبين بيسوع الناصري . السامرية ذاتها ، وقد شعرت بأن يسوع نبي . أقامت قريتها وأقعدتها : «تعالوا انظروا هذا الرجل الذي قال لي كل ما فعلت : اما يكون هو ماسياً ؟» (يو ٢٩/٤) . وهكذا فعل اليهود

فلمّا شبعوا قال لتلاميذه : «اجمعوا ما فضل من الكسر لئلا يضيع منها شيء» . فجمعوهـا وملأوا اثنتي

المؤمنون الذين اشتركوا في عيد المظال وسمعوا بيسوع يعرض علناً آراءه ! « هذا الرجل هو المسيح » . لكن البعض عارضوهم قائلين : « هل يأتي المسيح من الجليل ؟ ألم يقل الكتاب أنه سوف يأتي من نسل داود ومن بيت لحم حيث ولد داود ! (يو ٧/٤٠ — ٤٢) .

عشرة قفة من الكسر التي فضلت عن الآكلين من أرغفة الشعير الخمسة . فلما رأى الناس هذه الآية التي صنعها يسوع قالوا : « حقاً ، هذا هو النبي الآتي إلى العالم » . وعرف يسوع أنهم يستعدون لاختطافه وجعله ملكاً ، فابتعد عنهم ورجع وحده إلى الجبل . (يو ٦/١٢ — ١٥) .

والحال ان هذا اللقب « ماسياً » ، « المسيح » الذي أثار بحماس حمية الشعب ورجاءه والذي يدور على كل الألسنة لأن الأزمنة التي تكلم عنها الانبياء بخصوص مجيئه قد اكتملت ، هذا اللقب الذي يملأ أفواه وقلوب بولس والرسل ، يبدو أن يسوع يرفضه ... ما عدا في الحديث الخاص مع السامرية — ولم يكن هذا جواباً — **فهو لم يعلن أبداً انه ماسيا** . أبداً .

وعند اعتراف بطرس في قيصرية فيليبس : « أنت المسيح » ، لم ينكر يسوع ذلك لكنه أمرهم قطعاً ألا يقولوا ذلك لأحد » . وكل مرة كان المستفيدون من عجائبه يصرخون بحماس : « أنت المسيح » ، كان يجبرهم على السكوت .

خرج على القاعدة مرة واحدة : أمام رئيس الكهنة ، وجد يسوع ذاته بغتة مجبراً على اعلان ذاته : « أأنت ماسيا ؟ »... لا مناص من الجواب : عليه أن يقول الحقيقة أو أن يكذب . لكنه هو الحق . هو يعلم أن المسألة بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت . فأجاب : « أنا هو » . قبل بأن يحكموا عليه بالموت لأنه أعلن ذاته ماسياً أو المسيح . أمام سؤال رسمي ، لم يعد باستطاعة يسوع أن يتخلى عن لقب ماسيا . سيما وأن الساعة قد حانت لكي يجلو الصدأ الذي كان قد ألصق بهذا اللقب .

ودنا إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدى وقالا له : « يا معلم ، نريد أن تلبي طلبنا » . فقال لهما : « ماذا تريدان أن أعمل لكما ؟ » فأجابا : « اعطنا أن نجلس واحد عن يمينك وواحد عن شمالك في مجدك » . (مر ١٠/٣٥ — ٣٧) .

فهذا اللقب كان قد أزعجه طيلة حياته العامة . لماذا ؟ لأن ذهنية رؤساء الشعب كانت بعيدة جداً عن أن تنتظر من المسيح « عزاء اسرائيل » كما كان ينتظر سمعان الشيخ : « خلاص الله لجميع

الشعوب والنور الذي ينير الأمم (لو ٢/٢٥...) بل على العكس كانوا قد ربطوا الفكرة المسيحانية بالأرض : كانوا ينتظرون محرراً سياسياً . كانوا ينتظرون ثورة قومية محصورة بهم . فالمسيحانية كانت مرتبطة بدور « ابن داود » العسكري لمجد أورشليم الأرضية الأعظم .

لكن القيام بهذا الدور وخلع نير الرومان كان من أواخر اهتمامات يسوع . ذلك كان كافياً لجعله « عدوا لقيصر » ولكان بيلاطس قتله قبل ساعته . كانت رسالته أهم من أن يعرضها للخطر ، وأهم من أن يحاول تحريراً زمنياً ومحلياً محدودا . وأهم من أن يضل الناس بما يتعلق بغاية خلاصه الوحيدة ...

سوء التفاهم الكبير

رفضه المسيرة في هذه الثورة الصغرى والمحدودة في الزمن اثارت انهزام الجماهير بعد حماس تكثير الخبز (يو ٦/٤١...) أجل لقد كان مسيحاً ولكن لا بهذا المعنى . وكان رفضه يسبب الشقاق بينه وبين الاثني عشر . كان بطرس قد أعلن باسمهم في قيصرية فيليبس : « في نظرنا ، أنت المسيح ، ماسيا » .

لكن بطرس والآخرون كانوا يفكرون بمسيح فاتح لا بمسيح متألم . كانوا يفكرون بمسيح ملك على اسرائيل الجديد وبدأوا يوزعون الحقائب . لذلك ، وبعد أن أمرهم يسوع بكتمان سر مسيحانيته ، بدأ يفهمهم أن ابن الإنسان يجب أن يتألم كثيراً وأن يبغض ويقتل ... »

هذا كثير ! فصاح بطرس :

— كلا ، هذا لن يكون ، يا سيدي !

— تراجع يا شيطان ! أجابه المعلم بشدة .

وعقب هذه التظاهرة القاسية الأمر الصارم للتلاميذ : « من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ... » (متى ١٦/٢١ — ٢٤)

وبينما هو يأكل معهم قال : « لا تتركوا أورشليم ، بل انتظروا فيها ما وعد به الآب وسمعتموه مني : يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فتعمدون بالروح القدس .

بعد أيام قليلة فسأل الرسل يسوع عندما كانوا مجتمعين معه : « يا رب ، أفي هذا الزمن تعيد الملك إلى اسرائيل؟ » (اع ١/٤ — ٦) .

لا شك في أن يهوذا تراجع وقتئذ : « لا يمكننا أن ننتظر شيئاً من هذا المسيح المتصوف ومحب الآلام ! »

ويستمر سوء التفاهم الكبير مع الآخرين . بعد الصلب ، عاد تلميذا عماوس خائبين : « كنا رجونا انه هو مخلص اسرائيل ... » (لو ٢٤/٢١) .

وعندما يراه الاثنا عشر قائماً من الموت ، تعود أسطورة الملك الزمني الى الظهور بقوة : « يا رب ، أفي هذا الزمان ترد الملك لاسرائيل ! » .

تجارب يسوع

« أنت الشيطان بالنسبة إلي » أي المجرِّب . هذا ما قاله يسوع لبطرس . هذه هي المشكلة : مدى الحياة وليس فقط في بدئها ، كان على يسوع أن يقاوم الاغراءات الشيطانية التي كان اليهود والتلاميذ يعرضونها عليه . **قصة التجارب في بدء حياته العامة إن هي سوى الشرح ، بشكل سيناريو مأساوي جداً ، للصراع الداخلي والخارجي الذي كان يسوع يعيشه بينه وبين ذاته وبينه وبين الآخرين ، طيلة حياته** .

فاليهود ، وقد أرسل إليهم ، يتلذذون بأحلام طموح وسيادة : « امتلاك جميع ممالك الأرض... وقوتها ومجدها » . هم يتعطشون كثيراً وكالأطفال إلى عالم عجيب وسهل : « لتصر هذه الحجارة خبزاً » ! « ارم نفسك من على جناح الهيكل » . الفريسيون يطالبونه بآيات من السماء ، والجمهور يريد أن يرى المن نازلاً عليه (يو ٢/١٨ — ٤/٤٨ ...) « اليهود يطلبون الآيات » يتأوه القديس بولس (١ كو ١/٢٢) .

ولما رآه والداه تعجبا . وقالت له أمه : « يا ابني ، لماذا فعلت بنا هكذا ؟ فأنا وأبوك تعذبنا كثيراً ونحن نبحث عنك » . فأجابهما : ولماذا

لا . لم تكن التجربة حدثاً فريداً على عتبة حياة المخلص العامة ، بل حرباً مستمرة ، يومية ضد السهولة وحب الظهور ، ضد مسيحانية مزيفة . كان عليه أن يجدد كل يوم هذا الاختيار المضاد .

بحثتما عني؟ أما تعرفان أنه يجب أن أكون لأبي؟» . (لو ٢/٤٨ — ٤٩) .

للتيار . طيلة حياته . لكي يقاوم الطمع والرغائب البشرية التي كانت تولد بمناسبة حضوره أو كلامه .

لم يكن يسوع فاقد الشعور بالنسبة إلى الاغراءات المعروضة عليه من كل جانب . فطبيعته البشرية تأثرت حقاً بكل هذه الاغراءات وكأنها تجارب حقيقية ونداءات لكي يعمل غير ما يجب أن يعمل . وهذا بيّن أكثر من مرة في الإنجيل . وبخاصة لما كان يسوع يبتعد عن جمهور متحمس . خطر . ليلجأ إلى الصلاة والوحدة ... رفض هذه الاغراءات المشبوهة وقبول تصميم الله لم يتما بدون صراع حقيقي وحرب عميقة وتمزق مأساوي داخلي . وهذا أيضاً ما تفترضه قصة النزاع ذاتها ... اختيارات يسوع الحازمة والسخية هي ذات صعوبة مأساوية» (لويس مولوبو) .

يسوع المسيح

بعد أن ولج يوحنا المعمدان سر المسيح . لم يبشر بمسيحانية سهلة ومرحة هدفها التحرير القومي : «هذا هو حمل الله» حامل خطايا العالم» . وسيشرح القائم من الموت لتلميذي عماوس : «اما كان يجب أن يتألم المسيح ويدخل هكذا في مجده؟» .

المجد . نعم . إنما مجد ماسيا . والحال أن مسحة المسيح هي الألوهة التي تأخذ على عاتقها الانسان يسوع . **فلا يمكن إذا إلاّ أن يكون مجده هو مجد الله** : **مجد المحبة** . **حتى الموت** . لذلك فالمسحة الثانية التي تنسكب على جسده كله وتحرقه هي مسحة دمه المهراق .

عندئذ فالتعابير المعروفة التي لم يكن اليهود قد فهموها — مملكة داود . ملك الله الشامل الأبدي — تعابير الأنبياء المبشرين بماسيا . راحت تحمل معاني متماسكة . رائعة : يسوع المسيح هو إلى الأبد نقطة الثقل الحية ورئيس البشرية التي افتداها بدمه .

ماسيا . المسيح . هذا هو معناه .

٥

ابنه الوحيد

ابن الله :

— من أنا في نظر الناس ؟

— في نظر البعض ، يوحنا المعمدان . في نظر غيرهم ، ايليا . وغيرهم ارميا أو أحد الأنبياء ؟

— وفي نظركم ، من أنا ؟

— أنت المسيح ، أجاب سمعان بطرس .

هذا هو الحوار الشهير الذي جرى في قيصرية فيليبس (مر ٨/٢٧ — ٢٩ ؛ متى ١٦/١٣ — ١٦) . جواب بطرس في نص متى ، جاء أوضح : أنت المسيح ، **ابن الله الحي**) .

قلت أنكم آلهة وبنو العلي كلكم . إلا أنكم مثل البشر تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون . (مز ٨١/ ٦ — ٧) .

فمتى والكنيسة الأولى يعبران هنا عن ايمانهما بألوهية المسيح التامة . لاشك في ذلك . أما بالنسبة إلى بطرس ، فإن كان هذا جوابه ، فالأمر مختلف . فالعبارة «ابن الله» كان لها يومئذ معنى مخفف وكانت تنطبق على الناس . ومن جهة ثانية فالرسل لم يكتشفوا الا تدريجياً في يسوع الناصري **حضوراً الهياً خاصاً**... وكانت القيامة والعنصرة ضروريتين ليسطع لهما أخيراً الحق المبين : «إنه الله بالذات» . فنحن نحمل في رؤوسنا تصورات أخذناها عن الكتب : «الأب هو الله ، الابن هو الله ، الروح القدس هو الله» . بينما كان الرسل يرون أمامهم الإنسان يسوع لا غير . لاشك أنهم كانوا ينتظرون بحرارة ماسيا وان يوحنا المعمدان وجه انتباههم . **لكن أحداً لم يكن ينتظر مسيحاً يكون الله بالذات** . فما كان سبيل الرسل إلى هذا الاكتشاف ؟

العجائب يجب ألاّ نتعقّد أمام عجائب الإنجيل ، لا يوجد اليوم عالم

واحد جدّي ينكر أن يسوع صنع عجائب . الشطط هو في أن نضخم تأثيرها على الجمهور الذي عاينها . فرؤوس معاصري يسوع كانت ملأى بالعجائب ، لا من تلك العجائب الصغيرة كشفاء مقعد أو إقامة فتاة من الموت... بل كالبحر ينشطر إلى قسمين بعصاة موسى ، والمن النازل من السماء كالمطر ، وأسوار أريحا ساقطة أرضاً أمام نفخة... بوق ، والشمس متوقفة في مسيرتها... إنها عجائب مهمة . (لقد رأى النقد العصري هنا دور الشعر والفتوى الأدبية ، وهو على صواب) . أما عجائب يسوع ...

فـأجـابهم يسوع : «الحق أقول لكم : أنتم تطلبوني لا لأنكم رأيتم الآيـات بـل لأنكم أكلتم الخبز وشبعتم.. فقالوا له : «أرنا آية حتى نؤمن بك ! ماذا تقدر أن تعمل ؟ آباؤنا أكلوا المن في البرية ، كما جاء في الكتاب : أعطاهم خبزاً من السماء ليـأكلوا» . (يو ٦/٢٦... ٣٠ — ٣١) .

ملاحظة أولى : **عجائب يسوع خيّبت آمال الكثيرين** . **فهي لا تستحق الاهتمام** . أعمى يرى ، أعرج يمشي ، لا بأس في ذلك ! فإذا ما قابلناها بعجائب موسى ، ماذا يبقى منها ؟ ومع ذلك فلم يخطر ببال أحد أن موسى هو الله... تذكروا عجيبة الخبز : لا شك أن الجمهور تحمس لكنه طلب من يسوع أن يصنع أفضل من ذلك : لقد أعطاهم موسى المن في البرية ! بتعبير آخر : «لا بأس بما صنعت ، إنما المن شيء آخر ! ! أعطنا آية تنزل من السماء ! تجاه عجائب موسى والصحراء الهامة ، تبدو عجائب يسوع هزيلة . فبإمكانها أن تبرهن عن مسيح مبتدىء لا عن اله البتة .

وبالعكس . **وهذه هي الملاحظة الثانية** : **ان ما يضفي على عجائب يسوع ثقلاً غريباً هو كونها عجائب شخصية**...

ولما وصلوا إلى دار رئيس المجمع رأى يسوع الضجيج وبكـاء النـاس وعويلهم . فدخل وقال لهم : «لماذا تضجون وتبكون ؟ مـا مـاتت الصبية ، لكنها نائمة ! » . فضحكوا عليه . فأخرجهم جميعاً . ودخل بأبي الصبية وأمها والذين كانوا معه إلى حيث كانت الصبية . فأخذ بيدها وقال لها : «طاليتا قومي ! أي : يا صبية قومي» فقامت في الحال . (مر ٥/٣٨ — ٤٢) .

في العهد القديم ، يبشر النبي بما سيصنعه يهوه . وهو ليس سوى وسيلة . أو عندما يقيم ايليا أو اليشاع ولداً من الموت ، فإنه يسجد إلى الأرض ويتضرع وكأنه يجبر الله على اجتراح أعجوبة القيامة هذه . بينما عندما يقيم يسوع ولداً من الموت فإنه يدخل الغرفة أو يوقف موكب الجنازة ويأخذ بيد الميت قائلاً : «قم» فيقوم الولد ! «انفتحي» فيسمع الأطرش . كلمة لا غير . أو محض حركة . كلمة

من فيه ، حركة من يده ، دون الرجوع إلى الله . ما أثر في الشهود ولم يكن قد حدث من قبل هو هذا السلطان الشخصي . هذه هي عجائب يسوع ، لا لأنها خارقة (كان يسوع يكره الدعايات) بل لأن الفضل فيها لا يعود لغير يسوع . ما صعق حقاً هؤلاء الناس ، الذين يؤمنون أن الأعجوبة هي من صنع الله وحده ، هو هذا السلطان الشخصي ، سلطان يسوع : هذا السلطان كان سلطانه الخاص .

لذلك فكل أعاجيبه حملت على ذات التساؤل الذي يتكلم عنه الإنجيل عند تهدئة العاصفة : «من هو هذا الرجل يا ترى؟» لسنا بصدد درس لاهوتي . فنحن لا يمكننا القول : «هذا هو ابن الله . الاقنوم الثاني من الثالوث الأقدس» . لكن الواضح هو أن قوة تسكن هذا الرجل . إن في داخله حضوراً ما . وهكذا فنحن محمولون الى سرّ أعمق...

مغفرة الخطايا

لأول مرة يسمع مخلع كفرناحوم هذا الكلام : «مغفورة لك خطاياك !» والخاطئة في بيت سمعان (لو ٧/ ٤٨..) ولاوي وزكا والزانية واللص...

بالنسبة إلينا ، نحن المسيحيين ، المعتادين على ذلك والمدللين ، المغفرة أمر طبيعي . إنما في زمن المسيح ، لم يكن إنسانا قط قد سمع هذا الكلام : «مغفورة لك خطاياك» . أبداً . **لأن الخطيئة اهانة لله . والله وحده يقدر أن يغفرها** . هذا ما فهمه الكتبة الحاضرون :

— كيف يقدر هذا الرجل أن يتكلم هكذا ؟ إنه يجدف ! من يمكنه أن يغفر الخطايا غير الله وحده ؟ هذا واضح . قال لي أحدهم : «نترك لكم الضرائب هذه السنة» . إنه الجابي أو انه مهرّج لكن يسوع سيبرهن أنه ليس مهرجاً !

— «مغفورة لك خطاياك». ما أسهل هذا القول ومن يمكنه التحقق من نتيجته؟ لكن الأصعب هو القول: «قم احمل سريرك وامشي». **والآن لكي تعلموا ان لابن البشر سلطاناً لمغفرة الخطايا**، أقول لك: «قم وامش»... وهكذا تأخذ الأعجوبة — هذه الأعجوبة وسواها — أهمية كبرى: كعلامة أن الله موافق، **إنه مع يسوع**. هل لاحظ الرسل أن يسوع نسب هكذا لنفسه سلطة الله بالذات، وبموافقة الله؟... سؤال جديد ومهم لم يبارح تفكيرهم...

ربّ الشريعة

سلسلة ثالثة من الأحداث: ينصب يسوع ذاته غالباً وعلناً سيداً لشريعة موسى التي هي شريعة الله... فلندع الكلام الآن عن السبت. لم يشك يسوع يوماً بشريعة السبت. لكنه أثار قضية الشروح الضيقة والقانونية المتطرفة التي كانت تمنع هذه الشريعة من أن تكون قابلة للحياة كما كانت تقلل من الثقة بالله ذاته.

كان سفر الأحبار (١١...) قد أكثر من قوانين البرارة والنجاسة وذلك باسم الله. فجاء يسوع وقلب كل هذا بضربة مكنسة. «ما ينجس الإنسان هو ما يخرج من قلبه».

في العظة على الجبل (متى ٥) تعود العبارة الآتية ست مرات: «لقد قيل للأقدمين (أي قال موسى باسم الله).. أما أنا فأقول لكم...» شيء غريب: ينصب نفسه رباً للشريعة الالهية، لكلمة الله! وهو المتواضع، الفقير، قدوس الله، من لم «يتهمه أحد بخطيئة». «فأما أنه يجدف واما انه مجنون واما أنه إله». والأمر واضح لتلاميذه: ليس مجدفاً ولا مجنوناً...

ابن الله، ابن الإنسان

«أنت ابن الله الحي» يقول سمعان بطرس في انجيل متى. هكذا يتكلم إيمان الكنيسة الأولى وايماننا. لكن **هل لاحظتم أن يسوع لا ينسب**

إلى نفسه أبداً لقب « ابن الله » ؟

لماذا ؟ الجواب في الفصل الثاني من هذا الكتاب : «كان يهوه قد أوحى بأنه اب لشعبه . في العهد القديم . فكل اسرائيلي هو ابن الله بالمعنى الواسع . هذه العبارة إذا لا تدل . في المحيط اليهودي . على بنوة المسيح الوحيد والأزلية التي تعترف بها الجماعات المسيحية فيما بعد .

بينما يتكلم يسوع دائماً عن « أبي » و« أبيكم » . طبعاً انه يتكلم عن الله وعن الله بالذات : « أبي الذي هو — بصفة مختلفة — أبوكم » (يو ٢٠/١٧) . لكن يسوع لم يقل أبداً « **أبانا** » واضعاً ذاته في مصاف الأبناء وفي المستوى الذي نحن فيه . **فهو يقول إما** « أبوكم » **وأما** « أبي » ... عندما **تصلون** : **قولو** « **أبانا** » ... يسوع يصلي معنا ولا شك ولكن بصفة خاصة جداً . **فهو** « **الابن الحبيب** » **أي الوحيد وهو يعلم ذلك** . لذلك فنحن نصلي « بيسوع ربنا » . فنحن لسنا أبناء إلا بالاشتراك ببنوته الفريدة .

هذه البنوة الفريدة . إذا كانت العبارة المألوفة « ابن الله » قد أضعفتها . فهي على العكس بارزة في هذه الكلمة البسيطة مع اداة التعريف « الابن » . « الابن » مثل « الأب » بصفة خاصة وفريدة تماماً . لذلك . **وبخاصة في إنجيل يوحنا . نسمع يسوع يكلمنا غالباً عن** « **الابن** » **بصورة الغائب وهو طبعاً يتكلم عن ذاته** (مر ١٢/٦ ؛ ١٣/٣٢ ؛ متى ١١/٢٧ ؛ لو ١٠/٢٢ ... راجع خاصة مثل الكرامين القتلة الواضح) .

فإن كان لا يدعو ذاته « ابن الله » . **فهو على العكس يعرّف عن ذاته غالباً** «**كابن الإنسان**» . عبارة غريبة للفرنسي المتوسط الثقافة وفي القرن العشرين . فقط لأنها تحمل معنى كتابياً دقيقاً . **فهي** تذكّر « بابن الإنسان » الذي تكلم عنه النبي دانيال . ذلك الشخص الذي يحمل

فقال صاحب الكرم : ما العمل ؟ سأرسل إليهم ابني الحبيب لعلهم يهابونه إذا رأوه . ولكنهم لما رأوه قالوا فيما بينهم : ها هو وارث الكرم ! تعالوا نقتله ليعود الكرم إلينا . فرموه خارج الكرم وقتلوه . (لو ٢٠/١٣ — ١٥) .

ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن البشر آتياً على سحاب السماء فبلغ إلى القديم الأيام وقرّب إلى أمامه . وأوتي سلطاناً ومجداً وملكاً . فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه وسلطانه سلطان أبدي لا يزول

مصير البشرية جمعاء : «يأتي على غيوم السماء... ويعطي سلطانا ومجداً وملكاً . وجميع الشعوب والأمم والألسنة يخدمونه ، وسلطانه سلطان أبدي» .

وملكــه لا ينقرض . (دا ١٣/٧ —١٤) .

بينما يسوع الناصري هذا ، هذا الوضيع «ابن الإنسان الذي ليس له موضع يسند إليه رأسه» (متى ٢٠/٨) «والابن جاء لا لِيُخدم بل ليخدم ويعطي حياته فداء عن الكثيرين» (متى ٢٨/٨) . هذا «ابن الإنسان» سوف يأتي على سحاب السماء بقوة ومجد عظيم» (متى ٣٠/٢٤) ... «ابن الإنسان هذا سوف يجلس على عرش مجده» للدينونة العظمى ويديننا على حبنا للفقراء (متى ٣١/٢٥...) .

لقب «ابن الإنسان» هذا أحبه يسوع لأنه لقب مسيحاني نموذجي . وبعكس لقب ابن الله هو لا يحتمل أي غموض . إنما بعد القيامة أهمل المؤمنون عبارة «ابن الإنسان» لأن عبارة «ابن الله» كانت قد أخذت معنى جديداً ، دقيقاً ، لاهوتياً : في وحدة الله أقانيم عديدة ، منها الابن الذي هو ابن الله الخاص .

أنا في الآب والآب فيّ

يسوع إله ... يسوع إنسان ... وهو هو شخص واحد .
هذا ما يبدو من الأحداث .
لكن لماذا صار هذا الاله إنساناً ؟

يقول لنا : «كل شيء أعطي لي من أبي . ولا أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يبين له» (لو ٢٢/١٠) .

تفهمون معنى كلمة «عرف» في اللغة الكتابية : هي الاتحاد في الحب ، هي الشراكة التي لا شراكة بعدها ، هي المودة التي لا تعرف الأسرار ، الحب الزوجي ... **لقد أرسل الأب ابنه إنساناً لكي**

« **نعرف** » **الله في هذا الإنسان** .

من هنا هذا الحوار الغريب بين يسوع وفيليبس :

لو كنتم تعرفونني ، لعرفتم أبي أيضاً (في الواقع ، في سر التجسد) ، **من الآن أنتم تعرفونه لأنكم رأيتموه** .

يا سيد ، أرنا الآب وهذا حسبنا ...

منذ زمان طويل ، وأنا معكم ولا تعرفني يا فيليبس ! **من رآني فقد رأى الآب** . فكيف يمكنك أن تقول أنت : أرنا الآب ، **ألا تؤمن أني في الآب وأن الآب فيّ** ؟ الكلام الذي أقوله لك ، لست أقوله من تلقاء نفسي . (بينما الأعمال التي أعملها) فالآب الساكن فيّ هو الذي يعملها . صدقوني **إني أنا في الآب والآب فيّ**» (يو ١٤/٧— ١١) .

وتكلم يسوع في ذلك الوقت قائلاً : «أحمدك يا أبي ، يا رب السماء والأرض ، لأنك أظهرت للبسطاء ما أخفيته عن الحكماء والفهماء . نعم يا أبي ، هذه مشيئتك . أبي أعطاني كل شيء . ما من أحد يعرف الابن إلاّ الآب ، ولا أحد يعرف الآب إلاّ الابن ومن شاء الابن أن يظهره له . (متى ١١/٢٥ — ٢٧) .

قبل هذا الحديث بقليل ، كان يسوع على وشك أن يرجم لأنه أعلن لليهود : «**الآب وأنا واحد**» . هذه وحدة الروح القدس . لأن الوحدة التي تجعلهما واحداً هي أقنوم ثالث : الروح . هذا ما سوف نشرحه في فصل مقبل .

ابن الله الوحيـد

« **الآب هو الله** » . — عندما يقول الكتاب المقدس ، بما فيه العهد الجديد ، « الله » ، **فهو يعني الله الآب** . كذلك فصلوات القداس الطقسية تكاد تكون كلها موجهة إلى الله الآب .

لكن هذه الصلوات تقدم له «بيسوع المسيح ، ابنك» الذي يدعوه الانجيل «ابنه الحبيب» (مر ٦/١٢ وما يقابله في متى ولوقا) «ابنه الوحيد» (يو ١/١٤ — ١٨ ؛ ١٦/٣ — ١٨) .

يدعونه هكذا لأن « **الابن هو الله** » تماماً كالآب . هو مساو للآب

أجابه يسوع : «من أحبني سمع كلامي فأحبه أبي ونجيء إليه ونقيم عنده . ومن لا يحبني لا يسمع كلامي . وما كلامي من عندي ، بل من عند الآب الذي أرسلني . قلت لكم هذا كله وأنا معكم . ولكن المعزي للروح القدس الذي يرسله الآب باسمي سيعلمكم كل شيء ويجعلكم تتذكرون كل ما قلته لكم» (يو ١٤/٢٣ — ٢٦) .

وشبيه به إلى حد أنه يبينه لنا : « يا فيليبس ، من رآني فقد رأى الاب » لأن « الآب وأنا واحد » . واحد ومع هذا فهما اثنان : الآب والابن .

ويزيد يسوع : « سيرسل الآب باسمي الروح القدس » . فهم إذاً ثلاثة . ثلاثة في اله واحد : الآب والابن والروح القدس . لأن « **الروح القدس هو الله** » .

ثلاثة ومع هذا فهم واحد . الآب والابن واحد باتحاد الحب الذي هو شخص ثالث ، الروح القدس . وحدتهم هي « وحدة الروح القدس » . وهذه الوحدة تامة بحيث ان الأقانيم الالهية الثلاثة لا تؤلف سوى إله واحد . هذا هو السر الذي يكشف لنا يسوع « ابن الآب الواحد » . هنا يجب أن نتوقف : سر الثالوث الأقدس .

« **ثالوث** » « **طبيعة** » « **اقنوم** »

يجب أن نلاحظ أولاً أنه لا يسوع ولا الأناجيل قاموا بعملية جمع للثلاثة . كما أنهم لم يتكلموا عن « الثالوث » . فالمسيحيون الأول اعترفوا بالتعددية في الله الواحد ، قبل أي تفكير لاهوتي . فكانوا يصلون للآب والابن والروح القدس . وبالضبط ، وكما نقرأ في النصوص الطقسية القديمة ، فقد توجهوا إلى الآب بواسطة الابن في الروح القدس .

وتعمد يسوع وخرج في الحال من الماء . وانفتحت السماوات له فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينزل عليه . وقال صوت من السماء : هذا هو ابني الحبيب الذي به ارتضيت » (متى ٣/١٦ — ١٧) .

لقد قبلوا عفوياً ومن دون أن يوضحوا ذلك عقلياً ، ما نسميه اليوم « ثالوث الأقانيم في وحدة الطبيعة الالهية » . فلا وجود في الأناجيل لكلمة « طبيعة » و« اقنوم » . وفي القرن الرابع ، استعارت الكنيسة هاتين الكلمتين من الفلسفة لتوضح قاعدة الإيمان وتصنع ، إزاء غموض ورفض الارطقات ، ما آمنت به وعاشته في البدء » (فاريون) . لذا فمن الخطر تعليق أهمية كبرى على الكلمات والصيغ مثل « ثلاثة أقانيم في طبيعة الهية واحدة » — أو عندما نتكلم عن

المسيح ، «أقنوم واحد وطبيعتان» . أولاً لأننا ، ونحن نردد كلمات صحيحة ، قد لا نكون فهمنا شيئاً من الحقائق ، كذلك الرجل الطيب القلب الذي راح يشرح لي سلوك الدواجن انطلاقاً من الغريزة بينما لم يكن بوسعه أن يقول لي ما هي الغريزة... وبنوع خاص ، ان معاني الكلمات والصيغ تتغير مع الزمن .

هناك كلمات تدل على أشياء محسوسة ، مرئية : ملفوف ، طريق ، حصان ، بيت ، الماء ، النار . فنحن نعلم عما نتكلم .

من كاتب إلى آخر ، من لغة إلى أخرى ، من عصر إلى آخر ، في اللغات القديمة والحديثة ، تدل هذه الكلمات على أشياء معينة يعرفها كل أحد وهي هي في كل مكان وزمان : «ببروباتون» باليونانية ، «أوفيس» باللاتينية أو «بريبي» بالفرنسية تعني كلها ذات الحيوان الذي كان يثغو منذ ألفي سنة كما يثغو اليوم .

أما إذا كانت الكلمات تعني أفكاراً — طبيعة ، أقنوم ، جوهر ، ماهية — فهي كالغيوم : حدودها مبهمة . وما يزيد في الطين بلة هو أنها تتغير دائماً .

تتغير من كاتب إلى آخر ، من لغة إلى أخرى ، من عصر إلى عصر . وقد تتغير في مؤلفات الكاتب الواحد... هكذا حدد المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ أن «سيدنا يسوع المسيح هو مساو للآب في الجوهر بالنظر إلى الألوهية ، وهو مساوٍ لنا في الجوهر بالنظر إلى البشرية» . إذاً كلمة «أومواويوس» ، «مساو في الجوهر» ، لم تحتفظ بالمعنى الواحد في الحالتين !

الاختلاف على الكلمات هو كترك الطريدة وملاحقة ظلها . المهم هو أن نفهم الأشياء وندرك الحقائق .

العائلة لا تُعلِّم انها تعاش

الثالوث الالهي كالعائلة البشرية ، لا يمكن حصرها بكلمات وصيغ . فهي تعيش .

كتب الأسقف الانكليكاني ، جون روبنسون ، في كتابه (ما لا أؤمن به) : «سئلت يوماً بعد احدى محاضراتي ، كيف أعمل لاعلّم ولداً عقيدة الثالوث ، فأجبت ببساطة تامة : لا أعلمه اياه» .

إن هذا الأسقف لعلى حق إذا ما حاولنا فهم قصده . حقائق العيال لا تنحصر في أمثولات باردة كالرياضيات أو اللغة الانكليزية . انها تعاش وتفهم شيئاً فشيئاً ، عبر الحياة اليومية .

لا يعرف المولود الجديد أن له عائلة ، بل هو يجهل ما هي العائلة . هل يشرحونها له بالصور في الحضانة عندما يبلغ عمر الدراسة ؟ لا ضرورة لذلك . فمنذ الأسابيع الأولى ، يشعر بأنه محاط بحب . إنه كائن يحتاج إلى كل شيء . هو يشعر بأن حواليه عطفاً هو الجواب له على كل جوع وكل صرخة . يشعر أولاً بأن هذا العطف هو واحد وغامض ، لكنه قوي ولذيذ . يكفيه أن يصرخ حتى يشعر أنه هنا... ومع الزمن ، يتوصل إلى الاختبار بأن هذا الحضور متعدد دون أن تُفقد وحدته : صوت ناعم وصوت جهوري ، وجه مخملي ووجه ملتح ، يدان ناعمتان ويدان من حديد... كثيرون هم الذين يعيشون ذات الحب ، حوله ولأجله ، ثم يميز البابا والماما . ثم يدرك أنه ثمرة حبهما المشترك . يتعلم يوماً بعد يوم أنهما يعيشان كل حسب طريقته ولكنهما لا يعيشان إلا الواحد للآخر والاثنان معاً له هو ، ولأخوته وأخواته . فهو بدأ يعرف أخوته واخواته ، أعمامه وعماته ، جديه وجدتيه ، أبناء عمه وجيرانه الذين ليسوا من العائلة لكنهم أصدقاء ورفاق... هذه المجموعة المعقدة من الكائنات الغريزة ، ينتظم أفرادها في رأسه وقلبه انطلاقاً مما يرى في الحياة ومما يسمع طيلة سنين . لا حاجة إلى دراسة طيلة عشرة أو عشرين أمثولة .

طبعاً أنتم لا تسألون هذا الولد تحديداً فلسفياً للعائلة أو للأبوة والأمومة . كما أنه لا يقدر أن يرسم شجرة واسعة للعيلة . لكن ما هم ذلك ؟ فالعائلة ليست موضوع درس ، انها مركز حب . فقد تعلمها أفضل مما يتعلمون بالكلمات ، تعلمها عندما رآها تعيش وتحب ، وعندما شعر بأنها تحبه ، وحاول أن يحب مثلها وفيها . هكذا أوحى لنا الله سر عيلته ، سر حياته الثالوثية :

عائلة إلهية ، يكشف لنا الثالوث ذاته وهو يعيش

نحن لا نجد في أية صفحة من الكتاب المقدس عبارة من نوع « إله واحد في ثلاثة أقانيم » . لكن من الصفحات الأولى من سفر التكوين نرى حضور حب كبير حول مهد . أكثر من ذلك : « اسم الله الواحد هو في صيغة الجمع — الوهيم — وهذا الإله الخالق يتكلم مع ذاته بصيغة الجمع : « لنصنع الإنسان على صورتنا » كما لو كان عدة أشخاص يتشاورون فيما بينهم . وأخيراً عندما أراد أن يخلق الإنسان على شبهه ، خلقه اثنين — ذكراً وأنثى خلقهما — يمكنهما خلق ولد : خلقه ثالوثاً . الثالوث — الأب والأم والولد — « صورة الله وشبهه » . فالاله الواحد هو إذاً ثالوث .

ونرى في سفر التكوين أيضاً « نسمة الله » — روح الله — ترف على المياه الأولية كالنسر على فراخه وكأم حول مهد (تك ١/٢) . هو تجسيد بعيد وغامض لرفرفة روح الأب كما نراه في العهد الجديد :

— بشر الملاك العذراء : « الروح القدس يأتي إليك وقوة العلي تظللك . لذلك سيكون ابنك قدوساً ويدعى ابن الله (لو ١/٣٥) . هم ثلاثة : العلي ، الروح القدس ، وابن الله .

— بعد أن عمده يوحنا المعمدان « بينما كان يسوع يصلي ، انفتحت السماء ونزل الروح القدس عليه بشبه جسد حمامة ، وجاء صوت من السماء قائلاً : أنت هو ابني الحبيب الذي به ارتضيت »

(لو ٣/٢١ —٢٢) . صوت الآب على الابن الحبيب تحت رفرفة الروح القدس . إنهم ثلاثة . منذ أول خطاب عام ، يتمم يسوع النبوءة التي يعلن : «روح الرب علي...» (لو ٤/١٨). فها روح الرب ، أي روح الآب ، قد حل على الابن . هم أيضاً الثلاثة .

وفي العهد القديم ، لم يكن قرب الآب الخالق الروح المرفرف على المياه ليخصبها فحسب ، بل كان هناك أيضاً «الحكمة» ويقول سفر الأمثال بلسانها (٨/٢٢..) .

«الرب حازني في أول طريقه... قبل أن أقرت الجبال وقبل التلال ولدت . إذ كان لم يصنع الأرض بعد ولا ما في خارجها ولا مبدأ أتربة المسكونة. حين هيأ السماء كنت هناك... وحين رسم أسس الأرض . وكنت عنده مهندساً وكنت في نعيم يوماً فيوماً العب أمامه في كل حين . ألعب في مسكونة أرضه ونعيمي مع بني البشر» .

هذا القائم قرب الخالق «كمهندس» ، هذه الحكمة «المولودة» منذ الأزل وقبل بداية الأرض ، هي الابن الأزلي ، الكلمة الذي سوف يقول عنها القديس يوحنا :

«في البدء كان الكلمة وكان الكلمة عند الله وكان الكلمة الله . كان منذ البدء في الله . كل به كوّن ولا شيء مما في الوجود صنع بدونه... والكلمة صار جسداً وحل فينا...

يكشف لنا يسوع أباه وروحها في حياته .

وعندما حل فينا الكلمة (الذي يكلمنا الله به) . هذا الكلمة إذاً ، يسوع ، فهو لا يمثل دور أستاذ ، بل يترك للفلاسفة التعابير الفلسفية — طبيعة ، أقنوم ، جوهر ، ماهية — هو لا يعطي أمثولات حول الثالوث ، لا يرسم أشكالاً هندسية (لمثلث الأوضاع ثلاث زوايا مميزة أو متعارضة ومع ذلك فلها ذات المساحة...) كلا .

إنه ، بكل بساطة ، يعيش . يعيش كما هو . يعيش كما يعيش الابن الوحيد . افتحوا الانجيل في أية صفحة : إنه لا يحمل في فكره وقلبه سوى إرادة أبيه ، إنه يصلي لأبيه . ويدعوه بصيغة التصغير أي بلغة الأطفال : «آبّا» ، «بابا» ، لا نجد هذه العبارة في أية صلاة يهودية معاصرة للمسيح . ذلك أنه مقرّب جداً . وهو يكشف عن **قرابة فريدة** .

يسوع ابن الله الوحيد ، ابن الله بالذات ، هو يتكلم عن هذا الأب كما يتكلم عن شخص مميز عنه : «كل ما هو لك هو لي ، وكل ما هو لي هو لك» (يو ١٧/١٠) إنه تمييز مطلق .

ومع هذا فهناك وحدة مطلقة : «أنا والآب **واحد**» (يو ١٠/٣٠) .

— «أنا في الآب والآب فيّ» (يو ١٤/١١) — «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤/٩) الخ ...

وها هو يسوع يكرز في أواخر حياته باقنوم الهي ثالث : «الآن أنا ماض إلى الذي أرسلني .. سأرسل لكم من يدافع عنكم... عندما يأتي روح الحق سيدلكم على الحقيقة كاملة ..» (يو ١٦/٥...) روح مميز تماماً عن الآب والابن ، ومع ذلك فهو روح يؤلف مع الآب الهاً واحداً : «الروح يلج كل شيء ، حتى أعماق الله (الآب)» (١كو ٢/١٠) . روح يؤلف مع الابن الهاً واحداً : «الرب هو الروح ... عمل الرب هو روح» (٢كو ٣/١٧ — ١٨) . فالوحي يضعنا إذاً أمام أقانيم مميزة : الآب والابن والروح القدس ، كل منهم أقنوم إلهي — كما امام وحدتهم في إله واحد . وهو يشدد على ذلك بحيث أنه يجبرنا على اعلان **إله واحد في ثلاثة أقانيم** .

والكنيسة بدورها ... من قيامة الابن وحلول الروح القدس ولدت الكنيسة .

وانطلقت من هذه الكلمات : «اذهبوا إذا وتلمذوا كل الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس...» (متى ٢٨/١٩). فالكنيسة منبثقة من سر الثالوث الأقدس هذا . في أبسط ردات فعلها كما في حركاتها المهمة : اشارة الصليب . الصلاة البسيطة . الأسرار... فهي تهتم بالشروح والبراهين أقل مما تهتم بحملنا **على الحياة مع الاقانيم الالهية وفيها** . وهي تجعلنا نتحد بالآب والابن والروح القدس في الصلاة والمحبة .

أبواب هذا السر المغلق لا تكسر بواسطة أشعة لايزر العقلانية ولا بقوة التعابير المنمقة . هي لا تفتح إلا للحب : يقول يسوع : «إذا أحبني أحد . أبي يحبه واليه نأتي وعنده نصنع منزلاً... والروح القدس الذي سيرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء» (يو ١٤/٢٣ — ٢٦) .

التقرب من «الأقانيم» من «الكلمة»

كتب اللاهوتي المعاصر (هنري بويار) ما مفاده :

«لا يمكن الكلام عن العدد في الله . وان كان اللاهوت . الذي هو فوق كل شيء . يعترف به ثالوثاً أو وحدة . فهو ليس **ثلاثة ولا واحداً بالمعنى الذي نفهم فيه الاعداد في اختبارنا البشري** . ومع أن الله يوحي ذاته بوضوح كثالوث وواحد . يبقى رغم ذلك غير مدرك أبداً . فيجدر بنا أن نرسم دائرة من الصمت حول سره» .

هذا صحيح... فإذا ما قلنا أن في الله ثلاثة أقانيم كما يوجد ثلاثة أشخاص في عائلة — الآب والام والولد — نكون قد اعترفنا بثلاثة آلهة وأنكرنا الإيمان . واذا ما قلنا بالعكس أن الآب والابن والروح القدس هم ثلاثة أشكال يظهر الله من خلالها كثلاث صور

لوجه واحد — صورة مواجهة وصورة جانبية يمينية وصورة جانبية شمالية — نكون قد أنكرنا التمييز بين الأقانيم الثلاثة وأنكرنا الإيمان أيضاً . فلا يمكننا الا أن نقترب من السر...

بصدد الحياة والسر ، لا يمكننا إلا أن نتمتم

لا عجب في ذلك عندما نتكلم عن الله . فإننا بما يتعلق بالشخص البشري البسيط وبالحياة الأرضية . لا يمكننا الا الاشتباه بالسر العميق بها واقتفاء أثره بدون الوصول حقاً إلى أخذه في حبائل الأفكار الواضحة والتعابير الدقيقة . الحياة ؟ حياتك ، حياة صرّك ، حياة زهرة الجيرونيوم التي تسقيها على الشرفة ، لا يمكن لأي عالم أن يحددها لك... ومع ذلك فهذه هي الحياة . الحياة هي فينا وحوالينا . نلتقيها كل وقت ، نعيش في داخلها . ومع هذا لا سبيل لتحديدها بعبارات مرضية . بوسع العلماء أن يصفوا الكائن الحي قائلين : «إنه حي أو ليس هو حي» ، لكنهم يجهلون ما هي الحياة . لدينا نحن بعض الحدس فيما هي الحياة ، لكن سرها الجوهري يتخطانا .

طالما بقيت صيغ الايمان المسيحي التقليدية نقطة انطلاق اللاهوت العقائدي ومقياسه . فهذا اللاهوت معرض لأن يصبح هامشياً حتى داخل الكنيسة . لقد أصبح لاهوتاً اكاديمياً محصوراً في محجر اللاهوتيين وكليات اللاهوت . ولم يعد يؤدي رسالته الأساسية في الكنيسة : خدمة نشر الإيمان... وستستمر هذه الحال طالما التقى اللاهوت بتبرير وشرح معطيات الإيمان التقليدية بدلاً من أن يتكرس لاعادة خلاّقة لهذه المعطيات ذاتها . آخذاً بعين الاعتبار الفكر المعاصر (كلود جافري) .

وهذا صحيح بنوع أكمل عندما يكون الحي شخصاً . مع الذين تعرفونهم معرفة فضلى ، مع زوجك ، مع امرأتك ، مع أولادك . أنت تنتقل من اختبار إلى اختبار... والقسم الذي تجهل يبقى كبيراً وسوف يبقى دائماً كبيراً ، أنت تعلم جيداً أن الذين يزعمون أنهم يعرفونك ، يعرفون منك القليل وبنوع ناقص . هل تظن أنك تعرف أنت ذاتك ؟ يجب أن تكون واهماً لتجيب «نعم» .

فعلى الصعيد الطبيعي والبشري ، لا نزال نجهل الحياة ونجهل الأشخاص ونجهل حتى ذواتنا... أو نعرف منها القليل... هذا لا يمنعنا من أن نعيش ومن أن نتمتم حول موضوع حياتنا ، ونحن على علم أن الحياة والأشخاص لا تختصر في عبارات .

فلكم بالحري فيما يتعلق بحياة الله والأقانيم الالهية فلنرضخ لهذا

الواقع وهو أنه لا يمكننا التقرب من السر إلا من بعيد وان كلامنا يخوننا وان الصور التي نحاول خلقها تأتينا بواسطة مرايا مشوهة . فالإنسان لا يقبض على الثالوث الالهي كما يقبض على فراشة ! لذلك فكل فكرة أساسية هامة — اقنوم ، مساو في الجوهر ، انبثاق — تؤلف العبارات الايمانية قد ادانها الباباوات والمجامع في القرنين الثالث والرابع . ولم تقبل أخيراً إلا لعجزهم عن ايجاد صيغ أوضح ، **شرط أن نعترف بعدم أهليتها** . وهكذا تقبّلوها متمتمات ضعيفة لا أكثر . ونحن أيضاً سنبدأ بالتمتمة...

« **الله محبة** » : **الله** « **أقنوم** »

لقد رأينا مراراً : أن الله يوحي ذاته كشخص وليس كمجموعة قوس غامضة منتشرة في الطبيعة . لقد التقى ابراهيم وموسى : يميزه اسم علم . وبكلمة إنه « شخص » .

فليحبب بعضنا بعضاً ، أيها الاحباء ، لأن المحبة من الله وكل محب مولود من الله ويعرف الله . من لا يحب لا يعرف الله لأن الله محبة . (١ يو ٤/٧ — ٨) .

ولكن ما هو الشخص ؟

الشخص كائن يتمتع بالمعرفة والحرية وبإمكانية الحوار والمحبة . هو كائن ذو علامات . وهذا يظهر عبر كلمات أبرزت للوجود فكرة « الشخص » : في اللغة اليونانية ، كلمة شخص هي « بروسوبون » أي « النظر نحو » . وفي اللاتينية « برسونا » « رنّ من خلال » أي « الكلام موجه إلي » . « نظر إلي » ، « وجه الكلام إلي » يعنيان « العلاقة » . فإذا كان المطلق شخصاً قبل الخلق ، فلا يمكن أن يكون وحيداً والا لما كان « نظروا الي » شخص أو « كلاماً الى » شخص أو علاقة مع شخص .. فإن لم يكن كائناً ذا علاقة ، كائناً محاوراً ، فهو ليس بكائن شخصي أي ليس بشخص ، ولا يمكن أن يميزه اسم علم . إذاً ، منذ الأزل ، الهنا الواحد هو اله « متعدد » .

على كل انه أوحى ذاته : « الله محبة » (١ يو ٤/٨...) . فهو إذاً ذروة « النظر نحو » و« الكلام إلى » . إذ لا يمكن للمرء أن يكون حباً

إلا بالنسبة إلى شخص آخر . إنسان وحيد لا يقدر إلاّ أن لا يحب — يحب من ؟ — أو ان يحب ذاته . إنه ينكمش على ذاته ، يدور حول ذاته . وهذه هي الأنانية أي عكس الحب ، عكس الله لأن « الله محبة » . **فالله إذا متعدد في جوهره . بما انه كائن شخصي . فهو علاقة وحوار** .

الحوار و« الكلمة »

كلمة «حوار» هي ميزة كل شخص وهي تساعدنا على فهم لقب المسيح هذا الذي جعله مألوفاً لدينا إنجيل القديس يوحنا — وصلاة التبشير إذا كنا لا نزال نرددها — وهو لقب « الكلمة » . « الكلمة صار جسداً وحل فينا » .

كلّم الله آباءنا منذ القديم بلسان الأنبيـــاء مرات كثيرة وبمختلف الوسائل . لكنه في هذه الأيام الأخيرة كلمنا بابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء وبه خلق العالم . هو بهاء مجد الله وصورة جوهره . يحفظ الكون بقوة كلمته . ولما طهّر البشر من خطاياهم ، جلس عن يمين الله المجد في العلى . (عبر ١/١ — ٣) .

الكلمة . لقب غريب حقاً . فهو بالنسبة إلى طلاب المدارس والى الإنسان المتوسط الثقافة محض تعبير لغوي : يعني في الجملة **الحدث** الماضي أو الحاضر أو المستقبل . لذلك فهم يصرفونه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . فما هو دور الكلمة المتجسد هنا ؟

التعبير اليوناني الذي استعمله القديس يوحنا هو « لوجوس » «كلمة » . ترجمته اللاتينية « ڤربوم » لم تترجم بل نقلت إلى الفرنسية « ڤرب » . بينما كان الأفضل أن يقال « پارول » . فالله هو إذاً « لوجوس » أي «كلمة » لأنه حب ، لأنه علاقة .

وبما الإنسان لا يتكلم دائماً وحده فهو « ديالوجوس » «كلمة موجهة إلى » آخر ، علاقة مع شخص آخر . الله حوار . **وبما أن كلام الله هو عمل ، فهو خلق . وكلمة الله هي تعبير آخر عن ذاته ، هي ابنه** . ابن يعبر فيه عن ذاته تماماً ودائماً ، لأنه يستمر حياً الآن والى الأبد .

من هنا لقب الابن الجوهري ، لقب غريب لأن الفرنسية لا تترجمه كما يجب « ڤرب » . **يسوع هو كلمة الله الحي ، الكلمة الأزلي قبل تجسده . كلمة تجسد منذ ألفي سنة** .

ماذا يقول « دستور الأساقفة »

في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع كان يعيش في الاسكندرية كاهن متقشف تقي وعالم ، كما يظهر . وكان يدعى آريوس إليكم فحوى تعليمه :

« اله واحد ، أزلي ، غير مولود . سائر الكائنات مخلوقة وفي مقدمتها « الكلمة » . فهو قد خلق من العدم مثل سائر المخلوقات وليس من جوهر الله . هناك زمن لم يكن فيه . وقد خلق بفعل الهي حر . الله خلقه وهو بدوره خلق سائر الكائنات . لذا جاز أن يلقب باله ولو خلافاً للأصول . وقد تبناه الله نظراً لاستحقاقاته . لكن هذا التبني لا يخوله الشراكة الحقيقية في الألوهية أو أي شبه مع الله . إذ ليس لله من شبيه . والروح القدس هو أول خليقة صنعها الكلمة . فهو إذاً أقل ألوهية من الكلمة » .

هذا هدم للمسيح وللمسيحية ! فدعا الامبراطور إلى عقد أول مجمع « مسكوني » — ثلاثمئة أسقف أكثريتهم الساحقة من الشرق — في مدينة نيقيا ، فأدان هؤلاء الأساقفة أريوس وعزلوه وسمحوا لذواتهم بإضافة بعض الأمور على قانون الرسل المرتكز على طقس العماد . هذا ما دعي بقانون نيقيا الذي أكمل فيما بعد في القسطنطينية . هو هذا القانون الذي نرتله في الكنائس . يحتوي صيغاً مجردة وصعبة ، مما حمل البعض على القول : « هو قانون للأساقفة » .

ومع أنه يعود إلى خلاف محلي وتاريخ قديم . فعلينا أن نحاول فهمه لأنه لا يزال حياً في طقوسنا :

وبرب واحد يسوع المسيح :

* **ابن الله الوحيد** : — يقولون بالفرنسية « الوحيد » في القانونين . أما باللاتينية ، فيقولون « الوحيد » في قانون الرسل و« المولود الوحيد »

في قانون نيقيا . وهذا الأخير يوضح أن الكلمة هو ابن بالولادة وليس بالتبني . مع أن هذا التعبير وارد في انجيل يوحنا (١٤/١ — ١٨ ؛ ١ يو ١٦/٣ — ١٨) .

* **مولود من الآب** — هو ابن لأن هناك ولادة . كلمة «مولود» ليست في الكتاب . لكن القديس يوحنا يستعمل تعبيراً أقوى : فهو يتكلم عن «الابن الوحيد الموجود في حضن الآب» (يو ١٨/١) .

* **قبل كل الدهور** :— «ولادة» توحي فكرة البدء . كل ولادة بشرية تحصل في الزمن . ولكل ولادة بشرية يمكن تحديد القرن والسنة . ولادة ابن الله ليست من هذا النوع . إنها ولادة سابقة للزمن ، ولادة أزلية . فلنراجع الكتاب المقدس بدءاً بسفر الأمثال :

«الرب حازني أول طريقه ... قبل أن أقرّت الجبال ، وقبل التلال وُلدت ...» .

وبخاصة مقدمة انجيل يوحنا :

«في البدء كان الكلمة وكان الكلمة في الله (في حضن الله) وكان الكلمة الله . كان في البدء في الله ...» .

* **اله من إله** : — الآب هو إله ، إذاً الابن هو اله : «هو سر أبيه» ألوهة الابن هي عينها ألوهة الآب . «كل ما للآب هو لي» (يو ١٥/١٦) .

* **نور من نور** — عدة مرات يعلن يسوع : «أنا النور» (يو ١٢/٨ ؛ ٥/٩ ، ٣٥/١٢ ؛ ٤٦/١٢) . لم يقل «أنا نور» بل «أنا النور» . ويقول الكتاب أن الله (الأب) نور (١ يو ٥/١ ؛ يعقو ١٧/١ ؛ رؤ ٥/٢٢) . ونحن نعلم من يوحنا أيضاً أن الكيان والحياة والنور والحب شيء واحد في الله .

* **إله حق من إله حق** — «لوجوس» «الكلمة» ليس الله اسمياً أو

بالتبني ولا بمشاركة ، كما زعم أريوس . لا مجال للالتباس : المسيح « اله حق » يتمتع بالألوهية نظراً إلى ولادته من « الاله الحق » أبيه .

قانون الايمان يوضح ما نعرف عن هذه الولادة الأزلية .

* **مولود غير مخلوق** — من براهين أريوس المفضلة أن الله الآب غير مولود بينما الابن مصنوع ، فهو خليقة . فيجيب المجمع بالنفي : ليس الابن مصنوعاً ، ليس مخلوقاً . إنه مولود ، بولادة من نوع خاص غير التي نعرفها هنا على الأرض .

* **مساو للآب في الجوهر** — القانون اللاتيني يترجم اليوناني الأصلي بكلمة : « مساو للآب في الجوهر » . أنصار « إيمان الصيغ » يتحمسون مرات بدون سبب . وقد طالبوا بشدة لأجل ترجمة « مساو للآب في الجوهر » . وليس « من طبيعة الآب بالذات » . إنها مطالبة أولاد إذا ما عرفنا أن النص اللاتيني مترجم وان نص آباء نيقيا الأصيل كتب باليونانية : « omo-ousios » من ذات « الجوهر » أو « الكيان » .. بمعنى « الكنز » أو « المادة » أو « الطبيعة » ..

« omo-ousios » وباللاتينية « consubstantialis » لا وجود لها في الكتاب . إنه تعبير فلسفي يعني — معناه هنا — أشدد على كلمة هنا — أن الآب والابن يشتركان **بألوهة واحدة** .

ومن العبث الحرب من أجل الكلمات . فالكلمات كالاعداد : لا تعرف العدد الصحيح إلا بعد أن نكتب الرقم الأخير . بالنسبة الى الكلمات ، الرقم الأخير هو النص اي مجموعة الجمل السابقة واللاحقة ومجموعة الأحداث التي قيلت فيها هذه الجمل . رأينا سابقاً أن مجمع خلقيدونيا المسكوني كان قد أعلن بشكل معصوم عن الخطأ أن « المسيح مساو للآب في الجوهر بحسب الالوهة ومساو لنا في الجوهر بحسب البشرية »وفي الحالتين استعمل كلمة « omo-ousios » فلكي نفهم الكلام على معناه الحقيقي ، علينا بالرجوع الى النص

و... بشيء من الإدراك السليم .

* **الذي به كان كل شيء** — بالابن الذي لم «يُخلق» خَلق كل شيء . كل الخليقة . والكتاب يردد ذلك بوضوح (يو ١/٣ ؛ كولسي ١/١٦) .

ومجمع نيقيا الأول (٣٢٥) عاد إلى قرارات إيمان الكنيسة كيلا يبقى أي التباس ممكن ولكي يعرف الجميع . كما يقول الإنجيل . أن يسوع هو الله . ومجمع القسطنطينية الأول (٣٨١) نحت قرارات شبيهة بقرارات نيقيا لكنها أسهل . ليزيل كل شك عن ألوهة الروح القدس فأدخلها في قانون الإيمان هذا .

« في مرآة »

« ما نراه اليوم هو صورة باهتة في مرآة . وأما في ذلك اليوم فسوف نرى وجهاً لوجه . واليوم أعرف بعض المعرفة وأما في ذلك اليوم فستكون معرفتي كاملة كما يعرفني الله » (١ كو ١٣/١٢) .

المحبة لا تزول أبداً . أما النبوات فتبطل والألسنة تصمت والمعرفة أيضاً تبطل . لأن معرفتنا ناقصة ونبواتنا ناقصة . فمتى جاء الكامل زال الناقص...

ما نراه اليوم صورة باهتة في مرآة . وأما في ذلك اليوم فسنرى وجها لوجه . اليوم أعرف بعض المعرفة أما في ذلك اليوم فستكون معرفتي كاملة كمعرفة الله لي . (١كو ١٣/٨ — ٩ ، ١٢) .

هكذا يتكلم القديس بولس . يتكلم عن معرفة الله في واقع هذه الحياة . فهي نقيض ما سوف تكون في ذلك اليوم في الرؤية السماوية . فبانتظار تلك الرؤية «وجهاً لوجه» التي تجعلنا نلج حياة الثالوث بالذات . حيث نأمل أن نشترك في سعادة الابن . فلنكشف بالمرآة . لكن فلننظر إليها كما يجب .

المرايا التي تمكننا من رؤية الثالوث الأقدس «بطريقة مبهمة» هي متنوعة .

مثلث الأضلاع بزواياه الثلاث ومساحته المسطحة والمشتركة يرضي الفكر الرياضي الجاف . بينما الفيلسوف يفضل أن يدخل إلى ذاته قائلاً : «أنا موجود... واني أفكر بفكرة هي مني دون أن تكون

أنا ، فكرة أعبر عنها « بكلمة » تصدر عني كابنة عقلي ... كما أشعر في ذاتي بقوة ثالثة : إني أحب وهذا الحب ينبثق عن قلبي كنفس حنان ينشر الحياة حوالي ... » كائن واحد ، ثلاث قوى مميزة حقاً ... يظهر هذا القياس وحدة الطبيعة في الله لكنه لا يفيد بالنسبة إلى ثالوث الأقانيم لأني أنا لست سوى شخص واحد .

لكن بما أن القديس يوحنا ، في كتاب موحى ، يعطينا عن الله هذا التحديد : « الله محبة » ، فلننظر بالأحرى إلى مرآة المحبة . انها أقل عقلانية لكنها أكثر تعبيراً : لأنها تلتقي بالاختبار البشري .

واحد لا غير...

ما هي رغبة الحب الطبيعية ؟

هي أولاً أن تخرج من ذاتك لتعطي ذاتك ، لتضيع ... هي اندفاع الذات بكاملها نحو الآخر — وفي ذات الوقت هي تقبّل الغير بكامله في ذاته . رغبة الحب الطبيعية هي الاتحاد . يريد الحب أن يسكن مع الشخص المحبوب ، فالمسافة تؤلمه . بالإضافة إلى ذلك : يريد الحب أن يسكن في المحبوب ، أن يتحد به من الداخل . يريد أن يعرف بماذا يفكر ، ماذا يحب ، كل ما لديه يكون مستمداً به من الداخل — حميماً — وان يكون هذا الحب متبادلاً أي نكون فيه ... لذلك لا ينتهي أبداً كشف ما يحيا المحبوب لحبيبه ، كشف ما هو عليه إذ أن الحبيب متأكد من أن المحبوب سيتقبّله كما تقبّله هو... الأشخاص الذين يحب واحدهم الآخر . يتوجه أحدهم نحو الآخر بشيء من الانخطاف كما لو كان انتقل إليه بكليته .

فهكذا عندما تضم الأم ولدها بين ذراعيها وتشده إلى قلبها كما لو كانت تريد ادخاله إليه لتبقى وكأنها هي وهو واحد ، فهي تفترسه بالقبلات لأن حبها لولدها هو حقاً غذاؤها وينبوع حياتها كما أنها هي

غذاؤه وينبوع حياته . فمن من الاثنين مرتبط أكثر بالآخر؟ من الصعب الجواب .

هذا هو الحب أولاً : عطاء طبيعي تام حتى الذوبان .

ونبقى عديدين ...

ذوبان **دون ضياع !**

« يفترض الحب أن يبقى المعطي والمتقبّل **مميزين** : شرط الحب أن يبقى الأشخاص على كثرتهم واحداً . يجب ألاّ يكون العطاء لهدم المحبوب أو المحب بل لامتلاء الاثنين » (موريس زندل) نمتلىء من الآخر ونبقى محافظين على ذواتنا . ونحب الآخر بحيث نتقبّله دون أن **نذيبه** ، نحبه إلى حد أننا نريد أن يبقى هو هو بكماله ، **مميزاً** عنا ، مختلفاً عنا ، كما هو . هذا هو الحب .

شخصان يتجاوران دون أن يتحابا . بينما شخصان متحدان في واحد وقد أضاعا شخصيتيهما لا يمكنهما أن يتحابا : لم يعد بإمكانهما عطاء ذواتهما إذ لم يعودا في الحقيقة واحداً وآخر ، أي « أنا » و« أنت » .

هكذا يهدم بعض الوالدين أولادهم لأنهم « يفترسونهم » — كم من الأزواج رجالاً ونساء ، يفترسون أزواجهم كما يفترس الاخطبوط فريسته . أنانية لا واعية ، لكنها أنانية على كل حال .

بينما الحب ، على عكس ذلك ، هو في أن **يبقى الشخص** لكي يتمكن من اعطاء ذاته ، هو في أن **ندع الغير يبقى شخصاً آخر** ، ليكون هناك شخص آخر يحبه . الحب يتطلب التعددية أو ، كما يقول العلماء : الغيرية .

متعددون متساوون

في الحب يبقى « الانا » و« الأنت » . « خاصتي » و« خاصتك »

يزولان . «كل ما هو لي هو لك» . في عائلة متّحدة ، يستعملون أنبوب معجون الأسنان الواحد ... «الأب يحب ابنه وقد جعل كل شيء في يده» يقول يسوع (يو ٣/٣٥) . وفي العشاء الأخير «قد علم أن الآب وضع كل شيء في يده» (يو ١٣/٣) فقال : «كل ما لأبي هو لي» (يو ١٦/١٥) .

يمتلك الشخص الانساني ذاته في العطاء . فكما أن كل أقنوم الهي يتوق الى الاثنين الآخرين ليعطيهما كل غناه ، هكذا على الإنسان أن يكون توقاً حياً الى الآخرين لا يمتلكهم أو يجتذبهم أو يستوعبهم ، بل ليسكب فيهم ذاته ويغنيهم وينميهم (فرنسوا فاريون) .

«كل ما لأبي» وبالأخص الطبيعة الالهية . فهي له بصفتها الينبوع : ملء الكيان المتدفّق الذي هو الآب المعطي الابن كل ماله . لكنّ كل ما له هو حب ، وهو فعل حب محض . وهكذا فكل الغنى الكياني الذي يدفقه الآب دوماً في الابن ، لا يملكه الابن إلاّ ليعطيه بدور للذي صدر عنه .

«الطبيعة البشرية الواحدة تتفرّع هكذا نظراً للصفة التي يمتلكها بها كل من الأقانيم . هذه الصفة هي ، لدى كل منهم ، **شكل لعدم الامتلاك** . حبّ الآب هو عطاء . وحب الابن هو تقبّل وعطاء . الحبّ مجاني لدى الآب ، ولدى الابن هو مجاني وواجب (فاريون) والروح القدس ؟

أقنوم ثالث

الاتحاد هو الاندفاع العميق لكل حب . لكنه يصطدم دائماً بحاجز . «هو شوق أكثر مما هو حقيقة . فنحن نبقى دائماً ، إن صح التعبير ، خارج الشخص الذي نحب . لا نقدر أن نعطيه كياننا كاملاً ولا أن نصبح هو أبداً . في الحب على الأرض ما يشبه المنفى بالنسبة إلى الشخص الذي نحب لأنه يبقى خارجاً عنا . وهذا ألم لا مناص منه» (موريس زندل) . هذا الحائط يسمّكه عدم قدرتنا الأساسية على اعلان هذا الحب المتبادل بطريقة ثابتة . «مهما كان هذا التبادل بين الاثنين كاملاً ، فهو يفلت منا . فلا نشعر به إلا بمقدار وبطريقة سطحية بواسطة العلامات . المحب يعرف حبّ المحبوب بالكلمات التي يقولها والحركات التي يقوم بها وبتصرفه على وجه العموم . لكنه لا

يرى الحب بالذات . لذلك فالحب البشري لا يرتاح . **فهو** يفتّش دون ملل عن عالم آخر يستحيل مناله ، تراه ويراها . لكن لا أحد يرى الحب (القديس اغوسطينوس) » (ف. فاريون) .

هاكم شاب وشابة ، بيار ومادلين . لقد أسّسا عائلة وحلمهما أن يكونا شخصاً واحداً ... وإذا بالخيبة تكشف لهما أنهما عبثاً يحاولان أن يحب واحدهما الآخر بكل قواه : فهما لا يزالان مميزان وبعيدان الواحد عن الآخر... وها هما يُرزقان ولداً سويّة . وهذا الولد هو الأب كاملاً والأم كاملة وقد انصهرا في واحد — **هذا الولد هو حبهما المشترك وقد تجلّى شخصاً**. هذا الحب القائم هنا ، أمامهما وأمام الناس ، هو مميّز عنهما وهو إلى هذا الحدّ صورة عنهما — مبهما ، وقد أصبح منظوراً وملموساً وليس فقط مختبئاً وراء رموز. كانا اثنين وأرادا أن يصيرا واحداً فوجدا أنّهما ثلاثة ، أي واحد أكثر مما قبل . وجدا ذاتهما عائلة ، وحدة أوسع ولكن أكثر التحاماً وأكثر « حبّاً » . « دوما اثنان بدون ثالث » يقول المغني انريكو ماتياس . لمّا كانا وحدهما ، لم يكونا يستطيعان سوى الدوران على ذاتيهما تحت شعار «كل شيء لي » . كما كانا اثنين ، كانا متعرّضين للتمتع بأنانية الواحد بالآخر . لكن ها حبّهما قد تفجّر « نحو الأمام » في هذا الشخص **الثالث الذي هو حبهما بالذات** ، حيث يجد كل منهما ذاته كاملاً ، حيث يجد الواحد **الآخر** كاملاً ، منصهرين في « واحد » في هذا الشخص الثالث . لقد أصبحت العائلة ثالوث أشخاص مميّزين إنما متحدين أكثر من كل آن .

حب الاثنين مصهور في واحد بفضل شعلة حب ثالث

ها نحن في صميم وحي مثير للغاية : لقد علّمنا الله أنه عائلة ، أب وابن وروح . العائلة البشرية تضعنا على الطريق : فهي « الإنسان على صورة الله ومثاله » . هي أجمل مرآة حية لله الثالوث . صورة ناقصة ، لا شك . محبة الأب والأم واتحادهما في هذا

الشخص الثالث ، الذي هو حبّهما المحسوس ، الولد . لن تكون أبداً وحدة غير قابلة التجزؤ . إذ يبقى كلّ منهما غريباً نوعاً ما عن الآخر . وهنا نقصان الصورة ، فهي تظهر التمييز الحقيقي بين الأشخاص وتصف طبيعتهم لكنها تقصّر عن التعبير عن أن الحب ، في الأقانيم الالهية الثلاثة ، يصل الى أقصى حدوده ، الى وحدة الكائن الالهي الواحد...

ومع ذلك ، في قرارة اختبارنا ، تبقى لدينا فكرة صغيرة ، لكنها رائعة ، وهي كنداء وحنين إلى ما يعيش الله داخل ثالوثه : ثلاثة أقانيم مميّزون حقاً إنما متداخلون تماماً الواحد في الآخر ، اذ الله هو الحبّ اللامتناهي ، إذا الوحدة **اللامتناهية** .

الأب هو فعل الحب . في عطاء تام للابن . عطاء كل ماله أو بالأحرى كل ما هو . الابن هو فعل الحب في العودة التامة إلى الآب ، واعطاء كل ماله وكل ما هو . والروح القدس هو هذا الحب بالذات . هو العطاء التام الذي يعطيه واحدهما الآخر. «**حب الاثنين مصهور في واحد بفضل شعلة حب ثالث**» (ريشار دي سان فكتور) .

لكن ، كالولد الذي يعطيه الأب والأم المحبّان واحدهما الآخر ، هذا العطاء التام هو شخص . انه يمنع الحب المشترك بين الآب والابن من أن يدور على ذاته في امتلاك مزدوج ، هو في النهاية امتلاك الذات . في الثالوث ، كما في العائلة ، **الشخص الثالث هو** ، على عكس ذلك ، **انتزاع ملكية الذات** . الحب هو في الأساس فقر اذ أنه عطاء كامل حتى افراغ الذات . فقر الأب والابن... **فقر** الوالدين...

لكن لا تعتبروا الروح القدس ولداً أنانياً يحتفظ بكل شيء لنفسه ! فهو أيضاً فعل حبّ لا متناه . هو حب الآب للابن وحب الابن للآب . **فعل حب لا متناه . هذه هي الطبيعة الالهية** المشتركة بين الثلاثة .

هؤلاء الأقانيم الثلاثة في تاريخنا

الابن «ينبثق عن الآب». والآب هو الذي أرسل ابنه إلى العالم يوم تجسده. والابن تجسد طاعة لأبيه ومحبة له وذلك بقوة الروح القدس. والروح القدس «ينبثق من الآب والابن» والآب والابن هما أرسلا الروح على المؤمنين في العليّة يوم العنصرة.

وأخيراً، هو الروح الذي أعطي للكنيسة يوم العنصرة. هو الذي ينعش قلوب المسيحيين ليوقظ فيها الإيمان والصلاة الصاعدة إلى الآب بواسطة الابن.

لدى العديد من مسيحيي اليوم، أفلاطونيــة تجهــل ذاتها. انهم يسجـدون أمـام أسطورة الالـه اليوناني، الكائن الكامل، غير المتحرك، الجميل، بينما السر الذي أوحاه يسوع هو سر عائلة مؤلفة من ثلاثة أشخاص متحدين في الحب بحيث أنهم أصبحوا الهاً واحداً... (فرنسوا فاريون).

كثيرون هم المسيحيون الذين، في إيمانهم وصلواتهم، لا يتوجّهون إلا إلى الاله الواحد — «الاله الصالح» — فيصلّون له كاليهود والمسلمين، **وهم يجهلون عمليّاً الأقانيم الثلاثة**. وهذا هو منتهى الفقر!... بينما الوحي والليتورجيا يدعواننا على العكس، الى اللقاء **الشخصي** بالآب والابن والروح القدس، دون أن نهتم كثيراً بأن نذكر أنهم معاً إله واحد. إليكم ما كتب الأب فاريون في بطاقات العمل الكاثوليكي السامي، وهو مأخوذ عن كتابه «عناصر الحياة الزوجية» (١٩٤٩)، وهو على صواب:

«سرّ الثالوث هو سرّ العائلة (أو الجماعة) الالهيّة. إله وحيد الشخصية (أي شخص واحد) ليس إلهاً حياً.

ليس الثالوث زينة للوحة إلهية مجهولة. ومهما قال الفلاسفة: ليس الثالوث، في نظر المسيحي، «بنية فوقية». لذلك يجب ألاّ نتكلم عن الله ثم عن الثالوث. بل الثالوث أولاً، الله في ثلاثة أقانيم. فالاله الصالح هو الاله المحبّة، الاله الثالوث».

٦

ربنا

« يسوع هو رب »

« يسوع المسيح ، ابنك ، ربنا » : صلاة تعودنا عليها كثيراً . « الربوبية » هي لقب شرف وسلطة وسيادة . رب المكان هو الذي إليه يعود الأشخاص والأرزاق . « رب وسيد » ذاك الذي يملك سلطة مطلقة على الأشخاص والأشياء . من هنا « السيد » مع آل التعريف ، هو يهوه ، الله سيد الخليقة جمعاء .

هناك سيد و« السيد »

طيلة قرون ، كان لقب « سيد » في فرنسا ، مختصاً بكبار هذا العالم . وكانوا ينادونهم « يا سيدي » بصيغ عديدة ... ثم ، وذلك قبل الثورة بزمان ، وبنوع من التهذيب ممزوج بنزعة ديموقراطية وشيء من السخرية ، استعملوا كلمة « مسيو » لكل إنسان تقريباً .

فقال لها يسوع : « لماذا تبكين ، يا امرأة ؟ من تطلبين ؟ » فظنت أنه البستاني ، فقالت له : « إذا كنت أنت أخذته يا سيدي ، فقل لي أين وضعته حتى آخذه » فقال لها يسوع : « يا مريم » . فعرفته وقالت له بالعبرية « ربوني ! » أي « يا معلم » (يو ٢٠/١٥ — ١٦) .

* بهذا المعنى العام ، **كان بعض الذين يأتون إلى المسيح** يطلقون عليه لقب سيد . السامرية على بئر يعقوب ، أقله في أول الحديث ، أو مخلع بيت حِسْدا (يو ٤/١١ و ١٥ ؛ ٥/٧) . في هذه الحالة ، ليس من المستغرب أن نترجم كلمة « kyrie » اليونانية بكلمة « سيّد » هكذا دعا بعض الحجاج الى أورشليم الرسول فيليبس « يا سيد ، نريد أن نرى يسوع » (يو ١٢/٢١) .

* إنما هذا اللقب ، **في نظر تلاميذ يسوع** ، يعني أكثر من مجاملات فارغة . فهو يحمل ، منذ يوم دعوتهم ، عاطفة احترام ومحبة ممزوجة بشيء من الإيمان . إيمان ينمو ، هو **الإيمان** ، منذ البدء تقريباً ، **بالمسيح** . « أنتم تدعونني معلماً ورباً ، وأنكم لعلى حق » . في نظرهم ، يسوع هو رب بصفة خاصة وفريدة .

* **وبخاصة بعد القيامة** ... ذات صباح ، على شاطىء بحر الجليل ، عاد الرسل من الصيد فارغي الأيدي . فناداهم إنسان من على الشاطىء :

— أيها الفتيان ! هل أصطدتم شيئاً ؟

— لا شيء .

— ارموا الشبكة إلى اليمين ، تجدوا سمكاً .

وفي الواقع امتلأت الشبكة حتى تعذّر سحبها .

فقال يوحنا : « هذا هو الرب » .

أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تفعلون لأني كذلك . فإذا كنت أنا السيد والمعلم غسلت أرجلكم ، فيجب عليكم أنتم أيضاً أن يغسل بعضكم أرجل بعض . وأنا أعطيتكم ما تقتدون به فتعملوا ما عملته لكم . (يو ١٣/١٣ — ١٥) .

ورمى بطرس بنفسه في البحر ليصل إليه عاجلاً . وهكذا صنع الباقون . وأكل الجميع حول النار سمكاً مشوياً . لكن أحداً من التلاميذ لم يجرؤ على أن يسأله : من أنت ! لأنهم علموا أنه الرب » (يو ٢١) .

* لكنهم لم يكونوا يعرفون بوضوح انه **الله** .

رجل يحمل الاسم الإلهي

ثم تأتي العنصرة . نور الروح القدس ينشر أشعته على حدث الفصح . عندئذ يعطي التلاميذ ربوبية المسيح كل معناها .

فيخرج بطرس من العلية ويعلن لجمهور اليهود : « **فليعلم بنو اسرائيل كلهم علم اليقين أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً** » (١ع ٢/٣٦) .

ويقول بولس : « المسيح مات وعاد إلى الحياة ليصبح رب الأحياء والأموات » (روم ١٤/٩) . « رب المجد » (**١ كور ٢/٨**) .

فإذا شهدت بلسانك أن يسوع رب وآمنت بقلبك أن الله أقامه من بين الأموات ، نلت الخلاص . فالإيمان بالقلب يقود الى البر . والشهادة باللسان تقود إلى الخلاص . (روم ١٠/٩ — ١٠) .

يعبر هذا اللقب عن ذروة سرّ يسوع ابن الله .

ويعلمنا العهد القديم أن « الرب » ليس فقط لقباً ملكياً أو مسيحانياً ، بل هو**الاسم الالهي** » .

فالله أوحى اسمه لاسرائيل : يهوه ، «أنا هو» . ففي الدين اليهودي ، الاسم هو مرادف للشخص . وكان الاسم الإلهي موضع احترام إلى حد أنهم لم يعودوا يجرأون على التلفظ به : عند قراءة التوراة جمهورياً ، حيثما كتب اسم يهوه ، كانوا يلفظون «الرب» وهكذا فقبل المسيح بقرنين أو ثلاثة ، كان الاسكندريون الذين نقلوا التوراة العبرية الى اليونانية قد ترجموا كلمة «يهوه» بـ« kirios » «السيد» . منذ ذلك العهد إذاً ، «كيريوس» «الرب» تعني كتابياً «يهوه» : وهكذا أصبح الاسم الإلهي .

فاسلكوا في الرب يسوع المسيح كما قبلتموه ، متأصلين ، راسخين فيه ، ثابتين في الإيمان الذي تعلمتموه شاكرين كل الشكر...» في المسيح يحل ملء الألوهية كله حلولاً جسدياً . وفيه تبلغون الكمال . هو رأس كل رئاسة روحانية وسلطة (كول ٦/٢ — ١٠) .

فبقيامته ، يشترك الإنسان يسوع ، في شخص الابن ، مع الآب (والروح) في الاسم السري «الاسم الذي يفوق كل اسم» الاسم الجديد (رؤيا ١٢/٣) الذي ليس سوى اسم الله .

«يسوع هو رب» أي «يسوع هو يهوه» لا أكثر ولا أقل . يهوه مثل الآب . أما عندما نتكلم عن الابن ، فما يجب التنبه إليه هو أن هذا الاسم هو **الاسم البشري ليسوع الناصري** ، ابن مريم ، النجار . إرتفاع يسوع هذا إلى يمين الآب ، كما نقول في قانوننا (لنا عودة إلى الموضوع) هو استجابة للصلاة التي كان يرددها قبل آلامه :

«أيها الآب» ، مجدني بالمجد الذي كان لي عندك قبل خلق العالم» (يو ٥/١٧) . أي «مجدني في بشريتي بالمجد الالهي الذي كان لي عندك كابن قبل تجسدي» .

فيسوع هذا أقامه الله ونحن شهود على ذلك . فلما رفعه الله بيمينه إلى السماء نال من الآب الروح القدس الموعود به فأفاضه علينا وهذا ما تشاهدون وتسمعون... فليعلم بنو إسرائيل كلهم علم اليقين أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه رباً ومسيحاً . (أعمال ٣٢/٢ — ٣٦) .

سيادة يسوع الناصري هذه لم يعبّر عنها بعظمة أكثر مما جاء في نشيد مسيحي قديم يردده القديس بولس في رسالته الى أهل فيليبي (٦/٢ — ١١) :

وهو في صورة الله ، ساوى نفسه بالله ، ما تعدّى حقه ؛ تجرد من ذاته واتخذ صورة عبد وصار شبيهاً بالبشر وظهر بمظهر الإنسان . تواضع وأطاع حتى الموت ، موت الصليب . فرفعه الله وأعطاه اسماً

فوق كل اسم . لتنحني لاسم يسوع كل ركبة في السماء وفي الأرض وتحت الأرض ، ويشهد كل لسان أن يسوع المسيح هو الرب ، تمجيدا لله الآب » .

ها نحن الآن في قمة سرّ يسوع المسيح ، **وفي صميم الإيمان المسيحي الأساسي** : « إذا شهدت بلسانك أن يسوع رب وآمنت بقلبك ان الله أقامه من بين الأموات ، نلت الخلاص » (روم ١٠/٩) .

ربّنا

في القرون الوسيطة الأوروبية ، مهما عظم أمر الأسياد ، لم يكن لكل منهم سلطة إلا على مقاطعة معينة . كان يملك على أرضه ورجاله . وكانت الحافة الأخرى من الشهر والمنحنى الآخر من التلة تحت سلطة سيد آخر . هكذا كانت الحال قبل وصول العبرانيين إلى أرض الميعاد . كل اله كنعاني كان مفروضاً فيه أن يكون مرتبطاً بقبيلة — أرضاً وشعباً — فهو بعلها أي مالكها .

هوذا تابوت عهد رب الأرض كلها عابر قدامكم في الأردن . والآن خذوا لكم اثني عشر رجلاً من أسباط اسرائيل من كل سبط رجلاً . ويكون عند استقرار أخامص أقدام الكهنة حاملي تابوت عهد الرب إله الأرض كلها في مياه الأردن أن مياه الأردن تنفلق والمياه المنحدرة من فوق تقف ندّاً واحداً (يشوع ٣/١١ — ١٣) .

ولكن ها يهوه وشعبه البدوي يصل إلى كنعان . وكان يهوه في نظر الكنعانيين الهاً كغيره من الآلهة . اله مع شعبه وشعب مع الهه . اله وشعب بدون أرض ... **بينما هو** « **سيد الأرض كلها** » . الأرض التي وراء الأردن والأرض التي أمام الأردن . فهو « الاله العالي صانع السماء والأرض » (تك ١٤/١٩) . هو إذاً « اله الآلهة ورب الأرباب » (مز ١٣٦/ ٢ — ٣) . فمن الواضح إذاً أن ابنه لن يكون مثل سائر الأسياد ، سيداً بين أسياد . لا يمكن أن يكون إلا مثل يهوه ، سيد الجميع . والقديس بطرس يعلن هذه الملكية المطلقة لجمهور العنصرة : « ان الله أقام يسوع هذا ... جعل الله سيداً ومسيحاً . يسوع هذا الذي صلبتموه » « هو سيد الجميع » (١٠/٣٦) .

يسوع القائم من الموت هو إذاً سيد الأرض كلها وسيد القاطنين

فيها ، سيد الأسياد الثانوية الذين ليسوا مواليه . سيد الكون المنظور وغير المنظور : « باسم يسوع فلتجث كل ركبة في السماء وفي الأرض وتحت الأرض . وليعلن كل إنسان : يسوع المسيح هو رب ! » سيد كل كائن ، سيد كل إنسان ؛ يسوع المسيح هو منذ الآن « سيدنا » بصفته سيداً شاملاً .

رب واحد ، يسوع المسيح

يجب التشديد على هذه الفكرة واستخلاص كل الروابط العملية . فنحن نعبر عن الايمان بحياتنا اليومية أكثر مما نعبر بتلاوة قانون الإيمان يوم الأحد .

قد نعترف عملياً وعفوياً بأن المسيح هو ربنا ... رب **بين أرباب آخرين** ...

لكن يسوع ليس واحداً من أسيادنا ولا يريد أن يكون كذلك ، حتى ولا أولهم... إنه **الرب الواحد** . « **أؤمن برب واحد يسوع المسيح** » . يقول قانون نيقيا .

في عصور الكنيسة الأولى ، كان الأمبراطور يطالب لنفسه بلقب اله . كما كان هناك طغمة كبيرة من الأسياد في العالم المنظور والخيالي ، كبار وصغار ، صالحون وأشرار ، طغاة من الأرض وقوات من العلاء ، أرواح صالحة ، وأرواح شريرة... كل يقوم ذبائح بحسب رغائبه ومخاوفه وايمانه .

لم يتغير هذا الوضع الا سطحياً . فعندنا اليوم آلهة الملاعب وآلهةالمسارح ، طغاة الادارة وطغاة الموضة ، قواد السياسة وقواد الصحافة ، زعماء العائلات وزعماء الضغط الاجتماعي . نمارس عبادة المال وعبادة أصحابه ، عبادة السلطة والممسكين بزمامها ، عبادة العرق والدولة والوطن والجمال والنفوذ والسيادة ...

بوسع المسيحي أن يحكم على صحة إيمانه بيسوع المسيح كاله

واحد انطلاقاً من حساسيته بالنسبة إلى هذه الأشياء التي يضفي عليها شيئاً من المطلق والتي تتكاثر بسرعة في المجتمع البشري . في أعمال شهداء الكنيسة الأولى ، نرى غالباً الحكام يأمرون المؤمنين بأن يهتفوا : « قيصر هو رب ! » — فنرى المسيحي يرفض ويموت هاتفاً : « المسيح هو رب ! » . فالمسيحي يعطي بطيبة خاطر ما لقيصر لقيصر ، كما يعترف بكرامة كل أحد . لكنه يبقى كامل الحرية ، لا يستزلم إلا ليسوع المسيح .

فلتحترس الكنيسة من أن تبارك آلهة هذا العالم . ولتحترس خاصة من أن تصبح واحداً منها . فقد رفض سيدها أن يكون ملكاً . وهو يندد بروح السيطرة لدى تابعيه (لو ٢٢/٢٤ —٢٧) . لقد سلمهم سلطاناً : اخدموا ؛ وثوب حكم وطقوس هو وزرة الخادم (يو ١٣) . لذا فلا يوجد بين اتباع المسيح سوى أخوة وأخوات في الخدمة . يسوع هو وحده السيد .

« ربنـا »

فما من أحد منا يحيا لنفسه وما من أحد يموت لنفسه فإذا حيينا فللرب نحيا ، واذا متنا فللرب نموت . وسواء حيينا أم متنا ، فنحن للرب ... والمسيح مات وعاد إلى الحياة ليكون رب الأحياء والأموات (روم ١٤/٧ —٩) .

فبالنسبة إلينا إذاً لا سيادة سوى سيادة يسوع . **فهو سيدنا . وهو وحده سيدنا** . لكن ، كما ان تقدمته لم تكن ليتورجيا طقوس وعبارات بل دماً مهراقاً ، كذلك فسيادته لا تكتفي بالألقاب والتعابير الغامضة : هو يأخذنا على عاتقه .

على أي مستوى تمتلكنا هذه السيادة عملياً لتجعل منه « سيدنا » ؟ .

* يسوع هو أولاً « سيدنا » على مستوى الذين « به كان كل شيء » : **على مستوى خلقنا المستمر** . هو « سيدنا » ، السيد الوحيد ، تماماً كالذي هو « أبونا » الأب الوحيد : هو **ينبوع كياننا** ، وحياتنا الزمنية والأبدية ، الإنسانية والالهية (شرح ذلك في الفصل الآتي) .

* وهو ، بعد ذلك ، **سيد لتاريخ البشر** . ومحركه وقائد الخليقة

السائرة نحو مملكة المجد. هو «البداية والنهاية» (رؤيا ١٣/٢٢) «الأول والأخير» (رؤيا ١٧/١) . «الألف والياء» — الحرف الأول والأخير من الأبجدية . أي كل شيء (رؤيا ٨/١) . هو سيد تاريخنا الكبير العام تاريخ الخلاص — كما هو سيد تاريخنا الصغير الشخصي حيث محبته ودعوته لنا المستمرة ونعمته ويده لا تتركنا أبداً .

لذا فهو لا يبرح يظهر لمن يصغي إليه عبر الأحداث التي تملأ طريقنا . وعده الصريح يختتم انجيل القديس متى ويفتتح التاريخ المسيحي : «**وها أنا معكم طول الأيام حتى انقضاء الدهر**» .

هو سيدنا مدى الدهور . هو «سيدي» طيلة أيامي .
لذا فصلاتنا العفوية هي : سيدنا ! سيدنا يسوع !

علينا أن نعود إلى روح الصلاة الارامية الأولى وتقليدها : «ماراناتا» «تعال يا رب !» (١ كو ٢٢/١٦ ؛ رؤيا ٢٠/٢٢) . تعال في حياتي وفي عالمنا وغيّرهما ؛ تعال في مماتنا لملاقاتنا ؛ تعال في مجدك وكلّل خلاصك ...

«هو رأس كل رئاسة»

في مملكة يسوع الشاملة ، علينا أن نميز دائرتين مشتركتي المركز ، يمتلكهما بطرق مختلفة ، وهما لا يقران بالنعمة التي هو مصدرها بطريقة متساوية .

هناك دائرة نسميها «خارجية» في مملكة المسيح ، وهي الأوسع . هي شاملة تمتد إلى المخلوقات كلها حتى الكائنات الكونية اللاواعية ، حتى القوات اللامبالية أو المعادية لملك الله ، حتى القوات الشيطانية . فكل به كوّن وكل به يحفظ في الوجود : «كل خلق به وله وكل به يستمر في الوجود» (كول ١٦/١ — ١٧) . **هذا على صعيد الخلق** .

أما على صعيد الفداء . فالقديس بولس (أفسس ٤/٩ — ١٠) يلخص تدبير الابن المتجسد والمائت والقائم من الموت والصاعد إلى السماء بصور تبعث على الدوار : « صعد إلى العلاء ! وما المقصود بهذا القول سوى أنه نزل أولاً الى أعمق أعماق الأرض ! وهذا الذي نزل هو نفسه الذي صعد إلى ما فوق السموات **كلها يملأ كل شيء** » . فالأمكنة الثلاثة — الأرض والسماء والجحيم — قد استولى عليها إلى الأبد بقوّة قيامته . فسيادته تشمل إذاً العالم كله . عالم الملائكة وعالم الناس وعالم الشياطين وعالم الكواكب الكوني . فهو وحده يعطي كل شيء معناه وهو يخضع كل شيء له ليضع كل شيء بين يدي أبيه حتى الأشياء التي تقاومه . « هو رأس كل رئاسة وسلطة » (كول ٢/١٠) .

« واله ربّنا يسوع المسيح يهب لكم روح حكمة يكشف لكم عنه لتعرفوه حقّ المعرفة ، وان ينير بصائر قلوبكم لتدركوا الى أيّ رجاء دعاكم وأيّ كنوز مجد جعلها لكم ميراثاً بين القدّيسين ، وأيّ قوّة عظيمة فائقة تعمل لأجلنا نحن المؤمنين وهي قدرة الله الجبّارة التي أظهرها في المسيح حين أقامه من بين الأموات وأجلسه إلى يمينه في السموات فوق كل رئاسة وسلطان وقوّة وسيادة وفوق كل اسم يُسمّى ، لا في هذا الدهر فقط ، بل في الدهر الآتي أيضاً ، وجعل كلّ شيء تحت قدميه ورفعه فوق كلّ شيء ، رأساً للكنيسة التي هي جسده وملؤه ، وهو الذي يملأ كلّ شيء في كلّ شيء » . (أفسس ١/١٧ — ٢٣) .

لكن هذا الكل لا يسميه بولس « جسد المسيح » ، **فهناك سيادة مركزية وحميمة تختص بها الكنيسة** .

« هو رأس الكنيسة التي هي جسده »

« بينما الكنيسة هي جسده ، أي هذا الكل المنسجم من الناس الذين ، بعد ان قبلوا المسيح كمعلم لهم في الإيمان ، اتحدوا بجسده

الفصحي ، جسد الموت والقيامة الذي قدم ذاته وتمجد ، وذلك بالعماد والافخارستيا . فالمسيح هو رأس هذا الجسد بمعنى جديد ومبتكر » (ايف كونغار) .

هذا المعنى الجديد والمبتكر سوف نتوسع في درسه عندما نتكلم عن « الكنيسة الجامعة » . يكفي الآن القول بأن المسيح الرأس هو بالنسبة إلى **كنيسته نور للعقول وحب للقلوب وفرح للحياة وسلطة للقرارات التي يجب أخذها وينبوع لكل حياة روحية** » . « ما سيحل بي بدونك ؟ » بوسع الكنيسة العروس المحبوبة أن تقول « لسيدها » .

صفة العروس يقربنا من فهم هوية الكنيسة بالنسبة إلى المسيح وكذا المسيح بالنسبة إلى الكنيسة . فالكنيسة تقول : « **يا سيدي** » كما تقول المرأة : « يا زوجي » . وكما يقول الرجل « **يا زوجتي** » . والقديس بولس يقودنا إلى هذا الرمز : « رأس كل رجل هو المسيح ، ورأس المرأة هو الرجل » (١ كو ٣/١١) . وفي محل آخر « المسيح هو رأس الكنيسة التي هي جسده » (كول ١٨/١) .

« السلطة التي يمارسها المسيح بالنسبة إلى جسده الكنيسة هي غير التي يمارسها بالنسبة إلى الكون لكي يخضعه أو بالنسبة إلى القوات المعادية لكي يحطمها . فهي هنا تمارس على صعيد علاقات شخصية **يتقبل ثمرتها الإنسان بطاعة محبة** . بنوع أنها سلطة حنان وعطاء حتى التضحية بالذات من قبل المسيح (أفسس ٢١/٥ — ٣٣) . ومن ناحية الكنيسة ، وهي تقبل عمل الرب وتطيع إرادته ، فهي تتجانس واياه وتمتزج به ، وتصبح حقاً صورته . هذا لا ينطبق على الكون ولا على القوى المعادية التي تخضع مرغمة لسلطة سيدها » (ايف كونغار) .

فنحن إذاً في كنيسة ربنا ومعها ، « ننمو في كل وجه نحو من هو رأسنا ، المسيح الذي فيه يتماسك الجسد ويلتحم بفضل جميع

أيها الرجال . أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وضحى بنفسه من أجلها ليقدسها ويطهرها بماء الاغتسال وبالكلمة . حتى يزفها إلى نفسه كنيسة مجيدة لا عيب فيها ولا دنس ولا ما يشبه ذلك بل مقدسة لا عيب فيها . كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كما يحبون أجسادهم . من أحب امرأته أحب نفسه .

فما من أحد يبغض جسده . بل يغذيه ويعتني به اعتناء المسيح بالكنيسة . ونحن أعضاء جسد المسيح من لحمه ومن عظامه . لذلك يترك الرجل اباه وأمه ويتحد بامرأته فيصير الاثنان جسداً واحداً . هذا السر عظيم . أعني به سر المسيح والكنيسة . (أفسس ٢٥/٥ — ٣٢) .

المفاصل التي تغذيه وتحمله على العمل ، كل جزء بحسب وظيفته ، فيعمل هذا على نموه ويبني ذاته في الحب » (أفسس ٤/١٥ — ١٦) .

« بكر جميع الخلائق »

فلنحاول التعمق أكثر ... كون يسوع الناصري رب العالم المنظور وغير المنظور ماذا يغيّر حقاً في قلب الناس وفي العالم ! بماذا يلزمهم في حاضرهم ومستقبلهم ؟...

هذا يعني أن حياة يسوع البشرية قررت وتقرر وجود ومستقبل كل كائن بنوع مطلق : الإنسان والملاك والشيطان والكون... أعرفنا ذلك أم جهلناه ، أسرنا أم أحزننا ، مجيئنا إلى العالم — بدءاً بخلق العالم — حياتنا وموتنا ومستقبلنا الأبدي الفردي والجماعي ، كل هذا مرتبط بشخص يسوع الناصري .

الحقيقة هي أن ابن الله يتجسّد منذ ألفي سنة . يتحد شخصياً بطبيعة **بشرية** حقيقية وكاملة ، طبيعة **مخلوقة** . فيصبح « الإنسان يسوع المسيح » . البشرية بأجمعها والكون بكامله ، وجودهما ورجاؤهما مرتبطان بهذا الحدث الأساسي ، بهذا الإنسان الأساسي ...كيف؟

إذا أخذنا **قصد الله كما يبدو في الزمن** ، لا شك أننا لا نرى التغيير الذي يولده التجسد بالنسبة إلى الأجيال والكائنات التي سبقته . لا نرى المفعول الرجعي لتجسد الله الابن... زمنياً ، « في البدء » ، كانت المادة الأولى . ثم حصل انفجار ذري في هذه المادة بعثر عناصرها .

حقيقة لا تقبل الجدل

مجرات بنجومها وكواكبها التي لا تحصى . ثم ظهرت على كوكب أرضنا الحياة وتطورها البطيء على مدى ثلاثة مليارات من السنين .

ثم يصل هذا التطور إلى الإنسان الأول . بعد ذلك تقدم الخلافات بين هؤلاء الناس — انقسامات ، حروب ، كبرياء — «خطيئة العالم ، ثم اختبار ابراهيم وتأسيس الشعب اليهودي الذي أوحى الله إليه بذاته شخصياً . وأخيراً تجسد الله الابن منذ فقط ألفي سنة...

هذا هو سياق **قصد الله وتنفيذه** .

إنما في تسلسل نشاطات الكائنات العاقلة ، **لا يكون التنفيذ أبداً هو الأول** . بل على العكس . الفكرة هي الأولى ، المشروع ، القصد ، المخطط . المشروع **يسبق كل شيء ويفرض كل شيء** . هي حقيقة صارخة [كلمة مشروع تعني : ما يُبدأ به..] .

قد استعرت هذا الأسبوع اناء لزرع الزهر وملأته تراباً ناعماً وزرعت فيه بعض بزرات . ورحت اسقيها كل مساء ، فشاهدت وريقات تظهر وتكبر . وبينما أنا أكتب ، تسطع الزهرات الأولى في شمس الصيف : أزهار صفراء وبرتقالية وحمراء من الجيرانيوم الرائعة المسماة شعبياً «الكابوسيين» ...**وأخيراً** .

أقول أخيراً لأن كل ما سبق — الاناء والأرض والحبوب والري والأوراق — كل هذا كان لأجل ظهور الزهرات . **القصد كان الزهور وهي فرضت الباقي** ...

بعد ذلك سوف تعطي هذه الزهور بزوراً وسوف أضاعف ألوانها وأفراحها ، من شرفة إلى شرفة ومن سنة إلى سنة...

إنكم فهمتم : لم يكن كل هذا الفيلم سوى **التنفيذ** ، في سياق الزمن ، **لمخطط مدروس قبل هذا الوقت وهو أوحى بكل شيء وقاد إلى كل شيء وهو يتكامل هكذا**...

الزهرة وجدت أولاً وبدونها لما وجد شيء من هذا المثل الحي ، مثل زهراتي . لأن من يجهل ما هي الزهور ، ومن لا يصمم لخلق

زهور . هذا الرجل لم يضع في حياته قط قبضة تراب في إناء ولا بزرة في تراب ولا ماء على بزرة . ينقصه **القصد الذي به يكوّن كل شيء وبدونه لا يكوّن شيء** .

« بكر جميع الخلائق »

نأمل أن نفهم الآن شيئاً من كلمات الرسول بولس هذه :

« المسيح هو صورة الله الذي لا يرى وبكر جميع الخلائق . إذ خلق الله كل شيء به في السماء وفي الأرض ، ما يرى وما لا يرى ، أصحاب العروش وسادة وسلطات وقوات . كل خلق به وله وهو قبل كل شيء... هو البدء... لأن الله شاء أن يحل فيه الكمال كله » (كول ١/١٥ — ١٩) .

كما أن زهرتي هي كمال كل ما سبقها — الأرض والحبوب والماء والأوراق — وكل ما يتبعها ، وهي تتابع العمل الخلاق — حبوب جديدة وأزهار جديدة — هكذا المسيح هو البدء ، هو قصد الله بالنسبة إلى الإنسان والكون ؛ قصد سوف ينتشر انطلاقاً منه إلى أخوة عديدين .

فلنحاول أن نعمق هذه الفكرة ونوضحها .

يجب قراءة الكتب تكراراً

ما هو الحب إن لم يكن عطاء ! عطاء دون استبقاء شيء ، دون تمتع بأي امتياز ، دون ترفّع بالنسبة إلى من نحب... لكن هل سيقف الحب في الثالوث عند هذا الحد ؟.. كلا . من طبع الحب الانتشار . الحب الجماعي بين الثلاثة يجب أن يمتد إلى ما لا نهاية له . تيار الحب والعطاء الجارف لا يمكن أن ينحصر في الثالوث : لقد اندفع نحو الخلق بطريقة حرة وان ضرورية... لأن **الله محبة** ، **فهو لا يقدر أن يعطي أقل من ذاته في خليقته ، لا يقدر الله أن يعطي إلاّ أفضل ما عنده** : **ألوهيته ، كل ماله : ابنه**...

فقصد الله الآب هو إذاً ، منذ الأزل ، القصد الآتي : خلق كائنات عديدة يعطيها ذاته عن حب ، كما يعطي ذاته ابنه الأزلي ؛ خلق بنين وبنات عديدين مثل ابنه الحبيب لكي يشركهم في كل شيء كما يشرك ابنه الحبيب ... فبه ومعه وفيه نصبح «شركاء في الطبيعة الالهية» كما يقول القديس بطرس (٢ بطر ٤/١).

والذين يقودهم روح الله هم جميعاً أبناء الله. لأن الروح الذي نلتموه لا يستعبدكم ويردكم إلى الخوف ، بل يجعلكم أبناء الله وبه نصرخ إلى الله : «أيها الآب ، أبانا» . وهذا الروح يشهد مع أرواحنا أننا أبناء الله. وما دمنا أبناء ، فنحن ورثة ، ورثة الله وشركاء المسيح في الميراث. نشاركه في آلامه لنشاركه أيضاً في مجده . (روم ١٤/٨ — ١٧) .

الوسيلة التي اختارها الله لكي يمتزج ، على أكمل وجه ، بخلائق بسيطة ، هي تجسد الكلمة . منذ الأزل ، يرى الله الآب ابنه بهذه الصورة ، وسط الخليقة . الله يرسل ابنه في قلب الخليقة الخافق — اذ صار **هو خليقة** ، من لحم ، إنسان من المادة — لكي يحوّل إليه جميع الناس ، لكي يرفع إليه كل الكائنات : «الله أبو ربنا يسوع المسيح ... **اختارنا فيه قبل انشاء العالم** ... **وقضى بسابق تدبيره أن يتبنانا بيسوع المسيح** ... فكشف لنا سر مشيئته التي ارتضى في نفسه أن يحققها عندما تكتمل الأزمنة **فيجمع في المسيح الرأس الواحد كل شيء في السماوات وعلى الأرض** (أفسس ٣/١ — ١٠) .

أمام هذا القصد الالهي ، تتفجر الكلمات البشرية عاجزة حقيرة . وبالأخص التعبير الحقير «أبناء بالتبني» الذي لا علاقة له بالتبني الذي نعرفه عند الناس . بالمسيح يسوع نبقى طبعاً خلائق ، لكننا نصبح **حقاً** ابناء الله ، لا قانونياً فقط . **فالله يغيّر عمق أعماق كياننا** ويجعلنا أعضاء في نسله ، في عائلته ، في دمه اذا صح التعبير : «شركاء في **الطبيعة** الالهية» . «إننا ندعى أبناء الله» — باستطاعة التبني البشري أن يفعل هذا — «**ونحن بالحقيقة أبناؤه**» — هذا يحققه التبني الالهي وحده (١ يو٣/١). لكن القديس بولس مجبر على استعمال كلمة «بالتبني» لكي يميزنا عن الابن الأزلي .

لقد دخل القطار المحطة

هذا الخلاص ، هذا الطريق الطويل الصاعد الذي يمشيه **الابن المتجسد انطلاقاً من داخل البشرية** ، هو الذي تصفه رسالة بولس الى

الرومانيين (٢٩/٨ — ٣٠) .

« الذين سبق فاختارهم » — أي كل المخلوقات ، أنا وأنت وجميع الناس — « سبق **فأعدهم** » — هذا هو قصده — « ليكونوا على **مثال صورة ابنه ليكون** هذا الابن بكراً لأخوة كثيرين . والذين أعدهم هكذا — أي جميع الناس — **فقد دعاهم** أيضاً . « والذين دعاهم **برّرهم** أيضاً — أي قدسهم ، ألّههم بيسوع .

اليوم دينونة هذا العالم . واليوم يطرد سيد هذا العالم . وأنا متى ارتفعت من هذه الأرض جذبت إلي الناس أجمعين . قال هذا مشيراً إلى أية ميتة سيموت . (يو ٣١/١٢ — ٣٣) .

والذين بررهم ، **مجّدهم** أيضاً ...

هذا هو « العبور » ، الفصح ، فصح الإنسان إلى الله بواسطة ابنه الذي « إذا ما ارتفع على الصليب وفي المجد ، يجذب الكل إليه » ليدخل الجميع في قلب عائلة الثالوث .

والآن وقد ارتفع المسيح على الصليب وفي المجد ، وهو ربنا ، فيعتبر القديس بولس ان **كل شيء هو لنا** ، **نحن أعضائه حيث مرّ الرأس ، يمرّ الجسم كله** . فنحن أيضاً بالمسيح ، ليس فقط قد اختارنا ودعانا ، بل قد بررنا ومجدنا... هاكم تشبيهاً يوضح هذه الحقيقة الرائعة ؛ يدخل المحطة قطار طويل . الشاحنة التي تجر المجموعة وصلت إلى المحطة ومعها الشاحنات الأولى . والباقي يتبع . يمكننا القول : دخل القطار المحطة . وصل القطار مع أنه لم يتوقف بعد . يجب أن تتقدم الشاحنات الأخيرة... وبما أن القطار لم يتوقف بعد ، فالمسافرون الشاردو الذهن في الشاحنات الأخيرة يرون المناظر الطبيعية تمر تحت النوافذ . قد لا يعرفون أنهم وصلوا . الذين يتزلون قبل أن يتوقف القطار تماماً ، قد تدهسهم الدواليب... رغم ذلك **فالقطار كله في المحطة ، منذ أن دخل مقدّمة المحطة**...

هل فهمتم المثل !.. قصد الله ثابت وقوي وفعّال رغم الظواهر ؛ برنامج الابن في كل منا أكيد ومحب منذ الخلق . بحيث أن العناد الرافض والحر والرفض الطويل والواعي يمكنه وحده أن يحبط تصميم ذاك الذي « **يريد خلاص البشر جميعاً** » (١ تيمو ٤/٢) .

الخلق والتجسد والفداء والمجد قصد إلهي واحد مركزه « الإنسان يسوع المسيح » . هو محركه وبدؤه ونهايته ، حتى يتحول به البشر أجمعون إلى أبناء الله ويتقاسموا ميراثه . وباختصار : **صار الله إنساناً ليصير الإنسان الهاً** ! ... » في المسيح ، في جسده ، يسكن ملء « اللاهوت » (كول ٢/٩) و« من هذا الملء أخذنا جميعنا » (يو ١٦/١) . من ملء كيان الله .

بتعبير آخر ، نختصر ما سبق

نحن في عصر العلوم الانسانية ، وأكثر من كل يوم ، الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع يسبرون أغوار « الإنسان ذلك المجهول » ليفككوا جهازه وينبشوا أعماقه ...

فيكتشفون أن الإنسان كائن لا يُفهم ولا يُعقل ... كائن محدود بنوع صبياني . ومن متناقضاته أن رغائبه لا متناهية . « كائن إلهي » لا أكثر ولا أقل ... مثل مزرعة مؤلفة من خمسة أكواخ يتفرع عنها ، إلى كل الجهات ، شوارع عريضة لا تحد ... نحو من ؟ لمن ؟... شيء جنوني !

شيء جنوني ... إلاّ إذا نظرنا إلى الإنسان على ضوء الوحي . يقول المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني : « لا تلقي الأضواء الحقة على الإنسان إلا من خلال سر الكلمة المتجسد » ، (الكنيسة في عالم اليوم ١/٢٢) .

وتعلمنا النصوص الموحاة التي قرأنا منذ قليل أشياء لا يعلمها الفلاسفة ولا علماء النفس ولا علماء الاجتماع ولا يستطيعون أن يعرفوها على صعيد علومهم **الإنسانية** . تعلمنا هذه النصوص أن لا وجود لطبيعة بشرية خالصة ، أي طبيعة لا أكثر ولا أقل . لا يوجد سوى بشر أمتلكهم يسوع المسيح ، وقد صُنعوا ، على مستوى خلقهم ، ليدخلوا في الشراكة الالهية .

فالطائرة لا تندفع على مدرجها الا لتطير. والاّ فما نفع جناحيها؟... الطائرة مبرمجة، مصنوعة لتطير... وكذلك كل إنسان مبرمج منذ يوم الحبل به، على صورة الإنسان الكامل، «الإنسان يسوع المسيح». إنه مبرمج على أقنوم يسوع الناصري الالهي. من هنا رغبته اللامحدودة في أن يحب ويحب، في أن يتّحد بغيره، أن يكون مع الغير، أن يعرفوه... هو مبرمج ليعيش كما يعيش الله ويحب كما يحب الله.

لنعد إلى مثل الطائرة، لبناء الكونكورد، كان من الضروري تصميمه ثم بدء التنفيذ تدريجياً وبمحاولات شتى تتبعها تجارب دقيقة تتطلب وقتاً ومالاً كثيراً.

نعلن الحق في المحبة فننمو في كل شيء نحو المسيح الذي هو الرأس. فيه يتماسك الجسد كله ويلتحم بفضل جميع المفاصل التي تقوم بحاجته. حتى إذا قام كل جزء بعمله الخاص به، نما الجسد كله وتكامل بنيانه بالمحبة (أفسس ٤/١٥ — ١٦).

وأخيراً أظهر المثال. كل قطعة **تتطلب تصميماً واتقاناً وضبطاً وتجربة واعادة نظر إلى أن يبلغ المثال**، بعد أن تنسجم كل قطعة مع القطع الأخرى. قبل ذلك تبقى القطع ناقصة، تبقى آلة «خاطئة»: «خاطئة» من ناحية أو من أخرى، إذا صح التعبير. هكذا **فكل إنسان هو قطعة في «مجموعة يسوع المسيح»**. كل إنسان داخل في تصميم يسوع المسيح. البشرية، وقد ولجها ضمير يسوع المسيح، تتخمر لتتجانس وشراكة الثالوث... مع التأليه...

لكن لتؤدة وتعب، وسط مقاومات وكبوات وتكسير، لأن الطريق طويل: انطلاقاً من معدن خام، إذا صح التعبير. معدن خام أولاً، بينما نحن مدعوون إلى أن نكون قطعة دقيقة — خليقة غير كاملة أولاً، بينما نحن مدعوون إلى أن نكون أبناء الله في يسوع المسيح؛ هذه هي الخطيئة الأصلية.

سرّ «الخطيئة الأصلية»

الآن فقط، على ضوء سيدنا يسوع المسيح، مثالنا الإنساني،

يمكننا تسليط الأضواء على سر ما يدعونه «الخطيئة الأصلية». إننا نمزج عادة، عند استعمال هذه الكلمة، حقيقتين مختلفتين :

— **الخطيئة الأولى**. خطيئة الإنسان الأول الإرادية. الخطايا التي بدأت السلسلة السوداء. «خطيئة آدم».

— **حالة الإنسان الخاطئة، عند ولادته**. فكلمة «خطيئة» لا تعني إذاً الشيء ذاته. اذ لسنا نتكلم هنا عن افعال شخصية. بل يعني هذا فقط : «**عندما نولد، لا تفترض حالتنا صداقة الله والاشتراك في حياته**» (بيار كريلو).

يجب ألا ننسى هذا.

النقطة الصعبة في الكرازة

قضية «الخطيئة الأصلية» هي أصعب ما في الكرازة... لماذا هذه الصعوبة ؟

* لا يمكننا أن نفهم، كما يجب، دولاباً — عمله، قطره، مناعته، تخريمه، أهميته — لو أخذناه بمعزل عن حركته (كدولاب الساعة مثلاً) إذ هو قطعة من كل. هكذا فالمصيبة في دراسة عقيدة «الخطيئة الأصلية» هي أنه غالباً ما حاولوا درسها منفردة، بعيدة عن مجموعة تعاليم الوحي حول الله، كالثالوث والخلق والخلاص.. إنها طريقة ناجعة لعدم فهمها بتاتاً.

* وبخاصة أنهم بالغوا في أهميتها. فأصبحت كجبل يسد الرؤية نحو الإيمان... بينما لا نجد الخطيئة الأولى لا في قانون الرسل ولا في قانون نيقيا ! وكذلك الأناجيل الأربعة لا تقول كلمة واحدة عنها !...

* إخراج قصة الخطيئة الأصلية في الفصل الثالث من سفر التكوين هو من أكثر الصفحات شعبية. لذلك تناولتها التحريضات

والتبسيطات والتشويهات ككل شيء يتناوله التيار الشعبي . من هذه المعطيات **الرمزية** الملأى **بالأسرار** — الفردوس الأرضي ، آدم وحواء ، الحية ، الشجرة ، الثمرة المحرمة ، التعرية — كونوا ، منذ القديم ، « قصة » ، خبرا تافهاً في مخيم عراة بين رجل وامرأة (السيد آدم والسيدة حواء) وشجرة **مادية** — شجرة تفاح ، لو تعلمون ! — قصة تفاحة صبيانية ، **كشرح** لقضية أصبحت ، وسط هذه المعطيات ، ظلامة لا تفهم : القصاص المرعب من قبل اله مستبد وسادي . يعاقب الجنس البشري الذي لا يد له في الموضوع . وهذا يجعل الناس يهزون أكتافهم أو يجدفون على الله في عالم النقد والعلم الذي لم يعد يقبل بالقصص الفارغة .

* لذلك فالنقد المعاصر (ماركسية ، وجودية ، فرويدية ، شخصانية — يمكنك اهمال هذه التعابير إن لم تفهمها) والعلوم تجبرنا على اتباع كرازة جديدة وصعبة ، لكنها ايجابية ، حول الخطيئة الأولى .

لو توقفنا على العلوم — وقد عممتها المدرسة ووسائل الاعلام ، لرأيناها قد فرضت نظرتها بما يختص بأصل الكون والإنسان . فهي تحدد اليوم عمر العالم والأرض والقمر والحياة والإنسان . فكرتها الأساسية هي « النتؤ والإرتقاء » ، التطور الشامل (فكرة ادانتها الكنيسة ثم قبلت بها أخيراً وبلا تردد) — نتوقف عند الإنسان : إنه منحدر من الماء والتراب الأساسيين . وعبر الحيوانية الفطرية ، راح « يصعد » بتدرج نخاعي بطيء ، حتى الإنسان البدائي الذي تطور عقلياً فأصبح شخصاً عاقلاً وحراً . لكنه غير قادر بعد أن يعي عملاً ثورياً ونهائياً ضد الله . لا شيء إذا مما يقال حول حالة سابقة لخطيئة آدم حيث لم تبدأ الأفاعي بعد بالزحف وحيث الورود لم تعرف الأشواك وحيث الأرض لا تنبت الصبّار ، بينما أبوانا الأولان يتنزهان عراة وسط النمور التي ترعى بوداعة .

كلا. فالإنسانية لم تولد في فردوس أرضي. سماء السعادة وصداقة الله كما يصورها الفصل الثالث من سفر التكوين هي **تصميم** للخليقة. ليست إذاً في الماضي بل في المستقبل، ليست وراءنا بل أمامنا. هي **قصد الله بخصوص الأزمنة الأخيرة**. وقد وضعت في أول الكتاب لأن الكاتب **يبدأ بالتصميم**. أما على صعيد التنفيذ، فلم تبدأ البشرية بكائنات كاملة سقطت فيما بعد بل بمسودة بسيطة حققها الله بمحبته وطبقاً لقوانين تطور بطيء. صنع الإنسان من التراب، إلى حيث سيعود ولكن عبر مليارات السنين... من رجل وامرأة فقط (سلالة واحدة)؟ هذا لا يصدق. عدة أزواج من أصل واحد (عدة سلالات)؟ علم الأحياء يميل نحو هذه النظرية. لا داعي لأن يماحك الإيمان العلم على هذا الصعيد: إن يسوع المسيح ربنا هو الذي يكوّن وحده الجنس البشري كما سنرى، وليس آدم وحواء.

إذا صغر المسيح، انقلب الإيمان رأساً على عقب

من المؤسف أن الكرازة الشعبية جعلت من المسيح وتجسده نقيضاً للخطيئة الأصلية، وذلك بطريقة منطقية مثالية. أي أن الحدث الأول الذي يشرح كل شيء ويوجه كل شيء لم يكن حب الله ولم يكن الرب يسوع، بل الخطيئة الأصلية. في البدء وقعت كارثة أبوينا الأولين **فأجبرت الله على تغيير تصميمه !**

هذا المخطط الفاسد مشهور:

خلق الله العالم والإنسان: حمل الشيطان الإنسان على السقوط وهكذا تسلط على البشرية. فإذا ما أراد الله أن يستعيد ملكه ويخلص الإنسان، عليه أن يقرر التجسد وموت ابنه ذبيحاً، تكفيراً عن هذه الخطيئة ولكي يخلص من الجحيم الإنسانية المذنبة... فالقيامة اذاً شيء ثانوي: يقتصر الخلاص على التكفير الذي يقتضيه اله همه العدالة وعلى النجاة من جهنم. فلم يعد يسوع

« ربنا » ، لم يعد « رب الكون » . **فهو فقط** « المخلص » ومخلص « **البشر فقط** » . . .

مع العلم أن **المبادرة** كلها ، قبل أية خطيئة ، تعود لتصميم الله ، إلى تصميم إلهي أوسع بكثير مما قيل هنا : **تجسد الله الابن ليؤله كل روح ، وكل جسد فيه — خلقه انساناً ، على حدود الروح والجسد ، ليكون القمة والمركز الموحد ورب كل خليقة** .

وهكذا نسينا أكثر الصفحات نوراً في العهد الجديد وبخاصة في كتابات القديس بولس .

الأمانة للكتاب كله

لا يتكلم الكتاب المقدس مطلقاً على أن الله يدين انساناً لم يرتكب ذنباً شخصياً . بل إنه يتكلم ، على العكس ، في كل صفحاته ، عن اله يحب البشر قبل أي استحقاق من قبلهم .

كما أنه لا يتكلم عن خطيئة موروثة بل عن حالة ذنب تظهر من جيل إلى جيل . « أنا لست أحسن حالاً من آبائي » ! .. هو يرفض اطلاقاً أن ينقل الأب مسؤولية خطأه إلى أبنائه (تثنية ١٦/٢٤ ؛ إر ٢٩/٣١ ...) .

فإذا هو ولد أبنا رأى جميع خطايا أبيه التي صنعها . لكنه لم يصنع مثله ... كفّ يده عن البائس ولم يأخذ ربىً ولا ربحاً/وأجرى الحكم وسلك في رسومي فإنه لا يموت بإثم أبيه بل يحيا حياة . أما أبوه فبما أنه جار جوراً واختلس من أخيه خلسةً (حزقيال ١٤/١٨ ؛ ٢٠/١٧) .

وهكذا **فهو** لا يتكلم أبداً عن خطيئة البنين بل فقط عن خطايا المسؤولين . « كلهم **أخطأوا شخصياً** وحرموا مجد الله ، ولكن **الله بررهم مجاناً** بنعمته » (روم ٢٣/٣) . — « وسرى الموت إلى جميع البالغين لأنهم **كلهم أخطأوا شخصياً** » (روم ١٢/٥) — الفعل اليوناني الذي يستعمله القديس بولس — أمارتانو amartano — له معنى فعّال . والآباء اليونانيون ، لأنهم يقرأون رسائل بولس باليونانية ، فهموا النص بالنسبة إلى الخطايا الشخصية ، وإلى الذين بلغوا سن الرشد .

والحكماء الملهمون (ابن سيراخ والحكمة) ، وقد تأملوا طويلاً الفصل الثالث من سفر التكوين ، يشددون على **حرية** كل إنسان .

«كل واحد هو آدم بذاته» . «**فهم يحذروننا من أن نبسّط الأمور أكثر من اللازم فننسب كل شرور البشرية الى هفوة أولى . هذه الهفوة «الواحدة» ليست الحلقة الأولى في السلسلة بل هي قوة موحَّدة** : يؤكد العهد القديم أننا كلنا في الخطيئة معنيون ، كلنا مشتركون إلى حد أننا أصبحنا واحداً» (بروفاك) . فالقول بأن الولد غير المعمد هو المثال للخطيئة الأصلية هو جهل للفصل الثالث من سفر التكوين وجهل للتناسق الوارد في الكتاب . وهو إنكار لدور الإيمان والحرية في عمل الخلاص ! ...

عماد الأولاد يجب أن يكتمل يوم يصبح الولد راشداً ، أي يتطلب جواباً **شخصياً** من قبل الإيمان . النعمة المقدّسة التي يتقبلها الولد في العماد هي حياة جديدة ينقصها القبول الحر **والشخصي** ، القبول المحب والمجاهد . كذلك القول عن الخطيئة الأصلية : هي في الولد في حالة تشبه النوم ولا تتحقق تماماً في حياة الإنسان إلا إذا قبل بها الراشد **شخصياً** بأعمال شريرة حرة . فالكتاب يتفق والتيار الشخصاني للفكر المعاصر .

الانطلاق من الاختبار

إذا لم يكن بالإمكان الفصل بين عقيدة الخطيئة الأصلية ومجمل معطيات الوحي ، فبالأحرى لا يمكن فصلها عن مجمل الرؤية المسيحية للخطيئة . والحال أننا لم نر في شجرة الخطيئة سوى الطرفين : الجذور (الخطيئة الأولى) وطرف الأغصان (خطيئة الأولاد)... أما الجذع ؟ أي اختباري أنا للخطيئة ، اختبارك أنت .. اختبارنا كخطأة جميعنا وكوننا متضامنين في الخطايا؟...

«رأيت أمس على شاشة التلفزيون صقراً يترصد أرنباً صغيراً ضائعاً بعيداً عن حجره . عينا الصقر المخيفة تحدقان بالطريدة بقوة غريبة . وفجأة انقض على الأرنب . فما كنت أرى سوى غيمة صغيرة مخيفة من الصوف والدم . هناك صقور على أشجار الغابة

شخصياً . . » (روم ٥/١٢) . وأيضاً « فالموت كان على يد انسان البشرية جمعاء . هناك مغامرون يترقبون نقل الذهب . رجال ثقة ، كما يسمونهم : يسرقون مستخدميهم . تجار الرقيق يروعون الفتيات . أناس ساديون يفتشون عن طرائد فتية يغتصبونها ثم يقتلونها . في كل برهة وفي أماكن عدة من الأرض ، جنود بنادقهم في أيديهم يدخلون الغابات والمستنقعات ويصطادون جنوداً آخرين كما يصدادون الأرانب . هذه هي البشرية (اندره موروا) .

قبلنا ، رجال العهد القديم اختبروا الخطيئة بأنواع شتى كما يحصل في كل جماعة . يرى البدوي في طريقه أبراج بابل المعدة للطقوس — تسعون متراً وأكثر — وطقوسها الوثنية وتعدد لغات الشعوب التي يمر بينها . يختبر عداوة الأرض والمناخ والوحوش والأمراض والموت . . . ويفكر . يفتش عن سبب هذا التمزق العام بين الإنسان وأخيه ، بين شعب وشعب ، بين الإنسان والحيوان والأشياء ، بين الإنسان وذاته . هو يفتش **والله يوحي له** . حوالي سنة الألف قبل المسيح ، أي بعد ابراهيم بسبعة أو ثمانية قرون ، دُوِّن هذا الوحي في ٣ — ١١ من سفر التكوين .

ماذا تقول الفصول ٣ — ١١ من سفر التكوين ! !

لا يقدر الإنسان بقوته الذاتية أن يكون هذا الاله ، كما هو رغما عنه (بالدعوة السابقة) هذا الإله الذي يريد أن يكونه بإرادته . هل يريد نعم أم لا ، أن يحيا إلى حد الموت ، إذا صح التعبير ، ويقبل أن يحل الله محله ! أو إنّه يدّعي أنه يكفي ذاته بدون الله ؟ هذا هو الخيار : محبة الذات حتى احتقار الله أو محبة الله

نجم هذه الفصول هو آدم .

مع أن آدم ليس اسم علم : لم يوجد قط شخصاً في الكتاب يدعى آدم . كلمة آدم في العبرية اسم جنس تعني « الإنسان » . وقد جاء **٥٣٩** مرة في الكتاب بالمعنى الجماعي « الإنسان » . أو بالأحرى « الترابي » لأنه مأخوذ من التراب . مع الأسف ، أصحاب الترجمة السبعينية ، عن العبرية إلى اليونانية ، في القرنين الثاني والثالث قبل المسيح ، نقلوا هذه الكلمة بدل من أن يترجموها . ولعدم فهمهم اياها ، استعملها اليونانيون واللاتين كإسم علم . هذا التعبير المعكوس أضلّ الآباء اليونان واللاتين . فاعتبروا آدم اسم علم . وهذا معنى معكوس . أما يسوع فلا يتكلم عن آدم ولا عن خطيئة آدم . اذ

حتى احتقار الذات . (موريس بلوندل) .

الرجل والمرأة («حواء» هو أيضاً اسم جنس يعني «المرأة الحية» الأم) خلقا على صورة الله ومثاله أي ، بالمعنى السامي ، **دعيا الى الحياة الالهية** . هذه الحياة البنوية تمثلها صداقة الله في جنة عدن . «هالة البرارة والقداسة» هذه التي يحددها المجمع التريدنتيني ، تقوم هذه الحالة أصلاً على دعوة الإنسان ، كل إنسان ، إلى صداقة الله الحميمة . **فالإنسان مبرمج للحياة الالهية** منذ بدء الجنس البشري .

لكن هذه الدعوة غير قابلة التحقيق بشرياً ، لأن التأليه لا يؤخذ قسراً . بل يتقبلها الإنسان بتواضع وطاعة ومحبة . بالإضافة إلى ذلك ، أن يكون الشخص إلهاً ذلك يعني أنه محبة . أي يملك قلب اله ، منزه عن كل أنانية... هذا البرنامج مستحيل على الإنسان . **لا يمكن أن يكون الإنسان إلا رجلاً خاطئاً أمام دعوته اللامتناهية** .

وهو يخطىء بطريقة جنونية نظراً «لبرنامجه اللامتناهي» .

فهويعتبر ذاته مطلقاً بدل من أن يحب بطريقة مطلقة . من هنا قطع علاقته بالله ، فصل رباط الزوجين (تك ٣) وقتل الأخ (تك ٨/٤) والثأر إلى ما لا نهاية له (تك ٢٤/٤) ومد العنف والعسق (العدوانية والجنس : قطبا الفرويدية) المؤدي الى الطوفان (تك ٦) . وأخيراً تحدي الأمبراطوريات الكبرى لله وعدم تمكنها من التفاهم (تك ١١) . هذا بقطع النظر عن عداوة الطبيعة (تك ١٤/٣ ..) .

ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت لأنّ كل جسد قد أفسد طريقه عليها . فقال الله لنوح : قد دنا أجل كل بشر بين يديّ فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهاءنذا مهلكهم مع الأرض . (تك ١٢/٦ — ١٣) .

حقائق في البدء ، حقائق حالية : في هذه البشرية الخاطئة ، بإمكان كل إنسان أن يرى ذاته ، اذ كلهم خاطئون «كرجل واحد» .

هذا التيار الجارف هو ما يصفه القديس بولس ليظهر لنا يسوع المسيح : «بإنسان واحد دخلت الخطيئة العالم وبالخطيئة دخل الموت . وسرى الموت إلى جميع البشر لأنهم كلهم خطأوا

وعلى يد إنسان تكون قيامة الأموات . وكما يموت جميع الناس في آدم ، فكذلك هم في المسيح سيحيون » (١ كو ١٥/٢١ ..) .

« بإنسان واحد الخلاص »

نصوص القديس بولس هذه — بإنسان واحد — أجبرت كثيرين على التزام القراءة الفاسدة التي ترى في « آدم » اسم علم أي فرداً معيناً وذكراً . بينما نصوص كتابية أخرى تناقض هذا الالتزام : « **من المرأة** ابتدأت الخطيئة وبسببها نموت أجمعون » (ابن سيراخ ٢٥/٢٤) ، « **بحسد ابليس** دخل الموت العالم » (حكمة ٢/٢٤) .

أما الآن فأنتم الذين كنتم حيناً بعيدين قد صرتم في المسيح يسوع قريبين بـدم المسيح . لأنـه هو سلامنا . هو جعل الاثنين واحداً ونقض في جسده حائط السياج الحاجز أي العداوة . وأبطل ناموس الوصايا بتعاليمه ليخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً باجرائه السلام . ويصالح كليهما في جسد واحد مع الله بالصليب . بقتله العداوة في نفسه . (أفسس ٢/١٣ —١٦) .

الحقيقة ان القديس بولس في رسائله يريد أن يتكلم ، لا عن الخطيئة بل عن الخلاص . وهو ينظر لا إلى آدم الأول بل إلى « آدم الحقيقي » أي « الإنسان الحقيقي » مثال جميع الناس ، ربنا يسوع المسيح ولكنه يتوجه إلى قرّاء لا يعرفون سفر التكوين الا بترجمات تحمل المعنى المعكوس معتبرة آدم اسم علم . وهو قد عرفها على هذا النحو . هذا هو تفكيره : أنتم **تظنون** انه بإنسان واحد ، آدم ، قد دخلت الخطيئة إلى العالم . **وأنا أقول لكم** إنه بإنسان واحد ، يسوع ، عمت الحياة والقداسة البشرية . المسيح هو آدم الحقيقي الذي يجمع الجنس البشري في وحدة محسوسة هي وحدة الأصل والحالة والدعوة والمصير (يو ١١/٥٢ ؛ أفسس ١/١٠ ؛ كول ١/١٥ ...) .

لهذه الوحدة أساسها البيولوجي ، إذ أخذ جسدنا ودمنا في البدء (« بكـر الخلائق ») قديماً وحديثاً (« بكـر القائمين من الموت ») . هذا ما يجعله رئيسا لجنسنا . يسوع ربنا ، مثال البشرية التي خلقها الله فيه ، هو يجمع كل الناس « في إنسان واحد جديد » ، به أصبح **المستحيل حقيقة** .

هذا كل محتوى الدستور المسيحي حيث لا تحدد الحالة البشرية الا بالنسبة إلى حياة الثالوث التي يجب أن تشترك فيها . وحيث لا

كلام على الخطيئة إلاّ لاعلان المسامحة . وحده ربنا يوحي لنا سر الخطيئة الأصلية ، إنما بعد أن يكون قد غفرها وأتلفها :

« فإذا كان الموت ساد البشر بخطيئة إنسان واحد ، فبالأولى أن تفيض عليهم نعمة الله والعطية الموهوبة بنعمة إنسان واحد وهو يسوع المسيح » (روم ٥/١٥) .

هذا هو الخلاص « الأصلي » .

٧

حبل به من الروح القدس

الفداء « الأصلي »

فالبشر كلهم خطأوا وحُرموا مجد الله . ولكن الله بررهم مجاناً . بنعمته بيسوع المسيح : الذي افتداهم والذي جعله الله كفّارة في دمه لكل من يؤمن به . وفعل الله ذلك ليُظهر بره . فإذا كان تغاضى بصبره عن الخطايا الماضية ، فهو الآن يظهر برّه ليكون باراً ويبرر من يؤمن بيسوع . (روم ٣/٢٣ — ٢٦) .

أتريد التأمّل بسجّادة ؟ فأنت لا تنظر إلى ظهرها بل إلى وجهها .. إذ ليس لظهرها من معنى . وجوده رهين بالوجه . وهكذا فليس للخطيئة الأصلية من معنى . آدم الخاطىء لا وجود له إلا بالنسبة إلى آدم المفتدى . « لأن الله جعل البشر كلهم سجناء العصيان حتى يرحمهم جميعاً » (روم ١١/٣٢) كما يقول القديس بولس . ويقول أيضاً : « ولكن الكتاب حبس كل شيء تحت سلطان الخطيئة حتى ينال المؤمنون الوعد لإيمانهم بيسوع المسيح » (غلا ٣/٢٢) . نقطة الارتكاز في الرسائل الموحاة ليست الخطيئة بل المسيح ، أي نعمة الله التي تتحقق في الناس بواسطة المسيح . ومن هنا تنطلق لتبين حالة البشرية الدينية والأدبية قبل مجيء المسيح .

هذه هي النظرة الدائمة عند القديس بولس أي عند الروح القدس ملهمه . هو لا يقول : « لقد مات جميع الناس (بالخطيئة) لذلك فواحد مات عن الجميع » .. بل على العكس تماماً : « واحد مات عن الجميع لذلك فجميعهم ماتوا » (٢ كو ٥/١٤) . **فإذا ما أردنا احترام الوحي وبذات الفعل احترام الإيمان ، فلا يمكننا الكلام عن قوة الخطيئة الأصلية وشمولها إلا لنؤكد على عطية أكبر وأشمل ناتج عن الفداء « الأصلي » أقول « الأصلي » ، أي** المعطى منذ البدء ، منذ تصميم الله الأزلي .

« بالأولى وبغزارة » فلنقرأ الفصل الخامس من الرسالة إلى الرومانيين .

تبدأ الآية ١٢ بمقارنة يمكن اختصارها كما يلي : «كما انه بآدم جميعهم أخطأوا ، كذلك جميعهم نالوا نعمة بالمسيح . .» هذا كاف ليملأنا رجاء . وهذا معاكس تماماً لما يفكر العديد من المسيحيين الذين لا يقرأون الكتاب !

لكن هذا أقل بكثير مما يقول الكتاب . فالحقيقة الموحاة لا تزال أجمل من ذلك بكثير . فسيستدرك بولس إذ ينكر المقارنة ، فيحط من أهمية الخطيئة الأصلية بالنظر إلى النعمة الأصلية :

ولما كنا ضعفاء ، مات المسيح من أجل الخاطئين في الوقت الذي حدّده الله . وقلّما يموت أحد من أجل انسان بار ، أما من أجل صالح ، فربما جرؤ أحد أن يموت . ولكن الله برهن عن محبته لنا بأن المسيح مات من أجلنا ونحن بعد خاطئون . فكم بالأولى الآن بعدما تبرّرنا بدمه أن نخلص به من غضب الله . (روم ٥/٦ — ٩) .

« ولكن هبة الله غير خطيئة آدم . فإذا كان الموت ساد البشر بخطيئة إنسان واحد ، **فبالأولى أن تفيض عليهم نعمة الله** والعطيّة الموهوبة بنعمة إنسان واحد هو يسوع المسيح . وهناك فرق في النتيجة بين هبة الله وبين خطيئة إنسان واحد . فخطيئة إنسان واحد قادت البشر إلى الهلاك ، أما هبة الله بعد كثير من الخطايا ، فقادت البشر إلى البرّ . فإذا كان الموت بخطيئة إنسان واحد ساد البشر بسبب ذلك الإنسان الواحد ، **فبالأولى** أن تسود الحياة بيسوع المسيح وحده أولئك الذين ينالون **فيض النعمة وهبة البرّ** .

فكما أن خطيئة إنسان واحد قادت البشر جميعاً إلى الهلاك ، فكذلك برّ إنسان واحد يبرّر البشر جميعاً فينالون الحياة . وكما أنه بمعصية إنسان واحد صار البشر خاطئين ، فكذلك بطاعة إنسان واحد صار البشر أبراراً .

وجاءت الشريعة فكثرت الخطيئة ، ولكن حيث كثرت الخطيئة ، **فاضت نعمة الله** ، حتى انه كما سادت الخطيئة للموت ، تسود النعمة التي تبرّرنا بربنا يسوع المسيح للحياة الأبدية» . (١٥ — ٢١) .

التأكيد ذاته يعود ست مرات كشحنة كهربائية لا تقاوم ، إذ يقول ويردد :

كل مرة ظهر إنسان في الوجود ، تستولي عليه خطيئة الجنس

البشري وتقوده إلى الهلاك . **إنما في ذات الوقت** ، **وبنوع أفضل** ، فابن الله المتأنس ، آدم الحقيقي ، يستولي عليه **ويملؤه** ويقيه الشر بفداء أقوى وأشمل ليوصله إلى شراكة الثالوث التي هي دعوته وخلاصه . الخطيئة لا تزال حاضرة لكنها قد تهدمت . والموت الأبدي حاضر أيضاً لكنه قد غلب . والتضامن في الخطيئة الأصلية حاضر لكنه أضعف وأقل عمقاً من التضامن مع السيد المسيح . انحطاط الإنسان الخاطىء حاضر إنما الدعوة الالهية سابقة وهي أمنع منه .

« تجسد المسيح الفصحي يكوّن فداءً أصلياً للبشرية جمعاء ولكل إنسان ونوعا من « العماد الشامل » أو « الأساسي » للبشرية الخاطئة جميعها (راجع كيف يتكلم يسوع ذاته عن موته قبل حلوله : مر ١٠/٣٨ ؛ لو ١٢/٥٠) . لم يكتف المسيح بأن جعل خلاص البشر ممكناً بفتحه لهم « طريق السماء » (كما يؤكده غالباً) . بل حقق هذا الخلاص الالهي للبشرية جمعاء إذ « أدخلها السماء » التي هي بشريته الممجدة (راجع أفسس ٢/٦) . وهو اليوم يحقق هذا الخلاص في كل إنسان يولد في العالم . نحن لا نعلم بالضبط متى وكيف يفتح الإنسان شخصياً قلبه أو يغلقه في وجه المسيح المخلص هذا . لكن هذا الجهل — لا يجب أن يجعلنا ننسى ما يؤكده أساسا — **إيماننا المسيحي بأنه في المسيح يسوع** ، **وفي الواقع** « **نعمة الله التي هي ينبوع خلاص لجميع الناس** ، **قد ظهرت** » (تيطس ٢/١١) ، « وان الله قد سر بأن يحل فيه الكمال كله وان يصالح به كل شيء في الأرض كما في السماوات . فبدمه على الصليب حقق المصالحة (كولسي ١/١٩ ..) (بول هيتز) .

لكن الله بواسع رحمته وفائق محبته لنا أحيانا مع المسيح بعدما كنّا أمواتاً بزلاتنا . فبنعمة الله نلتم الخلاص . وفي المسيح يسوع أقامنا معه وأجلسنا في السماوات ليظهر في الأجيال الآتية غنى نعمته الفائقة في الرأفة التي أبداها لنا في المسيح يسوع . (أفسس ٢/٤ — ٨) .

— إذاً ، ما هي منفعة العماد ؟

— سنكرس فصلاً للعماد في جزء آخر حول كرازة الأسرار . بانتظار ذلك ، راجعوا دستور المجمع الفاتيكاني الثاني حول الكنيسة . يتكلم آباء المجمع ١٣ مرة عن العماد دون ذكر الخطيئة

الأصلية بهذه المناسبة ..

الحبل بلا دنس

سمعنا القديس بولس يردد أن الفداء «الأصلي» أشمل من الخطيئة الأصلية .. هذا يعني أن الخطيئة الأصلية ليست شاملة : «فالفداء حفظ مريم أم يسوع من هذه الخطيئة» .

يكتب القديس بولس لأهل أفسس : «إن الله ابا ربنا يسوع المسيح قد اختارنا بالمسيح قبل إنشاء العالم لنكون قديسين وبغير عيب أمامه في المحبة» . «بغير عيب» أي بغير دنس ، بغير خطيئة ، بغير أثر للانانية ، مثل المسيح وفي المسيح . هذا هو مستقبلنا جميعنا لاننا مبرمجون على الله . لكن هذا ليس ماضينا ولا حاضرنا . مع كل أفراد الجنس البشري ، لقد ولدنا خارج الحياة الالهية وفي حالة رفض لتصميم الله ورفض لدعوتنا للمحبة . جئنا جميعاً إلى العالم كبشر «مرتهنين في الخطيئة» ، محتجزين في العصيان» .

فاختارنا فيه قبل إنشاء العالم لنكون عنده قديسين بلا لوم في المحبة ، وقضى بسابق تدبيره أن يتبنانا بيسوع المسيح على ما ارتضى وشاء ، لحمد نعمته المجيدة التي أنعم بها علينا في ابنه الحبيب (أفسس ١/٤ — ٦) .

هناك شخص واحد شذ عن القاعدة — ما عدا يسوع طبعاً — هو أم يسوع ، مريم . فهي ليست فقط بغير عيب — هذا ما سوف نصبحه يوماً — لكنها بغير عيب منذ اللحظة الأولى : لقد حبل بها بلا دنس .

هذا يعني أن «حالتها الأصلية تفترض صداقة الله والاشتراك في حياته» .

وهذا يعني أيضاً أن «حياتها البنوية لم تكن قط سوى «نعم» للآب ستكون «نعم» حياة يسوع بالذات . «لأن ابن الله.. لم يكن «نعم» و«لا» بل لم يكن سوى «نعم» ! وكل تصاميم الله في شخصه «نعم» (٢ كو ١٩/١ — ٢٠) .

لأنّ يسوع المسيح ابن الله الذي بشّرنا به بينكم ، أنا وسيلاس وتيموتاوس ، ما كان نعم ولا ، بل نعم كله . فهو «النعم» لكل وعود الله . لذلك نقول «آمين» بالمسيح يسوع اكراماً لمجد الله (٢ كو ١٩/١ — ٢٠) .

لذلك ، فالكنيسة ، في عيد الحبل بلا دنس ، لا تعرض علينا

انجيلاً أبلغ من انجيل البشارة حيث تقول مريم «نعم» لكلمة الله .

فالكنيسة ، وهي تعني الحبل بسيدتنا مريم العذراء بلا دنس ، تقول : مريم هي بجملتها «نعم» لله منذ بدء حياتها . هي منذ اللحظة الأولى على المستوى الالهي لدعوتها ، دعوة ابنة الله.

لكنها على ما هي عليه بيسوع المسيح ابنها الذي يغمرها بالفداء «الأصلي» مسبقاً . «نعمها» هي «نعم» ابنها الالهي . فإذا كان بواسطتها ، «اللا» الأصلية التي قالتها بشريتنا قد ألغيت ، فذلك لانها رأس الجسر حيث بشرية المسيح الجديدة تبدأ تأخذ جسداً من البشرية القديمة . ذلك لأن فيها تتجلى «نعم» الله التي هي أقوى من «لا» البشر .

الكلمة صار جسداً

يسوع الناصري الذي وُلد من «نعم» العذراء مريم هو الرب بالمعنى الالهي للكلمة : هو يهوه مثل أبيه السماوي . لقد قلنا ذلك في الفصل السابق .

لم **يصبح** يسوع الناصري الها عبر حياته أو يوم قيامته رغم أنهم لم **يعرفوه** حقاً رباً إلاّ تدريجياً. لقد كان الله منذ اللحظة الأولى،في أحشاء أمه العذراء .

— إذا ، لقد **أصبح** إلهاً ساعة حبل به ؟

— لا **يصير أحـــد إلهاً** إلا إذا صارت الخليقـــة ، بنعمـــة الله ،«شريكة في الطبيعة الالهية» ، كما هو تصميم الله بالنسبة الينا جميعاً . لكن بحسب الطبيعة ، فإما أن يكون الشخص الهاً منذ الأزل ، واما انه لن يصير الهاً أبداً . ربنا ، يسوع الناصري ، لم يصر الهاً مطلقاً ، اذ هو إله منذ الأزل .

فلنحاول فهم هذه الحقيقة من منطلق آخر : قبل أن يحبل به من الروح القدس في حشاء العذراء ، هل كان ليسوع وجود ؟

— يجب أن نجيب «كلا» يسوع هو الاسم الذي أعطاه يوسف ، حسبما أمره الرب ، للمولود الجديد من مريم امرأته . كلا . لم يكن ليسوع وجود قبل أن يُحبل به . العقل السليم يفهم ذلك . فالإنسان لا يوجد قبل أن يحبل به . لو وجدت بشرية يسوع قبل الحبل به ، لما كان من جنسنا ، لما كان إنساناً حقاً ، لما كانت بشريته لتهمنا . قبل «النعم» التي قالتها مريم يوم البشارة ، لم يكن للإنسان — يسوع من وجود .

ومع ذلك ، **فالذي** حمل اسم يسوع وولد من العذراء مريم ومات على عهد بيلاطس البنطي ، كان موجوداً لأنه اله ولأن وجود الله لا بدء له . لذلك يجب أن نضيف أنه ، إذا كان الإنسان يسوع لم يوجد بعد ، فابن الله الذي ندعوه يسوع كان موجوداً . في الواقع فإن الطفل يسوع المولود من العذراء وابن الله «المولود من الآب قبل كل الدهور» ليسا اثنين : هما واحد ، هما الشخص ذاته . إنما قبل تجسده ، لم يكن هذا الاقنوم الأزلي يدعى يسوع ، إذ أن يسوع هو اسم الرجل ، اسم المخلوق الذي أصبح ، منذ ألفي سنة ، بتجسده .

في البدء لم يكن بعد يسوع

قبل تجسد الكلمة ، لم يكن موجوداً الإنسان يسوع بعد . لكن الكلمة كان موجوداً . «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . كل شيء به كوّن» ..

بما أن يسوع والكلمة يؤلفان شخصاً واحداً ، يصعب علينا جداً أن نأخذ على محمل الجد حياة الله البشرية . فنحن نتصور رأساً ، بالنسبة إلى يسوع ، حياته الأزلية كابن ، منذ الازل والى الأبد ،

نتصوره في ملء غبطة الاقانيم الثلاثة في السماء . لكنه منذ ألفي سنة أخذ طبيعة بشرية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، إنما بدون أن يغير ذلك شيئاً في وضعه ككلي القدرة وكلي المعرفة وكلي الغبطة وكلي المجد ، إذ أنه كلمة الله . طبعاً لا تتمتع بشريته بعد بملء حياة المجد ، لكن شخصه يتمتع به . هذا ما نتصوره .

وهو الذي في أيام حياته البشرية رفع الصلوات والتضرّعات بصراخ شديد ودموع الى الله القادر أن يخلّصه من الموت ، فاستجاب له لتقواه . وتعلّم الطاعة ، وهو الابن ، بما عاناه من الألم . ولمّا بلغ الكمال صار مصدر خلاص أبدي لجميع الذين يطيعونه . (عبر ٥/٧ — ٩) .

على كل ، مهما بذلنا من جهود ومهما تصورنا من خزعبلات ، لم يعد التجسد أمراً جدياً . إذا كنت تملك في ذات الوقت واحداً بالمئة من الآلام وتسعة وتسعين من الفرح العظيم ، فأنا أحسدك . إذا رحت تمشي في التاريخ بتردد ، وعلى عينيك نظارتان سوداوان وفي يديك عصا بيضاء بينما أنت ترى أفضل من كل إنسان آخر ، فأنت مهرج .

لذلك إذا كنا نتصور أن الإنسان يسوع عاش حياة أرضية وهو يحافظ على علم الكلمة وضميرها وسعادتها كما كان عند أبيه ، فنحن ننكر أنه عرف الحياة البشرية على حقيقتها . مهما كانت صعوباته ، بما انه بمجيئه على الأرض كان يعلم ما ينتظره من آلام وكيف سيعامله الناس وان كل شيء ينتهي على ما يرام بالنسبة لاله ، فكل هذا قصة صغيرة غير ذات أهمية . « افتح فمك واغلق عينيك » . خاصة وهو يحتفظ بالرؤية الطوباوية أي بملء التنعم الدائم بألوهيته ..

الخطأ في هذه النظرة المألوفة عندنا هو أنها تفترض أن يسوع لا يزال يعيش حياته السابقة والسعيدة . أي أنه يعيش حياة مزدوجة ..

والحقيقة انه لما تجسد الابن الأزلي ، **ترك حياته الالهية** وأخذ حياة بشرية « عاشها كما نعيشها نحن ، مختبراً يوما بعد يوم ما هي الحياة البشرية ، مكتشفاً تدريجياً ما تحمل من أفراح وآلام » (جاك كيبه) .

في البدء كان الكلمة

هذا لا يعني أن يسوع لا يعرف أنه ابن الله الوحيد . فكل

صفحات الانجيل تعلن هذه الحقيقة . ويسوع يحدث تلاميذه عن وجوده السابق . فهو يقول أنه «أتى الى العالم» (لو ١٢/٤٩) وأنه «يعلم من أين أتى والى أين يمضي» (يو ٨/١٤) . يعلم أنه «هو الذي نزل من السماء» (يو ٣/١٣) ، «ذاك الآتي من فوق» (يو ٣/٣١) «ذاك الآتي من الله والذي رأى الآب» (يو ٦/٤٦) .. يعلم أنه أزلي مثل يهوه : «الحق الحق أقول لكم : قبل أن يكون ابراهيم ، أنا كائن» (يو ٨/٥٨) . من الواضح أن **الذي** ندعوه يسوع الناصري ، قبل أن يأتي إلى العالم ، كان موجوداً منذ «البدء» أي منذ الأزل . لكن وجوده لم يكن وجود إنسان . لن يكن بعد يسوع .

في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هو في البدء كان عند الله . به كان كل شيء ، وبغيره ما كان شيء مما كان . فيه كانت الحياة ، وحياته كانت نور الناس . (يو ١/١ — ٤) .

ما كان يعمل ربنا قبل وجوده بشرياً ؟

يظهر المسيح نفسه وكأنه ذاك الذي يكمل الناموس والأنبياء . يسوع هو إذاً وريث الكتاب . «**إذا كان يسوع هو وريث الكتاب** ، فالصورة الوحيدة التي يتكلم الكتاب عنها والتي كتب لأجلها هي أنه **هو الذي يتكلم في الكتاب**» (جاك كييه) . كلمة الله ، الذي خلق الكون من العدم ، الذي اختار إسرائيل من بين الأمم ، الذي يدير تاريخ الشعوب منذ البدء ، هذا هو ، الابن .

«عندما بلغ ملء الزمان ، أرسل الله هذا الابن مولوداً من امرأة ليجعل منا أبناء الله» (غلا ٤/٤) .

والكلمة صار جسداً

«الكلمة صار جسداً — حبل به من الروح القدس وولد من مريم العذراء — «وحل بيننا» (يو ١/١٤) في بيت لحم حيث ولد ، في الناصرة حيث تربى وعمل بيديه ، في كفرناحوم في الجليل ، في اليهودية ، في أورشليم .. «الذي كان منذ البدء .. من كلمة الحياة ، قد ظهر . لقد سمعناه ورأيناه بعيوننا ولمسته أيدينا (١ يو ١/١ — ٣) .

اصمّوا آذانكم ، إذا ما كلموكم عن شيء آخر سوى المسيح يسوع ، سليل داود ، المولود من مريم العذراء ، الذي وُلد حقاً ، وأكل وشرب حقاً ، وصُلب حقاً على عهد

بالتجسد ، شخص المسيح الواحد هو في ذات الوقت إله كامل وانسان كامل . وبعبارات جافة ، يقول قانون ايمان القديس اثناسيوس القديم والمعترف به شرقاً وغرباً موضحاً : « **الايمان الحقيقي هو أن نؤمن ونعلن ان ربنا يسوع المسيح ابن الله هو اله وانسان .**

« **هو الله مولود منذ الأزل من جوهر الآب . وهو إنسان مولود في الزمن من جوهر أمه . إله كامل وانسان كامل مؤلف من نفس عاقلة وجسد بشري .. مساوٍ للآب في الألوهة وأصغر من الآب بحسب البشرية .**

« **ومع أنه إله وانسان في آن ، فليس هناك مسيحان ، بل واحد . واحد ، لا لأن الالوهة تحولت إلى جسد ، بل لأن الالوهة تملكت البشرية . واحد تماماً ، لا بمزج الألوهة والبشرية بل بوحدة الاقنوم . اذ كما أن النفس العاقلة والجسد هما إنسان واحد ، كذلك الله والإنسان هما مسيح واحد** » .

بيلاطس البنطي ، ومات حقاً أمام السماء والأرض والجحيم ، والذي قام حقاً من الموت .
فالآب هو الذي أقامه ، وسيقيمنا معه ، وعلى مثاله ، نحن الذين آمنا به ، وبدونه لا حياة لنا حقيقية (اغناطيوس الانطاكي) .

عاش الله على مستوى البشر

طيلة هذه السنوات الثلاثين وما فوق ، حيث عاش هذا الإنسان الاله على الأرض ، كانت كلماته وأعماله كلمات الله وأعماله . « بنزوله من السماء » (يو ١٣/٣) ، هذا الذي أصبح ابن « الإنسان » لم يخسر شيئاً من صفته ابناً لله . لكنه تنازل ، إلى زمن ، **زمن حياته الفانية** ، عن **امتيازاته الالهية** .

« عندما نقرأ الانجيل ، عندما ننظر إلى حياة يسوع ، نحن معرضون لوهم يشبه خداع البصر . لأننا نظن أن يسوع المسيح هو ابن الله وان وجوده البشري لا يمس الوهيته — وهذا عين الصواب — فنحن محمولون على الظن أن يسوع يحيا على مستويين ، على صعيدين يعلو أحدهما الآخر .. في الطابق الأسفل يعيش حياته البشرية الشبيهة بحياتنا حيث يحتمل ثقل النهار وتعبه .. لكننا نقول .. لكونه الهاً ، فهو لا شك يعيش حياة سعيدة في الطابق الالهي ، حياة لا ألم فيها ، نيّرة مشرقة ، لا ينالها الشر ، حيث يعيش الأقانيم الثلاثة فوق الغيوم بعيداً عن العواصف .

يسوع اله حق . من المسلّم به أن كرامة الإنسان التي لا تقبل التحويل هي في انه قادر ، بل في انه مُجبر ، على أن يضع مشروع حياته في مستقبل يجهله . فإن كان مؤمناً ، فالمستقبل الذي يُسلِّم له هو الله بحريته وعظمته.
أن نحرم يسوع من هذا الحظ ونجعله يسير نحو هدف معروف سلفاً وبعيد فقط في الزمن ، فهذا يعني تجريده من الكرامة الانسانية . (فون بلتازار) .

«نحن هنا في قلب السر. لذلك يجب أن نتحرى غاية الدقة. **في هذا التصور، حياة ذات مستويين، وهم خطير وتأكيد أساسي.**

«لا شك في أنّ المسيح يبقى الهاً، لا شك في أنه يبقى أبداً متحداً بأبيه بقرب وثقة مطلقتين، يرى ذاته وهو يتقبل حب أبيه ويبادله الحب، وانه مع الآب في اتصال مباشر لا يمكن لأية خليقة أن تحلم به، إنما قد أعده الله لنا بابنه. هذا الاتصال يجب أن نسميه رؤية. هذه هي الكلمة التي يستعملها يسوع للكلام عنه (لكن ليست هذه الرؤية «السعيدة» بل نوع من الحدس والمعرفة المباشرة).

يبدأ الوهم عندما نجعل من هذه الرؤية، من هذا الاتصال بين الآب والابن، حياة هي امتداد لحياته البشرية.. كواحة خضراء، حيث يعيش بعيداً عن الحياة البشرية وبشاعتها وانحطاطها. هذا هو خداع البصر..» (جاك كييه).

هكذا يتحول حب الابن إلى خدعة سهلة مربحة.

وهكذا نبرهن عن جهلنا للوحي. لا يقول القديس يوحنا: كان الكلمة الأزلي وبعد ذلك أضيف اليه المسيح، أي رجل لكي يسكن فيه الكلمة. بل يقول: «**الكلمة صار جسداً**». **صار إنساناً**.. لم يفقد وجوده ككلمة، لم يتحول الى «آخر». بل الكلمة **صار إنساناً**. ابن الله يعيش حياتنا البشرية ويعيشها دون أن **يحتفظ** في السماء بمسكن ثانوي بعيد عن حقارة الناس.

فظهر ملاك الرب لهم واضاء مجد الرب حولهم فخافوا خوفاً شديداً. فقال لهم الملاك: «لا تخافوا! ها أنا أبشّركم بفرح عظيم: وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلّص هو المسيح الرب. واليكم هذه العلامة: تجدون طفلاً مقمّطاً مضجعاً في مذود». (لو ٢/ ٩ ـــ ١٢).

فالمسيح «**تجرد من ذاته**» يقول القديس بولس، «**افرغ ذاته**» ليأخذ حالتنا البشرية (فيليبي ٢/ ٦..). بدون أن يتخلى طبعاً عن ألوهيته، **لم يعد يحيا على الصعيد الالهي بل فقط على الصعيد البشري**..

«حتى الموت والموت على الصليب». لقد تخلى حقاً عن حالته المجيدة الى حد أنه يطلب من الآب أن يعيدها إليه: «مجّدني. يا

أبتِ . بالمجد الذي كان لي (في الماضي) عندك من قبل إنشاء العالم»
(يو ١٧/٥) .

وبعد قيامته ، يكون قد اكتسب الحق والفرح في أن يُدخل بشريته — وبشريتنا — الى الصعيد الالهي للاشتراك بالطبيعة الالهية» (٢ بطر ١/٤) **في حالة ممجدة** .

فبانتظار هذا المجد ، عن محبة ، ينحصر الله الابن في حدود يسوع الناصري . لا يخون هكذا ما هو عليه من ألوهة . بل على العكس ، انه يوحي ويرفع أكثر من كل وقت حبه الكلي القدرة وعهده الكلي القدرة أيضاً ، وبالاختصار : ألوهيته الكلية القدرة لأن «الله محبة» .

«حبل به من الروح القدس»

هذه الكلمات — «حبل به من الروح القدس» — تلغي كل فكرة تدخّل رجل . إنها تعني أن يسوع ، الاله الحق والإنسان الحق ، لا يعرف له اباً سوى الله وحده . لذلك فيسوع ، الذي يعرف من أين أتى والذي يعرف الآب ، يدعوه — قبل كل واحد — بهذا الاسم الفريد : «أبّا !» «يا أبت !» .

فما هو دور الروح القدس إذاً ؟

«اصبع يمين الآب»

الثالوث الأقدس هو محبة . كالذين يحبون بعضهم حتى الجنون ، الأقانيم الالهية يفعلون كل شيء معاً . «أعمال الثالوث لا انقسام فيها» (مجمع طليطلة ٦٧٥) لأنه لا انقسام في الثلاثة» .

أهذا يعني أن أعمالهم يختلط بعضها ببعض ؟

كلا . عملهم — وان عملوه دائماً معاً — يبقى دائماً شخصياً .

فالذي يتجسد ليس الآب بل الابن وحده . ومع ذلك فالتجسد لا يمكن إلا أن يكون عمل الآب والابن والروح معاً .

الالتزام الشخصي لكل اقنوم الهي في عمل الله — الخلق والفداء وتأليه الإنسان — تحدده هيكلية الثالوث ذاتها . كما يكون في العائلة عمل الآب والأم والولد المشترك — كغسل الصحون مثلاً — متوزعاً على مهمات يكمل بعضها البعض بحسب دوركل شخص .

هكذا فعمل الله الموحى به في الكتاب ثم في يسوع المسيح — خلق الكون ليشترك في كيان الله — هذا العمل الالهي ينطلق من الآب الذي هو المبدأ — ينفّذ بواسطة الابن الذي أرسله الآب — ويتم بواسطة الروح القدس المرسل من الآب والابن .

هاكم تشابيه بسيطة .

الأب هو كالذراع من حيث تأتي القوة والحركة : الابن هو كاليد التي تنفذ الحركات الدقيقة في العمل ؛ والروح كالأصبع التي تؤمن العمل النهائي .

— الآب هو كالينبوع والابن كمجرى المياه والروح كجهاز الري أو القوة المحركة .

— الآب هو كالجذور والابن كالجذع والروح كالثمرة (نتكلم عن ثمار الروح القدس) .

أما ثمر الروح فهي المحبة والفرح والسلام والصبر واللطف والصلاح والأمانة والوداعة والعفاف . وما من شريعة تنهي عن هذه الأشياء . (غلا ٥/٢٢ — ٢٣) .

صور فقيرة ، الأولى مأخوذة من الإنجيل والطقوس والآباء . وكلها تنسب الى الروح اتمام عمل الحياة ، عمل الحب .

« الروح القدس يحل عليك .. »

تذكرون الخلق الأول : « في البدء خلق **الله** (**الأب**) السماء والأرض » (تك ١/١) . — « في البدء كان **الكلمة** ... به كان كل

شيء » (يو ١/١ — ٢) . — « **وكان روح الله** يرفرف على المياه » ليعطي الحياة « لأرض خالية خاوية » (تك ٢/١) .

ما سيحصل لمريم هو **الخلق الجديد** ، « البدء الجديد » ، عطية الحياة الحقيقية : يدخل الله في الخليقة لتدخل الخليقة في عائلة الثالوث . فليس الروح اذاً هنا اباً مكان الاب : للمسيح أب سيصبح ابانا . والروح هو هنا « قوة » الله الخالقة ليصل بالخليقة الى ذروة الكمال . صورة البشارة الأخرى — « **قوة العلي تظللك** » — تذكرنا بتابوت العهد وخباء المحضر حيث كان الله الآب يظهر حضوره وسط الغيوم (خر ٣٤/٤٠ ..) مريم هي « السماء الجديدة والأرض الجديدة » التي بُشرنا بها وبدأت بيننا . « هذا هو مسكن الله مع الناس » (رؤ ٣/٢١) .

٨

ولد من مريم العذراء

العذراء مريم

هـاكم مريم ، امرأة النجّار ، العامل ، الفقيرة ، مجهولة ، متواضعة . ولذلك ، لتواضعها وصغرها ، احترمها الله واختارها لتكون أم مخلّص العالم . لا نظرا لاستحقاق بشري معيّن ولا نظراً لتقواها العميقة ولا شك ، ولا نظراً لتواضعها : بل فقط لأن إرادة الله المجانية تحب وتختار وتعظّم ما كان متواضعاً ومتزوياً وصغيراً . (ديتريش بونهوفر) .

في قوانين الإيمان المسيحية كلها ، نجد أن يسوع وُلد من عذراء . من المؤسف أن يكون نوع من العمى لم يرَ سوى هذه العذرية ، وبمفهوم خاطيء : فمريم ليست سوى تلك الفتاة التي لم تتدنس جنسياً .. وكما أن اختصاص مار انطونيوس البادوي هو ايجاد الأشياء الضائعة ، هكذا فاختصاص العذراء هو المحافظة علينا كيلا نضيع « طهارتنا » .

لماذا لا تحافظ علينا أيضاً ضد الكبرياء والأنانية وحب المال ؟ فهي أيضاً تواضعت ونسيت ذاتها وعاشت فقيرة ، تماماً كما كانت عذراء .. ثم كيف يتناسل هؤلاء المسيحيون إذا كان العمل الزوجي « مدنساً » ؟

هذه الذهنية ، إذا ما نظرنا من ناحية معينة ، تجعل عذرية مريم بغيضة ومن ثم قابلة التشكيك . لكننا نتعزى إذ يرينا الإنجيل عذراء ومسيحاً أسلم مما يصورونهما وأكثر احتراماً لخليقة الله . فإذا ما عرض علينا مريم كمثال ، **فكمثال للإيمان** : « مباركة التي آمنت بما قيل لها من قبل الرب » (لو ١/٤٥) — طوباها لأنها سمعت الكلمة وحفظتها أكثر من أنها حملت يسوع في أحشاها (لو ١١/٢٧ ..) — بعد كل حدث من أحداث طفولة يسوع ، «كانت مريم تحفظ باهتمام كل هذه الأحداث وهذه الكلمات وتتأمل بها في قلبها» (لو ٢/١٩ و ٥١) . ينّبهنا إلى ذلك لوقا مبيناً لنا أحد الينابيع التي استقى منها عندما « تحرى بدقة عن كل شيء منذ البدء » (لو ١/٣) ليكتب انجيله .

أم الله الحبل بيسوع بلا دنس يجب أن يُفهم كما هو ، أي كدليل على

أن **المبادرة كانت بكاملها من الآب الأزلي** . فيسوع ، ابن الله الأزلي ، هو إنسان تام من نسلنا «ولد من امرأة» (غلا ٤/٤) . إنما ليس له من اب سوى الله .

بعض اللاهوتيين المعروفين (كارل رهنر ، جوزف رتزنغر) — وهم يؤمنون بعذرية مريم — يظنون أن الطفل المولود من مريم كان من الممكن أن يكون الكلمة المتجسد حتى ولو «وُلد من امرأة» ومن القديس يوسف . غيرهم (كارل بارت ، اندره مانارنش وديكوك) يرفضون هذه النظرية ويرون في عذرية أم يسوع **الدليل على بنوّته الالهية** .

على كل حال فلا فائدة من السؤال : «ما كان سيحصل لو أن الذي لم يحصل حصل» .

الواقع هو أن التقليد المسيحي ربط دائماً بين هذه التأكيدات الثلاث : **يسوع هو الله — مريم هي إذاً أم الله — هي أم عذراء**».. لا شك أن القيامة تبقى الدليل الأكبر لملء الإيمان : البشرى السارة بكاملها تنطلق من هنا . إنما — والاناجيل تشهد على ذلك —كنيسة الرسل عادت إلى البدء لتكتشف أن يسوع القائم من الموت هو ابن الله ، فأمه هي إذا أم الله ، وليس له أب سوى الله . والانجيل يعلم كل هذه الحقائق في آن . وايمان الكنيسة الذي نلمسه في تاريخ العقيدة ونزاعات المجامع لأجل الإيمان هو كل هذا معاً . عبارة «أم الله» أثارت منذ القرون الأولى بعض الهراطقة .

فعاد مجمع أفسس (٤٣١) إلى تقليد آباء الكنيسة وحدّد أن «مريم العذراء هي أم الله» . لا يعني ذلك أنها أم الألوهة التي يتقبلها ابنها دوماً من الله الآب ! فالأمهات لا يعطين أولادهن لا الروح ولا الشخصية اللتان هما عطية الله . ومع ذلك فلسن فقط أمهات الأجسام التي تتكوّن فيهن ، بل **أمهات الأشخاص الذين يلدن** . هذه حال مريم :

لم يتردد الآباء القديسون في أن يدعوا العذراء مريم «أم الله» . لا لأن الكلمة أخذ منها طبيعته الالهية . بل لأنه أخذ منها هذا الجسد المقدس الذي تسكنه نفس عاقلة حيث يؤلف الكلمة المنبثق من الله شخصاً واحداً بميلاده في الجسد .

إذا أبى أحد أن يعترف بأن الله هو حقاً عمانوئيل ومن ثمّ أن القديسة مريم هي أمّ الله ، فليكن محروماً . لأنها ولدت للحياة الجسدية الكلمة المتجسّد . (مجمع أفسس) .

هي أم شخص الهي . هي لا تعطي يسوع لا النفس البشرية ولا الشخصية الالهية ، لكنها ليست أم جسده فحسب بل أم الشخص التي ولدت ، **شخص الله الابن** . وهذه الأمومة تخلق بينها وبين ابنها علاقة فريدة : باستطاعة الله الابن ، بل من واجبه ، أن يدعوها «أمي» . هذا هو معنى أمومتها العذراوية العميق : الله هو أب ابنها .

أنا جيل الطفولة

لأن كثيراً من الناس أخذوا يدونون رواية الأحداث التي جرت بيننا ، كما نقلها إلينا الذين كانوا من البدء شهود عيان للكلمة وصاروا عاملين لها ، رأيت أنا أيضاً ، بعدما تتبّعت كل شيء من أصوله بتدقيق ، أن أكتبها لك ، أيها العزيز تاوفيلس ، حسب ترتيبهـا الصحيح ، حتى تعرف صحّة التعليم الذي تلقيّته . (لو ١/١ــ٤) .

يجب أن نتقبل أناجيل طفولة المسيح بالإيمان الذي نستقبل به أناجيل القيامة وان كانت تلك احدث من هذه : فالروح القدس لم يكن أقل فاعلية في احدى الحالتين : لكن ليست أناجيل الطفولة ولا أناجيل القيامة بكتب تاريخية بالمعنى الحديث للكلمة : فالأناجيل كلها كرازات أي أحاديث لاهوتية وتربوية غايتها زرع إيمان المسيحيين وانماؤه . هدفها الوحيد : **أن تعلن سر يسوع** .

وهي تعلنه **انطلاقاً من احداث واقعية** . **فهي** تنبثق عن شهود يرتكزون على أحداث تاريخية «متينة» .

فلنتوقف على انجيليي الطفولة . يبين لنا تقدم العلوم الكتابية أنهما استعملا بعض وثائق . فمتى يستعمل تقاليد مكتوبة وشفوية تعود إلى جماعة يهودية مرتدة إلى المسيحية ، بعد أن تجمع ذكريات مصدرها عائلة يوسف . ولوقا (الذي كان في فلسطين مع القديس بولس سنة ٥٧) يؤكد أنه «تحرى بدقة حول كل شيء ومنذ البدء» . **فهو** يستعمل تقاليد مكتوبة وشفوية على السواء ، تعود إلى جماعة مسيحية تعيش في الجليل ، كانت قد جمعت ذكريات مصدرها عائلة مريـم وبدون شك ، مريـم ذاتها .

اتفاقهما على الأحداث الأساسية «تاريخي» إلى حد أن مفارقاتهما تظهر أنهما لم ينقل أحدهما عن الآخر : هما شاهدا تقليدين مستقل أحدهما عن الآخر . فلنقرأ متى : مريـم ويوسف هما من

بيت لحم ، وبعد هجرتهما إلى مصر ، لا يفكران إلاّ بالعودة الى بيت لحم وطنهما . فكان لا بد من تنبيه الهي ليتحولوا إلى الناصرة... فلنقرأ لوقا : هما من الناصرة ولا يقصدان بيت لحم الا للاكتتاب .. إنما ، في نظر الاثنين ، تتزوج مريم يوسف ابن داود ، ويسوع يولد في بيت لحم — **وهي عذراء** — ويكبر في الناصرة . نقاط مشتركة مصدرها تقليدان مستقلان واحدهما عن الآخر ، لا شك في أن هذه المعطيات تاريخية .

الأمومة العذرية ، واقع حقيقي

نجد اسمي مريم ويوسف عند متى ولوقا . كانا متزوجين : غالباً ما نترجم بكلمة «خطيبين» للدلالة على عذرية مريم . بينما الواقع يعني زواجاً شرعياً ، طبقاً لقانون الزواج اليهودي آنذاك .

فغالباً ما كان الوالدون يزوجون أولادهم في السادسة أو السابعة من عمرهم . لكنهم لم يكونوا يعيشون معاً قبل سن الزواج أي قبل دخول الفتاة رسمياً بيت زوجها . لكن الفتاة الصغيرة كانت تدعى زوجة إذ كان لخطبتها قيمة قانونية هي قمة الزواج الحقيقي . فإذا مات الخطيب قبل المساكنة ، كانت تعتبر أرملة . وكل خيانة من قبلها كانت بمثابة زنى وتقع تحت حكم القانون القاسي .

فقال لها الملاك : «لا تخافي يا مريم ، نلت حظوة عند الله : فستحبلين وتلدين ابناً تسمّينه يسوع ، فيكون عظيماً وابن العلي يُدعى ، ويعطيه الرب الإله عرش أبيه داود ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه انقضاء ! » قالت مريم للملاك : «كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً ! » (لو ١/٣٠ — ٣٤) .

لما بشّر الملاك مريم ، كانت زوجة يوسف على هذا الشكل — أي كانا متزوجين — لكنهما لم يكونا قد سكنا معاً (متى ١/١٨) . وهذا يعني أنها كانت لا تزال فتية ولم تكن قد تمت بعد حفلة نقلها من بيت أبيها إلى بيت زوجها . فهي إذاً بعد عذراء . وهذا يضع حداً للتساؤل : «إذا كانت تريد المحافظة على عذريتها ، فلماذا تزوجت إذاً ؟ » — لم يكن يؤخذ برأي الفتيات يومذاك . كان يوسف ومريم خطيبين كباقي الناس وكانت نيتهما الطبيعية انجاب البنين كباقي الناس . من هنا سؤال العذراء لملاك الله الذي يريدها أماً : «كيف يكون هذا وأنا لا أسكن مع زوجي ؟ » (لو ١/٣٤) . هذا ما يشرح

الحبل وهي عذراء كواقع خاص كما يصفه لوقا ومتى . هذا الحبل هو إذاً تقليد سابق لأناجيل الطفولة . تقليد — يمكن تسميته هكذا بكل تأكيد — كان معروفاً في فلسطين سنة ٥٠ . لم تكن مريم قد بلغت السبعين بعد..

لم يكن ممكناً فرض هذا التقليد إلاّ لأن الله قد فرضه بقوته العظمى . فالحبل مع العذرية لا يتجاوب وانتظار الشعب الاسرائيلي . لم يكونوا في فلسطين ينتظرون مطلقاً ولادة المسيح من عذراء ؛ نص أشعيا ١٤/٧ يقول أصلاً : «ها ان امرأة فتية تحبل» وليس «عذراء» . من جهة أخرى ، لم تكن البتولية تعتبر قيمة في العهد القديم . فلا نجد في العهد القديم امرأة واحدة اختارتها أو رغبت فيها . فلنقرأ الفصل الحادي عشر من سفر القضاة . بتولية مريم تيار معاكس تماماً لما هو مألوف ، لذلك لا يمكن أن تكون مختلقة : إنها فرضت ذاتها لأنها وُجدت .

«نحن بصدد عمل إلهي ، خلق جديد.. يعيد الله الخلق بواسطة ابنه الذي يصير إنساناً . فإن كان التجسّد حقيقياً واذا كان عمل الله حقيقياً ، فلا يمكن أن يكون المعنى منفصلاً عن العمل الذي عرفناه بواسطة هذا المعنى . لذا يجب أن نؤكّد أننا لا نقدر ان نحافظ على معنى الحبل البتولي بمعزل عن تاريخيّته . فهو الحدث الذي يحمل على التفكير وليست العقيدة هي التي تضع قانون الإيمان .
هكذا فهمت قوانين الإيمان دائماً هذه القضية . (ك. ديكوك) .

فالكنيسة تؤمن بالحبل البتولي انطلاقاً من كلام الانجيليين الموحى . وهي تثبته في قانون ايمانها ، **في كافة قوانين ايمانها** .. هناك طريقة متواضعة وحديثة — وان كانت معصومة عن الخطأ — لاقرار عقائد الإيمان ، وهي الاعلان الرسمي من قبل البابا . هكذا توضحت تدريجياً ثم حُددت عقيدتا الحبل بلا دنس وانتقال العذراء . **لكن الطريقة الفضلى والأصلية التي تعلن بها الكنيسة ايمانها الأساسي ، بنوع قاطع ، هي قانون الإيمان . فالتأكيد الصريح على أن يسوع وُلد من عذراء يوجد بشكل قطعي ، منذ البدء ، في كل قوانين الايمان ، فهو إذاً جزء مكمل للعقيدة الأولى .**

هذا فقط يدل على أهميته الفريدة وعلى معناه . وهذه الأمومة العجائبية ليست انتقاصاً من قيمة الزواج والجنس . وهذان النصان في الانجيل ليسا صفحتين في الزهد أو مديحاً للبتولية — فهناك صفحات أخرى بهذا الصدد . هذه الأعجوبة الوحيدة في أناجيل

الطفولة هي دليل على ألوهية يسوع . **ليس لهذا الولد سوى أب واحد ، هو الأب السماوي . وهو ، في طبيعتيه الكاملتين الالهية والبشرية ، ابن الله .**

وفي الولادة وبعدها ؟

لا تتكلّم الأناجيل إلا عن ولادة يسوع البتولية . فلم يحبل به عن طريق علاقة جنسية . من جهة أخرى ، يعلم الوحي أن يسوع صار انساناً شبيهاً بنا في كل شيء ما عدا الخطيئة . ذلك يعني أن أمومة مريم لم تخرج عن نطاق الطبيعة البشرية إلا بما يتعلق بالزرع الأبوي . فإن كان الحبل عجائبياً ، لا شيء يجبرنا على التفكير بأن الولادة أيضاً كانت عجائبية . لقد عرفت مريم المخاض الجسدي كغيرها من النساء .

بعد القرن الخامس : أخذ التعليم اللاهوتي المألوف يؤكد أن مريم بقيت عذراء قبل ولادة ابنها الالهي وفيها وبعدها .

ما معنى « فيها ؟ » معناه أن هذه الولادة «كانت تكريساً لبتوليتها الكاملة ، وليس فقداناً لها » . (الفاتيكاني الثاني) . شرط أن نفهم أن البتولية المكرسة هي في جوهرها موقف روحي يعني تقدمة الذات لله دون الاحتفاظ بشيء ودون الرجوع عن العطاء التام .

وكان هناك كثير من النساء ينظرن عن بعد ، وهنّ اللواتي تبعن يسوع من الجليل ليخدمنه ، منهنّ مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسف وأم ابني زبدى . (متى ٢٧/ ٥٥ — ٥٦) .

أما البتولية « بعد الولادة » ، فهي الإيمان المطلق ، الذي نجده منذ عصور الكنيسة الأولى ، ببتولية أم الله الدائمة . « أخوة يسوع » — يعقوب ... — الذين تتكلم عنهم الأناجيل (متى ١٣/٥٥..) ليسوا سوى — حسب لغة العصر — أبناء عم أو خال : فمتى ومرقس يميزان بصراحة بين أم يسوع وأم يعقوب ..

لذلك فالاصلاحيون البروتستانت الأول ، كلڤان ولوثير ، حافظوا على القول ، استناداً الى الكتاب المقدس وحده ، ببتولية مريم الدائمة .

« يوسف زوجها »

قضية الحبل البتولي تعني أيضاً القديس يوسف وبذات المقدار الذي تعني فيه العذراء مريم . من المؤسف أن تكون قراءة سطحية للانجيل قد ولّدت تقليداً مزعجاً يجعل من القديس يوسف « رجلاً مسكيناً » يعيش على هامش الحياة بعد أن خدعه سكوت زوجته والروح القدس .

قراءة ذكية لنص متى ١٨/١ — ٢١ ، تعيد ليوسف عظمته الفريدة وللروح القدس والعذراء « شرفهما » .

فلنبدأ بقراءة الانجيل :

« ..... »

نعرف الشرح المألوف — الذي قبلناه دون جدل — لهذا النص : لقد عرف يوسف أخيراً أن خطيبته حبلى . أما مريم فلا تزال تحتفظ بالصمت حول ما حدث لها بقوة العلي . ويوسف ، الذي يحترمها كثيراً ولا يصدق أنها مسؤولة عما يجري بل يظنها ضحية اغتصاب ، قد قرر اطلاقها دون أن يشهر أمرها . فهو رجل مسكين ظلمه الله وظلمته امرأته إذ لم يطلعاه على الأمر . لماذا ؟ لماذا ؟ لو لم تكن قضيته مع الله ومريم ، لاستعملنا أقسى النعوت : احتقار ، استلاب شخصية ، سادية : بينما لا يجبرنا النص الانجيلي على هذا التأويل الذي لا يمكن قبوله » .

واذا كانت فتاة بكر مخطوبة لرجل فصادفها رجل في المدينة فضاجعها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا . أما الفتاة فلأنها لم تصرخ وهي في المدينة ، وأما الرجل فإنّه أذلّ زوجة قريبه فاقلع الشر من بينكم فإن صادف الرجل الفتاة المخطوبة في الصحراء فأمسكها وضاجعها فليقتل ذلك الرجل وحده . وأما الفتاة فلا يصنع بها شيء . (تثنية ٢٣/٢٢ — ٢٦) .

١) إذ يصبح عندئذ سلوك الروح القدس وقحاً وغريباً بالنسبة الى الحب البشري والى الزواج الذي يجعل من الاثنين « جسداً واحداً » .

٢) من جهة يوسف ، النص يدعوه « باراً » أي محافظاً على الشريعة . والحال أنه لا الشريعة ولا العقل يأمران الرجل البار باطلاق امرأته « سراً » إذا ما حبلت من رجل آخر . فإذا حكم انها بريئة ، كان عليه أن يجد المذنب ويشكوه ليُحكم عليه بالموت . إلا

إذا كان هذا «البار» عرف أن امرأته حبلى بفعل الهي عجائبي .

٣) أما من جهة مريم العذراء ، فلماذا لم تخبر يوسف بما حدث لها ؟.. لا شيء في الانجيل يجبرها على هذا الصمت القاسي ؛ لا شيء يبرره .. ولا أي دافع لاهوتي . بل على العكس : حبهما الفريد يتطلب حتماً المشاركة في هذا السر العظيم حيث ترتهن حياتهما المشتركة وايمانهما .

إذا كان يوسف يعلم أن «مريم امرأته» كانت حبلى من الروح القدس» .

فلماذا أراد اطلاقها ؟

لقد كانت سعادته وتأثره شديدين بالنسبة لما حدث لأحب شخص على قلبه . وقد حسب ذاته غير مستحق «أن يأخذها إلى بيته» لتشاركه حياته ومصيره ، غير مستحق أن يقترب من هذه العليقة الملتهبة بالحضرة الالهية . فالله يريد أن يحتفظ بها دون شك ؛ ولم يعد ليوسف إلا أن ينسحب بتكتم . فهو يعلم أنه من الظلم بمكان أن يشهرها أمام الملأ كالمرأة الزانية .

— فيقول الله : «لا تخف من أن تأخذ مريم امرأتك !» ولا يرسل الله إليه رسولاً عادياً — وان ملاكاً — بل يأتي شخصياً ليدبر أمور ابنه مع الذي سيمثله . فظهر ليوسف ملاك الرب (متى ١/٢٠ — ٢٤ ؛ ٢/١٣ و ١٩) ليفهمه كل ما يتعلق بالطفولة الالهية . ونحن نعلم من الكتاب أن عبارة «ملاك الرب» تعني الله بالذات . فالذي ظهر بقوة ووضوح ليوسف هو إذا الله الآب وقال له : «كن مكاني أباً لهذا الولد . تبنّاه . حافظ عليه ، دافع عنه ، أحبه ، غذّه وربّه ، كن مكاني كأب حقيقي .. فأنا أعطيك مسؤولية وحقوق الوالد لتعطي هذا المولود الجديد اسماً» .

هكذا دخل يوسف في تاريخ الخلاص الكبير. لا لكونه وبطريقة غير مباشرة زوجاً لام يسوع ، بل لكونه « ابن داود » ووارث الوعود المسيحانية ولكونه خاصة ، وبنوع أشرف ، الوكيل المباشر للآب الذي يمثله .

هذا الأمير الفقير ، لا يهمله الله ولا مريم ، ولا يتركانه «كأمير غير مسؤول» لا دخل له في الأمر. بل على العكس فالله يكلمه بخصوص الهرب إلى مصر والعودة من هناك . ليست مريم وحدها التي تقدم طفلها إلى الهيكل ، بل « أبوا يسوع » (لو ٢ / ٢٧) « أب الولد وأمه » (٣٣) . لما قاده « أبواه » الى أورشليم وهو في الثانية عشرة من عمره واضاعاه ، تعجبت مريم وتألمت معبرة عن ذلك بلغتها العادية ، تلك اللغة العميقة أكثر مما نظن : « أبوك وأنا كنا نفتش عنك بقلق » (٤٨) .

من هو إذاً هذا الإنسان ، « هذا النجار الذي اعتبره الله أهلاً لحمل كل ثقل المواعيد المسيحانية من ابراهيم إلى داود ولتمثيله كأب لابنه المتجسد ولأن يكون زوجاً لأم ابنه البتول؟ .. » (كزافيه ليون ديفور) .

٩

تألم على عهد بيلاطس البنطي وصلب

« تألم على عهد بيلاطس البنطي »

لقد اعتدنا على قانون الإيمان كما يعتاد مثاب البئر على الحبل . فمن بند إلى بند ، دون أي ارتجاف أو تعجب ، ينساب في ذاكرتنا وينزلق على شفاهنا .. «حبل به من الروح القدس وولد من مريم العذراء ، وعلى عهد بيلاطس البنطي تألم ..» .

مع أن هناك عقدة . فلا يجب أن نمر بها سراعاً .. بل عقدتان .. الأولى هي أنه ، بعد الحبل بيسوع وولادته ، نصل تواً إلى موته دون **الكلام عن حياته** . الثانية هي هذان الاسمان — مريم .. بيلاطس — الاسمان الوحيدان في قانون الإيمان (مع اسم يسوع ، طبعاً) . ونحن نذكرهما جنباً إلى جنب بطريقة مزعجة ..

« مريم العذراء ، بيلاطس البنطي »

وبينما هي في بيت لحم ، جاء وقتها لتلد ، فولدت ابنها البكر وقمّطته وأضجعته في مذود ، لأنه لم يكن لهما محل في الفندق . (لو ٢/ ٦—٧) .

أخذ بيلاطس ماءً وغسل يديه أمام الجموع وقال : «أنا بريء من دم هذا الصدّيق ! تدبّروا أنتم أمره» . فأجاب الشعب كلّه : «دمه علينا وعلى أولادنا !» فأطلق لهم

مريم ... بيلاطس ! .. نذكرهما معاً رغم تقارب لا يطاق . إذ بواسطتها اتحد ابن الله ببشريتنا : اتحد بالجنس البشري بواسطة أمه البشرية مريم . ودخل تاريخنا البشري والمدني والسياسي بواسطة بيلاطس البنطي .

مريم .. بيلاطس .. أقوى حب وأرقه — وأسفل أنانية ، الأنانية القاتلة ، الحب الذي أعطى يسوع الحياة — والانانية التي جرعته الموت . أم الله — قاتل الله . وبكلمة : البشرية بأجمل وأشنع ما فيها ، وما بين الاثنين ، أي نحن جميعنا .

مريم .. بيلاطس .. اليهودية والوثني ... بواسطة مريم «ابنة صهيون» أعطانا اليهود يسوع — فشكراً لهم ! — بواسطة بيلاطس

يشارك الوثنيون اليهود مسؤولية آلامه . آلام يسوع هي من عمل جميع الناس ، يهودا ووثنيين .

باراباس ، أمّا يسوع فجلده وأسلمه لِيُصلب . (متى ٢٧/ ٢٤— ٢٦) .

جريمتنا جميعا . وخلاصنا جميعاً .

مريـم .. بيلاطس — بين الاثنين ، في قانون الإيمان ، كلمة تفصلهما — وتوحدهما — « تألم » .

الولادة بواسطة مريـم والموت بواسطة بيلاطس . بين الاثنين أكثر من ثلاثين سنة حياة لا يذكرها قانون الإيمان .. أو بالأحرى يختصرها بكلمة « تألم » . إن اسم « مريـم » ، الذي يعني لنا تجسد الله ، أفلا يذكرنا أن آلامه تبدأ في المذود ؟ (فيليبي ٢/ ٦ ..) . ليس الإنسان العادي ، بل الصغار والفقراء ، المنبوذون في شوارع بيت لحم ، المهجرون بعيداً عن الناصرة .. كل هذه الآلام ، منذ طفولة يسوع ، يذكرنا بها اسم مريم كما أن اسم بيلاطس يذكرنا بآلامه وموته .

« نحن نبشّر بمسيح مصلوب »

وبخطوة كبيرة ، يقفز بنا قانون الرسل فوق حياة يسوع ليوصلنا رأساً من ولادته إلى آلامه الأخيرة . هنا يقف بنا فيلم قانون الإيمان ويسير بطيئاً بطريقة مؤثرة ليصور ، ساعة ساعة ، اليوم الأخير من تلك الحياة التي لم يذكرها : « تألم على عهد بيلاطس البنطي ، وصلب ومات وقبر ونزل الى الجحيم .. » لماذا هذا الابطاء على كل درجة من درجات الموت ؟

يجب القول أولاً أن أسطر قانون الإيمان العشرة لا تحل محل الانجيل . بل على العكس . فهي ترجع إلى الانجيل . هي تمهد لقراءته وللتأمل فيه صفحة صفحة ووضعه موضع التطبيق ..

واذا كان اليهود يطلبون المعجزات واليونانيون يبحثون عن الحكمة ، فنحن ننادي بالمسيح مصلوباً ، وهذا عقبة لليهود وحماقة في نظر اليونانيين . وأما للذين دعاهم الله

ويجب القول أيضاً ان هذا القانون هو قانون العماد . قانون

من اليهود واليونانيين ، فالمسيح هو قدرة الله وحكمته . فما يبدو أنه حماقة من الله هو أكثر حكمة من حكمة الناس ، وما يبدو أنه ضعف من الله هو أقوى من قوة الناس . (١كو ٢٢/١ — ٢٥) .

المبتدئين أي كتاب للصفوف الابتدائية . هو نقطة انطلاق الإيمان . لكن الطريق لم تزل طويلة . الطريق هي الإنجيل .. الذي يجب أن نقرأه .. وان نحياه ..

ويجب القول أخيراً أن قانون الإيمان ، رغم قصره ، هو أمين للإنجيل أكثر مما نظن باديء ذي بدء : فالآلام تملأ ما يقارب ثلث السرد الانجيلي . إذ كل حياة المسيح صعود نحو أورشليم ، نحو الجلجلة .

بهذا المعنى يقول القديس بولس : «نحن نبشر بمسيح مصلوب ، شكا لليهود وجهالة للأمم .. جنون الله ... ضعف الله .. » «أما أنا فلم أرد أن أعرف بينكم إلا يسوع المسيح ومعرفتي اياه مصلوباً » (١ كو ١/٢ ..) .

هذا هو الإنجيل الأساسي ، البشرى السارة الجوهرية : « أذكّركم يا أخوتي ، بالبشارة التي حملتها إليكم وقبلتموها ولا تزالون ثابتين عليها ، وبها تخلصون.. فسلّمت إليكم قبل كلّ شيء ما تلقيّته وهو أن المسيح مات من أجل خطايانا كما جاء في الكتب وأنه دفن وقام في اليوم الثالث كما جاء في الكتب» (١٥/١ ..) .

« انه قام ... »

الصليب والمجد

وأرى أن آلامنا في هذه الدنيا لا توازي المجد الذي سيظهر فينا . فالخليقة تنتظر بفارغ الصبر ظهور أبناء الله . وما كان خضوعها للباطل بإرادتها ، بل بإرادة الذي

حياة يسوع المتألمة هي وجه للصليب ، كما أن له وجهاً آخر لا ينفصل عنه ، هو المجد . «لما كان للصليب أي معنى لوكان صليب إله ميت . إذ ليس هو بقبر . فالقيامة هي شجرة الحياة هذه ، أي الصليب . شجرة معرفة الله . فالصليب أعطانا أن نعرف الله حتى النهاية ، أن نعرف إلى أين يصل الله : إلى القيامة ، فمن المستحيل

إذاً فصل الصليب عن القيامة) (ب. تالك) .

أخضعها . ومع ذلك بقي لها الرجاء انها هي ذاتها ستتحرر من عبودية الفساد لتشارك أبناء الله في حرّيتهم ومجدهم . فنحن نعلم أنّ الخليقة كلها تئن حتى اليوم من مثل أوجاع الولادة . (روم ١٨/٨ — ٢٢) .

فعلينا أن نتكلم عن الأول ثم عن الثانية : عن الصليب ثم عن القيامة .. كما أنه ليس من السهل أن ننظر في وقت معاً إلى وجه قطعة نقدية وقفاها . لكن عندما ننظر القفا ، فلا ننسى أن هناك وجهاً . هكذا فلا علينا أن نتبع لاهوتاً أو مبادرة يدوران حول الصليب ناسين أن هناك مجداً — أو لاهوتاً وعبادة يدوران حول المجد ناسين أن هناك صليباً . روحانية الصليب دون المجد خاطئة ، وروحانية المجد دون الصليب خاطئة أيضاً .

الأولى ، أي الصليب دون المجد ، انتشرت في هذه العصور الأخيرة في الغرب المسيحي . وخلقت «رؤى خاصة تاركة جانباً تقليد الكنيسة المعصوم ، خلفت نوعاً من الحزن الباكي ، مفتشة بحمّى عن الألم ، عن دروب صليب تنتهي عند القبر ..

منذ عشرات السنين ، بدأنا لحسن الحظ ، نكتشف القيامة ، روحانية الفصح . لكن التجربة قوية عند الكثيرين لاطلاق مكبوتاتهم والوقوع في النقيض الآخر ، من حفرة إلى الحفرة المقابلة : فلتحي القيامة ! وننسى الصليب !.. ليست التجربة بنت اليوم : هي مرافقة لطبيعتنا ، ولخطيئتنا أيضاً . لقد كان القديس بولس يئن منها : «فيليبي ١٨/٣ ..» .

هذا يصح خاصة في مجتمعنا الاستهلاكي حيث نعتبر الحرمان من شيء أمراً خاصاً بالمعتوهين .

«أنا لا أفتخر إلا بصليب سيدنا يسوع المسيح»

هناك خطأ فادح !.. ليس الصليب قضية ربع ساعة من الألم نحتملها لنربح المجد ، أي ليس دهليزاً يوصل الى الفصح . الصليب ذروة العطاء المحب : طاعة الآب حتى الصليب ، وبذل الحياة في سبيل الآخرين حتى الموت . الجمعة العظيمة هي يوم الحب .

هو هذا الحب الذي قام من الموت . هو هذا الحب الذي تمجد . ما حدث بالنسبة إلى المسيح سوف يحدث بالنسبة إلينا . فهو يقول لنا : « من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني . من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه لأجلي يجدها » (متى ١٦/٢٤ ..) .

فأجابه سمعان : « يا رب ، أنا مستعد أن أذهب معك إلى السجن والى الموت » . فقال له يسوع : « أقول لك يا بطرس : لا يصيح الديك اليوم حتى تنكرني ثلاث مرات » . (لو ٢٢/٣٣ — ٣٤) .

ليس هـذا الكلام بسهـل .. « الكفر بـالـذات .. وحمـل الصليب .. واهلاك النفس » لم تكن كلمات فارغة بالنسبة الى المسيح . كما لم تكن كلمات فارغة بالنسبة الى تلميذه بولس : « روم ٦/٣ .. » « أتجهلون » نعم أغلبية المعمدين يجهلون ذلك عملياً . ردات الفعل لديهم — لدينا — كردات فعل الرسل قبل العنصرة . « سوف تتشكّكون بسببي » ، قال لهم يسوع . هذا الشك ، عبر عنه انكار بطرس رئيسهم (لو ٢٢/٥٤ — ٦٢) . بطرس « مستعد لكل شيء » — بالكلام ، بالكلام الصادق — مستعد حتى لبذل حياته ! ونحن معه مستعدون لكل شيء لأجل المسيح !

بطرس **مستعد لكل شيء** ... **إلا لما سيحدث** . لم يتمكن من فهم كلام يسوع : « أردد سيفك الى غمده .. الا أشرب الكأس التي أعدها لي أبي ؟ » — مع بطرس ، ونحن قد تعمدنا بموت المسيح ، نحن مستعدون لكل شيء ! **إلا لما سيحدث . وما سيحدث هو الصليب قبل المجد** ..

إنما قرب صليب المسيح كانت مريـم واقفة . حواء الحقيقية قرب آدم الحقيقي ، على أقدام الشجرة . متحدة به في أعماقها . وهي مثله تقول للأب « نعم » وتقول « نعم » للعالم . هذا العالم الذي يجب أن يخلص بالصليب .

« الصليب شك وجنون .. »

الصليب ، صليب المسيح وصليب كل معذب ، هو شك وجنون . هذا ما يكتبه القديس بولس (١ كو ٢٣/١) . بل هو لعنة : « ملعون من عُلق على خشبة » (غلا ١٣/٣) .

لا ! لم يفتش المسيح عن الصليب !.. لقد رغب في أن يمر بحيث يجب أن يمر لخلاصنا . النبوءات حول « عبد يهوه » صوّرت له هذه العذابات الرهيبة (أشعيا ٦/٥٠ ، ١/٥٣ ...) . هو لم يفتش عنها ، بل ، على العكس ، لقد عرق دماً أمام الآلام وصرخ خوفاً وطلب الرحمة : « يا أبت ، لا ! لا هذا العذاب ! » . لكن الحب كان أقوى : « لا كمشيئتي بل كمشيئتك .. »

ونُفّذ الحكم : التعذيب ، الاهانات ، الصليب ، النزاع الدامي مع العطش ثم الموت .. « **تألم** » ! أهذا هو جواب الله على آلام البشر ؟

شكّ !.. لعنة !..

إذ كل إنسان سيصطدم يوماً بالألم . فالتلفزيون والراديو والجريدة والحياة ترمي له غذاءه اليومي من التعاسة والكوارث . وقد يكون مريضاً ، مقعداً ، جائعاً ، مسمماً ، حزيناً ، مفلساً ، محتقراً ، ذليلاً ، موضوع افتراء ، مخدوعاً ، مخذولاً ، معذباً ، يائساً... شك !.. لعنة !.. « لو كان هناك **إله صالح** .. » .

هذا هو استنتاج الكثيرين . هكذا كان يفكر أبيقور في القرن الرابع قبل المسيح : «إما ان الله يريد أن يزيل الشر ولا يتمكن من ذلك ، فهو إذاً غير قادر .. إما إنه لا يريد ذلك ولا يقدر عليه ، فهو كلا شيء . اما انه يقدر أن يزيله ولا يريد ذلك . فهو إذا

شرير .. اما إنه يقدر ويريد ، ولكن أين هو هذا الاله ؛ ومن أين يأتي الشر ؟.. »

الفلاسفة الوثنيون والمسيحيون حاولوا منذ بدء العالم أن يجدوا شروحاً : هذه هي مهنتهم . اما نحن فنعفيكم من ذلك لأسباب ثلاثة :

* أولاً : لأن الألم غالباً ما يكون شديد القساوة . اعصار أو هزة أرضية تقتل عشرة آلاف شخص ... كنيسة تسقط على جمهور المصلين نهار الأحد (حدث ذلك في ناكس في الڤاليه) .. أي مفكر يود أن يشرح هذا الحدث الرهيب ، المشؤوم ؟

* ثانياً : أليست محاولة تبرير آلام .. الآخرين لعبة جهنمية ؟ إذا التفكير بالموضوع يفترض ان المفكر ينعم بالرفاهية . وهكذا فالذين لا يتألمون ، لا يهمهم أمر فلاسفة الالم ؛ والذين يتألمون ، لا يطيقون هؤلاء الفلاسفة ؛ وهم على حق .

* أخيراً : كل الشروح تسقط أمام الشك المتأتي عن ألم الأولاد . «أنا لا أتكلم عن الراشدين ، يقول ايڤان كارامازوف : هؤلاء أكلوا التفاحة ، فليقاصهم الشيطان جميعاً !.. لكن الأولاد ! الأولاد !..» الأولاد ؟ أبرياء لا يجب أن يقاصوا . هم أصغر من أن يعتادوا على لامبالاة الرواقيين ، هم لا يفكرون بعد بشحذ هممهم في المعركة لأجل عالم أفضل . هم منطوون على ذواتهم ولا يقدرون أن يصبحوا بعد في الألم أكثر انسانية وأقرب الى أخوتهم المتألمين : أصغر من أن ينضجوا بعد . هم متجددون في الحياة ولا يمكننا أن ننسى حقهم في أن يكونوا أطفالاً . هم رائعون فلا يمكن أن تكون الكلمة النهائية ازاء آلامهم : «آلام لا جدوى لها» (سارتر) ، «وجود لا معنى له» (كامو) أو «حادث داخل البروتوبلاسما» (جان روستان) ..

لا شك أن قسطاً كبيراً من الألم البشري ، حتى ألم الأطفال ، يعود الى سوء العناية والطيش وخبث الناس : حروب ، ابادات جماعية ، تلوث ، انفجارات ، اصطدام ماكينات ، أمراض الأجنة .. في هذه الحالات ، لا معنى للتفتيش عن شروح : خلق الله الانسان حراً ، والعالم ورشة عمل (هناك نواميس طبيعية معروفة) فإذا ما اصطدمت بشجرة بسرعة مئة كيلومتر في الساعة ، فالدلبة لن تتحول إلى كاوتشوك. لكن هناك كثير من الشرور لا يد للإنسان فيها ..

المسيح هو أيضاً ثائر

ماذا يقول المسيح ؟ ماذا يقول الله في يسوع المسيح ؟... **المسيح البريء لا يحاول ايجاد أي تبرير للألم والموت . إنه يحاربهما . وقد جاء لتدميرهما ، وسوف يغلبهما** ، ثورة الإنسان ثورته . شفاء المرضى ، اقامة الموتى ، الجهاد في سبيل المقهورين ، مسامحة الخطأة ، وأخيراً قتل الموت ؛ هذه هي حياته كلها . يقول للأعداء : « سامحوا » ! و« للمشاغبين : « أحبوا ! » انه يعطي المثل : صراخ الثأر في وجه قاتليه : « اغفر لهم يا أبت ! » ..

ثم يقولون للذين عن شماله : ابتعدوا عني ، يا ملاعين ، إلى النار الأبدية المهيأة لأبليس وأعوانه لأني جعت فما أطعمتموني وعطشت فما سقيتموني .

كان خارجاً يوماً من الهيكل فالتقى رجلاً أعمى منذ مولده . فسأله التلاميذ : « يا معلم ، من أخطأ هذا الرجل أم والداه حتى يولد أعمى ؟ » (يو ٢٩) . **يريدون شرحاً** .. **فالشرح مريح ولا يلزمنا بشيء** . بل ، على العكس ، انه يحررنا : « هو أخطأ أم والداه .. لا دخل لي في الأمر .. ولا أقدر أن أفعل شيئاً .. »

فيجيبه هؤلاء : يا رب ، متى رأيناك جوعاناً أو عطشاناً .. فيجيبهم الملك : الحق أقول لكم : كل مرة ما عملتم هذا لواحد من إخوتي هؤلاء الصغار ، فلي ما عملتموه . فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدي والصالحون إلى الحياة الأبدية . (متى ٤١/٢٥ — ٤٦) .

لكن يسوع لم يكن من هذا الرأي : « دعوا شروحكم . انظروا الى الوراء ؛ لا نفع من كل هذا ، بينما الناس يتألمون .. لا شرح للقضية . **إنما بامكاننا عمل شيء ما أمام كل ألم ، بإمكاننا أن نعمل شيئاً : يمكننا أن نبيّن أعمال الله » (٣) ، أعمال الرحمة .. فدينونة العالم — ودينونتنا — سوف تدور حول هذه النقطة في آخر الأزمنة : حول اهتمامنا الفعلي**

والناجع لوضع حد لآلام الجائعين والعطاش والعراة والغرباء والمرضى والأسرى (متى ٢٥/٣٠..).

فالشر مشكلة، في نظر الفلاسفة. أما في نظر المسيح والمسيحيين، فهو عدو، هو شك، هو تحدّ. يتطلب رفضاً وتعبئة وثورة. **الشر لا يُشرح بل يُحَارب**.. يفتح المسيح عين لأعمى وان يكن اليوم سبتاً! يؤكد أنه جاء للضائعين (لو ١٥) والمرضى والخطأة (مر ١٧/٢).

بما يختص بالخطأة، إذا كان المسيح يربط أحياناً بين الخطيئة والألم (مر ٥/٢؛ يو ١٤/٥). فليست غايته أن يقول للناس: «أنتم المسؤولون!» بل ليغلب قوة الخطيئة العاملة في الألم. «إنه مات عن خطايانا».

كيف ذلك؟.. سنراه عن قريب. لكن فلنفهم أولاً ان نظرة الله إلى الألم هي غير نظرتنا.

كان يجب على المسيح أن يتألم

بالإيمان رفض موسى، بعدما كبر، أن يدعى ابناً لابنة فرعون وفضّل أن يشارك شعب الله في الذلّ على التمتع الزائل بالخطيئة واعتبر عار المسيح أغنى من كنوز مصر. لأنه تطلّع الى ما سيناله من ثواب بالإيمان ترك موسى مصر دون أن يخاف من غضب الملك وثبت على عزمه كأنه يرى ما لا يُرى. (عبر ٢٤/١١ —٢٧).

لقد أسكت الله أيوب المسكين: «من أنت لتحاكم الله؟..» ويسوع المسيح لم يشرح القضية أكثر من سفر أيوب. إنما «بدخوله في العالم» (عبر ٥/١٠) فقط، أكد أن **هذا العالم خُلق له اذ خُلق للإنسان، لا لمحاربة الإنسان**.

لقد صنع أكثر من ذلك: «أخذ جسداً — خاضعاً للألم والموت — «**لأصنع يا ألله، مشيئتك!**» (٧/٥) «واختار عذاب الصليب بدل من حياة هنيئة» (٢/١٢) وهكذا أعلن في جسده، هو البريء، أن **الألم والموت قد يكونان للخير — وان للصليب والفرح في نظر الله معنى غير المعنى الذي نفهمه نحن**: (.. ١ كو ١٨/١..).

فلنسلّم بما يلي: **طرق الله غير طرقنا. ولديه عن الألم مفهوم ايجابي**

الى حد أنه دخل هو فيه كما في طريق ضروري : «اما كان يجب على المسيح أن يتألم ليدخل مجده ؟» . هذا ما شرحه يسوع لتلميذي عماوس ؛ كما قال للرسل : «الحق أقول لكم ، ان حبة الحنطة ان لم تقع في الأرض تبقى مفردة . وان ماتت أتت بثمار كثيرة» (يو ١٢/٢٤) . ففي نظر الله وارتكازاً على اختبار المسيح يسوع ، ان آلامه تظهر في **مجد القيامة** . هو موته الذي يعطي **الثمر الكثير** ، ثمر فداء العالم .

وهكذا فيه ومعه يصبح موتنا وآلامنا ضروريين لمجدنا نحن ، لحياتنا نحن .

«إن لم تمت حبة الحنطة ..»

لكي نفهم هذا ، علينا بالعودة الى سرّي الإنسان هذين : «**دعوته الالهية وواقعه البشري** المسكين ، الخاطىء — وبين الاثنين هوة لا يمكن عبورها ، **قفزة مستحيلة** ، كما قلنا سابقاً .

لا شك في أن الإنسان مسؤول : مع أنه مدعو ليصير الها ، **فهو** يكتفي بهذا العالم وخيراته وملذاته . تماماً كحبة الحنطة المدعوة لتصير سنبلة للحصاد ، فتكتفي بأن تبقى حبة ذهبية . ويبقى الإنسان غير قادر على التحرر وحده من انانية الحبة العقيمة . بإمكان الله وحده أن يخلصه من هذا اللاوجود ، ويجعله يتفتح في حياة جديدة .. والله يصنع هذا في آلام وموت وحياة يسوع المسيح الجديدة . كان الخاطىء يظن أنه يجد حياته بمحافظته عليها . فتعلم أنه لا يربح الحياة الحقيقية إلا إذا خسر هذه الحياة . إنه مدعو لأن يضع ثقته في هذا الاله الذي يعطي الحياة ، فيحدث له ما حدث في آلام وموت وحياة يسوع المسيح الجديدة . «إن لم تمت حبة القمح ، تبقى مفردة . وان ماتت أتت بثمار كثيرة» ،

للإرادة البشرية متطلبات الهيّة وان لم نفقهها . وذلك بانتشارها المحتوم . رغبتها هي في أن تصل الى الله وتفوز به . فهي تتلمّسه في الظلام .. ومع هذا يبقى الله بعيداً عن متناول يدنا . ما العمل إذاً ؟ هل نريد أن نموت عن ذواتنا لنحيا له ؟ لا نفوز باللامحدود كما نفوز بأي شيء ولا نعطيه مكاناً في داخلنا إلا في الفراغ . (بلوندل) .

فآلام الإنسان ، والكون ليست إذاً قبل كل شيء قصاصاً . بل هي تغيير جذري . هي تفجر يقود الى حياة أخرى . هي إذاً تكسير

وتمزيق وتقطيع وموت . **هذا ناموس عام**.. موت الشرنقة التي تصبح فراشة . تكسير البيضة التي تعطي دجاجة . فساد الحبة التي تصبح سنبلة للحصاد .. الانتزاع من عالم لدخول عالم آخر . موت عن حياة لولادة لحياة أخرى . ترك الطابق البشري للوصول إلى الطابق الالهي . حريق مدينة الصفائح لدخول في المساكن الحديثة .. الطابق والمسكن والحياة الجديدة ، هذه هي حياة يسوع : حياته **الالهية كإبن في عائلة الله**. يسوع يمر أمامنا ويجتذب البشرية : (٢ كو ٤/١٠ — ١١) .

وباختصار : عندما نقبل دعوتنا الالهية في الحياة مع الله ، فإننا نرضى بأن نتألم في الإنسان ، وان نموت عن الإنسان ، مع المسيح . هذا هو السر الفصحي ، سر العبور من حياة إلى أخرى .

السر الفصحي : نموت لنحيا

لا بد من حرمان حياة الأرض ، من راحتها البشرية ، هناك عبور دموي نحو الموت . «إن لم تمت حبة القمح ..» لكن المسيحي يعلم أن آلامه هي آلام ولادة عالم جديد (روم ٨/٢٢) .

وآلام الولادة تشتهيها الأم . ولكان الولد يشتهيها أيضاً لوكان يعلم انها **الشرط الوحيد للانتقال من حالة الجنين الى حالة الإنسان** (يو ١٦/٢١) . **إذ لا يتخطى الإنسان ذاته إلا بالألم** .

في شهر تموز سنة ١٩٧٤ ، فتح ستٌ من متسلّقي الجبال طريقاً جديدةنحو قمة لينين التي تعلو ٧١٣٤ متراً . إليكم ما أخبر أحدهم : «لقد جابهنا ٢٢٠٠ متراً من الجبال الجليدية الصعبة .. فكنا نغرق في الثلوج حتى الأوراك . وكان الطقس العاطل والعواصف بانتظارنا . فتحملناها كالمجانين .. وقد تألمنا من الارتفاع عندما لم يبق أمامنا سوى ١٥٠ متراً . كل هذا الارتفاع والاكياس الثقيلة فوق ظهورنا . كنا نخطو خطوة ونتنفّس الصعداء ثم نخطو خطوة أخرى ..

مددت يمناك قائلاً : «ماذا تريد أن تعطيني؟» فأخذت لك حبة صغيرة من كيس القمح الذي معي فلمحت بين أصابعي حبة صغيرة من الذهب .. فبكيت بكاء مرّاً وفكرت : «لماذا لم أجرؤ على عطاء كل شيء !» **قلق قلبي هو عبء** كل ما لم اعطه .. (طاغور) .

«أما كان يجب على المسيح أن يعاني هذه الآلام ، فيدخل في مجده؟» وشرح لهما ما جاء عنه في جميع الكتب المقدسة من موسى الى سائر الأنبياء . (لو ٢٤/ ٢٦ — ٢٧) .

حتى بلغنا القمة والسعادة ! فبدأنا نأخذ الصور والأفلام . ونستعرض كل الجمالات .. هذا الوقت ، لو تعلمون ، بأية كثافة نتذوقه لكثرة ما حلمنا به واستعدينا له واشتهيناه طيلة أشهر . انه لشيء رائع !..

تألمنا أحياناً حتى حدود الاضناء وكأننا نعاني الأشغال الشاقة . وقد راودتنا تجربة العودة قبل الوصول ثم تغلبت الإرادات على التجربة . فقهرنا الجسد وتمت سيطرتنا عليه . وهكذا اكتشفنا في الأعالي جمال العالم . فالمكافأة كانت سريعة . وكم كانت العودة سعيدة ! اذ أصبح الجسد خفيفاً طيّعاً . تضرم النار إذ قد وصلت الى غايتك ، إلى الهدف.. وكان النجاح » (الحياة الكاثوليكية عدد ١٥١٩) .

يرمز هذا الصعود الى **السر المسيحي الذي هو « فصحنا » أي « عبورنا » نحو الحب ، نحو الله ، نحو الحياة ، نحو يسوع المسيح المائت ثم القائم من الموت** .

لقد انفصل ابراهيم عن أرضه وبيته وأقربائه وهو يعبر نحو الوطن الحقيقي . وترك الشعب الاسرائيلي اللحوم وبصل مصر ليعبر نحو أرض الميعاد . كما أن يسوع الناصري أجبر على أن يعبر في الموت ليدخل المجد ، ليصبح « ابن الله بقوة بعد قيامته من بين الأموات » (روم ١/٤) . قوة يسوع المسيح القائم من الموت هذه هي قوة حبة القمح التي تنبت لحصاد كثير . لأنها زرعت في الأرض لتموت . لأن يسوع الناصري الفرد الذي رضي بالموت لم يعد وحده ابن الله . لقد قام « جماعة » ، ملايين ومليارات من الناس . لقد أسرهم « بقوة ابن الله » ثم حوّلهم إلى أبناء ، وهكذا أصبح بكر أخوة عديدين » (روم ٨/٢٩) .

« الحق أقول لك : كنت . وأنت شاب . تشد حزامك بيديك وتذهب إلى حيث تريد . فإذا صرت شيخاً ، مددت يديك وشدّ غيرك لك حزامك وأخذك إلى حيث لا تريد » . بهذا الكلام . أشار يسوع الى الميتة التي سيموتها بطرس فيمجّد بها الله . ثم قال له : « اتبعني » (يو ٢١/١٨ — ١٩) .

فعلى كل منا أن يتشبه بيسوع المتألم لنصبح شبيهين به إلى الأبد في

حياته ومجده البنويين . أي علينا أن نتجرد من ذواتنا أن نحمل صليبنا كل يوم » (لو ٩/٢٣) ونتبعه . « من أراد أن يخلص نفسه فليهلكها ، لكن من أهلكها من أجلي ومن أجل بشارتي يجدها » (مر ٨/٣٤..) .

بالنسبة إلى آلام الأطفال ، فماذا نقول ؟ انها تدخل دون شك في تصميم عام هو تصميم البشرية المتضامنة . اذ الطفل أيضاً « يحمل في جسده نزاع يسوع لكي تظهر حياة يسوع في جسده » (٢ كو ٤/١٠) .

لا عبور الى الحياة إلا بالألم والموت

الحياة هي الحب والحب هو الموت

خلاص النفس هو الحياة مع المسيح أي حياة الله بالذات . فالحياة الأبدية قد بدأت إذاً : هي حاضرة الآن.. لكن هو هو الألم والموت !.. فكما قلنا ، الحياة عند الله هي الحب . والحب هو الخروج من الذات ونسيان الذات والتضحية ونكران الذات في سبيل الآخرين . فالموت الذي هو الزوال التام للإنسان ، هو ، إذا قبلنا به ، ذروة الحب . والموت في سبيل الآخرين هو الشاهد — دون معارض — للحب الذي لا يعرف الانانية . هكذا يموت الله حباً بالإنسان . والإنسان مدعو لأن يموت حباً بالله وبأخوته . **هذا هو الحب اللامتناهي** إذ « **ما من حب أعظم من هذا** وهو أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه » (يو ١٥/١٣) .

إذا لم يكن أحد يحب الله بدون ألم ، فلا أحد يرى الله بدون موت . فلا يمسّه شيء والاّ وينهض من الموت . إذ لا توجد ارادة صالحة إلا التي خرجت من ذاتها لتترك المكان واسعاً لحلول إرادة الله . (بلوندل) .

لكن مع الأسف : ليس حبنا لا متناهياً ! يلزمه الكثير ليصبح هكذا . بل ليس منزهاً عن الغرض . لا نقدر أن نحب دون أن نحب ذواتنا في هذا الحب .. لحسن حظنا أن الصليب حاضر كنار مطهرة ، « الألم هو الوسيلة الوحيدة لتطهيرنا ؛ الوسيلة التي لا مفر منها للحد من أنانيتنا ولخلق الحب فينا . والحب لا يُنال إلا

بالصليب .. يجب أن يحترق فينا ما يجب احتراقه لكي يملك الله فينا سيداً مطلقاً .. ليس الألم حدثاً عابراً ومزعجاً يزيدنا ضنكاً : انه **الطريق**» (ايف دي مونتاي) .

وهكذا يصبح الألم ، بالنسبة إلى المؤمن ، لا غياب الله ، بل حضور حب : «أنا الكرمة الحقيقية وأبي الحارث .. كل غصن فيّ يأتي بثمار ينقيه ويطهّره لكي يأتي بثمر أكثر» (يو ١/١٥ ..) **إذا كان الألم سرّاً ، فالحب أيضاً هو سر أعظم منه .. ومن يعارض الحب ؟**

«هذا الإنسان الذي قتلتموه»

لم يقاسِ يسوع موتاً عادياً لغاية عادية . بل أوقف وحوكم ودين ونُفّذ الحكم فيه لغايات معروفة ومن قبل سلطات معروفة . واذا كان الروح القدس ، في الأناجيل الموحاة ، ينقل إلينا باسهاب هذه الظروف ، فذلك لأنها ذات أهمية بالنسبة الى معنى التجسد والفداء ولانها ، بالنسبة إلى الكنيسة المجاهدة ، تكوّن توجيهاً أساسياً لحياتها وجهادها على الأرض . في الواقع أن سبب النزاع بين يسوع وجماعته وأمته هي **مواقف الله الأساسية تجاه الأشخاص والمجتمعات البشرية** ، دينية كانت أم مدنية . وهي تشير حتى الدم الى «خطيئة العالم» .

تفجر النزاع بين يسوع ورؤساء الشعب — حتى الموت — منذ لقائهم الأول (مر ٢/٧ ؛ ٦/٣) .

لماذا يجب أن يموت ؟

وراح يشتغل طيلة سنتين ونصف مع وقف التنفيذ . اذ اتهاماتهم له تدور حول «جرائم» ، الثلاثة الأولى منها على الأقل «تستحق الموت» رمياً بالحجارة . وهذه هي الجرائم :

١ — انتهاكات عديدة ليوم السبت واحتقار للشعائر واعادة نظر

في شريعة موسى . لقد تجرأ على القول : «سمعتم أنه قيل للأولين.. اما أنا فأقول لكم..» (متى ٢١/٥..) . ثم «الناموس والأنبياء (ليسوا أشياء مطلقة) **مرتبطان** بهاتين الوصيتين : أحبب الله.. أحبب قريبك» (متى ٢٢/٤٠) . فلنقرأ في لوقا ٣٧/١١ — ٥٣ نص القطيعة الرهيب الذي كان من المستحيل أن ينتهي على سلامة .

وقال للحاضرين : «أيحلّ في السبت عمل الخير أم عمل الشر؟ وإنقاذ نفس أم إهلاكها؟» فسكتوا . فأجال يسوع نظره فيهم وهو غاضب حزين لقساوة قلوبهم وقال للرجل : «مدّ يدك» . فمدّها فعادت صحيحة كالأخرى . فخرج الفريسيون وتشاوروا مع الهيروديسيين ليقتلوا يسوع . (مر ٣/٤ — ٦) .

٢ — الجريمة الأساسية الثانية : يرفض يسوع أن يكون العهد امتيازاً قومياً وعرقياً يهودياً . فالمؤسسة الموسوية والعبادة اليهودية وهيكل أورشليم ، تركها جانباً أمام إيمان قائد المئة الوثني والكنعانية ومحبة السامري «والعبادة بالروح والحق» (يو ٤/٢٣) . ديانة يسوع لم تكن الديانة الرسمية .

٣ — الجريمة الثالثة التي تستحق الشنق (إذ كانوا يرجمون المجدف **ويعلقون** خشبته على صليب) : يسوع مجدف يجعل ذاته الهاً : «يغفر للخطأة» «يدعو ذاته ابن الله» (يو ١٩/٧) .

٤ — رفض يسوع أن يشارك في رجاء اسرائيل الزمني أو يشجعه . كانوا ينتظرون مسيحاً سياسياً ينظم المقاومة المسلحة ، ملكا إلهياً يرمي خارج الحدود المستعمر الروماني . لكن يسوع لم يوافق على مخططهم .

«ماذا نعمل؟ وهذا الرجل يصنع آيات كثيرة . فإذا تركناه على هذه الحال آمن به جميع الناس . فيجيء الرومانيّون ويخربون هيكلنا وأمّتنا» . (يو ١١/٤٧ — ٤٨) .

٥ — ثم ، وبشيء من التناقض — لكن السياسة مليئة بالمناقضات — راح كبار الكهنة والفريسيون يخافون من أن تسبب عجائبه ونجاحه حركة شعبية قد تستجلب حذر الرومان وانتقامهم (يو ١١/٤٨) .

لهذه الأسباب ، في الواقع ورسمياً ، كان يجب أن يموت يسوع ، في نظر جماعته .

لا شك أنه كان هناك ، وقد يكون بطريقة لا واعية ، دوافع

غير سليمة تشغل المسؤولين : بدعة الصادوقيين الأغنياء والكهنة كانوا ينظرون شذراً الى هذا العلماني الذي يعارض امتيازاتهم ويوشك أن يحرمهم المداخيل الباهظة العائدة اليهم من تجارتهم في الهيكل ، بينما الفريسيون يرون تقلص نفوذهم وسلطانهم كمتشيعين للناموس . هذا هو دافع الحسد الذي اشتمّه بيلاطس (متى ١٨/٢٧) .

محاكمة يسوع

مؤامرة الناس على يسوع لا تخلو منها صفحة من الإنجيل ، وهي تنتهي الى محاكمتين طويلتي التفاصيل . لا يسمح لنا الكتاب المقدس بأن ندرس اللاهوت بخفة . في نظر الانجيليين ، ومن ثم في صميم ايماننا ، «المصلوب هو المحكوم عليه ، لا لأن الله قد أدانه ، بل لأن الناس رذلوه . فمحاكمة يسوع هي محاكمة بشرية سببها خلافات تاريخية ومنطلقها سلوك يسوع وأقواله .. اذا كان الصليب حكماً إلهياً ، فذلك لا يعني أن الله حكم على المصلوب ، بل يعني أن الله ترك مسؤوليتنا تصل الى نتيجتها ، فصلب البريء وجعله في مصاف الأشقياء هما دينونة للعالم الذي اقترف هذه الجريمة . **يسوع المصلوب إنْ هو إلاّ يسوع المحكوم عليه مدنياً ودينياً**» (**كريستيان ديكوك**)

المحاكمة الدينية

لقد خسر يسوع دعواه أمام جماعته الدينية . نحن نعرف عناصر الاتّهام ونختصرها بكلمة : نبي كذّاب . فيسوع يصدم تأكيداتهم التقليدية والنظام القائم والمعلمين المعروفين .

لكن صلب القضية هو أعمق جذرية : الاله **الذي يظهره يسوع** ، **الاله الذي هو يسوع** ، **ليس إله جماعته الدينية** : «المناقشات بين المثقفين هي صدى لذلك : كل مرة يقف يسوع تجاه شخص معين : المخلع المتألم ، التلاميذ الجياع ، الخاطىء الآتي إليه . الفقير الثائر على وضعه ، الوثني الواثق به ، الفرّيسي الذي يمدحه أو ينتقده . بينما يقف أخصامه تجاه الناموس أو مصلحة الدين أو عظمة الأمة أو قيمة

التقليد . يسوع لا يهدم أية امكانية مستقبلية . الابن الشاطر يعود إلى مكانه على المائدة وباستطاعة اللصوص الاشتراك في العرس ، كما في استطاعة الخاطئة تقبيل رجليه . أما أخصامه فلا يهتمون بالخاطىء والفقير . بل همهم الناموس وتطبيقه : فالإنسان للبيت . وهذا رمز حي لاستبداد القانون الذي يذهب الى حد تشجيع الظلم تاركاً جانباً مـــا يختصر الوحي .. : «أحبب الرب الهك وأحبب قريبك كنفسك» . فالخطيئة تصبح ، وقد نبه الله اليها في الناموس ، وسيلة لهدم الإنسان : شرف الله ، وهذه هي غاية الناموس والدين ، أصبح أحد عوامل احتقار الإنسان ..

لم يقل أن الخطيئة تقوم على مخالفة الناموس والشرائع . بل تكلم عن انتشار الشرّ بلغة مغايرة . فقد اعطاه صورة جديدة عندما أدركه في العمق ، بينما رجال الدين آنذاك كانوا قد جعلوا من الله عدواً للإنسان.. وهذه الخطيئة هي رمز لسائر الخطايا اذ تنسب إلى الله بغض خليقته وتجعل منه المسؤول عن محو الآخرين (١ يو ٤/٢٠ ؛ ٣/١٥) (ديكوك) .

وهكذا فالفريسيون والكتبة والصادوقيون تعرضوا للانتقاد كطبقة مسيطرة ، مدعية انها تنعم بسلطة شرح الناموس . ويسوع ينكر عليهم وظيفتهم الاجتماعية ويريد تحطيم هذه السلطة وبهذا يبرهن عن حريته . فثورته ضد معلمي الناموس هي ثورة لصالح الصغار . الأسياد يثقلون كاهلهم بنير يستحيل حمله ناسين أن الله يحرر (المرجع ذاته) .

لذلك «كان يجب أن يموت» .

المحاكمة السياسية

لكن اعدام يسوع لا يتم إلا بواسطة السلطة السياسية . لذا قاده رؤساء شعبه إلى بيلاطس . فلا يقدمون اعتراضاتهم الدينية لئلا يهزأ بهم الحاكم . فخلقوا من لا شيء تهمة العصيان : « هو يحمس شعبنا

على الثورة ويمنعنا من دفع الجزية ويقول انه ملك (لو ٢٣/٢..)..
ادعاءات خبيثة ! يعرفها بيلاطس ويعلن براءة يسوع .

«سأعذبه إرضاءً لكم ثم أطلق سراحه» . الأمر معروف سياسياً : «لا يشكّل يسوع خطراً سياسياً» .

لو كان يسوع خطراً سياسياً ، لكان بيلاطس طبق القانون باعدامه ولما كان يسوع أظهر غطرسة السلطة العامة وجبانتها بموته . أما ان تحكم السلطة الشرعية على يسوع بالإعدام بعد أن أقرت براءته ، فهذا يظهر مدى فساد النظام الذي يدعي السلطة دون الأخذ بالعدالة أو الحق — والذي يدعي حق تقرير الموت والحياة بالنسبة الى إنسان ، دون الرجوع الى أي شيء اللهم إلا إلى الدعوى السياسية (ديكوك) .

خطيئة العالم

إذاً لقد أدانت السلطات الله ، أدانته لأنه ادعى أنه حر وانه جاء ليحرر المظلومين .

خطيئة العالم هي إذا السلطة قبل أي شيء آخر ، السلطة التي تسحق الضعيف وتقضي على البريء ، السلطة — العامة أو الخاصة — **التي تسيطر بدل من أن تحب** ... وكل منا ، أحياناً ، يصبح سلطة ولو خاصة ..

تجاه يسوع ، يحتكم بيلاطس الى سلطته : «لي سلطان بأن أطلقك او بأن أصلبك !» لكن يسوع يرفض أن تكون هذه السلطة مطلقة : ويوجّـه أنظار بيلاطس إلى فوق ، **الى الله الينبوع الوحيد لكل سلطة — دينية كانت أم مدنية — والذي لا سلطة له سوى ... المحبة** . (يو ١٩/١٠..) . المحبة سلطة يسوع الوحيدة . المحبة والغفران ... لقد رذلته أمته لأنه رفض القوة . والسلطة الدينية ، كسلطة بيلاطس ، وقد ازداد فسادها بنسبة ادعائها المطلق ، لم تطق أن تسمع يسوع يقلب «القوى» . فاتحاً للحب كل الآفاق . نور الانجيل ساطع فوق

لمّا كتبت لخروتشوف ولأيزنهاور طالباً أن يتنازل كل منهما عن طائرة حربيّة فتتمكّن من معالجة البرص في الأرض ، ألم تلقَ أي جواب ؟
— كلا .. للقوة والغنى مطلق واحد حيث لا يعود الإنسان لا اميركياً ولا روسياً ولا ملحداً ولا مسيحياً : إنه غني وقوي . لقد فقد انسانيته (راول فولرو) .

خطيئة العالم. «فالعالم يسير كما يسيّره العنف.. ديناميكيته وحدها.. لا تعمل على تبرير البريء بل على اعدامه» (ديكوك).

وهكذا يسير يسوع نحو الجلجلة حاملاً صليبه.

«لقد قتل البغض»

غريزة البقاء هي أول ما يظهر عند الإنسان. لذلك فأخلاقية العلم تقضي بقتل الأطفال.. فيصبح هذا القتل عادة، لأن كلّ المبادىء الأخلاقية حول الإنسان المستسلم لقواه الذاتية تصبح محض اتفاق... فاذا قلت: كان يجب أن يزول الإنسان المُستسلِم لقواه الذاتية وانه من الضروري الإيمان بأن الله على علاقة مباشرة مع الإنسان، عندئذ إذا ما نظرت الى المسيحية. فلا تقبل مطلقاً بأن يُقتل الاطفال. هذه إذاً أخلاقية تغاير التي سَبقت. لدى المسيحية وحدها ماء الحياة وبإمكانها ايصال الإنسان إلى ينابيع الحياة الحيّة وتخليصه من الفناء. بدون المسيحية تنحلّ البشرية وتفنى. (دستويفسكي).

إنها ساعة يأس بالنسبة إلى التلاميذ.. لماذا استسلم يسوع بهذه السهولة؟.. لأنه لا سلطة في الكون تستطيع أن تمحو منطق السلطة الخاطئة الجهنمي. **فمن المعلوم أن كل سلطة بشرية خاطئة إن لم تكن سلطة المحبة..**

لو كان يسوع قد قاد معركة زمنية ضد أشكال الظلم في ذلك الوقت وضد غطرسة السلطة الدينية أو المدنية التي قتلته، لما كان تصدّى للشر في الجذور: **مظلوم الأمس، إذا حررته معركة لا مجال لانتقادها، يصبح بدوره ظالماً ويختار الله كفيلاً لنوع آخر من الظلم. هو ظلمه.**

وهكذا يسوع، مع أنه لم يكن حيادياً فيما يتعلق بالقوى الاجتماعية، لم يتدخل أبداً في عراك الطبقات. «إنه لخطأ تاريخي ان نجعل من يسوع زعيماً ثورياً بالمعنى العادي للكلمة: الثائر السياسي يحاول أن يستولي على الحكم، فهو يعلم أنه طالما لم يضع يده على زمام الأمور، لن يتوصل الى تغيير العلاقات الاجتماعية. لم يأخذ يسوع هذا الطريق ليحرر الإنسان. مهما كان هذا الطريق مشروعا، فهو لن يمحو ما يسبب الشرّ في التاريخ» (ديكوك).

الدواء الوحيد كان ضعف الله، تواضع الله: ضعف الحب وتواضعه. الدواء **الوحيد أمس واليوم وأبداً هو «قتل البغض» أولاً في قلوبنا..**

الصليب هو كشف. انه يكشف الله والإنسان.

قتل العدالة للأبرار . مأساة تكشف لنا دون مراوغة من هو الإنسان : «أيها الإنسان . هذا ما أنت عليه . لا يمكنك احتمال البار . من هو الحب الصافي جعلت منه مجنوناً وعذبته وصلبته .. هذا أنت . انك شرير ظالم بحاجة الى تواطؤ الغير لتشعر أنك معذور . فالبار الذي يحرمك هذا العذر يجب أن يزول . هذا ما أنت عليه . .»

لكن الصليب هو أيضاً كشف عن الله : ما يميّز الله هو أنه يأتي الى هذه الهوّة ليصبح إنساناً وانه يحاكمه بتخليصه له . في هوة الضياع البشري ، تبرز صورة أعمق ، هي صورة الحب الالهي .

سر الفـّداء

«لقد ذُبحت وافتديت بدمك لله اناساً من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة» . هكذا يرتل النشيد الجديد» في سفر الرؤيا (٥/٩) على شرف «حمل الله» يسوع المذبوح في آلامه .

«ولذلك هو وسيط لوصيّة جديدة حتى انه بواسطة الموت لفداء المعاصي التي جرت في عهد الوصية الأولى ينال المدعوون موعد الميراث الأبدي . (عبر ٩/١٥) .

«افتديت» «فداء» «فدية» . هذه الكلمات التقليدية المستقاة من الكتاب المقدس . غالباً ما نسيء فهمها . قد تحملنا على التفكير بأن البشرية كانت مستعبدة لسَيِّد ، ولنقل أنه الشيطان . ولكي يربحها لله أو يحررها ، دفع يسوع الثمن الضروري . أهرق دماً فدية .. واذا رأينا من الحماقة أن تُدفع الفدية للشيطان ، نقول أنه دفعها لله كما يبين ذلك التصميم الآتي : «من جهة ، العدالة تطالب بمالها للتعويض عن خطيئة الإنسان . من جهة أخرى ، المحبة تدفع الثمن الذي لا يقدر إنسان على دفعه . وهذا الثمن هو يسوع . هكذا نرضي العدالة والمحبة . لقد عاد كل شيء الى مكانه . فتحررنا من عدالة الله وغضبه . كل شيء قد تم بين الله والله بواسطة نائبه : يسوع» (ديكوك) . لكن الوضع التجاري هو هو .

الذي يريد أن يخلص جميع الناس ويبلغون الى معرفة الحق . لأن الله واحد والوسيط بين الله والناس واحد وهو الإنسان يسوع المسيح . الذي بذل نفسه فداء عن الجميع . وهذه شهادة في أوانها . نصبت انا لها كارزاً ورسولاً .
الحق أقول ولا أكذب : معلماً للأمم في الايمان الحق . (١ تيمو ٢/ ٤ — ٧) .

هذا التصوير خاطىء والكتاب يناقضه . علينا أن نحافظ على

فكرة التحرر والحرية نابذين هذه الاستعارات التجارية . التي تظهر الله وكأنه قاض دموي . نخاس جشع . لا نجد للفدية أية رائحة لأنه يضحي بالبريء في سبيل المجرم . إلا إذا رأينا في ذلك عقداً خيالياً بين الله وذاته . رأسمالاً ينتقل من جارور الى آخر في الخزانة ذاتها . لكننا نتساءل : لم هذه المهزلة ؟ ولماذا يموت إنسان ويتألم في هذه اللعبة ؟.. ففي كلتا الحالتين لا يبقى للقيامة من معنى لأن الدين قد دفع . قد « افتدي » بالموت .

ضعف هذه الشروح في انها تنطلق من **كلمات** — فداء ، ثمن ، فدية — وليس من الكتاب حيث توجد هذه الكلمات . **نسلخها عن اطارها ونؤلف رواية خيالية** . بدلاً من قراءتها في الكتاب . كمثل رجل يريد صنع بستان من زهور مقطوعة !..

فلننظر إذاً إلى هذه الكلمات في أرضها وفي جذورها .

الفداء في الكتاب

وأنا سمعت أنين بني إسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكرت عهدي . لذلك قل لبني اسرائيل : أنا الرب لأخرجنّكم من تحت أثقال المصريين وأخلصكم من عبوديتهم وأفديكم بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة . واتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً وتعلمون أني أنا الرب الهكم المخرج لكم من تحت أثقال المصريين . وسأدخلكم الأرض التي رفعت يدي مقسماً أن أعطيها لابراهيم واسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثاً أنا الرب . (خر ٦/ ٥ — ٨) .

لم يتعلم الشعب الإسرائيلي معنى كلمة « فداء » في القواميس بل في مغامرته التاريخية الأولى والكبرى — الخروج من مصر — **حدث الخروج فرض على الكتاب كله المعنى الأساسي لهذه الكلمة** : الفداء هو أساساً خلاص اسرائيل لما « افتداه » الله من العبودية ليجعله « شعبه » . دون دفع ثمن أو فدية .

من هنا كان لكلمة « فداء » في الكتاب معنيان متكاملان متلازمان : « تحرير » و« عهد » : **فالله يخلص شعبه من العبودية ويضمه إليه في المحبة** . « انا يهوه ، يقول الله ، سوف اخلصك من العبودية وافتديك إذ أضرب بقوة .. سوف اتبناك شعبا لي وأكون لك إلهاً » (خر ٦/٦ ..) هو **تحرير** « الحبيبة » لكي يتزوجها في **عهد حب** . لا تجارة ولا فدية ولا ثمن . ولا أحد يطلب تعويضاً .

ثم إن الفداء شيء ايجابي أساساً : ليس أولا تحريراً بل **مجانياً وغير**

مشروط . كحب أمير لعبدة يحررها ليتزوجها . لم يكن هناك تحرير من مصر أولا ثم عهد فيما بعد . « لقد قطعت العهد مع آبائكم **يوم أخذت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر** » (إرميا ٣١/٣٢) . عهد ختم بدم الحمل الفصحي (فصح = عبور) الذي رمز لدم يسوع الفادي .

يجب التشديد على هذا الوحي وهو أن **الفداء والخلاص مدرجان في الحدث التاريخي . حدث التحرر الزمني — الاجتماعي والاقتصادي والسياسي — تحرر شعب الفقراء والمقهورين** .

« عبر العهد القديم كله ، في الترجمة السبعينية اليونانية ، الكلمة العبرية ترجمت بـ« افتدي » ، تسعين مرة . أربع وأربعون مرة بمعنى « رد الحرية » . إحدى وأربعون مرة بمعنى « خلص » . خمس مرات بمعنى « انتزع » **ولا مرة بمعنى افتدي بالمال** » (ف . پرا) .

في العهد الجديد ، لا تتناقض المفردات الموحاة مع مفردات العهد القديم . بل تكمله : ليس الفداء ذبيحة يسوع فحسب بل كل عمله الخلاصي : الخلق والتجسد والجلجلة وعودة المسيح والقيامة العامة . ملك الله على الكون .. **العهد كله** .

كما العهد القديم ، كذلك العهد الجديد **ممهور بدم الضحية المقدّمة** . هذه المرة انه دم بشري ، دم من يسميه سفر الرؤيا **حمل الله** : ابنه بالذات . الفداء هو خلاص «كنيسة الله التي اكتسبها بدمه » (أعمال ٢٠/٢٨) .

فداء باهظ الثمن كثيراً !.. يتكلم القديس بولس هنا عن « الثمن » .. إنما في المطلق : ليس هذا الثمن ديناً ، كما ان الله لا يتدخل ليطالب به أو ليستلمه . فهو لم يُدفع لأحد : هو تقدمة عفوية ، محبوبة . هذا كل شيء .

هو كمُتسلّق قمة لينين : الانتصار على علو ٧٠٠٠ متراً يكلف

باهظاً — جهود وتجمد دم واخطار وتعب — لكن لا علاقة لهذا الثمن بالتجارة . وهكذا فآلام المسيح هي عمل انتصاره على عدو البشر ، على خطيئة البشر ، على آلام وموت البشر . هي عمل حبه لأبيه وللبشرية عروسه . انه حب محض .

فداء حب

بما ان الله محبة ، يجب حذف كل ما ليس حباً من السر المسيحي . من أين تأتينا إذاً الأفكار المتصلبة حول إله مهان وتكفير ودَين وانتقام !.. إنها أفكار ملازمة الطبيعة البشرية ، إذا أفكار وثنية لم يتمكن الوحي بعد من قلعها من جذورها .

كل الديانات تقريباً تدور حول قضية التكفير . وهي تصدر عن شعور الإنسان بالذنب أمام الله . وهي تؤلف محاولة لوضع حد لهذا الشعور ، لتخطي الزلة (والخوف) بأعمال تكفير يقدمها الإنسان لله .

أما في العهد الجديد ، فالأمور تبدو مناقضة لهذا . ليس الإنسان هو الذي يقترب من الله حاملاً إليه تقدمة تعويضية ، بل هو الله الذي يأتي إلى الإنسان ليعطيه . بمبادرة قدرته المحبة ، يعيد الله الحق السليب بتبريره الإنسان الخاطىء ، برحمته الخلاقة ، باحياء من كان قد مات . فتبريره نعمة مجانية... هذه هي الثورة التي قدمتها المسيحية لتاريخ الديانات . لا يقول العهد الجديد ان البشر يسعون لمصالحة الله كما كان يجب أن ننتظر ، لأنهم هم الذين اقترفوا الخطأ وليس الله . العهد الجديد يؤكد على العكس أن «**الله بالمسيح قد صالح العالم**» (٢كو ١٩/٥) (رتزنغر) .

إن كان أحد في المسيح ، فهو خليقة جديدة . قد مضى القديم وها ان كل شيء قد تجدد . والكل من الله الذي صالحنا مع نفسه بالمسيح واعطانا خدمة المصالحة . لأن الله هو الذي كان في المسيح مصالحاً العالم مع نفسه غير حاسب عليهم زلاّتهم وأودعنا كلمة المصالحة . (٢ كو ١٧/٥ — ١٩) .

يقول لنا الفصل الخامس عشر من إنجيل القديس لوقا انه ليس الإنسان الذي يفتش عن الله ، بل الله هو الذي يفتش عن الإنسان ويحمله على كتفيه . **هو الله الذي يدفع ثمن** رجوع الابن الضال الرائع ،

وشفقة السامري الغالية .. «لقد أحب الله العالم إلى حد أنه أعطى ابنه» (يو ٣/١٦) . وباتّفاق الابن مع أبيه ، «استسلم المسيح من أجلنا» (غلا ١/٤) . ومن نحن؟ «كفار خطأة» (روم ٥/٦ .. — أفسس ٢) ... لأجلنا جميعاً . لأجلي أنا شخصياً : «لقد أحبني وبذل نفسه عني» (غلا ٢/٢٠) .

يجب قراءة نص الرسالة الى الرومانيين الرائع في الفصل الثامن ٣١/٣٩ والتأمل فيه : «فماذا نقول في ذلك : إذا كان الله معنا ، فمن علينا ؟ الذي لم يشفق على ابنه بل أسلمه عن جميعنا كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء ! من يشكو مختاري الله : الله هو المبرر ، فمن يقضي علينا ؟ المسيح هو الذي مات بل قام أيضاً وهو عن يمين الله وهو يشفع أيضاً فينا . فمن يفصلنا عن محبة المسيح ؟ أضيق أم شدّة أم جوع أم عري أم خطر أم اضطهاد أم سيف ؟ كما كتب . لكنّا من أجلك نمات النهار كله وقد حسبنا مثل غنم للذبح . انّا في هذه كلّها نغلب بالذي أحبّنا . فانّي لواثق بأنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا أشياء حاضرة ولا مستقبلة ، ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربّنا» .

الفداء في الجسد

«فليس بعد الآن من هلاك للذين هم في يسوع المسيح» (روم ٨/١) ، بل هبة مجانية وغفران مجاني .

ومع هذا ، **فالحب الحقيقي لا يقدر أن يكون تسامحاً متملقاً غير مبال بصفات الشخص المحبوب**.. **فالله قد شاء أن يزف البشرية إليه** «كنيسة سنية لا شائبة فيها ولا تغضن ، ولا ما يشبه ذلك ، بل مقدسة بلا عيب» (أفسس ٥/٢٧) .

كيف ؟ لم يكن بامكان هذا الجسم — أي البشرية — أن

إسمع يـا شعبي ، فـأكلّمك لا أوبّخك على ذبائحك فإنّ محرقاتك أمامي كل حين . لا آخذ من بيتك عجلاً ولا من حظائرك تيساً . فإن لي جميع وحوش الغاب وألوف البهائم التي في الجبال . قد علمت كل طيور الجبال ولديّ حيوان الصحراء . ان جعت فلا أخبرك فإنّ لي المسكونة وملأها . أم لعلي آكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس . إذبح لله الاعتراف وأوف للعلي نذورك (مز ٤٩/ ٧ — ١٤) .

يكون جميلاً ونظيفاً .. «ان روح الحياة قد حررك في المسيح من شريعة الخطيئة والموت : هذا ما حققه الله بإرسال ابنه في جسد شبيه بجسدنا الخاطيء كفارة عن الخطيئة . فحكم على الخطيئة في الجسد ليتم ما تقتضيه منا العدالة» (روم ٨/٢ — ٤) . وبتعبير آخر : يريد الله من البشرية أن تتقدس **وتتجلى من الداخل** . يجب أن يطالبها بذلك لأنه يحبها . لكنه هو الذي سيدفع الثمن : يصير إنساناً أي عضواً بكل معنى الكلمة في هذه البشرية ، بل رئيساً لها ، رأسها . هو واحد منا . **فيه تقدم البشرية لله على الصليب ذبيحة الحب ، ذبيحة «الطاعة حتى الموت»** ..

هكذا نتخطى كل الجهود ، التي تملأ الدنيا ، العاملة للمصالحة مع الله بالعبادات والطقوس التكفيرية . فالله لا يهتم بالتيوس والعجول (مز ٥٠) . العبادة الوحيدة هي «النعم» التي يقولها الإنسان بدون شرط . والحال أن يسوع ، باسمنا جميعاً ، وعلنا أمام الملأ ، قد قدم لأبيه لا أشياء بل شخصه هو ، دمه هو (عبر ٩/١٤) .

هكذا قُدّم الفداء «في الجسد» ، في البشرية وبها . فلا عبادة مقبولة بعد اليوم سوى هذه التقدمة الفدائية . ولا كاهن غير يسوع المسيح .

١٠

مات وقبر

لقد مات الله :

يخبر جان غيتون : «لما كنت ولداً ، تجرأت وسألت والدتي : ما هو الموت . ففتحت انجيل لوقا وقرأت : «علم يسوع أن ساعته قد أتت لينتقل من هذا العالم الى أبيه ، فأحب خاصته الى الغاية..» «انتقل الى أبيه ، أحب الى الغاية ، هذا هو الموت» أجابتني . ولم أعد أطرح أي سؤال .

أجل ، ان السؤال المهم هو هذا : .. «الحب سهل جداً وكذلك الابتسامة للحياة» ، هكذا كان يغني جاك دلكروز . والحال أن الحب اللامحدود هو الابتسام للموت . وبأية ظروف ؟.. موت الله هذا ، أي سر هو !

«مات البريء عن الظالمين»

وكان يطلق لهم في العيد أسيراً من طلبوا . وكان رجل يدعى برأبا موثقاً مع أهل الفتنة الذين ارتكبوا القتل في فتنتهم . فلمّا صعد الجمع طفقوا يطلبون ما كان يصنعه لهم دائماً . فأجابهم بيلاطس : «أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟» لأنه كان يعلم أن رؤساء الكهنة إنما أسلموه حسداً . فهيّج رؤساء الكهنة الجمع لكي يطلق لهم برأبّا (مر ١٥ / ٦ — ١١) .

بين توقيفه وموته : قضى يسوع الليل في السجن مع مجرم معروف هو برابا . وعند الفجر ولدقائق محدودة ، كانت حياة الإنسان — الإله موضوع مقابلة مع حياة هذا القاتل . لكن حياة الله لم ترجح كفة الميزان . وانتصر برابا ! هكذا أخذ المجرم من الله حريته وبراءته وأخذ الله من المجرم صليبه وجرمه . سيموت عوض عنه ، ميتة المجرم.. وليس هذا من باب الصدفة ، أو خطأ قضائياً..

نفّذ الاعدام في ثلاثة أشخاص ، ظهر هذه الجمعة المقدسة ، في شمالي غربي أورشليم ، على تلة الجلجلة : يسوع «ملك اليهود» ومعه — يا للعار ! — لصان . هم إذاً رسمياً ثلاثة لصوص.. فإذا كان المسيح «قد حُسب في عداد المجرمين» (متى ١٥/ ٢٨) ، فهذا أيضاً ليس من باب الصدفة . بل هو قبل كل شيء اختيار الحب ،

حب « البريء الذي صار خطيئة لأجلنا » (٢كو ٥/٢١) .

وفعلاً « لقد مات المسيح نفسه مرة من أجل الخطايا ، مات بار من أجل الفجار » (١ بطر ٣/١٨) .

فلنتأمل هنا بأشعيا ٥٣ :

«مزدرى ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومتمرّس بالعاهات ومثل ساتر وجهه عنا . مزدرى فلم نعبأ به . إنّه لقد أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا فحسبناه ذا برص مضروباً من الله ومذلّلاً . جُرح لأجل معاصينا وسُحق لأجل آثامنا . فتأديب سلامنا عليه وبشدخه شُفينا . كلّنا ضللنا كالغنم . كل واحد مال الى طريقه فألقى الربّ عليه إثم كلّنا . قُدّم وهو خاضع ولم يفتح فاه . كشاة سيق الى الذبح وكحمل صامت أمام الذين يجزّونه ولم يفتح فاه .. إنّه قد انقطع من أرض الأحياء ومن أجل معصية شعبي أصابته الضربة .. أفاض للموت نفسه وأحصي مع العصاة وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة » .

« موضوع هزء .... »

علق هذان اللصان على الصليب ، واحد عن يمين يسوع وآخر عن شماله .. في هذين المركزين اللذين طلبتهما أم الرسولين يعقوب ويوحنا لولديها في الملكوت .

ــــ هذان المحلاّن محفوظان ، يا سيدتي ، للأشقياء والمشهورين . أيها المرشحون ، ابرزوا « بطاقات الخطيئة » .. واشربوا معي كأس الموت (متى ٢٠/٢١ ..) .

وكان أحد المجرمين المصلوبين يجدّف عليه قائلاً : إن كنت أنت المسيح فخلّص نفسك وإيّانا . فأجاب الآخر وانتهره قائلاً : أما تخشى الله وأنت مشترك في هذا القصاص . أمّا نحن فبعدل لأنا نلنا ما تستوجبه أعمالنا . وأما هذا فلم يصنع شيئاً من السوء . (لو ٢٣/٣٩ ــ ٤١) .

فاعترف أحد اللصوص علانية :

ــــ هذا عدل ، بالنسبة إلينا : فليس في أمرنا أي اشكال ، أما هو فلم يصنع أي شر... أذكرني يا يسوع عندما تأتي في ملكوتك !

— أجابه يسوع : الحق أقول لك : اليوم ستكون معي في الفردوس . « اليوم » أي يوم موته ، سيرى هذا اللص أبواب الحياة تنفتح أمامه : سيكون في « الفردوس » أي « معي » ، مع المسيح الممجد . فالموت ، هذه الساعة بالذات ، يشير الى انتصار المسيح وسعادة المخلصين في المجد مع الرب . « **مات البريء من أجل الخطأة ليقودنا الى الله** » (١ بطر ١٨/٣) .

الحيـــاة الصالحة ، الميتـــة الصالحة

وأنا فاليك صلاتي يا رب . اللهم ، هذا أوان الرضى فاستجب لي بكثرة رحمتك وبحقّ خلاصك . أنقذني من الوحل فلا أغرق . نجّني من مبغضيّ ومن قعر المياه . لا يغمرني سيل المياه ولا يبتلعني العمق ولا تطبق البئر عليّ فاهاً . استجب لي يا رب ، فإن رحمتك صالحة بحسب كثرة رأفتك التفت اليّ . ولا تحجب وجهك عن عبدك . أسرع استجب لي فإني في ضيق . (مز ٦٨/ ١٤— ١٨) .

وتهب ريح نيسان الشرقية بشدة ، من الظهر حتى الساعة الثالثة . غيوم سوداء عنيفة تغطي وجه السماء . « وكان ظلام على كل الأرض » يقول الانجيل . وراح الناس يتنشقون جواً مليئاً بالرياح المحرقة والغبار . .

— فصرخ المصلوب : أنا عطشان .

يقول القديس يوحنا ان هذا كان « **ليتمّ الكتاب** » (٢٨/١٩) : ليتمّ ذلك المزمور المأساوي ، مز ٢٢/٦٩ : « في عطشي سقوني خلاً » . اذ قدموا له على سنان رمح اسفنجة مملوءة خلاً . فامتص قطراتها المرة . وختم كلامه ، بعد أن أنهكت قواه وبلغت روحه التراقي ، وبعد أن أتم برنامجه : « **لقد انتهى كل شيء . .** »

أي : يا أبتاه « لم تشأ ذبيحة ولا محرقات ولا قرباناً عن الخطايا ، لم ترض بها . بل أعددت لي جسداً . . **فقلت حينئذ : هاءنذا آت اللهم ، لأعمل بمشيئتك** » (عبر ٥/١٠ — ٩) . ها قد أتممت كل ما يعنيني في الكتب ، « من موسى إلى الأنبياء » (لو ٢٧/٢٤). « وصرت مطيعاً حتى الموت ، موت الصليب » (فيليبي ٨/٢) . . **أتممت رسالتي** .

هذه هي الحياة المثلى ، حياة القداسة ، لأنها الحب بالذات ، « **لقد فعلت ، يا حبيبي ، كل ما كنت تنتظره مني** » . والمسيح يعطينا المثل والنعمة لاتمام الرسالة .

وأكثر من ذلك : نحن الخطأة ، الذين تتألف حياتنا من أفعال ندامة أكثر مما تتألف من صفحات جميلة ، أنه يعطينا حياته لنقدمها للآب وكأنها حياتنا ، لأننا أصبحنا معه شخصاً واحداً — الحياة المثلى — يا أبت ، لقد اتممت ارادتك بكاملها — هي أيضاً الميتة المثلى . فلم يبق للمسيح إلا أن يموت .

« لقد دهى الموت أمر ما »

— حياتي ، لا يأخذها مني أحد . بل أنا أقدمها ؛ يقول يسوع (يو ١٠/ ١٧..) . لقد أتت الساعة . فأطلق يسوع صرخة قوية — **ميتة حرة** ، **ميتة قوية** ، **ميتة حب** — « يا أبي ، بين يديك استودع روحي ! » وأحنى رأسه وأسلم الروح ..

« لقد دهى الموت أمر ما لما ذاقه يسوع .. **فهو قد مات حقاً** وبقساوة وأكثر من كل إنسان . لأن الموت هو موت بقدر ما تكون الحياة التي يضع لها حداً هي من نوع سام . مات يسوع بخلاف كل الناس لأن حياته كانت ذات ديناميكية وذات شفافية لم يبلغها إنسان.. فبموت المسيح وقيامته قد دهى الموت أمر ما : لم يعد موتاً فحسب ، اي اتمام عدالة الله فقط ، الموت القاسي .. لقد أعطى موت المسيح الموت طابعاً جديداً إذ رد له **معنى تلك الغاية التي كان يجب أن يكونه موت الإنسان الأول** : **الانتقال الى حياة جديدة أبدية وبشرية في آن**...

ومتى لبس هذا الفاسد عدم الفساد ، وهذا المائت عدم الموت . فحينئذ يتمّ القول الذي كتب أن قد ابتلع الموت في الغلبة . فأين غلبتك أيها الموت ، وأين شوكتك أيها الجحيم ؟ ان شوكة الموت هي الخطيئة وقوّة الموت هي الناموس . فشكراً لله الذي منحنا الغلبة بربّنا يسوع المسيح . (١كو ١٥/٥٤ — ٥٧) .

« موت المسيح هذا ، ذاقه عنا » وهو منذ الآن حدث لا ينفصل عن التجسد والقيامة ، **حدث العالم الهام** ، شاء العالم ذلك أم أبى . **هذا الحدث الذي يستقطب كل شيء** ، **بإمكان الإنسان أن يؤمن به أي أن يشترك فيه** . إنه فداؤه . «أين غلبتك يا موت ؟ » (١ كو ١٥/٥٥) ، يقول القديس بولس . (رومانو غارديني) .

حقاً إنه موت منتصر . اذ كان يجب أن يموت ليغلب الموت .

كان بوسع الله **أن يمحو الموت** بأمر خلاّق . لكنه لم يكن بوسعه **التغلب عليه** إلا بمجابهته ومبارزته . وهكذا كان . «محا المسيح موتنا بموته» (مقدمة قداس الفصح) .

«عبر حجـــاب جسده الممزق»

ليتأكد احد الجند من موت يسوع ، صوب إليه الضربة القاضية : خرق جنبه بحربته . فكان هذا الجندي البسيط الاداة اللاواعية لتمزيق مزدوج والكاشف عن سرّين معاً :

حجاب الهيكل الذي كان **يمنع من الوصول** الى قدس الأقداس «دالاً على أن الطريق الى الله لم يكن مفتوحاً» ، هذا الحجاب انقسم الى شطرين : ما معنى ذلك ؟ «إن المسيح ، عبرحجاب جسده الممزق ، عبر مرة واحدة الى الله بدمه» وانه «**فتح لنا نحن أيضاً الطريق**» (عبر ٨/٩ و ١٢ ؛ ١٩/١٠..) . الخرق الثاني ، السر الثاني : لقد خرقت الحربة جسد المصلوب وللحال ، يقول القديس يوحنا ، «خرج منه دم وماء» . دم الافخارستيا وماء العماد ، السرين اللذين يؤلفان «نسيج» الكنيسة . هكذا ولدت الكنيسة العروس من الجرح المفتوح في جنب آدم الحقيقي ، ها نحن في عمق سر الحب ، سر كل حب . دم القلب وماؤه . الى آخر نقطة «إلى النهاية» .. «عبر الى الآب ، أحب الى النهاية ، هذا هو الحدث» ..

مات واحد عن الجميع

تمزق حجاب الهيكل : بطلت ذبائحه ولم يعد من عباده سوى الاشتراك بحب المسيح **للآخرين** ، كلٌّ «من خلال حجاب جسده الممزق» .

فإنّ محبة المسيح تحثُّنا عندما نعتبر أنه إذا كان قد مات واحد عن الجميع فالجميع إذاً ماتوا . وانما مات المسيح عن الجميع لكي لا يحيا الاحياء

القلب الأقدس مطعون بحربة : الشريعة اليهودية تخطيناها ولم يعد هناك من شريعة سوى شريعة القلب المفتوح الذي يهرق دمه **لأجل الآخرين**.. فلننظر الى مثالنا الأوحد : «**لأجلنا نحن البشر** نزل من

السماء.. صلب لأجلنا على عهد بيلاطس البنطي ..» .

« هذا هو جسدي يقدم **عنكم** .. كأس دمي **المهراق لأجلكم ولأجل الكثيرين** .. »

لأنه رفض انانية من ينطوي على ذاته ويعيش لذاته ، لأنه قبل بأن يطعن وان يهرق دمه **لأجل الآخرين** ، فقد خلق آدم الجديد صورة الإنسان الجديد : **الإنسان الجديد هو الإنسان من أجل الآخرين** ..

لأنفسهم فيما بعد بل للذي مات وقام لأجلهم .. إذا ، ان كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. قد مضى القديم وها انّ كل شيء قد تجدّد . (٢ كور ١٤/٥ — ١٥ ؛ ١٧) .

ذراعاه الممدودتان على الصليب — وهما صلاة تقدمة للآب — يعبران أيضاً عن العطاء التام للبشر . والدعوة الموجهة الى الجميع ليضم إليه الجميع « ليعيد الى الوحدة أبناء الله المبعثرين » (يو ٥٢/١١) .

« لم يعد يسوع سوى حركة خروج من الذات وتوجه نحو الآب والآخرين . فالدائرة التي كانت تحبسه في ذاته قد تحطمت تماماً ، اذ قد أصبح ابن الله وابن الإنسان . فهو بكليته للآخرين **وقد صار هو ذاته مثال الإنسانية الحقة** . أنا مسيحي ، أي أنا إنسان أحقق في ذاتي الكائن البشري الحقيقي الذي هو «كائن للغير» و«كائن لله» (جوزف رتزنغر) .

« الذهاب الى الآب ، الحب الى النهاية ، هذا هو الموت » .
وهذه هي الحياة . « نحن نعرف اننا انتقلنا من الموت الى الحياة لأننا نحب أخوتنا » (١ يو ١٤/٣) .

« أنت بقربي »

رينه — پول . كاهن وصديق . لا يزال شاباً . المرض في عظامه وقلبه تعب للغاية . ينتظر الموت في مستشفى بروسيه . يشرح بهدوء : « **فهمت الآن ان ساعتي قد أتت : لقد أخذ يسوع على عاتقه خوفنا**

في مراع خصيبة يقيلني ومياه الراحة يوردني . يردّ نفسي ويهديني الى سبل البرّ من أجل اسمه . إنّي ولو

سلكت في وادي ظلال الموت ، لا أخاف سوءاً لأنك معي . عصاك وعكازك هما يعزيانني . تهيّء أمامي مائدة تجاه مضايقي وقد مسحت رأسي بالدهن وكأسي مروية . (مز ٢٢/ ٢ — ٥) .

أمام الموت . ولم يترك لنا شيئاً .. وقد قال أحدهم ان الإنسان يموت وحده . هذا عين الخطأ . وحده يسوع مات وحده . أما نحن ، فإننا نموت معه . أو بالأحرى لا نموت بل ننتقل معه الى الحياة ، ويدنا في يده . «إني ولو سلكت في وادي ظلال الموت ، لا أخاف سوءاً لأنك معي» (مز ٢٣/٤) .

بالنسبة الى يسوع ، كانت آلامه مبرحة . صلاته الأخيرة ، المزمور ٢٢ ، يبدأ بصرخة نزاع صاعدة من أعماق الخطيئة المظلمة ، أعماق خطيئتنا : «**صلاة صادرة من أعماق الجحيم**» ، كما يقول أحد اللاهوتيين المعاصرين : «**الهي ، الهي ، لماذا تركتني؟..**» «فقد حمله حبه على أن يحمل الى النهاية تمزق الخاطىء.. يشعر ابن الله بالمسافة المخيفة التي لا تحد والتي تحفرها الخطيئة بين الإنسان والله ، شعر بها ترهق كاهله ورآها تمتد أمامه . هذا التمزق الذي خلقه الإنسان بينه وبين الله ، عاشه يسوع بكل حبه كغياب قاتل ، كعزلة تامة.. لقد دخل عزلة الخطأة الى أن مات ميتتهم» (جاك غيّيه) ، ميتتهم الموحشة والمخيفة . هكذا قتل الموت في جوهره اذ قتل وحشته الجهنمية .

سأبشّر باسمك أخوتي وفي وسط الجماعة أسبّحك . يا أتقياء الرب ، سبّحوه . ويا ذريّة يعقوب مجدّوه . ويا ذريّة اسرائيل اخشوه كافة فإنه لم يزدر ولم يَسترذل بؤس البائس ولا حجب عنه وجهه . واذا استغاث به استجاب . (مز ٢١/ ٢٣ — ٢٥) .

لذلك فلم يعد للموت ذات الوجه منذ أن ولجه المسيح ، منذ أن جازه وأخذه على عاتقه .

من قبل ، لم يكن الموت سوى الموت : اضمحلال العالم المألوف ، تلاشي كل وجه بشري.. «سوف لا أرى الله (في الهيكل) في أرض الاحياء ، سوف لا أرى أحداً من سكان العالم» . هكذا كان يتأوه الملك حزقيا على فراش الموت (أشعيا ٣٨/ ١١) .

أما الآن ، فلم يعد الموت عتبة الوحشة المجلدة . بل هو «الباب الضيق» ينتظرنا وراءه المسيح وقد فتح ذراعيه وقلبه . أصبح الموت الدخول مع المسيح الى بيت الله .

إذا ما أجبر ولد على المغامرة وحيداً وسط غابة ، في ليلة ظلماء ، فسيمرض من الخوف . حتى ولو أكدنا له انه لا يتعرض لأي خطر .. صوت بشري يقدر وحده أن يطمئنه . أو يد أخ يشدها في يده ، أوحضور شخص يحبه .. هكذا من كان وحيداً أمام الموت ، يشعر بقلقه يضعف اذا ما أحس بأن صديقاً يرافقه . لكن من هو هذا المرافق ؟..

فلنفكر بأبعد من ذلك . فلنفترض وحشة لا يدخلها أي حضور صديق ليبدلها . فهي ستكون مكان التخلي التام والخوف التام . ستكون هذه الوحشة «جهنم» . لقد اجتاز المسيح عتبة هذه الوحشة الجهنمية . لقد نزل ، في آلامه ، الى فراغ الموت البشري المظلم والتام ، موت الخطيئة . حتى في الليل الدامس ، حيث لا تصل أي كلمة بشرية ، إنه ينتظرنا هناك . بعد اجتياز الستار ، سوف لا نكون أطفالاً يبكون وحيدين . نحن نعلم أن صوتاً يدعونا وان يداً تمتد إلينا لتمسك بيدنا . هكذا تمت الغلبة على جهنم أو بالأحرى لم **يعد الموت جهنماً ، لقد غلبت جهنم منذ أن راح الحب ينتظرنا في المكان الذي كان يدعى مملكة الموت .**

وبما أن حبه كان أقوى من يأس الموت ، فقد أصبح الموت ، بالنسبة الى المسيح ، سفراً نحو أبيه : «يا أبتاه ، في يديك استودع روحي» . — بالنسبة الى المسيحيين ، الموت سفر نحو المسيح . فقد صرخ اسطفانوس وهو تحت الرجم : «أيها الرب يسوع ، أقبل روحي» (أعمال ٥٩/٧) . ويقول القديس بولس : «إني أحترق لأموت لكي أكون مع المسيح» (فيليبي ٢٣/١) .

«وقبر»

أكان ضرورياً ذكر دفنه في قانون الإيمان ؟ هذا أمر مفروغ منه ! الميت يدفن . هذا إذا لم يحرقوه !

ومع ذلك فلم ير القديس بولس أن دفن المسيح كان بدون أهمية . لا بولس ولا الرسل . فبولس ، بعد موت يسوع بخمسة عشر أو عشرين سنة ، لم يزد على ما أخذ من قانون ايمان أورشليم : «لقد نقلت اليكم ما تسلمته أولاً : لقد مات المسيح لأجل خطايانا حسبما جاء في الكتب . **قبر وقام** في اليوم الثالث **كما قالت الكتب** . **وظهر للصفا ثم للاثني عشر...** » (١ كور ١٥/٣ ...) .

تحت حجر الابتذال الخارجي ، تخبىء هذه الدفنة قسطها من السر .

يسوع إنسان حق

الحقيقة الأولى التي تركز عليها هذه الدفنة هي أن يسوع كان إنساناً مثل غيره ، جسد إنسان .

بنود أخرى من قانون الإيمان تعلن ذلك : الحبل به ، ولادته ، آلامه ، موته .. كلها حقائق «جسدية» .

الحق أقول لكم . إنّ حبة الحنطة التي تقع في الأرض ، إن لم تمت تبقى مفردة . وان ماتت أتت بثمر كثير . من أحبّ نفسه يهلكها ومن أبغض نفسه في هذا العالم ، يحفظها للحياة الأبدية . (يو ١٢/٢٤ — ٢٥) .

وها هي الآن دفنته : «وقبر» . الدفن أوضح أمر للدلالة على أن شخصاً ما هو — كان — رجل من لحم وعظام ، رجل «متجسد» . إذ ليس بالإمكان دفن الروح أو الملاك أو الشيطان أو النفس . أو الشبح أو الفكرة أو الخيال أو المظهر .. المسيح قد دفن . مثل واحد منا . هذه آخر خطوة من «تجسده» : «الجسد» يصير من طبعه جثة ويقبر ..

فكون ابن **الله واحداً مع جسد العالم** ، هذا ما يسمح له بدون ريب أن يكون ، من الداخل ، «المركز الذي يمسك» بالكون وبالبشرية وبغيرهما ، هو «بكر كل الخلائق» حتى المادية منها ، وهو «بكر القائمين من الموت» (كولسي ١/١٥ ..) .

لقد مات يسوع حقاً

لقد دفن الرب في ظروف معينة . وإذا ما سردتها الأناجيل

بالتفصيل ، فلأنها تحمل وحياً خاصاً :

« بإذن بيلاطس ، جاء يوسف الرامي وأخذ الجسد . كما جاء نيقوديموس وكان يحمل مزيجاً من المر والعود ، نحو مئة رطل (٣٢,٧٠٠ كلغ) . فأخذا جسد يسوع ولفاه بأقمطة وطيبوه حسب طريقة الدفن المرعية عند اليهود » (يو ١٩/ ٣٨ ..) . « أخذ يوسف الجسد ولفه بكفن أبيض ووضعه في قبر جديد كان قد هيأه لنفسه ، في صخرة . وبعد أن دحرج حجراً كبيراً على مدخل القبر ، مضى .. وفي الغد دخل كبار الكهنة والفريسيون على بيلاطس وقالوا له :

— يا سيد ، لقد تذكرنا أن هذا المفسد قال قبل موته : « بعد ثلاثة أيام سأقوم » . فمر بأن يحرس القبر بحيطة حتى اليوم الثالث كيلا يأتي تلاميذه ويسرقوه ويقولوا للناس : « لقد قام من الأموات » فتكون الضلالة الأخيرة شراً من الأولى !

— أجابهم بيلاطس : لديكم حراس . اذهبوا واحرسوه كما تريدون . « فذهبوا وتأكدوا من القبر وختموا الحجر وشددوا الحراسة (متى ٢٧/ ٥٩ ..) .

بعد جلده الدامي وصلبه والحربة في قلبه والبيان الرسمي الذي قدمه القائد المسؤول لبيلاطس — وفي هذا القبر الضيق ، هذه الكمية من العطور التي تقتل رجلاً سليماً — كان من المؤكد أن يسوع قد مات وأن لا خوف من عودته الى الحياة ، مع مفرزة من الحرس واختام السلطة ، لم يكن هناك خوف من أن يسرق . وتحقيق نبوءته — « بعد ثلاثة أيام سأقوم » — كان ، بدون شك ، أمراً مستحيلاً .

كل هذا كان ضرورياً لكي يسطع كنور يعمي الأبصار ذاك الحدث الذي تنبأ عنه وخافه الاعداء ، ذاك الحدث « المستحيل » : « لقد قام حقاً ! » (لو ٢٤/٣٤) .

المرور في اليأس

وكانت النساء اللواتي أتين معه من الجليل يتبعن فأبصرن القبر وكيف وضع فيه جسده ثم رجعن وأعددن حنوطاً وأطياباً . وفي السبت قررن على حسب الوصيـة . (لو ٢٣/ ٥٥ — ٥٦) .

وان اثنين منهم كانا سائرين في ذلك اليوم الى قرية تدعى عماوس بعيدة عن أورشليم ستّين غلوة . وكانا يتحادثان عن تلك الحوادث كلّها . وفيما هما يتحادثان ويتساءلان ، دنا منهما يسوع نفسه وكان يسير معهما . ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته . فقال لهما : ما هذا الكلام الذي تتحـــاوران فيه وأنتما سائران مكتئبين ! فأجاب واحد منهما اسمه كلاوبا : أفأنت وحدك غريب في أورشليم ولم تعلم ما حدث بها في هذه الأيام؟ فقال لهما : وما هو؟ قالا له : ما يخصّ يسوع الناصري الذي كان رجلاً نبيّاً ذا قوة في العمل والقول أمام الله والشعب كله . وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكّامنا لقضاء الموت وصلبوه . ونحن كنا نرجو انه هو المزمع أن يفتدي اسرائيل . ولكن مع هذا جميعه فاليوم هو اليوم الثالث لحدوث ذلك . (لو ٢٤/ ١٣ — ٢١) .

حراس تافهون ! أختام مضحكة ! اذ من كان وقتئذ ينتظر قيامته ؟.. بالنسبة الى تلاميذه ، لقد مات بموته كل أمل . كان نهار الجمعة العظيمة النقطة النهائية ، الحجر الذي يصطدم به كل شيء فيتكسّر شظايا . «المسيح ، المملكة ، لقد انتهى كل هذا..» .

جلست مريم المجدلية مع رفيقة لها ازاء القبر.. ان حبهما هو هنا ، داخل القبر. لكنهما لا تنتظران شيئاً ، سوى نهاية سبت الفصح لتضيفا عطورهن الى عطور نيقوديموس.. لتزيدا في دفنه !

وحدها مريم أمه آمنت بكلامه . وحدها تعلم أن النفق المظلم قصير المدى . هناك طلبات من القرون الوسطى تمتدحها قائلة : «**في هذا السبت المقدس ، حفظت إيمانك**» . وحدها.. في السبت المقدس هذا ، سبت غياب الله ، يلج بسرعة القرن العشرون عندنا في الغرب . كانت صرخة نيتشه منذ مئة سنة صرخة الجمعة العظيمة : «لقد مات الله !.. ونحن الذين قتلناه» ! منذ ذلك الوقت ، ولجة سكوت السبت العظيم لا تزال تلفنا بكفنها : «الله غير قادر ، الله صامت ، الله غائب .. فعاداتنا وشرائعنا ومؤسساتنا ، آدابنا والسينما وعيالنا قد نفوا — أوكادوا — من عالمنا الله ومسيحه .. نحن سائرون نحو زمن «الله في القبر» مع حجر كبير على القبر. فبعد الكبار ، ها الشبان تترك الكنائس بكل راحة بال . والنساء تتبع بعدد كبير. يعلن ٨٤٪ من الفرنسيين أنهم كاثوليك . من بينهم ٧٥٪ يقرون بوجود الله . لكن ٣٢٪ فقط يؤمنون بالقيامة (!) ، نصف الذين كانوا يؤمنون منذ ٢٥ سنة : الأكثر تفاؤلاً يتنبأون بأن ١٠٪ سيؤمنون في السنة ٢٠٠٠ ... واما أن تظل الكنيسة تعمد وتناول وتكلل وتدفن أولئك الذين يريدون الطقوس ، فذلك يجعلنا نفكر — بحق أو بغير حق — بركض البطّة بعد أن قطعوا رأسها . ثم هناك التجار : أرقام المتاجرة «بالعطور» . ان قبض المال دائماً محبّب .

في هذا الوقت يعود التلاميذ الى عماوس واليأس يملأ قلوبهم .

دون أن يروا أن الذي دفنه الناس يسير فيما بينهم حياً . دون أن يفهموا أن من يبكون **كان يجب** أن يموت . صورة عن الله رسموها — ديانة تقليدية لا تتبدل توقفوا عندها — كنيسة متحجرة تخلق أسئلة وأجوبة دون أن يكون لديها أجوبة على أسئلة الناس في العصور الحاضرة — حب يحملهم على تعطير جسد يسوع الأمس .. ومع هذا فيسوع يسير معنا لكن عيوننا — وقد اعتادت على أن تراه على غير ما هو — لم تتمكن من معرفته » .. السبت العظيم هو مساء الفصح ! لكن لن يكون هناك فصح إذا ما تصلبنا في الرأي وانطلقنا دوماً من « الخمير العتيق » ذاته . « تطهروا من الخمير العتيق لتكونوا عجيناً جديداً ، يقول القديس بولس ، لأن فصحنا ، أي المسيح ، قد مات » (١ كو ٥/٧) انه حي لكن **بنوع جديد** ..

وهو يسبقنا ، لكن « الى الجليل » — أي الى **محل آخر** — « هناك سترونه » (مر ١٦/٧) . « ليس هنا » : ليس في القبر .

١١

ونزل الى الجحيم

أقدم قانون إيمان

« بدون مساعدة الاخصائيين ، يصبح الكتاب المقدس فسيفساء لا يفهم » . هذا ما كتبه أحد اللاهوتيين . هذا لا يخلو من الصحة . إنما هناك أشخاص بسطاء يتغذون من الكتاب المقدس بينما لا يفهمون شروح الاخصائيين . إذ كل لغة لا تخلو من « فسيفساء لا تفهم » . عندما نقول : « فلنرفع قلبنا ! ولنتجه نحو الرب ! » — بينما الرب لا يوجد فوق أكثر مما هو تحت — فهذا أيضاً لا يفهم تماماً «كتزول يسوع إلى الجحيم» . ومع هذا فنحن نقبل بهذا الكلام .

نحن بشر من لحم ودم ، يحدنا مادياً المكان والزمان ونتفاهم بصور مكانية حتى عندما نتكلم عن الأرواح المحضة التي لا تملأ لا الزمان ولا المكان . لكننا لا نقع ضرورة في فخاخ لغتنا « المادية » . وبإمكاننا التفاهم . إذ لا يستحيل علينا أن نزيل عن تصوراتنا صفة الأسطورة في ذات الوقت الذي نخلقها فيه .

بشرى سارة لسنة ٢٠٠٠

هكذا ، فهذا البند الصعب من قانون ايماننا — « نزل يسوع الى الجحيم » — لا يمكن حله بخزنه في اهراء الساعات العتيقة بحجة اننا نعيش في خط سنة الألفين .

كما أن الحل لا يكون بافراغه من محتواه ، زاعمين فقط انه يتحقق من واقع الموت ، ويعبّر عنه باللغة المألوفة ! » .

فقانون إيماننا كان ، قبل نصف سطر ، قد أعلن حقيقة موت يسوع : « صلب **ومات** وقبر» . أما هنا **فهو** يتقدم خطوة جديدة **ويريد أن يعلم شيئاً جديداً** . ما يريد أن يعلمنا ، يعبر عنه القديس بطرس في

نص يسبب الدوار حقاً ، لكنه يستحق ان نراه عن كثب — وقد شرحته المسيحية الأولى وعيدت له في تقليد غني يرجع الى إيمان الرسل .

فلا نحرمنّ رجال سنة الألفين من هذا الوحي بحجة صعوبة اللغة ! بإمكاننا الكلام عن الالكترونيك — أو البترول — مع اليابانيين والهنود والعرب والاميركان والفرنسيين . فهذا الموضوع يلذ لهم . اللغة المشتركة نجدها ، نخترعها . لكل وظيفة ولكل قطاع علمي لغته ، فإذا لذّ لنا الموضوع تعلمنا اللغة .. للعامل عند رينو ، لعامل التنظيفات الافريقي ولسائق الجيب القمري ، يصعب الكلام عن التجسد وعن موت الله بقدر ما يصعب عن النزول الى الجحيم . أهذا سبب كاف للسكوت ؟ أو لتحويل الأسرار القوية الى شراب لطيف للأطفال ؟.. « احملوا البشرى السارة الى الخليقة كلها » يأمر يسوع . والحال أن نزول المسيح الى الجحيم هو في صميم البشرى السارة .

الجحيم ، الشيول ، الهادس ، ايمبوس ..

عند جميع الشعوب ، قبل المسيح ، كانت توجد فكرة غامضة — رجاء أو خوف — عن الحياة بعد الموت . مع الميل الى تحديد المكان ، الى حصره مادياً ، مع أنه « حالة » لا غير . فهم يتكلمون عن « مثوى الأموات » شيول عند اليهود ، هادس أو تارتار عند الاغريق . جحيم عند اللاتين.

« الجحيم » ، بصيغة المفرد أو الجمع ، لا تعني سوى : مكان سفلي موجود « تحت » . أعضاء الجسد التي نسميها بتهذيب « الأساس » ، التي نستعملها للجلوس عليها .

لو تركنا جانباً تحديد المكان السفلي ، وكل صور الحفرة والهوة والبئر — كل فكرة عن الظلام والظلال والنوم — نقول : كان

الجحيم ملتقى موعد الموتى جميعاً ، الحالة (وليس المكان) حيث كان يدخل الجميع ليلحق بآبائه ، كما تجري الأنهر نحو البحر . هذه الحالة ، تجمع الموتى هذا ، قبل أن يفتح المخلص السماء ، كان المسيحيون يسمونه ، حوالي القرن الثاني عشر ، «يمبوس الآباء» . كلمة «يمبوس» تعني «حد» «تخم» كما لو كان متاخماً للفردوس أو للجحيم .

هذا هو الجحيم حيث ذهب يسوع ، عقب موته ، ليجتمع بنفوس ، بأرواح الملايين والمليارات من المائتين قبله ، منذ خلق الجنس البشري ، والذين كانوا ينتظرون أن يسطع الخلاص .

ماذا ذهب يصنع عندهم ؟

أقدم اعتراف بيسوع المسيح السيّد

يقول لنا القديس بطرس في رسالته الأولى وهو يذكر نشيد عماد قديم بكامله (١٨/٣ ؛ ٦/٤) . تتكلم بدايته ونهايته عن نزول المسيح الى الجحيم :

« فالمسيح نفسه مات مرة من أجل الخطايا ... » .

يدخلنا هذا النص الموحى في عالم خاص . حدث ولغة يحيرانا بعمق هذا السر . فعلينا أن نحترم هذا السر ، راضين بألا نفهم كل شيء . وأزيد : علينا أن نرفض التشاؤم الموروث عن القديس أغوسطينوس والذي يحمّل الكلمات أكثر مما تحمل ليمنعنا من قبول البشرى السارة المثيرة التي يعلنها بوضوح .

البشرى السارة للمحكوم عليهم بالموت

كبار الآباء في القرون الستة الأولى وغيرهم كثيرون من بعدهم وكذلك الليتورجيا الشرقية والروسية فهموا كلمة الله هذه بمعناها الطبيعي . وهذا هو معناها :

أي رجل منكم إذا كان له مئة

لكي يجد النعاج الضالة ، نزل رب المجد إلى الأرض . واذ لم

يجدها جميعها — وهذا أكثر من طبيعي — **نزل هذا الراعي الصالح « الذي يبقى يفتش عن الضالين حتى يجدهم »** ، إلى الموت ، الى الجحيم ، حيث مليارات الأموات محبوسون في سجن ، بعيدين عن رؤية الله . فهناك ، وان في حالات مختلفة (لو ١٦/ ٢٦) ، أبرار العهد القديم الذين انتظروا المسيح ، وخاصة جميع المسجونين من كل الشعوب وكل العصور . لم يحدد مصيرهم الروحي والأبدي بعد ، وهم يكفّرون عن زلاتهم بانتظار المخلص . ويسترعي انتباهنا الذين هم **أكثر خطأ والذين يرمز إليهم معاصرو نوح** الذين هزأوا بسفينته وجرفهم الطوفان . فلأنه قبل « بأن يموت في جسده » — « **بار عن الخطأة** » ، لا ننسى ذلك — فقد اقتحم يسوع عالم الموت هذا ؛ عالم الخطأة هذا . فانتصر على القوى الشيطانية وانتزع منها البشرية الضالة وأدخلها مجد السماء حيث دخل هو أمامهم .

خروف فأضاع واحداً لا يترك التسعة والتسعين في البريّة ويمضي في طلب الضال حتى يجده .؟ فإذا وجده يحمله على منكبيه فرحاً . ويأتي الى البيت ويدعو الأصدقاء والجيران ويقول لهم : افرحوا معي فإنّي وجـــدت خروفي الضال . أقول لكم : انه هكذا يكون في السماء فرح بخاطىء واحد يتوب أكثر مما يكون بتسعة وتسعين صدّيقاً لا يحتاجون الى التوبة .. (لو ١٥/ ٤ — ٨) .

أناشيد سليمان ، في نهاية القرن الأول ، تشرح استقباله في الجحيم كما يلي : (٤٢/ ١٥ — ٢٦) .

« رآني الجحيم وغلب على أمره... جمعت قوماً من الأحياء وسط أمواته وكلمتهم بشفاه حية بحيث أن كلامي لم يكن باطلاً . هرعوا نحوي هؤلاء الذين كانوا أمواتاً . وصرخوا قائلين : ارحمنا يا ابن الله وعاملنا بحسب نعمتك . أخرجنا من قيود الظلمة وافتح لنا الباب لنخرج معك . فلنخلص نحن أيضاً معك لأنك مخلصنا » . وانا سمعت صوتهم ورسمت اسمي على رؤوسهم . لذلك فهم أحرار وهم خاصتي : هللويا ! » .

من أجل هذا أقول لكم : إن كل خطيئة وتجديف يغفر للناس . أما التجديف على الروح القدس فلا يغفر . ومن قال كلمة على ابن البشر يغفر له . أمّا من قال على الروح القدس فلا يغفر له لا في هذا الدهر ولا في الآتي . (متى ١٢/ ٣١ —٣٢) .

— ولكن ألم يكن هؤلاء الخطأة الطائشين منذ أجيال في حال الخطيئة المميتة ، من الهالكين ؟..

— لا : كما أن الابرار لم يكونوا قد خلصوا بعد.. « فالنعمة والحق جاءا بيسوع المسيح ، يقول يوحنا . ومن فيضه أخذنا جميعاً ،

وهو بر الله بالإيمان بيسوع المسيح الى كل وعلى كلّ من الذين يؤمنون لأنه

لا فرق إذ الجميع قد خطأوا فيعوزهم مجد الله . فيبرّرون مجاناً بنعمته بالفداء الذي هو بالمسيح يسوع الذي جعله الله كفّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه بمغفرة الخطايا السالفة . التي إنما احتملها الله ليظهر بره في هذا الزمان (روم ٢٢/٣ — ٢٦) .

نعمة فوق نعمة » (يو ١٦/١ ..) .

قبل مجيئه وموته ، كان الأبرار ينتظرون خلاصهم . أما الخطأة فلم يكونوا لحسن حظهم قد دخلوا الموت الثاني (رؤ ٦/٢٠) . حيث تجرهم «الخطيئة ضد الروح القدس» أي العناد ورفض النور : إذ المسيح ذاته قال : «كل خطيئة ، كل تجديف يغفر للناس . وحده التجديف ضد الروح لا يغفر لا في هذا العالم ولا في العالم الآتي » . والحال أنه «الى اليوم لم يكن الروح القدس قد أعطي بعد لأن يسوع المسيح لم يكن بعد قد مجد» (يو ٣٩/٧) .

ثم ألم يشدد القديس بطرس على أنه «**لأولئك المعاندين في الأزمنة القديمة ، يتمهّل صبر الله**» ؟.. نحن نجهل من هو الله الى حد أننا نجسر على الظن أن الصبر الالهي هو أقصر مدى من خطايانا ! مع أن القديس بولس يكمل ما قاله بطرس ليؤكد لنا ، على العكس ، «ان **الله يظهر بره**» — أي قداسته التي هي الحب ذاته والتي ليس لها أية علاقة بالعدالة البشرية — «**الله يظهر بره اذ ينسى الخطايا المرتكبة قديماً أمام الصبر الالهي**» (روم ٢٥/٣..) . هكذا يعود بنا بولس الى الإيمان الأول الذي ينقله إلينا بطرس كاملاً .

« الاطار يسمح لنا بالتفكير» — هذا أقل ما يقال — «إن معاصري نوح .. استقبلوا بشارة المسيح أفضل مما استقبلوا بشارة نوح» (سبيك) . عندما لا تكون الخطيئة خطيئة كبرياء مجنونة ، فهي تعدّ الإنسان ، أكثر من الضمير المطمئن ، للانفتاح على المخلص (لو ١٥/ ١ — ٢) .

« ماتوا في الجسد وعادوا الى الحياة بالروح »

لكن هناك أكثر من ذلك بكثير :

يجب التقريب بين الآيتين الأولى والأخيرة من نص بطرس ، أو بالأحرى من شهادة الإيمان الرسولية هذه . بتعابير مماثلة انهما يجمعان

سر موت المسيح وسر موت الخطأة معاً . فلنقرأ :

« المسيح الذي مات في الجسد ، عاد الى الحياة بالروح » (١٨/٣) .. **وخطأة الطوفان** ، « وقد حكم عليهم الناس في جسدهم ، هم يحيون عند الله بالروح » (٦/٤) .

هذا ما نسميه « مثل الطوفان » . هل حصل قديماً في الشرق الأوسط طوفان عظيم حمل البشرية على الهجرة ! لا التاريخ ولا الحفريات الأثرية تؤكد ذلك . إنما منذ خمسة أو ستة آلاف سنة ، أصبح شعب وادي دجلة والفرات — العراق اليوم — عرضة لفيضانات وكوارث شبيهة بالتي نعرفها . فنتج عن ذلك عدة قصص للطوفان في الفولكلور السومري والبابلي . وأخذ العبرانيون هذا الموضوع واستخدمه الكاتب الملهم ليبين ، عبر اخراج مصور ، تصميم الله تجاه بشرية خاطئة . **فطوفان الكتاب المقدس هذا اذاً كارثة رمزية — كالمثل — غني بلاهوت مأساوي وخارق** . والقديس بطرس يكمل وصف هذا الوحي العجيب . فلنصغ إليه...

الآن نفسي قد اضطربت فماذا أقول : يا ابتِ نجني من هذه الساعة ولكن لأجل هذا بلغت الى هذه الساعة . يا أبت مجّد اسمك .. قد حضرت دينونة هذا العالم . الآن يلقى رئيس هذا العالم خارجاً . وأنا إذا ارتفعت عن الأرض جذبت اليّ الجميع . وانما قال هذا ليدل بأية ميتة كان مزمعاً أن يموت (يو ٢٧/١٢ — ٢٨ ؛ ٣١ — ٣٣) .

لننطلق من هذه الفكرة الأساسية والمرعبة : « **المسيح ، الذي لم يكن قد عرف الخطيئة ، جعله الله خطيئة لأجلنا** » (٢ كو ٢١/٥) . ويقول بطرس : « مات في الجسد » ككل خاطيء . لكن « بما أنه لم يعرف الخطيئة » ، استحق له هذا الموت من أجل الآخرين ان « يعود الى الحياة بالروح القدس » .. **وهكذا بنعمة موته ، تصبح كل ميتة بشرية من الآن فصاعداً ميتته وتصل حتماً إلى الحياة : لقد قلب معنى الموت كل إنسان ، كل خاطيء يموت ميتة يسوع المسيح ليحيا بحياته في روح الحياة** .

فالذي افتدانا من لعنة الناموس هو المسيح الذي صار لعنة لأجلنا بحسب ما كتب : ملعون كلّ من علّق على خشبة . لتكون على الأمم بركة ابراهيم في المسيح يسوع لننال بالإيمان موعد الروح . (غلا ١٣/٣ — ١٤) .

لنفهم هذا جيداً ، فلنعد الى مثل الطوفان : كارثة الطوفان كانت في نظر الناس ، أي ظاهراً ، ادانة وتنفيذ حكم في الخطأة . أما في نظر الله ، أي في الواقع ، **فهي** اشراكهم في موت المسيح « الذي صار خطيئة لأجلنا » وفي حياته الممجدة . هذه هي الكرازة

(أي بشارة الخلاص السارة) التي حملها المسيح الممجد الى الجحيم. فمثل الطوفان هذا يمثل جميع الخطأة في كل الكوارث وكل الميتات..

فلنطبق هذا الرمز.

— هكذا كل كوارث عصرنا وجميع العصور هي، في نظر الناس أي ظاهراً، دينونة للخطأة الذين يموتون فيها (ومن منا ليس بخاطىء؟). لكنها في نظر الله، أي في الواقع، اتحاد بموت المسيح ومن خلاله اتحاد بحياته الممجدة. شرط طبعاً ألا يكون هؤلاء الخطأة قد رفضوا نور الله بعناد وبوعي تام، كل حسب وسائله.

— هكذا أيضاً، كارثتنا الشخصية — موتنا — هو، بالنسبة إلى الناس أي ظاهراً، دينونة لنا نحن الخطأة. إنما بالنسبة إلى الله (في الواقع) هي مطابقة لموت المسيح ومن خلاله لحياته.

كما كان اللص يمثلنا جميعاً في الطوفان الحقيقي حيث حكم على يسوع، نحن مدعوون لأن نموت مع المسيح، وبمشاركتنا آلامه، لأن نسمع «اليوم ستكون معي في الفردوس». «نزل المسيح وحده الى الجحيم لكنه خرج منه بصحبة كثيرين» (القديس اغناطيوس)، بصحبة جمهور الأبرار، يقول الخجولون الذين يخافون من أن تكون البشرى السارة سارة أكثر مما يجب أن تكون. بصحبة جمهور الخطأة، يقول القديس بطرس. وهو يذكر «نشيد عماد يدور حول المسيح ويعبر عن أقدم شهادة إيمان بالمسيح الملك والرب» (سبيك).

«الله أكبر من قلبنا!» (١ يو ٣/٢٠).

«سأجذب كل شيء إلي»:

حوالي سنة ١٥٥٠ كان اليابانيون يشتكون الى القديس فرنسيس

كسفاريوس : «إذا كان الله صالحاً ، فلماذا لم يظهر لليابانيين قبل مجيئك ؟ لماذا خان جدودنا اذ أخفى عنهم معرفة الحقيقة ؟ إذا كان الله يريد أن يخلص جميع الناس بيسوع المسيح ، فلماذا تأخر الى اليوم كي يظهره لنا ؟» .

هذا ما كان عليه لاهوت فرنسيس كسفاريوس ومعاصريه «لا خلاص خارج الكنيسة !» عبارة القديس قبريانوس الشهيرة هذه (أسقف قرطاجة ، مات شهيداً سنة ٢٥٨) ، وقد زادها القديس اغوسطينوس صلابة ، كانوا يفهمونها آنذاك على هذا النحو : خارج الانتماء في العماد الى الكنيسة الكاثوليكية والرسولية ، لا خلاص ولا حياة أبدية . بعد ذلك بما يقارب أربعة عشر جيلاً ، سنة ١٩١٩ ، أراد الأمير الياباني ، هيروهيتو ، وقد كان في رحلة استطلاعية في أوروبا ، أن يلتقي الكاردينال مرسيه ، فقال له : «قرأت في الانجيل أن المسيح أمر تلاميذه ان ينشروا تعاليمه في العالم كله . فكيف لم ينفذ تلاميذ يسوع هذا الأمر ؟ في بلادي ثمانون مليوناً من السكان لم يسمعوا قط بديانتكم . .»

كل شيء دفع إلي من أبي . ولا يعرف أحد الابن إلا الآب . ولا يعرف أحد الآب . إلا الابن ومن أراد الابن أن يكشف له . (متى ٢٧/١١) .

يجب أن نضرب بثلاث مليارات غير المسيحيين القاطنين عالمنا ، وبجدودهم منذ مليون سنة وبأحفادهم ... الى متى ؟... ماذا سيحدث إلى الأبد لهذه الأكثرية الساحقة من الناس الذين يعيشون ويموتون خارج الكنيسة ؟.. هل يسخر القديس بولس من الله عندما يكتب : «**يريد الله مخلصنا أن يخلص جميع الناس ليصلوا الى معرفة الحق ولأن هناك الهاً واحداً ووسيطاً واحداً بين الله والناس ، يسوع المسيح**» (١ تيمو ٣/٢..) ؟ أيجب قراءة حكم اعدام عام في احتكار المسيح هذا : «**أنا الطريق والحق والحياة : لا يذهب أحد إلى الآب الا بي**» (يو ٦/١٤) ؟

شهادة إيمان راعي الساڤوا

لذلك فني شهادة ايمان راعي الساڤوا ، الشديدة الادعاء ، راح

روسو يسخر بالقديس بولس وبالمسيح وبالديانة المسيحية (الجزء الثاني ، الفصل السادس) .

«كم من ملايين الناس لم يسمعوا قط بيسوع المسيح ! .. قد يقولون العكس ويدعون أن مرسلينا يذهبون الى كل مكان . كلام سهل قوله . ولكن هل يذهبون الى قلب افريقيا ، التي لا تزال مجهولة وحيث لم يدخل أي أوروبي قط ؟ هل يذهبون الى بلاد الترتار الوسطى على أحصنتهم وراء العشائر المتنقلة التي لم يقترب منها أجنبي بعد ؟.. هل يذهبون الى القارات الأميركية الشاسعة حيث شعوب بأسرها لا يعرفون بعد ان جماهير من عالم آخر قد نزلوا عالمهم ؟ هل يذهبون الى اليابان من حيث طردتهم مناوراتهم الى الأبد ؟.. هل يذهبون الى حرم امراء آسيا يبشرون بالانجيل ألوف العبيد المساكين ؟..

يعود إلى العناية الالهية ان تعطي كل واحد الضروري لخلاصه شرط ألا يكون هناك مانع من قبله . اذا عاش إنسان في غابة وسط الذئاب ، واذا ما اتّبع سلوكاً يفرضه عقله الطبيعي ، أي طلب الخير والهرب من الشر ، فمن الأكيد ان الله سيظهر له ، بوحي داخلي ، كل ما هو ضروري للإيمان أو يرسل اليه مبشرين بالإيمان كما أرسل بطرس لكورنيليوس . (توما الاكويني) .

«تبشرونني باله ولد ومات منذ ألفي سنة في الطرف الآخر من العالم في مدينة لا أذكر اسمها وتقولون ان كل من لا يؤمن بهذا السر يهلك .. كونوا صادقين مع أنفسكم وضعوا ذواتكم مكاني : أنظروا ان كان علي ، نزولاً عند شهادتكم فقط ، أن أصدق كل الأشياء التي لا تصدق والتي تقولونها لي وان أوفق بين الظلامات العديدة والاله العادل الذي به تبشرون .. إن كان ابن أبوين مسيحيين يصنع حسناً إذا ما اتبع ، دون بحث عميق وغير متحيز ، دين أبيه ، فلماذا يسيء صنعاً ابن أبوين تركيين إذا ما اتبع ديانة أبيه ؟ انا أتحدى جميع المتعصبين أن يجيبوا على هذا السؤال بطريقة تقنع رجلاً ذكياً . «لا اذا ما ضغطنا عليهم بسؤال كهذا ، يفضل البعض القول بأن الله ظالم ويقاصّوه الأبرياء بخطيئة آبائهم بدلاً من أن يتراجعوا عن عقيدتهم الهمجية . والبعض الآخر يتدبرون الأمر بلباقة بإرسال ملاك يعلّم مَن ، عن جهل مطبق ، يعيش بأخلاق حسنة . ما ألطف اختراع هذا الملاك ! ..»

شهادة إيمان الرسل

هناك أعظم من ملاك ، يا حضرة الراعي !

«**الله هو أب الجميع وهو يملك على الجميع ويعمل في الجميع**» (أفسس ٤/٦) وهو قد «أحب العالم الى حد أنه أعطاه ابنه الوحيد» (يو ٣/١٦) .

ومن جهته ، **هذا الابن** «**الكلمة** ، بمجيئه الى العالم ، أنار كل إنسان» (١/٨) . كيف ؟ طرقه لا تحصى ، ونحن نجهلها . لكن الحقيقة أوحيت لنا : «**المسيح ينير كل انسان**» .

لقد رفض لوثير وكلفان هذه الحقيقة وحكموا بالهلاك على الوثنيين. وجاراهم الجانسينيت بسَاديَّة قدسية : «لا تسقط على الوثنيين نقطة واحدة من النعم !» (سان سيران) .

هذا جهل للتقليد المسيحي بأسره . «لا خلاص خارج الكنيسة» طبعاً ! لكن كيف يمكن الخروج من الكنيسة !.. «حضور الكلمة غير المنظور يمتد إلى الأرض كلها .. وبه يخضع كل شيء لفعل التدبير الخلاصي وقد نشر ابن الله علامة الصليب على كل شيء» (القديس ايريناوس) . يمكن الرجوع الى أكثر من مئة نص .

سنة ١٨٥٠ ، اختصر الكاردينال ديشان العتيد ، الذي وضع فيما بعد قرار المجمع الفاتيكاني الأول في «ابن الله» ، الفكر الكاثوليكي بهذه الكلمات : «**لا خلاص خارج الكنيسة** لا يعني إلا ما قاله القديس بولس : بدون ايمان لا يقدر الإنسان أن يرضي الله» أي لا خلاص لمن **يقاوم الحقيقة بعد ان عرفها**» .

لا يزال المسيح ينزل الى الجحيم

هذه هي عقيدة النزول الى الجحيم .

وهـذا مـا أكتشفـه في القرن التـاسع عشر كبـار اللاهـوتيين البروتستانت . فالأسقف الدنمركي اللوتري ، مرتنسن كتب سنة

١٨٤٩ : « لو كان النزول الى الجحيم حافظ على المعنى والمكانة التي فهمتها الكنيسة الأولى ، لكنا جنّبنا الكنيسة الخطأ الحديث والذي لا يمت الى الإنجيل بصلة ، خطأ القدرية القائلة بهلاك الوثنيين » (لويس كابران) . من المفيد أن نقرأ ما كتبه اليوم في « إيمان الرسل » ف. باننبرغ ، الأستاذ في جامعة ميونيخ البروتستانتية :

« إذا كان الله قد ظهر في المسيح فقط ، وإذا كان بالمسيح فقط قد ظهر الخلاص للبشرية ، فما هو مصير جميع الذين عاشوا قبل مجيئه ومصير جماهير الذين لم يصل إليهم التبشير المسيحي مطلقاً ؟ وأخيراً ما هو مصير أولئك الذين وصلتهم البشارة المسيحية لكن — وقد يكون الخطأ ناتجاً عن المسيحيين حاملي البشارة — لم يلتقوا مطلقاً بحقيقة المسيح ؟ أمصير جميع هؤلاء الهلاك ؟ هل يظلون مدى الأبدية محرومين من التقرب من الله الذي حمله المسيح للناس ؟ « على هذه الأسئلة الملحة ، بإمكان الإيمان المسيحي أن يجيب : « كلا » . هذا هو معنى العبارة ، حول نزول المسيح الى الجحيم ، في قانون الإيمان.. هذا المعنى مأخوذ من أصله الانجيلي . ما حصل للمسيح من أجل البشرية ، انه حصل للناس الذين لم يكونوا يوماً على اتصال به أو برسالته أو الذين لم يكتشفوا يوماً حقيقة شخصه أو حياته . حياة هؤلاء ، بطريقة سرية — وبطريقة خفية عن عيونهم — تقدر أن ترتبط بوحي الله في يسوع ..

« من اكتشف ، في شمولية الإيمان والخلاص هذه ، معنى عبارة قانون الإيمان التي تتكلم عن انتصار يسوع المسيح على مملكة الموت ونزوله الى الجحيم ، فهو يأسف أن يكون اليوم هذا البند من شهادة الرسل قد اصطدم بسوء فهم تبعه رفض دائم .

ولنقلها باختصار :

خطأة قصة الطوفان هم « نموذج » خطأة كل العصور . لقاؤهم

بالمسيح في موتهم المشترك هو «أنموذج» نشر الانجيل والفداء الشامل حيث يفتش يسوع عن كل البشر «الى أن يجدهم».

«**نزل إلى الجحيم** — لهذه العقيدة وقع وجودي شامل: **اذ في فعل سقوطهم الأكبر بالذات، يدرك المسيح المخلص البشرية وكل إنسان بمفرده**. إذ هو، بموته وقيامته، يضمهم الى عمله الخلاصي القادر على كل شيء الى حد أنه **حيثما كثرت الخطيئة تفاضلت النعمة**» (روم ٥/٢٠).. «هذا لا يعني أن لا يوجد أناس يهلكون الى الأبد. فالعهد الجديد وتعليم الكنيسة يقولان عكس ذلك. إنما حتى هوة الرفض والهلاك الأبدي هذه تحتويها هوة أكبر هي هوة الحب المخلص، حب فادينا القادر على كل شيء والذي جاء ليخلص ما كان ضالاً!» (لو ١٩/١٠).

«عقيدة النزول الى الجحيم تعني دون شك ما يلي: **هناك تبشير أساسي بالانجيل، وجودي، شامل، موجه الى جميع الناس بالمسيح ذاته** الذي، بعد أن تمجد في الروح القدس، يعلن البشرى السارة (أي يقدم حقاً خلاصه العجيب) ليس فقط لمعاصريه المحليين الذين التقوه في فلسطين، ليس فقط للجماهير التي تلتقيه في الكنيسة المنظورة عبر الأجيال، بل لجميع البشر ولكل إنسان بمفرده في كل زمان ومكان وخاصة في الموت أي ما وراء حدود المكان والزمان وكل الظروف والحالات البشرية. فيسوع هو بكل معنى الكلمة مخلص جميع الناس! هذا هو سر فدائنا الأصلي (بول هيتز).

مساء الشعانين، أي قبل صلبه بخمسة أيام، وقد أراد يسوع أن «يبين نوع الميتة التي كان مزمعاً أن يكابدها»، ألم يقل للجموع: «**عندما ارتفع عن الأرض ساجذب الي كل شيء**..»؟ (يو ١٢/ ٣٢..)

١٢

في اليوم الثالث قام من الموت

أقوى من المـوت ،
الحب

خارج أسوار أورشليـم القديمة ، قرب القبر المقدس ، نرى نتوءاً في الأرض ، قبة صخرية تشبه الجمجمة . لذا كان اليهود يدعونها كولكوتا «الجمجمة» . ترجمت باللاتينية بـكالفاريوس : «محل الجمجمة» ، وبالفرنسية «كلفار» . مع أن هذه التسمية لا تدين لعظام كائن من كان ، بل لشكلها الجمجمي ، فقد شغلت كثيراً مخيلة المسيحيين . فصدر عنها في القرن الثالث أسطورة كلها عمق لاهوتي : «أسطورة جسموها فيما بعد بوضع صورة جمجمة بشرية فوق ساقين مكتوفين .

هاكم هذه الأسطورة مع سرها الرائع :

لما غرز صليب ابن الله الدامي في الصخرة ، وصل الى قبر : قبر الإنسان الأول . ولما سال هذا الدم الفادي على هذه الجمجمة اليابسة ، طهّر آدم المذنب — آدم الخاطىء — وأعاد إليه الحياة كما يصنع الينبوع بالصحراء . عندما تنتصب شجرة الصليب على عظامنا اليابسة البيضاء ، تخالها تقول : «لا» لكل أخشاب توابيتنا ، لأنها تغسل كل أوساخ حياتنا الميتة . فالماء والدم الجاريان من القلب المطعون يخصبان رمادنا ذاته مع عظامنا المكلسة . **ويصبح الصليب شجرة الحياة لأنه هو الشجرة التي تعطي ثمرة الحب . اذ الحب هو أقوى من الموت** .

«**أنت . لن تموت**»   «الحب أقوى من الموت ،

سهامه النارية شعلة من الله :
المياه العظيمة لا تقدر أن تطفىء الحب .
ولا باستطاعة الانهر أن تغمرها » (نشيد ٨/ ٦ — ٧) .

المياه العظيمة في مفهوم الكتاب المقدس هي البحر ذو « الخطر المميت » (مز ٦٩/٣) الذي يظن أن مقره « قريب من الجحيم » (يونان ٢/٦) . هو رمز الهوة العظمى أي الموت . « لا يقدر الموت أن يغمر الحب » . مغالاة شعرية ؟ كلا : هو الله المتكلم في هذه القصيدة الموحاة . وكل منا يشعر بهذه الحقيقة الأساسية ، حقيقة الحب : **فالحب يود ألاّ ينتهي** . « قولنا لشخص : أنا أحبك ، هو القول : أنت لن تموت » (كبريال مرسال) .

والحال ان نداء اللامتناهي الموجود في صلب كل حياة هو مأساة لا تتحقق . كالرغبة الجنونية في السير عند شخص بدون رجلين ؛ أو كالرغبة في الطيران بينما لا أجنحة له .. الحب يتطلب اللانهاية لكنه لا يوفره ؛ يريد الأبدية لكنه ينتمي الى عالم الموت .

انطلاقاً من هذا التناقض الممزق ، يمكن فهم معنى « القيامة » . لا معنى للحياة إذا كان الموت يمحوها . والحب عذاب ومهزلة ، إذا دمر الموت موضوعه . وبتعبير آخر : **إذا لم تكن الحياة والحب سراباً ، فذلك يعني أن الموت سيموت ، وانه لا يمكن للموت إلا أن يموت** .

دعانا أحد المزارعين في الشمال مع امرأته — **٣٠** أو **٣٥** سنة — في إحدى أمسيات الشتاء الفائت . انهينا العشاء على ضوء قنديل بينما كان الأولاد الثلاثة يلعبون في المطبخ الكبير المبلط . وراح الأب ، وهو ينظر إليهم بحنان ، يفكر عالياً : نحن هنا منذ أجيال .. لم يعش جدّاي ولم يشتغلا في هذه المزرعة إلا ليربيا أبي واخوته وأخواته . ووالداي بدورهما قضيا حياتهما لتربيتنا . وانا مع امرأتي أعيد الكرة لاعالة هؤلاء الصغار وتنميتهم .. **لن يكون لكل هذا من معنى بدون**

القيامة...» وحدها القيامة ، دون شك . تضمن انتصار الحب على الموت . وحدها تعطي معنى للحب وللحياة .

«بـدون القيـامـة لا معنى لكل هذا»

يشعر كل إنسان بأنه عائد الى التراب . إذا لم يرد رؤية شعلة الحياة تنطفىء بين يديه ، فإنه يعطيها لسواه ويقع . **ولا يمكنه أن يأمل بنوع من البقاء ، إلا من خلال الآخرين في أرض الأحياء** .

هناك هذا البقاء حيث يبقى الإنسان بواسطة أولاده وأولادهم . من هنا أن اليهود وكل الشعوب البدائية كانوا يعتبرون العزوبة والعقم لعنة أساسية ، دماراً نهائياً ، موتاً تاماً . بينما ، على عكس ذلك ، كان الأولاد العديدون كفالة لبقاء طويل ، من هنا اعتبارهم بركة... لكن هذا الخلود الكاذب بواسطة الأولاد لا يترك في النهاية ، كخيط من قطن البارود ، سوى خط طويل من الرماد . هو خلود غير شخصي أكون انا فيه الغائب الاكبر..

لذلك فذوو الطموح يصممون لحفر اسمائهم في التاريخ أو الفن أو الأدب **ليبقوا هم شخصياً** ، على الأقل ، في ذاكرة الأجيال . «سوف يتكلمون عني» . قد يكون . شرط أن يتوفر لي الحظ والعبقرية والعمل — وهذا شيء نادر — ولكن الى كم من الزمن ؟.. «سأكون من الخالدين !» فليكن . وبعد ؟.. كان نابوليون في جزيرة القديسة هيلانه يسر إلى صديقه برتران : «كنت الاسكندر وكنت قيصر.. لكن ما هو الاسكندر وما هو قيصر؟.. صفحة في التاريخ : عمل اضافي للتلاميذ..»

إنّي أحببتك حباً أبدياً فلذلك اجتذبتك برحمة . واني أبنيك بعد فتُبنين يا عذراء اسرائيل ، وتتزيّنين بدموعك بعد وتبرزين في مراقص الطربين. (إرميا ٣١/٣ — ٤) .

كلا ثم كلا ! ظلال في ظلال ، وتراب من تراب ، اصداء تردد أصداء سكتت اليوم ، أوراق سجلات ، صور صفراء في «ألبوم» لا زوايا له. ليست هذه هي الحياة وليس هذا هو الحب ! ان أخلد في غيري ! وما النفع إذا كان هذا الغير يعجز عن أن يرد لي

الحياة التي اعطيته ؟ لماذا أعطي الشعلة غيري إذا حكم علي بألا أكون سوى كومة رماد الى الأبد ؟ «بدون القيامة ، لا معنى لكل هذا ! » والحال أن هناك قيامة وان هناك حياة وان هناك حباً .

الحياة موجودة وهي تتحدى الموت : «أنت سوف تموت».. الحب موجود وهو يتحدى الحياة : «أنت ، لن تموتي ..» الحياة والحب موجودان وأنا أعرف أن من يشعلهما هو خالق حياته حب . **إذاً فالقيامة موجودة** ..

لكن كيف الدخول إليها ؟..

طريق القيامة

لا ندخل القيامة كما أننا لم ندخل الوجود . حب والدينا وحده كان بإمكانه أن يلدنا . وحب الله وحده بإمكانه أن يقيمنا . **فالحياة والبقاء يمران بالآخرين** . أي آخرين ؟..

قلنا ان الإنسان ، نظراً لطبيعته ، يفنى وينتهي وانه لا يمكنه أن يأمل بالبقاء إلاّ في الآخرين — وفي حالة الظل والغياب — وذلك ليس نهائياً لأن هؤلاء الآخرين هم أيضاً سيفنون ... بإمكان شخص واحد أن يعطي حياتنا سنداً حقيقياً شرط أن يريد أن يذكرنا : **وهو الكائن** ، الذي لا يولد في الصباح ليموت في المساء ، بل يبقى وسط الكائنات والأشياء التي تمر وتموت ! إنه الله .

ما أسخفني ! لماذا أحلم بالبقاء في فكر الناس من بعدي ، أي بالاتجاه السفلي بينما أنا باق كل برهة في ينبوعي بالاتجاه العلوي : **فأنا أولاً ، أصلاً ، فكرة من الله** ! والله لا ينتهي ! ذاك الذي اعطاني حبة الوجود والذي هو ينبوع كل أوقاتي . فبالتأكيد لا يقطع هذا الشخص مجرى حياتي الأرضية إلا ليطعمها على وجود أصلح وخالد هذه المرة . الله محبة !

* فإذا كان الله محبة ، وهو لكذلك ، فالسؤال يتبادر الى

الذهن : **لماذا لم يعطنا باديء ذي بدء هذا الكيان غير الفاسد ؟**

— « وجود غير فاسد » ، ما هو إن لم يكن حياة الله ؟ ولماذا ؟..

أما حياة الله ، **فلا** يكفي أن يعطينا اياها بل **يجب أيضاً أن يعلمنا اياها لأنها حرية** ، **لأنها حب** . الله إذاً محبة **ومعلم محبة** .. هو حياة **ومعلم حياة** . لقد تسلمت من الله — ومن الآخرين — حياة أولى ، فاسدة ، **لكي تتعلم كيف تعيش**... وأنت تتعلم كيف تموت ، كيف تعيش وتموت في سبيل الآخرين . هكذا يتغلب الله **فيك** على **موتك** ويفتحك على حياته .

كلّمتكم بهذا ليكون فرحي فيكم ويتمّ فرحكم . هذه هي وصيتي أن يحبّ بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم . ما من حبّ اعظم من هذا أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه . (يو ١٥/١١ — ١٣) .

* **ولكن ما العمل لكي يقتل موتي وموت كل إنسان ويقودني الى القيامة ؟** هذا هو سؤالي الثاني ..

— لا خيار له ، إذا صح التعبير ، إذا بالنسبة الى الله الحياة هي الحب ، الحب اللامحدود ، والحب اللامحدود هو الحب حتى الموت : « ما من حب أعظم من هذا وهو أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه » .

— ما هذا التناقض ! الحياة هي الحب والحب هو الموت ! إذا الحياة هي الموت !.. اننا في صميم التناقض !

— كلا . نحن في صميم حياة الله : من أحب الى حد بذل حياته ، **لا ينزل** الى الموت بل **يصعد** الى حياة أسمى إذ « الحب أقوى من الموت » . « وحيث الحب أهم من الحياة ، في نظر انسان ما ، أي حيث يكون هذا الإنسان مستعداً للتضحية بحياته في سبيل الحب ، للمجازفة بها في سبيل من يحب ، هناك فقط يكون الحب أكثر من الموت وأقوى منه . ولكي يكون أكثر من الموت ، على الحب أولاً أن يكون أولاً أكثر من الحياة » (رتزنغر) .

هو المبدأ البكر من بين الأموات ليكون هو الأول في كل شيء . (كولسي ١/١٨) .

بهذا الحب أحبنا يسوع . حبه لنا ولأبيه لم يتراجع أمام الموت .

لذلك أجبر الموت على التراجع أمام حبه . طبعاً لا يمكن لحب بشري محض — لأجمل حب بشري — استناداً الى قواه الطبيعية ، أن ينتصر على الموت . فهو محدود في ذاته ويبقى بالضرورة صرخة دون صدى .

وحده حب المسيح ، لأنه متحد بقوة الله ذاته وحياته ، يمكنه أن يبني خلودنا . وانه بالواقع يبنيه :

١) لأن هذا الابن ، الذي **هو إله** وانسان حقاً ، أحب حتى الموت وموت الصليب ؛ **فرفعه الله** بقيامته الى أعلى المراتب (فيليبي ٦/٢..) .

٢) لأنه **باسمنا** جميعاً أحب الآب والآخرين حتى الموت **فأصبح** « بكر القائمين من الموت » (كولسي ١٨/١) . **فهو** « مبدأ » **قيامتنا** . ذاك الذي أحب عن الجميع ، بنى أيضاً الخلود للجميع : قيامته هي حياتنا الأبدية .

أن نموت لذواتنا ونحيا لغيرنا ، هذه هي القيامة

هنا نلمس لمس اليد من جديد كم نحن « مبرمجون » طبيعياً على الله .

من منا نحن الأحياء لم يعرف الحب عن قرب أو عن بعد ؟ ومن ينكر أن الحب هو رغبة في الخلود وجهد الى بلوغه ، بالنسبة الى من نحب ؟.. « الحب يخلق دوماً ، بطريقة أو بأخرى ، نوعاً من الخلود . حتى لدى الخلائق التي لم تبلغ الانسانية ، هو متجه نحو الخلود اذ به يحافظ على الجنس . وكونه هكذا مبدأ خلود ليس أمراً ثانوياً بالنسبة الى الحب . بالإمكان قلب هذا التأكيد والقول : الخلود يأتي دائماً من الحب ولا يأتي أبداً من الانغلاق على الذات ومن الاكتفاء بالذات (رتزنغر) .

هذا صحيح بالنسبة إلى الإنسان لأنه صحيح بالنسبة الى الله . لوكان كل أقنوم في الله منقطعاً عن الآخر . فما كان يحصل ؟ لكان كل واحد يدور في حلقة مفرغة ، في أنانية لا حد لها ؟ كلا ، بل لما وجد أقانيـم البتة !.. فالآب ليس أباً إلا لانه ، بالتخلي عن ذاته ، يتحد كلياً بابنه وبواسطته يتحد بنا جميعاً نحن الذين أصبحنا ابنائه بالمسيح . وليس الابن ابناً إلا لكونه بكليته عطاء للآب . وليس الروح بشيء إن لم يكن الحب المتبادل بين الآب والابن .. فالآب أزلي لأن حبه لابنه أزلي . والروح أزلي لأن كل اقنوم قد مات لذاته ليكون بكليته للآخرين والى الأبد .

هي هذه الحياة للآخرين التي تتحدى الموت وتنقضه لأنها حياة الله بالذات . بالنسبة الينا وفي يسوع أخينا ، تقاس الحياة بارتفاعها ؛ فهي تقاس بالنسبة الى الثالوث الأقدس .

هنا يكمن سر القيامة كله . « لقد قام المسيح من بين الأموات وهو عربون جميع المائتين . فبهذا الإنسان تكون قيامة الموتى : بالمسيح يقبلون جميعهم الحياة » (١ كو ١٥/٢٠..) .

في قلب التاريخ :

في عصرنا العلمي هذا ، الأحداث هي الأحداث . أما ما وراء الأحداث ، فلا يؤخذ المرء بالقصص ؛ قدماه على الأرض وان مشى على سطح القمر ، فهو دائماً على أرضه . منذ عشرات السنين ، يحاول النزول الى الأعماق إنما في «باتيسكاف» أو في غواصة . وهو يرتفع في العلاء إنما في طيارة أو صاروخ .. أعمال تقنية بشرية متينة ! واذا ذكرنا يسوع المسيح ، أي إذا رجعنا الفي سنة الى الوراء ، يستحي البعض من الترداد : « ونزل الى الجحيـم .. وصعد إلى السماء .. » إنما يجب أن نخجل من هذا الحياء !.. فعبارات قانون

إيماننا هذا القديم تؤكد على حقائق ، «حقائق هي أساس وجودنا بالذات» (بوسيه) . هي أساس وجودنا جميعاً إذ أن **حدث القيامة قد حصل** .

نقطة الإرتكاز في قانون ايماننا

ينتصب هذا الحدث في قلب الكون . فهو ليس فقط حدثاً تاريخياً بل هو ركزة التاريخ . هو الحدث الذي ولد المسيحية . نواة قانون إيماننا المسيحي هو إذاً حدث الفصح . هنا الأصل وهنا النار المركزية الدائمة وسط شهادة ايماننا .

إن كان المسيح لم يقم ، فكرازتنا إذاً باطلة وايمانكم باطل . وان كان المسيح لم يقم ، فايمانكم باطل وانتم بعد في خطاياكم ، إن كان رجاؤنا في المسيح في هذه الحياة فقط فنحن أشقى النـاس . لكنّ الحال أن المسيح قد قام من الأموات وهو باكورة الراقدين . (١كو ١٥/ ١٤ ، ١٧ ، ١٩ — ٢٠ .

إذا كان المسيح لم يقم ، فمغامرة الناصري اصطدمت بالموت . وهو ليس المسيح وليس ابن الآب الواحد وليس السيد . وحدها القيامة تسمح لنا بالقول أن الله صار إنساناً . وحدها تمنع موته من أن يكون فشلاً ليس إلا . وحدها تعطي حياته وصلبه معنى . إذا كان المسيح لم يقم ، فالله ليس أباً والخليقة لا معنى لها لأن المصالحة قد رفضت . الروح والكنيسة والحياة الأبدية وعودة الرب ودينونة العالم والسماء والأرض الجديدتان ، كل هذا يمحّى كحلم فارغ .

وعلى العكس ، إذا كان هناك انجيل ، فهو ليس سوى شرح لهذا الحدث : «يسوع المصلوب هذا ، قد أقامه الآب» . إذا كانت هناك كنيسة مسيحية ، فهي الشجرة العظيمة النابتة في هذا الأصل . الإيمان بيسوع القائم من الموت ، يمكن القول أنه هو الشيء الوحيد المشترك بيننا وبين الرسل وبين كل أجيال الكنيسة . اللغات والعادات والتعابير والاحتفالات والمؤسسات المسيحية تبدلت كثيراً وتفرعت كثيراً منذ العنصرة . وسوف تتبدل أيضاً وتتفرع . **لكن ما هو مشترك بين بطرس واندراوس ويعقوب و يوحنا وبولس ومريم المجدلية ونحن ، هو أننا نؤمن بيسوع القائم من الموت** . هذه هي نقطة الارتكاز . المركز السطحي للهزة الأرضية المسيحية التي تهز الأرض فرحاً منذ الفي سنة .

لذا فعبثاً نتساءل عما إذا كانت قيامة يسوع «حدثاً تاريخياً» ، فهي حدث يتخطى التاريخ كثيراً . **هي حدث يخلق التاريخ** !...

وهذا يجبرنا على التفكير به بدقة ، يقول بعضهم . لِمَ لا ؟

لا يمكن أن يكون كل «الواقع تاريخياً»

ما هو الحدث «التاريخي» ؟ هو أولاً حدثاً من عالمنا هذا ، عالم «الأرضيّين» ، حدث يخضع لاحتمالات الحقيقة في وجودنا البشري . ثم حدث له شهود ثقة . وأخيراً حدث كان بإمكان أي شاهد أن يراه لو كان حاضراً . وبالاجمال هو حدث بإمكان علم التاريخ أن يعرفه وذلك بالطريقة التي يتعهدها علم التاريخ .

هذا يعني أن هناك الكثير من الأحداث الواقعية ليست «تاريخية» .. فلنفترض حباً كبيراً .. إنه يتبلور في الزواج ... «ورزقهم الله أبناء عديدين» : أصبح أحدهم وزيراً والآخر أسقفاً والثالث جائزة نوبل .. زواج الوالدين ووظائف الأولاد أشياء تهم التاريخ . وهذه الرائعة الفريدة أي حب الوالدين ؟ فتشوا عن شاعر يغنيها لأنها تخرج من متناول يد المؤرخ ! ومع هذا فالواقع الذي أدى إلى هذا «التاريخ» هو هذا الحب الذي لا يحصره التاريخ .

أنموذج الحدث التاريخي هو موت يسوع ، يوم تلك الجمعة من نيسان ، عند الساعة الخامسة عشرة ، على قمة الجلجلة ، بالعبرية كلكوتا . الموت ، حتى على الصليب ، أمر ممكن تصديقه ، أمر يحدث . والشهود كانوا هناك : رؤساء الكهنة ، شيوخ الشعب ، قائد المئة ، جنود رومانيون ، نساء وجمهور الفضوليين . وكان باستطاعة كل عابر سبيل أن يرى الحدث . هذا هو الحدث الأكيد . يشهد له تاسيت في حولياته ... لقد حاول الشك فيه أحد المدعوين الى حلقة تلفزيونية ، لكنه ظهر مضحكاً للمشاهدين الى حد أنه تراجع عن كلامه قبل نهاية العرض . وجود يسوع ، موت يسوع ، إنها أحداث «تاريخية» .

وما القول في قيامته ؟

حدث « واقعي » أكثر منه تاريخي : سر الإيمان

قيامة العازار وابنة يائيروس وابن يائين ، كانت احداثاً تاريخية . ميت يعود الى **حياة هذا العالم** . حدث نادر طبعاً ، وصعب التصديق . إنما بإمكان الجميع التأكد منه . العازر ، وقد بدأ جسده يفسد ، يعود الى حياته الأرضية حيث كان قد تركها . يعود جسمه المائت الى العمر الذي ترك العالم فيه . وفي الغد ازداد عمره يوماً جديداً وكذلك بعد عام ازداد سنة . ثم مات من جديد . والشهود كثر . **حدث يتأكد منه** ، **من الخارج** ، كل إنسان . لو كان في أيامنا ، لكان المصورون يلاحقونه من كل صوب دون أن يتمكن من التفلت منهم .

بالنسبة الى المسيح ، ليست القضية كقضية العازر . لم يكن احد قد فكر ، ولا اليوم أيضاً نفكر ، أن القائم من الموت قد استعاد حياته السابقة . وانه بعد سنة قد ازداد عمره سنة جديدة . لقد انتصر السيد على الموت إلى الأبد ولن يخضع له مطلقاً فيما بعد . **لم تعد حياته من هذا العالم** . انه قام الى الحياة النهائية التي لا تخضع للنواميس الفيزيائية والكيميائية ، قام الى الحياة الأبدية التي لا تخضع لسلطان الموت ، وان كان قد تفلت من حشرية الفضوليين ، فعلاقته بالعالم حقيقية أكثر من أية علاقة وأوسع وأعمق : بينما بقي العازر أحد سكان بيت عنيا في زمان ومكان محدودين ، أصبح يسوع القائم من الموت جسدياً القريب والمعاصر لجميع الناس في جميع الأمكنة والأزمنة .

للنساء القديسات والرسل ، « ظهر » صباح الفصح وفي الأسابيع اللاحقة طيلة أربعين يوماً رمزياً . فهو إلى الأبد خارج الزمن منذ ساعة موته . هل قام صباح الفصح أو رأساً بعد أن لفظ أنفاسه ؟ لا معنى لهذا السؤال بالنسبة إليه : « اليوم الثالث » لا يعني . حسب

لا شك في أن شيئاً ما قد غيّر هؤلاء الناس (التلاميذ) . يقولون ان ذلك كان التقاؤهم يسوع القائم من الموت . ليس لدينا أقل برهان للتأكد من قولهم .. يمكننا في هذه الحال أن نتأكد من المعنى والنتائج أكثر من الأحداث ذاتها . لكن ذلك ينطبق على احداث تاريخية أخرى غامضة .
نحن هنا في صدد حدث تاريخي أكيد . هو في حياة هؤلاء الناس نتيجة احداث سابقة (يعيدونها في ذكرياتهم حول يسوع) ونقطة انطلاق خلقت سلسلة احداث جديدة سيعرفها العالم عن قريب . إنه جعل منهم رجالاً جدداً . لكنه يدلّ أيضاً على ولادة جماعة جديدة . (دودّ) .

الكتب ، بعد موته بيومين ، بل « في يوم التعازي حيث يقيم الله الموتى » في نهاية الأزمنة . إذ في شخصه وبقيامته ابتدأت الأزمنة الأخيرة للبشر وللكون .

« لذلك كل لقاء به هو ظهور . لذلك أيضاً أعز أصدقائه لم يعرفوا ذاك الذي كانوا معه على المائدة قبل يومين وحتى لما عرفوه ، ظل غريباً : **حيث يريد أن يُرى ، هناك فقط يرونه** ... لذلك أيضاً من الصعب بل من المستحيل على الانجيليين أن يصفوا اللقاءات مع القائم من الموت . فهم يتمتمون فقط عندما يتكلمون عنه ، وعندما يصفونه يقعون في التناقضات الظاهرة . وبالفعل انهم يلتقون بطريقة عجيبة في تأكيداتهم : يمسونه ولا يمسونه في آن ، يتعرفون إليه ولا يتعرفون إليه ، هو هو المصلوب والقائم من الموت وفي ذات الوقت هناك تحوّل تام ، هو هو وفي ذات الوقت هو غير ما كان عليه » (رتزنغر) .

فلنختم هذه النقطة الهامة . قيامة المسيح حدث حقيقي . لكنها ليست حدثاً تاريخياً عادياً . إنها حدث معقد — **سرّ** — يتألف من بعدين لا ينفصلان ، بعد يتخطى التاريخ وبعد تاريخي : **أما الذي يتخطى التاريخ** ، فهو الفعل الذي لا يدرك والذي به يمجد الله يسوع الناصري الذي دفن في قبر . سر « الفصح » هذا حيث يصل يسوع إلى مجد الآب يبدأ ساعة موته على الصليب . لكن حدث القيامة السري هذا يتمتع **ببعد تاريخي** ملازم له : الأثر الملموس الذي حفره ، منذ الفصح ، في تاريخ البشرية ، أي القبر الفارغ والظهورات وتبشير الرسل .

هكذا فالمعرفة الوحيدة التي تلائم هذا الحدث هي معرفة ايمانية لكنها ترتكز الى أدلة تاريخية .

الحدث التاريخي هو إيمان الرسل

بعد النهاية المأساوية على الجلجلة ، كان الرابط الوحيد الذي لا يزال يوحّد بين الرسل هو المشاركة باليأس والخوف من اليهود . (لو ٢١/٢٤ ؛ يو ١٩/٢٠) . لكن بعد قليل جاء التحويل العظيم : فهم يشهدون لقيامة المصلوب بعناد ، لقد صدمهم إذا حدث صاروا له شهوداً بطريقة مفاجئة ، هو حدث الفصح .

إيمان الرسل هذا هو حدث تاريخي صريح . إنكاره هو إنكار وجود الكنيسة . لولا إيمان الرسل الفصحي ، لما كان هناك كنيسة البتة .

وأول حدث علني هو العنصرة ، هذا التجمع اليهودي الذي أخذ يستمع الى بطرس وهو يقول : « ان يسوع حي » . يبدأ إذاً الايمان الفصحي بطريقة علنية يوم العنصرة . لقد تثبتوا منه في هذا اليوم : بعد الفصح بتسعة وأربعين يوماً . فبدت عندئذ الكنيسة كجماعة المؤمنين بيسوع المسيح القائم من الموت . واليوم ، أي بعد ألفي سنة ، ليست غير ذلك . لذلك فبالنسبة الينا ، إنه من الأهمية بمكان أن نرجع دوماً الى شهادة الرسل .

ماذا يقول الشهود ؟

عشرون قرناً انقضت . والكنيسة باقية حية . وكذلك النصوص المقدسة التي تنقلها الينا بأمانة منذ البدء . فمن المفيد والمهم أن نضع قائمة سريعة بهذه الشهادات ابتداء بالأقدم وانتهاء بالتطورات اللاحقة .

الأعمال : « المصلوب قام من الموت »

في كتاب أعمال الرسل نجد أول أعلان للكنيسة الأولى . في صميم الحدث . خمسة نصوص هامة ، خمس عظات تتبع ذات التصميم وحيث ، انطلاقاً من مواقف متباينة ، يقول بطرس وبولس ويوحنا علانية الحقائق الأربع ذاتها :

« المسيح مات	وقـام	ونحن شهود لهذا	توبوا ! »
٢/٢٢ — ٢٣	٢٤ ...	٣٢ ...	٣٦
٣/١٣ — ١٤	١٥	١٥	١٧ ...
٤/١٠	١٠	٢٠	١٢
١٠/٣٩	٤٠	٤١	٤٣
١٣/٢٧ — ٢٩	٣٠	٣١	٣٨ ...

ونحن شهود لكل ما صنع في أرض اليهود وفي أورشليم . فقتلوه معلّقين اياه على خشبة . هذا أقامه الله في اليوم الثالث وأعطاه أن يظهر علانية لا للشعب كلـــه ولكن لشهود اصطفاهم من قبل . أي لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته . وقد أوصانا بأن نكرز للشعب . (أعمال ١٠/٣٩ — ٤٢) .

هذه المستندات هي أقدم ما في الأدب المسيحي . فهي ليست طبعاً من نوع الاختزال أو رؤوس أقلام كتبها السامعون . لكن محتوياتها الشديدة الشبه ولغتها القديمة المليئة بصيغ ارامية تفرض هذه الحقيقة : لم يُعد القديس لوقا تأليف هذه العظات لما دون كتاب أعمال الرسل (حوالي سنة ٨٠) بل قد ترجمت عن مستندات ارامية مكتوبة أو شفوية ، منقولة عن كنيسة العنصرة . فهي تعطينا بأمانة صدى التبشير في أوائل أيام كنيسة أورشليم : المحتويات والعقائد الأساسية معنى ومبنى . وجميع النقاد النزهاء يعترفون اليوم بذلك .

هذا التصميم المشترك للتبشير الأول يختصر إذاً بثلاث نقاط : « يسوع هذا المصلوب — اقامه الله — نحن له شهود » . نتوقف عند أهم ما جاء في اختبار الرسل ، أهم ما في الحدث الذي خلص العالم وأسس الكنيسة ، أهم ما في الإيمان المسيحي يومذاك والى الأبد . عن هذه النواة الأولى سيصدر لاحقاً وبطريقة حماسية عبارات أوسع — تهاليل ، أناشيد ، شهادات ايمان ، ذكريات — **لكن هذا يكوّن كرازة لهذا الموضوع الرئيسي الذي لا ينضب ..**

نسمع من وقت الى آخر بعض مسيحيين متخوفين يتنهدون قائلين : « لقد غيروا لنا الدين ! » ترهات ! ما داموا لم يحذفوا أن يسوع المسيح مات وقام لأجلنا ، فلم يمسوا الجوهر قط . إنما عندما يروح جميع المسيحيين يشهدون بحياتهم للقيامة . يومذاك سوف ينقلب العالم بأسره نحو الفرح والمشاركة والسلام

والرجاء وعدوى الإيمان.. لكن الخوف هو أسهل ؟

القديس بولس : « **أنقل إليكم ما تسلمته** » .

حوالي سنة ٤٥ ، أي بعد موت وقيامة يسوع بخمسة عشر سنة ، بدأوا يدونون في الكنيسة **ذكريات وتعاليم الرسل الشفوية** . وضمت هذه الكتابات الاولى الى **التهاليل والأناشيد وشهادات الإيمان القديمة** لتؤلف معاً أول **مجموعة مستندات مكتوبة** يرجع إليها القديس بولس والانجيليون . فأول نصوص العهد الجديد هي رسائل القديس بولس ، ابتداء من سنة ٥٠ أي بعد صعود يسوع القائم من الموت بعشرين سنة . وأول الأناجيل (مرقس) كتب سنة موت بولس أي سنة ٦٤ . انه لعمل شيّق دراسة رسائل بولس القريبة من الأحداث للحصول على الوثائق المسيحية الأقرب من الأصل والتي استعملها الرسول وذكرها كمراجع .

بما يتعلق بقيامة الرب ، نكتفي بما هو نموذجي . لقد أسس بولس كنيسة كورنثية سنة ٥٠ — ٥١ . وفي ربيع ٥٦ كتب لهذه الكنيسة (١ كو ١٥/ ١ — ٨) :

أذكّركم أيها الأخوة ، بالإنجيل الذي بشّرتكم به.. والذي به تخلصون.. نقلت إليكم أولاً ما تسلّمته أنا : **لقد مات المسيح من أجل خطايانا ، كما جاء في الكتب** . **وظهر للصفا ثم للاثني عشر**. ثم تراءى لخمس مئة أخ مجتمعين وأكثرهم لا يزال حياً وبعضهم قد مات . ثم ظهر ليعقوب ثم لسائر الناس . وأخيراً ، ظهر لي أنا.. » .

« نقلت إليكم » : يتبع بولس تقليداً معيناً ، تحدد في قانون إيمان عادي (النص المكتوب بحرف عريض) قبله الرسول ذاته . متى قبله وأين ؟ في دمشق حين ارتداده حوالي ٣٤ — ٣٥ : بعد قيامة الرب بخمس سنوات !.. وقد تجمد هذا القانون في نص شفوي رسمي : يظهر بطرس باسمه الارامي : الصفا » . ويدعو الرسل

« الاثني عشر » وبولس لا يستعمل هذه التسمية مطلقاً . هنا تنتهي الصيغة : « استلمت ونقلت » . ثم يذكر الشهادات اللاحقة والتي يمكن الرجوع إليها .

لا كتاب الأعمال ولا بولس يصفون القيامة . انهم يؤكدون عليها كحدث فعلي . لا منازعة فيه . لأجله يحيون ويموتون ويعلنون معناه انطلاقاً من الكتاب . شيء واحد يهم الكنيسة الأولى : يسوع قام !

« **إن اعترفت بفمك** ان يسوع هو رب **واذا آمنت في قلبك** ان الله أقامه من بين الأموات . تخلص » (روم ١٠/٩) .

« **إذا كنا نؤمن أن يسوع** مات وقام . هكذا تكون حال الذين ماتوا في يسوع . فالله يضمهم إليه » (١ تسا ٤/١٤) .

الأناجيل : أيها الليل السعيد . وحدك عرفت تلك الساعة ..

تكمل الأناجيل الأربعة رسائل بولس . كتب مرقس سنة ٦٧ أي قبل دمار أورشليم (٧٠) . ولوقا بين ٧٠ و٨٠ . متى اليوناني (انطلاقاً من نواة ارامية أقدم) حوالي ٨٠ . يوحنا في أواخر القرن .

لكنه من الخطأ أن نستند الى تواريخ التدوين النهائي هذه . فالانجيليون كتبوا آنذاك ما كان يبشر به منذ عشرات السنين وقد استعملوا — كما قلنا — **تقاليد ثابتة وقديمة** شفوية وخطية .

ملاحظة ثانية هامة : الكتابات الصادرة عن الرسل والمحفوظة في جوهرها في هذه التقاليد الشفوية والخطية هذه قد استعملها الرسل **لتدوين كرازاتهم الشخصية نظراً الى احتياجات جماعاتهم** . فهم إذاً يختارون من بين التقاليد الصادرة عن شهود عيان . والاطار الذي يضعونها فيه يتنوع وفقاً لكل واحد . ومحاولة تنسيق كل هذا مستحيل وهو يناقض قصد الانجيليين . يمكن الاستنتاج فقط ان هناك ظهورات عديدة حصلت في الجليل واليهودية . إنما يجب أن نفهم

انها إنما نقلت لتبلغ رسالة لا لتصف ما جرى . عظمة الانجيل هي في أنه لم يخبر أي منهم **قصة القيامة** ؛ كما تنشد ليتورجيا ليلة القيامة : «أيها الليل السعيد ، وحدك عرفت تلك الساعة حيث خرج المسيح من الجحيم» ! غياب **قصة القيامة** هذا هو أفضل ضمانة على أن **الانجيل** ليس عمل دجالين . فالدجالون كانوا أغرقونا في التفاصيل . هذا السكوت هو حقاً كلام الله !

القبر الفارغ

لم يكن هناك إذاً من شهود للقيامة . ومع ذلك فقد غيرت التاريخ انطلاقاً من تبشير الرسل واستناداً الى القبر الفارغ والظهورات صباح الفصح ، أي في اليوم الثالث بعد موته ، ذهبوا الى قبر يسوع .. ووجدوا القبر فارغاً . هذا هو الخبر الوحيد المشترك . بين الانجيليين الأربعة .

يجب ألا نعطي هذا القبر الفارغ معنى دفاعي : «لقد قام وبإمكانكم التحقق من ذلك : القبر فارغ !» . فبإمكان أول إنسان أن يجيبكم : «لقد سرقوا جسده» . أليس هذا الشرح هو الوحيد الذي فكرت فيه هذه المجدلية الذكية ؟

فالقبر الفارغ لا يبرهن عن شيء ولا يشرح شيئاً . بل يدل على أن هناك سراً : «ليس هو هنا» (متى ٦/٢٨) وعلى تدخل «ملائكي» . لكن التدخل «الملائكي» حدث روحي ، انه كلمة لفظت أمام القبر الفارغ ليرى الناس فيه علامة — أو برهاناً — على القيامة . **وهذه العلامة** غير المباشرة لا تعطي كل محتواها الا في ضوء الظهورات .

لو لم يكن هناك سوى القبر الفارغ ، لما كان إيمان فصحي أبداً . هناك إيمان فصحي بسبب الظهورات . ويجب أن نزيد : لو لم يكن القبر فارغاً لما كانت الظهورات قابلة التصديق .

الظهورات

فإذا يسوع لاقاهنّ وقال : سلام لكنّ. فدنون وأمسكن قدميه وسجدن له . حينئذ قال لهن يسوع : لا تخفن . اذهبن وقلن لاخوتي ليذهبوا الى الجليل وهناك يرونني . (متى ٢٨/ ٩ — ١٠) .

وقف يسوع في وسطهم وقال لهم : السلام لكم. انا هو لا تخافوا . فاضطربوا وخافوا وظنوه خيالاً . فقال لهم : ما بالكم مرتعدين ولماذا ثارت الأوهام في قلوبكم ؟ أنظروا يديّ ورجلي . إني أنا هو . جسّوني وانظروا فإنّ الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لي .
وعند قوله ذلك أراهم يديه ورجليه . وإذ كانوا غير مصدقين بعد من الفرح ومتعجبين . قال : أعندكم طعام ؟ فأعطوه قطعة من سمك مشوي وشهد عسل . فأخذ وأكل أمامهم . (لو ٢٤/ ٣٦ —٤٣) .

صباح الفصح إذا كان هناك المفاجأة الكبرى : القبر الفارغ . ووسط هذا التساؤل الذي قطع عليهم أنفاسهم كان هناك أيضاً حضوره الحي : صرخة المجدلية في البستان ، وقد سمعت مجدداً صوتاً يناديها باسمها ، وهي تقول : « ربي ! » صرخة بطرس ويوحنا وصرخة الرسل في العلية ، صرخة تلميذي عماوس اللذان عرفاه عند كسر الخبز فرجعا مسرعين الى أورشليم ، صرخة الآخرين الذين سيؤكدون طيلة أربعين يوماً ، « هذا هو ! لقد رأينا الرب ! » .

« هذا هو » . لا ليس روحاً غامضاً ، منزهاً عن الجسد ، ليس شبحاً . بل هو ذاته حي . المريمات يقبلن رجليه . والرسل ، وقد ارتعبوا ، لا يصدقون أعينهم : « ظنوا أنهم يرون خيالاً » .

لكن يسوع يهديهم الى الحق : « انظروا يدي ورجلي . هذا أنا ! المسوني واعلموا أن ليس للروح لحم ولا عظام كما ترون لي : (لو ٢٤/ ٣٧ ..) . وهو يدعو توما الى أن يتفحص جروحاته (يو ٢٠/٢٧) . ويشاركهم طعامهم (٢١/١٠ ..) . هو حقاً هنا بحقيقته المنظورة .

لكنه قد تغير عن الماضي . في الأمس كان يأتي ويرونه . وحتى لا يروه . كان عليه أن يمضي . أما الآن فهو « **يظهر** » فجأة ، يحضر أمامهم دون انتظار . لا يأتي ولا يمضي . **بل يظهر ويختفي فجأة** دون أن يغير محله . لا يمر ضرورة بالأبواب المفتوحة أو المغلقة : هو دائماً **معهم** . هو دوماً معنا حتى ساعة لا نراه . القائم من الموت هو الخليقة الجديدة بيننا ، هو العالم الجديد . ظهوراته دليل على **حضوره الدائم** . فمن كان منتبهاً الى كلامه ، إلى كسر الخبز ، فذاك يعرفه . لكن **يسوع القائم من الموت هو بحد ذاته غير منظور بالنسبة الى عيون الناس** .

تبرز في الأناجيل حقيقة أخرى : القيامة هي نقيض الحدث المولود من إيمان الرسل . فقد فرضت ذاتها عليهم من **الخارج** واقنعتهم **رغم عدم ايمانهم** . علينا أن نقول هذا تجاه الشروح النزوية التي تعلم ان

الظهور هو «حدث ايماني» .

أولاً لأن «الحدث الايماني» لا أرى ما معناه . ثم فلنقرأ النصوص بنزاهة .. لما حدّثت النسوة الرسل عن القبر الفارغ وعن أقوال الملاك ، بدا لهم هذا الكلام ضرباً من الهذيان ولم يصدقوهن» . فظهر يسوع شخصياً في وسطهم «فلم يصدقوا وظلوا متعجبين» (لو ٢٤/١١ — ٤١) . ولم يزل توما الى اليوم مشهوراً بعدم ايمانه : وحده الوضوح الحسي للحدث أجبره على الإيمان . أما بولس على طريق دمشق فإنه يتمتع بكل شيء ما عدا الإيمان بالرب لما طرحه الرب أرضاً : كان جاحداً يحارب الرب ، ذاهباً في مهمة اضطهاد المؤمنين .. **فيسوع فرض حقيقة قيامته على أشخاص اختارهم هو ولم يكونوا مؤمنين بل كانوا ، بعد أن رأوه أمامهم ، يتكوّن بالواقع الصريح** (متى ٢٨/١٧ ، مر ١٦/١٤) .

الشهود

بالنسبة الى الظهورات ، تبقى مشكلة التناقض الظاهر . ذلك أنها ، ونشدد على ذلك ، كرازات وليس تحقيقات علمية . وداخل النوع الكرازي ، تعود الى صنفين متباينين . فمن الأهمية بمكان التمييز بين «الظهورات الخاصة» و«الظهورات للأحد عشر مع المهمة الرسولية» .

أخيراً تراءى للأحد عشر وهم متكئون وبكّتهم لعدم ايمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدّقوا الذين رأوه قد قام وقال لهم : اذهبوا الى العالم أجمع واكرزوا ببشارتي في المسكونة كلها .. وبعد أن كلّمهم الرب يسوع ارتفع الى السماء وجلس عن يمين الله . فخرج أولئك وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبّت الكلام بالآيات التي كانت ترافقه . (مر ١٦/١٤ — ١٥ ، ١٩ — ٢٠) .

* **الظهورات الخاصة** موجهة الى أشخاص ثانويين : النساء التقيات (متى ومرقس) ، مريم المجدلية (يوحنا) وتلميذي عمّاوس (لوقا ومرقس) . وفي كل مرة **الحدث فريد** ومحدد وله ظروفه ؛ نعلم أين جرى الحدث — في القبر ، في البستان ، على طريق عماوس — وأي كلام قيل . فالمقصود اختبار فريد قام به شخص ، مع رسالة معينة . وبما أن كلا من هذه الأحداث **أخبر عنه** أحد الانجيليين ، فمن الأفضل تجنب المقابلة والتناقض .

* أما في **الظهورات للأحد عشر** . فالنوع الأدبي يختلف تماماً .

كل إنجيل يخبر ظهوراً واحداً للأحد عشر : على جبل في الجليل (متى ١٦/٢٨..) ، في العلية ، إذا في أورشليم ليلة الفصح (لو ٣٦/٢٤.. ؛ يو ١٩/٢٠.. حيث الظهور ، وقد تجدد الأحد اللاحق ، يؤلف كلا واحداً) وقت الطعام دون تحديد المكان والزمان (مر ١٤/١٦..) . في مرقس ومتى ، يتفق هذا الظهور الوحيد مع عيد الصعود .

يزاد على هذه التصريحات المتناقضة ظاهرا تصريحات أخرى . في مرقس ، لم يصدق الأحد عشر تلميذي عماوس ؛ في لوقا ، هم الذين قالوا أولاً : «لقد قام الرب حقاً وظهر لسمعان» . في متى ومرقس ، كان الملاك قد قال : سيسبقكم إلى الجليل وهناك ترونه» . في لوقا ، الاحد عشر موجودون في أورشليم حيث تبلغوا هذا الأمر . «أبقوا في المدينة الى يوم العنصرة» . أفي الجليل أم في أورشليم؟... يوحنا يعطي الاثنين حقهما : يظهر يسوع في الجليل وفي أورشليم... أهذا من قبيل الفوضى ؟ كلا . بل نوع أدبي خاص جداً . من الواضح أن الأحد عشر (لم يعد يهوذا بينهم) كان الرب ذاته قد اختارهم ليكونوا ، رسمياً وبطريقة سامية ، «شهوداً له أمام الشعوب» (أعمال ٣١/١٣) . فلنقرأ كتاب الأعمال ١٥/١.. :

فقام بطرس في وسط الأخوة وقال : «ينبغي أن يعيّن واحد من الرجال الذين اجتمعوا معنا في كل الزمان الذي فيه دخل وخرج الرب يسوع بيننا منذ معمودية يوحنا الى اليوم الذي فيه ارتفع عنا ليكون شاهداً معنا بقيامته . فقدّموا اثنين : يوسف المسمّى برسابا الملقّب البار ومتّيا . وصلّوا هكذا : أيها الرب ، العارف قلوب الجميع ، أظهر أي هذين اخترت ، لكي يستخلف في هذه الخدمة والرسالة التي سقط عنها يهوذا ليذهب الى موضعه . ثم ألقوا القرعة بينهما فوقعت على متّيا فأحصي مع الرسل الأحد عشر . (أعمال ١٥/١ . ٢١ — ٢٦) .

المقصود «وظيفة» «خدمة رسولية» حيث يجب أن يحل محل يهوذا رجل يملأ شروطاً فريدة هي شروط «رفيق حياة يسوع العلنية كلها» و«شاهد القيامة» . رسالة الأحد عشر هي **من رتبة اسمى وجماعية** .

يمكن القول أن الانجيليين أخذوا عن التقليد ومن ذكريات يوحنا الخاصة شهادة الظهورات للأحد عشر منذ مساء الفصح حتى الصعود ، في أورشليم كما في الجليل : وهي موزعة على أسابيع . لكن نيتهم لم تكن سرد قصة الظهورات . ما يبتغون هي **كرازة عقائدية حول اختبار الرسل الفصحي ورسالتهم الى العالم** .. **فلا** يجب ان تلهينا

القصة عن الذهاب الى الرسالة ..

بولس (١كو ١٥/٥) ولوقا (٢٤/٣٤) يذكران أولاً ظهوراً لبطرس منفرداً . وكان يسوع قد قال له في العشاء الأخير : «وأنت عندما ترجع ثبّت أخوتك» (لو ٢٢/ ٣٢) . لقد كان إيمان بطرس نقطة انطلاق إيمان الأحد عشر . إذا كان بطرس أساس الكنيسة وهو كذلك قبل كل شيء بإيمانه الفصحي . وهذا هو معنى «أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» (متى ١٦/١٨) ومعنى التوسع في الموضوع ، عندما ظهر على شاطىء البحيرة ، حول مهمة بطرس الراعوية (يو ٢١/ ١٥..) .

لما كانوا مجتمعين مع بطرس ، اختبر الأحد عشر الشك ثم عرفوا المسيح وقبلوا رسالتهم . هذا ما أراد أن يقول لنا الرسل وهذا فقط . وصف الظهورات الخاصة كان اخبارياً . والعرض الشامل للظهورات للأحد عشر كان عقائدياً : ليس هناك عرض للأحداث معين ، بل صورة للقاء **الطويل** بين الرب ورسله . لقاء مكرر حيث تبرز نقاط ثلاث : **الشك ثم التعرف ثم الرسالة** الشاملة . لقاء يبدأ في الجليل وينتهي في أورشليم حيث نجدهم يوم الصعود فالعنصرة . **هكذا بنيت الكنيسة . بنيت على بطرس . بنيت على إيمان الاثني عشر مجتمعين . بنيت أولاً على حدث القيامة المتين** . وان جملائيل لعلى حق : «إذا كان مشروعهم وعملهم من الله ، فليس بامكانكم هدمه» (أعمال ٥/٣٩) .

أيها المائتون ، إنه لكم جميعاً ...

لكم ، أيها المؤمنون وغير المؤمنين ، بما أنكم للموت ؛ فليس هذا الحدث أمراً ثانوياً . لا تمروا بقيامة المسيح وأنتم شاردوا الأذهان ! يوم الجمعة العظيمة قتل يسوع الموت بموته . قتله فيه

وفينا ، فيه ولأجلنا . لقد قام وسوف نقوم من بعده ، مثله ، وبواسطته .

هذه هي البشرى السارة !

اذ — لا يثقل على طبع الكبار ومن هم أكبر من الكبار ، مع الهاتف الأحمر أو بدونه — ليس على الأرض سوى سلطتين : سلطة الموت وسلطة يسوع المسيح .

مملكة الموت

ليس بمقدور علماء الحياة شيء .

هل هذا تقدم ان نطيل حياة الإنسان وسط حضارة يصبح المرء فيها غير نافع في عمر الستين ؟

أليس هذا اطالة للعذاب ، على نار خفيفة ؟
لاطالة زمن اللذة !
لاطالة زمن الخوف ..

هذه الاعلانات السخيفة على الراديو والتلفزيون وفي الصحف ، لها طعم الموت البشع ! «سحنتك يا سيدتي ! وجمالك ! ونضارتك ! وهندامك ! وجاذبيتك !..» وبكلمة : «شبابك !» ..

أيها المهرج ! أيها المخادع ، وراء الزينة والمساحيق والمشدات ، هو الموت يتأكلك ، يهدمك ، ينشّف عروقك . السباق مع الزمن ضد الموت دليل على الموت .. هذا السباق ستخسرينه يا سيدتي ! وانك تخسره كل دقيقة تدريجياً يا سيدي !

هذه الحضارة ، حضارة «جسد الموت هذا» تخلق بالجملة البورجوازي الصغير النحيل : إنه مضمون ، هواؤه مكيّف ، تركيبه محدد ، وزنه مدروس ، غذاؤه معيّن ..

أيتها الحشرات !... أيتها الأصداف السريعة العطب التي لا هم لها سوى الخوف من المغامرة .. يقول عنهم فرويد : « تصبح حياتهم فارغة جوفاء كالمغازلة الأميركية التي نعلم سلفاً أنها لن تنتهي إلى شيء » . عذراً ! إلى الموت !.. ثم قد يسبق الشيخوخة وقد يسبق الشباب موت يسمونه سرطان أو زلال في الدم (هذا السرطان الآخر) .

إذا ما استعرض أحد الهواة مصلاً ، ترانا نحمل إليه الأولاد — مساكين هؤلاء الأولاد ! — الذين سيموتون . وان وجدوا يوماً الدواء العجائبي ، فإنهم يخلقون أمواتاً لم ينفذ فيهم بعد حكم الاعدام .

فالإنسان قوي عندما يخترع وسائل لقتل أربع مليارات من البشر بضربة واحدة !.. وعندما يلوّث الهواء بهذا النوع من النشاط الاشعاعي الذي يسبب الزلال في الدم !.. فالموت والخطيئة عقدا ، منذ جنة عدن ، زواجاً لا تنفصم عراه ! وليس للإنسان من فاعلية إلا في سبيل الموت .

لقد غُلب الموت

فقال لها يسوع : «أنا القيامة والحياة . من آمن بي وان مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بي ، لن يموت الى الأبد» (يو ١١/ ٢٥ — ٢٦) .

أين غلبتك يا موت ، واين شوكتك يا جحيم ؟ الشكر لله الذي أولانا الغلبة بربنا يسوع المسيح . (١كو ١٥/٥٥ — ٥٧) .

لكن الله يحيي ، بيسوع المسيح ! فقد غلب الموت ونحن شهود لذلك . هو نصر حقيقي ونهائي وشامل بيسوع المسيح . لقد قام يسوع المسيح ونحن شهود لذلك ، نحن المسيحيين ، نحن الكنيسة .

ولقد أعلن ذلك هو في انجيله ، خمس مرات على الأقل .. مدة أربعين يوماً ، رآه الأخوة وسمعوه .. أكثر من خمس مئة أخ ! هذا الحدث المثير هو الذي جمعهم حول المسيح الحي . هذا الحدث قد وحّد في تجمّع لا يزال ينمو منذ الفي سنة : الجماعة ، الكنيسة .

الكنيسة تحمل الى العالم ، وعلى الكنيسة أن تصرخ في العالم هذا الحدث التي هي شاهد له : **لقد غلب المسيح موت العالم** !

ليس ما يجمع أبناء الكنيسة ثقافة — وان غربية ! ولا لغة ، وان لاتينية . ولا فلسفة وان تومائية . ولا شيء آخر سوى الاله — الإنسان ، يسوع — وهذا **حدث** كان ميتاً وهو الآن حي . ليجعل جميع الذين يرفضون الإيمان به يحيون إلى الأبد .

عندهم كما عندكم

هذه هي البشرى التي ينتظرها العالم .
كل العالم .. جميع الناس .

ثقافتكم أيها الغربيون — طريقة معيشتكم أيها الأميركيون — فنّ الحياة عندكم أيها البوذيون — صواريخكم أيها الروس — فلسفتكم أيها اليونانيون — حقوقكم أيها الرومان ... لم يعرفها يوماً ولا يعرفها اليوم ولن يعرفها غداً ثلاثة أرباع العالم . فأنتم لستم رسالة **الى العالم أجمع** . كثيرون لا يأبهون لأفكاركم : لديهم أفكارهم — ولا لمشروباتكم أو حضارتكم أو مأكولاتكم ولا لعاداتكم أو لغتكم أو تصوفكم : عندهم كل هذا .

لديهم ما يملكون وقد تكيفوا مع ما لديهم .
وما عندهم يوازي ما عندكم . على كل حال ، ما عندكم لن يمنعهم من أن يموتوا . إذاً ...
إذاً لماذا ؟ دعوهم بسلام ...

للعالم أجمع

أما نحن المسيحيون ، فإننا نعرف حدثاً يهم الجميع . لأنه يناقض موت الجميع : يسوع المسيح غلب موت البشر ! ليس لإيماننا صبغة ايديولوجية قومية أو غربية تمنعنا الفطنة عن تصديرها . بل إيماننا حدث ذو مرمى عالمي .

عندما يجد أحد الباحثين دواء للسرطان ، لن يكون مصله

بضاعة استعمارية أو شرقية أو غربية . بل سيكون دواء عالمياً . ستتوجه اليه عيون الشعوب كلها .

وهكذا ، وبما يفوق كل تصور ، جميع الذين كانوا خاضعين للموت ، يعنيهم هذا الحدث وهو **أن الموت باد** . وهذا حدث حقيقي : الموت باد : «الحق أقول لكم : من يحفظ كلمتي ، لن يذوق الموت أبداً» (يو ٨/٥١) .

إذا ما بلغ مسامع الناس أن الموت غلب ، لا تعود المخاطرة مخاطرة ولا التضحية انتحاراً ولا الشيخوخة كارثة . ولن تبقى الحياة سجناً بانتظار المقصلة .

ليأت الموت : فالإنسان يترك هذه الحياة .

«كالعصفور يترك ظله عندما يطير» .

١٣

وصعد إلى السماء
وجلس عن يمين الله الآب
الضابط الكل

صعود الرب

الصعود . تذكرنا الكلمة بالجبل الأبيض أو الافرست أو قمة لينين.. وكل أدوات متسلقي الجبال : الأحذية المسننة والكيس والمعول والكلاّبات والحبال والرزّات .. والتعب وهتاف الفرح في الأعالي .. الصعود. تعبر الصورة بكلمات متنوعة عن توق الإنسان الأساسي : ترقي الشعوب المتخلفة ، ارتفاع مستوى الحياة ، ارتقاء السلم الاجتماعي ، الثقة المبهجة للذي ينال مقاماً رفيعاً بالنسبة إلى وظيفته أو إلى زملائه ، تهلل من يرى ذهبه يرتفع أو دولاراته أو اسهمه أو سعر الصرف أو شعبيته. هذه العبارات الرمزية ، هذا التحرك العمودي ، لا يغير أحداً . نتلاعب بالصور كلاعب الارغن يلعب لباخ بواسطة أنابيبه . فالأنابيب ليست سوى أنابيب كما أن الصور ليست سوى صور .

مع ذلك فعندما نتكلم عن ايماننا المسيحي ، قد يكون من الصعب الاّ يضيع في الصور. هذا يصح تماماً في سر صعود الرب .

لا فوق ولا تحت

الكلام عن « النزول الى الجحيم » أو « الصعود الى السماء » هو أن نعتبر ذواتنا في كون ثلاثي الأبعاد ، هوكون اختبارنا العفوي حيث نعيش يومياً ، من القبو الى الاهراء . والكتاب المقدس الذي يتكلم مثل كل الناس ، لأنه موجه الى كل الناس ، يستعمل طبعاً هذه الطريقة العامة للتعبير. فبالنسبة الى الكتاب ، السماء « فوق » هي سكنى الألوهة. والأرض هي موطىء قدميها وهي سكنى البشر. والجحيم — المناطق السفلى — هي مثوى الأموات والشياطين . ولكي يزور البشر ، ينزل الله إذا من السماء ثم يصعد راجعاً . والغيوم

وخرج يعقوب من بئر سبع ومضى إلى حاران فصادف موضعاً بات فيه إذ غابت الشمس . فأخذ بعض حجارة الموضع فوضعه تحت رأسه

هي عربته . هذه الصورة لعالم مثلث الطبقات والتي تتناسب واختبارنا المادي اليومي ، قد تركناها نهائياً كنظرة الى العالم والكائنات والله . لكننا لا نزال نستعمل صورها في لغتنا اليومية إنما دون أن نخدع بها .

ونام في ذلك المكان . فرأى حلماً كـأنّ سلمّا منتصبة على الأرض ورأسهـا الى السماء وملائكـة الله تصعـد وتنزل عليهـا . (تك ١٠/٢٨ — ١٢) .

فنحن نعلم حقاً ان لا وجود للطبقات . وفكرة « الفوق » و« التحت » هي نسبية نظراً الى موقع الناظر . إنما ليس لها أية قيمة بحد ذاتها . افريقيا الشمالية هي في الجنوب أكثر من جنوبي فرنسا . اڤينيون ، بالنسبة الى أهالي مرسيليا ، هي في الشمال . الطابق العاشر في برج مونبارناس هو « تحت » بالنسبة الى كاتبة الدكتيلو العاملة على علو ١٥٠ متراً « فوقه » .

إذاً وبما أنه لا توجد نقطة استدلال مطلقة نستند إليها لدراية مواقع الكون ، فلا يمكن الكلام عن « فوق » و« تحت » و« يمين » و« شمال » . بالنسبة الى الكون الكامل ، فليس الله « تحت » ولا « فوق » . وكـذلك السماء . لو كان مسيح الصعود يعيش في المتقاطرات ، لكان الرسل رأوه يذهب نحو « التحت » ... المعذرة إذا شددت على هذه القضية — بالنسبة الى أبعاد الانجيل الثلاثة — الأرض وما فوقها وما تحتها — نقدر أن نحدد فقط الأرض جغرافياً : الأرض حيث تجسد الله ومشى وعمل والتقى الناس ، الأرض حيث مات مصلوباً .

والأبعاد الأخرى حيث « ينزل ويصعد » هي أبعاد **روحية** : « أعماق » الخطيئة والموت والموتى — أو « أعالي » وتسامي اللقاء بالله . فالجحيم في هذه الأعماق والسماء في هذه الأعالي . **ليسا إذاً أماكن بل حالات بالنسبة إلى الله ، الله الموجود في كل مكان وما وراء كل شيء ...**

قضية صعود الرب فقط انجيلا مرقس ولوقا يذكران حدث صعود يسوع المنظور

(على كل حال ، إن خاتمة مرقس زيدت مؤخراً ، كما يبدو) : « وان الرب يسوع ، بعد أن كلمهم ، رفع الى السماء وجلس عن يمين الله » (مر ١٦/١٩) .

« فرفع يديه وباركهم . وبينما كان يباركهم انفصل عنهم ورفع إلى السماء » (لو ٢٤/٥١) .

حسب مرقس ، جرى هذا الحدث مساء أحد الفصح . وفي لوقا لا نلمح أي فاصل زمني بين يوم الفصح ويوم الصعود : مساء الفصح عاد التلميذان من عماوس واجتمعا بالأحد عشر . فظهر لهم يسوع في العلية وأظهر لهم يديه وأكل معهم وأرسلهم للتبشير ثم أخذهم صوب بيت عنيا ورفع الى السماء . كل هذا جرى في اليوم الأول للفصح .

والحال أن القديس لوقا ذاته ، في سفر أعمال الرسل (١/٣) ، يقول ان الصعود حدث بعد الفصح بأربعين يوماً . هذا الخبر أصبح مألوفاً لدينا .

بعد آلامه وطيلة أربعين يوماً ظهر يسوع حياً لتلاميذه الذين «كان قد اختارهم» وبرهن لهم بطرق عدة عن قيامته ، «ظاهراً أمامهم» ليعطيهم تعليماته ويكلمهم عن ملكوت الله» . وبعد آخر حديث على جبل الزيتون «ارتفع في الجو أمام عيونهم واخفته غمامة عن عيونهم» . وبينما كانوا هناك وعيونهم شاخصة الى السماء ، ظهر لهم رسولان من السماء وقالا لهم : «لماذا تنظرون هكذا الى السماء ؟ فيسوع هذا الذي رفع الى السماء سيرجع هكذا : كما رأيتموه يذهب» . إذاً ؟ هل حدث الصعود يوم الفصح أم بعد أربعين يوماً ؟... كيف نوفق بين لوقا الإنجيلي ولوقا مؤلف أعمال الرسل ؟ أي تاريخ نختار ؟

زمنان وسرّ واحد

يجب أن « نختار كل شيء » . لأن واقع السر يوفق تماماً بين هذين التاريخين : إذ ليسا على ذات الصعيد .

متى ومرقس وبعمق أكثر بولس ويوحنا يحددان « تمجيد » الرب يوم الفصح بالذات . وعلى غرارهم فإن اللاهوتيين المسيحيين الأولين كانوا يعتبرون القيامة والصعود حدثاً واحداً . هذا هو ، في الواقع ، الحل الوحيد المناسب . بعد أن قام يسوع من الموت ، لم يعش حياة متشرد لا يدري أين يقيم : لم ينتظر أربعين يوماً ، في إحدى مغاور أورشليم ، ريثما يفتح له باب السماء !.. منذ البرهة التي خرج فيها من الموت دخل الحياة وانضم الى أبيه في المجد .

فما هو إذاً مصير الصعود على جبل الزيتون بعد أربعين يوماً ؟ هناك حدثان واقعيان منسجمان تماماً .

حدثان يتعلقان بسر المسيح ذاته لكن كلا منهما ينظر إليه من زاوية مختلفة — **من جهة هناك السر في عمقه : المجيء الأول غير المنظور** لابن الإنسان القائم من الموت في عالم المجد الالهي في وقت القيامة بالذات . **ومن جهة أخرى الذهاب الأخير المنظور** للمسيح الممجد الذي بعد أن قاد خطوات الكنيسة الأولى مدة أربعين يوماً انسحب بحضوره الحسي وسلمها الرسالة . بعد قيامته أي تمجيده في السماء يوم الفصح ، تنازل يسوع ونزل — نعتذر عن استعمال هذا الكلام المكاني — عدة مرات طيلة زمن الظهورات ليعطي « رسله المختارين » براهين عن حياته وتوجيهات حول ملكوته . يتكلم لوقا عن أربعين يوماً ، عدد بلا كسور ، رمزي ، لا داعي لفهمه حرفياً . لكن منذ قيامته ، كان يسوع « عند أبيه » ممجداً تمجيداً كاملاً .

من الواضح أن « ارتفاع » ، « انتقال » القائم من القبر في العالم الالهي هو النقطة الأساسية في السر : التي بها يخلص العالم . أجازته المنظورة خارج هذه الأرض نقطة ثانوية لا ضرورة لها للخلاص ولا

لإيمان الرسل . **هذا ما يشرح ان التقليد الأول — بولس ويوحنا — يشدد كثيراً على التأكيد الأساسي أي تمجيد المسيح في السماء** وليس على ذهابه الذي رآه بعض الشهود . وحده لوقا ، لوقا المؤرخ ، رأى من المفيد نقل هذا الاختبار الحسي الذي استفاد منه هؤلاء الشهود .

زمن الكنيسة

حينئذ رجعوا الى أورشليم من الجبل المدعو جبل الزيتون الذي هو بقرب أورشليم على مسافة سفر سبت . ولما دخلوا صعدوا الى العليّة التي كانوا مقيمين فيها بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس وفيليبس وتوما وبرتلماوس ومتى ويعقوب بن حلفى وسمعان الغيور ويهوذا أخو يعقوب . هؤلاء كلهم كانوا مواظبين على الصلاة بنفس واحدة مع النساء ومريم أم يسوع ومع أخوته . (اعمال ١/١٢ — ١٤) .

بعد هذه الأيام الأربعين من العيش معهم ، إذا في إحدى الأمسيات على الطريق بين بيت عنيا وجبل الزيتون ، ترك يسوع تلاميذه بعد أن أبلغهم عن « ذهابه » : « بعد أيام قليلة ستعتمدون بالروح القدس .. فتقبلون قوته وتكونون لي شهوداً .. الى أقاصي الأرض » :

ثم رفع المسيح .. لا يصف لوقا مشهداً ساطعاً : يسوع يصعد في النور وفي ثياب التجلي البيضاء وسط هتافات وسجود الملائكة .. بينما دخول الملك المبهج في مجده كان يتطلب أزهى الألوان ... ذاك أن لوقا لم يفكر مطلقاً بوصف هذا الانتصار ، وذلك لسببين : الأول أنهم لم يروا هذا الانتصار . والثاني أن هذا الانتصار لم يكن يرى يومئذ لأنه حدث يوم الفصح . يذكّر لوقا فقط بمشهد الوداع الأخير والذهاب الى الرسالة . بكل رزانة اكتفى بأن نبّه الى علامة مأخوذة من العهد القديم وهي تعني أن شخصاً أخذ في المجد في عالم الله : الغيوم . فالغيوم هي عربة الكتاب المقدس للذهاب الى سماء الله . للدلالة على أن يسوع ذهب من الأرض الى السماء . قال لوقا أنه دخل في سحابة . هناك رسولان يشرحان المشهد لاهوتياً : لقد ذهب . فسوف لن تروه بينكم وهو سيعود في آخر الأزمنة . بانتظار عودته ، لديكم أشياء تعملونها وهذا أفضل من أن تبقوا بطالين .. فلا قيمة كبيرة للتفاصيل المادية : يعطينا لوقا تعليماً لاهوتياً وليس تحقيقاً . لقد ترك يسوع رسله نهائياً ، بمعنى أن ظهوراته الحسية للكنيسة قد انتهت . **تركهم دون أن يذهب** لأنه سيرسل الروح . لكنه لن يرجع حيّاً قبل عودته الأخيرة « باروسيا parousia » .

parousia هي أول زيارات الملك الى مدن مملكته الكبرى .. بالنسبة إلى القديس بولس واللاهوت ، هي عودة المسيح الممجدة في آخر الأزمنة «ليدين الأحياء والأموات») . في parousia «**سيعود كما رأيتموه ذاهباً**» كيف ؟ «في سحابة» (لو ٢١/٢٧) . سحابة الصعود ، سحابة المسيح الممجد تفتتح عهد الكنيسة ، هذا العهد سوف يختتم بسحابة parousia — السحابة النهائية — سحابة عودته المجيدة . **بين السحابتين يمتد زمن الكنيسة** . هل من داع للاعادة : هذه «السحابة» لم يكن لها أية علاقة بالرصد الجوي . هي سحابة لاهوتية ، رمز كتابي يشرح اصطلاحاً حضور الله .

وحينئذ يشاهدون ابن البشر آتياً على السحاب بقوة وجلال عظيمين . وحينئذ يرسل ملائكته ويجمع مختاريه من الرياح الأربع من أقاصي الأرض الى أقاصي السماء . (مر ١٣/ ٢٦ — ٢٧) .

ولأنه يفتتح زمن الكنيسة ، فإن هذا الصعود — الذهاب لم يوصف في الأناجيل بل في أعمال الرسل ، كتاب الكنيسة الأولى . فقد انتهى فصل من تاريخ الخلاص : زمن المسيح يسوع شخصياً على أرضنا . وابتدأ فصل جديد : زمن الروح القدس شخصياً الذي سيستولي على الكنيسة يوم العنصرة ، زمن الكنيسة . لم يصعد الرب الى السماء ، إلا ليكون حاضراً أكثر ولكي يعمل بفعالية أكبر ولكن بواسطة روحه .

يجب ألا يحجب الصعود التاريخي الصعود السري

هذا ما يجب فهمه حول الصعود «التاريخي» على جبل الزيتون ، هذا الصعود الذي تعيّد له الكنيسة طقسياً بين الفصح والعنصرة . مهما كانت أهميته ، فهو ليس سوى اظهار سطحي للصعود «السري» . فهو يرتكز عليه أساسياً وفي العمق : أي «الصعود بمجد الآب» ، صعود ابن الإنسان المائت والقائم من الموت لأجلنا ، سر الفصح .

«فعندما نقول إذا ونؤمن مع الكنيسة بأن المسيح الممجد صعد الى السماء حيث يمكث قرب أبيه ، فنحن نفهم بذلك انه دخل الى

الأبد عالم الروح ، العالم الجديد ، النهائي الذي هو أول خلية له ، هذا العالم الذي لا تدركه حواسنا ولا مخيلتنا . ولكنه حقيقي للغاية وأكثر من عالمنا الحالي . ونحن نعرف ، مع جمهور الشهود المسيحيين القدامى ، انه دشّن هذا العالم الجديد منذ يوم قيامته لما انتزعه الروح من القبر ليرتفع الى أبيه » . (بيار بنوا) .

يجب أن يرتفع ابن الإنسان

إن كنتم قد قمتم مع المسيح ، فابتغوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله . افطنوا لما هو فوق لا لما هو على الأرض.
فإنّكم قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله . ومتى ظهر المسيح الذي هو حياتنا فأنتم أيضاً تظهرون حينئذ معه في المجد . (كولسي ١/٣ — ٤) .

لقد فهمنا : عندما يتوجه الله ذاته إلى الإنسان ، فهو لا يقدر أن يقول كل شيء في وقت واحد : كما تجزىء الام طعام طفلها الى لقمات صغار ، كما يبدأ الأستاذ فيحلل الى عناصر بسيطة التمرين الصعب الذي يجب أن يتمه التلاميذ ، هكذا يأخذ المعلم الالهي وقته **ليظهر على مراحل** تمجيداً حدث بكامله وقت موته ؛ قيامة ، بشارة سارة للأموات ، صعود نحو الآب . رأوه مات يوم الجمعة العظيمة ، راحة السبت حافظت على سر القبر الفارغ . وفي اليوم الثالث تحققوا من اختفاء جثمانه . انه يقول للمجدلية : «لم أصعد بعد إلى أبي» (في رحلة نهائية) لأنه ظهر حقاً لذويه طيلة ما يقارب الأربعين يوماً . وأخيراً ودّع الأرض وارتفع في سحابة الهية .

رسامونا الغربيون استلهموا بطيبة خاطر هذا الاستحضار الموزع على مراحل ، للسر الفصحي : فقد صوروا اما لوحات عن القيامة حيث يقوم المسيح من القبر أمام الحراس «المندهشين» . إما لوحات للصعود في سحابة الهية . أما في الشرق ، فعلى العكس ، انهم يرونه ينهض — ليس من القبر — بل من الجحيم : انه يكسر المخالها ويمشي فوق أبوابها المخلعة جاذباً وراءه البشرية المفتداة نحو مجد الآب . فسر الفصح يرجع هكذا الى الحدث الواحد ، حدث **الساعة** الذي يحقق خلاص العالم : الموت — القيامة — النزول الى الجحيم — الصعود — الجلوس عن يمين الآب .

رفعه الله

لقد اعتدنا ، على غرار رسامينا ، أن نحلل السر الفصحي الى مراحل « قيامة » ثم « صعود » . بينما يفضل العهد الجديد عدم الفصل بين القيامة والصعود .

« يسوع ... المنحدر في الجسد من سلالة داود جعل ابن الله في القوة بقيامته من بين الأموات من حيث انه روح القداسة » (روم ٣/١ ...) هكذا يبدأ القديس بولس رسالته الى الرومانيين . إننا نجد هنا كل شيء : إنسان من لحم ، يسوع ، بواسطة قيامته ، دخل تمام قدرته كابن الله ، مساو للآب ، « عن يمين الآب » وبحسب الصورة المألوفة أصبح هكذا « **سيداً** » ، « يهوه » .

وقد عبر القديس بطرس ، صباح العنصرة ، بإيجاز مماثل إيمان الرسل الفصحي : « **اقامه الله** ، يسوع هذا ، ونحن شهود لذلك . **ارتفع** بيمين الله وامتلك الروح القدس الذي أفاضه ... قال الله **لسيدي** « **اجلس عن يميني** ... » جعله الله **سيداً** (أعمال ٢/٣٢ ..) .

في العهد الجديد ، كلمة « ارتفع » وحدها تعني كل هذا : « المسيح يسوع تنازل حتى موت الصليب . لذلك رفعه الله وأعطاه **الاسم الذي يفوق كل اسم** ، « اسم الرب » « الله » (فيليبي ٢/٦ ..) .

ارتفـــع على الصليب وفي القيامة وفي المجد

وكما رفع موسى الحية في البرية ، هكذا ينبغي أن يرفع ابن البشر . لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية . لأنه هكذا أحب الله العالم حتى أنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن

نشيد الكنيسة الأول القديم هذا الذي يذكره هنا القديس بولس ينبينا عن « ارتفاع المسيح » — قيامته وصعوده — كتعويض عن تجسده وصلبه . وهذا عدل . والأصح القول أن **الصعود يبدأ بالصليب** . لا لأن يسوع المعذب يهرق من علُ دم العذابات والعار — فهذه جهالة أمر من الخل — بل لأن **هذا الموت بحرية بين السماء والأرض هو إلى الأبد ذروة الحب** : **ذروة حب الابن لأبيه** ، **والأخ لأخوته الخطأة** ، **ذروة حب الله** ، **ذروة حب الإنسان يسوع** . **ذروة الألم والموت هي هذه** ، **لأنها ذروة حب تسطع قيامة ومجداً** . **طريق الفصح** — « **العبور** » —

نحو الآب هي في الوقت معاً الصليب والقيامة والمجد : **ثلاثة مظاهر وحقيقة واحدة وزمن واحد وسر واحد** .

به بل تكون له الحياة الأبدية . فإنه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم . (يو ١٤/٣ — ١٧) .

بطرس والرسل أمام المجمع لم يسمعوا الا للروح القدس في داخلهم ليعبروا عن هذا السر المثلث والواحد : « اله آبائنا **أقام يسوع** الذي قتلتموه إذ **علقتموه على الخشبة** . فهو الذي أقامه الله بيمينه الى رتبة رئيس ومخلص » (أعمال ٥/٣٠..) . « معلق ، أقامه ، **رفعه**... » كل ما يتعلق بالصعود موجود هنا ، هذا الصعود المؤلم والسعيد . فكلمة « رفعه » تسطع بكل غنى معناها عبر إنجيل يوحنا : « رفع » على الصليب الذي أصبح موضع قيامته وارتفاعه بالمجد : فبكلمات « المجد » و« التمجيد » يجمع يوحنا هذا « الآن » الوحيد وينيره بصورة ساطعة ، « آن » الحب المخلص الذي يبدأ مع الساعة ، ساعة الآلام . فلنقرأ :

« بعد أن خرج يهوذا (من العلية يوم خميس الأسرار) قال يسوع : « **الآن تمجد ابن البشر** وتمجد الله به . **والله يمجده** في ذاته **ويمجده** سريعاً . يا أولادي الصغار ، أنا معكم زماناً **قصيراً**.. » (يو ١٣/٣١..) .

لقد أتت الساعة التي يمجّد فيها ابن البشر . الحقّ أقول لكم : إن حبة الحنطة التي تقع في الأرض إن لم تمت تبقى مفردة . وان ماتت أتت بثمار كثيرة . من أحبّ نفسه يهلكها ومن أبغض نفسه في هذا العالم يحفظها للحياة الأبدية . من يخدمني فليتبعني وحيثما أكن أنا يكن هناك خادمي . من يخدمني يكرمه الآب . (يو ١٢/ ٢٣ — ٢٦) .

بعد أربعة أيام ، ليل الشعانين ، كان المعلم قد أوحى إليهم بهذه الحقيقة المدهشة وهو أن ساعة التمجيد ، بالنسبة الى اله المحبة ، هي قبل كل شيء ساعة الخدمة حتى الموت على الصليب : «لقد أتت الساعة التي يتمجد فيها ابن الإنسان . الحق أقول لكم ان حبة الحنطة ان لم تقع وتمت في الأرض تبقى مفردة : وإن ماتت أتت بثمار كثيرة .. فأنا إذا ما ارتفعت عن الأرض (على الصليب ، في المجد) **جذبت إليّ كل إنسان** (يو ١٢/٢٣ — ٣٢) . هكذا كان يفكر وهو يسير نحو النزاع : رفع يسوع عينيه الى السماء وقال : يا أبت ، لقد أتت الساعة ، مجد ابنك (١/١٧) .

المجد والصليب : ساعة واحدة هي ساعة الارتفاع .

« وجلس عن يمين الله »

إذا ما عبّرنا بتعابير « القيامة » و« الصعود » فنسأل بجرأة الوحي الكتابي : ما هو هذا الارتفاع بالذات ، هذا « المجد الذي أخذه يسوع من أبيه كابن وحيد مملوء نعمة وحقاً » (يو ١/١٤) ؟

إنني أعرض عليكم ملاحظات خمساً ..!

« أقامه الله سيداً »

قبل كل شيء وأساساً ، « اقامه الله سيداً » . أي أن **هذا الإنسان يسوع هو الله بكل معنى الكلمة ، مساو لأبيه .**

تذكروا الفصل السابع . ابن الآب الأزلي الذي ارتفع في السحابة كان هو الله منذ الأزل . « لا يصعد أحد الى السماء إلا الذي نزل منها ، ابن الإنسان » (يو ٣/١٣) . وبالواقع فمنذ ألفي سنة نزل ابن الله هذا من السماء ليصبح ابن الإنسان . هذا الاقنوم ، هذا « الأنا » الذي هو الله الابن منذ الأزل ، ترك مستواه الالهي وعاش على مستوانا حياة بشرية ، حياة رجل ساقط « مماثل لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة (عبر ٤/١٥) . وها هو يسوع هذا ، عبر مأساة فصحه ، يعود الى مستواه الالهي إنما بصحبة طبيعته البشرية هذه المرة أي جسداً وروحاً . فالكلمة عند تأنسه كان قد « تخلى عن ذاته أي تنازل عن مستوى حياته الإلهية ليأخذ حالة العبد البشرية وصار شبيهاً بالبشر » (فيليبي ٢/٧) . والآن ها ان الإنسان فيه قد ولد من جديد متألهاً : **ترك يسوع الناصري حالتنا البشرية الأرضية والمائتة ليأخذ ، وهو الإنسان ، الحالة الإلهية ويصبح شبيهاً بالله .**

ليعطكم اله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والوحي انارة لعيون قلوبكم لتعلموا ما رجاء دعوته وما غنى مجد ميراثه في القديسين وما فرط عظمة قوته نحونا نحن المؤمنين على حسب عمل قدرة قوته الذي عمله في المسيح حين أقامه من بين الأموات وأجلسه عن يمينه في السماء فوق كل رئاسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يتسمّى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً . وأخضع كل شيء تحت قدميه وجعله رأساً فوق الجميع للكنيسة التي هي جسده وملء الذي يملأ الجميع في كل شيء . (أفسس ١/١٧ — ٢٣) .

هذا هو معنى صلاته قبل دخوله في النزاع : « والآن يا أبت . مجدني (كإنسان) عندك بالمجد الذي كنت أتمتع به لديك (كإله) قبل إنشاء العالم » (يو ١٧/٥) .

ها حلم آدم وحواء قد تحقق ، حلم الإنسان الأساسي والعميق : « أن يصبح مثل الله » ! تحقق لا بالكبرياء والعصيان بل بالطاعة حتى الموت . تحقق لا من بعيد أو بالكلام ، بل بالحقيقة الدامغة وبكل معنى الكلمة : « إذ فيه يسكن جسدياً ملء اللاهوت » (كولسي ٩/٢). ارتفاع المسيح هو هذا قبل كل شيء : إنسان « يجلس عن يمين الآب » أي يوازيه . هو مثله « سيد » ،

« لكي يملأ الكون »

إرتفاع المسيح هو ثانياً **تسلطه على الكون** ، **هذا التسلط الذي يغير الكون** . وقد زار هذا الكون « بصعوده الى السماء » .

« صعد الى العلى ! هل يعني سوى أنه نزل أولاً حتى أعماق الأرض ؟ فالذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق السماوات كلها **لكي يملأ الكون** » (أفسس ٩/٤ ...) .

« **لم يعد هناك حدود أمام يسوع القائم من الموت** : رجل من جنسنا ، مولود في محل معين ، خاضع لكل حالات بشريتنا ، اكتسب بانتصاره على الموت أبعاد الكون التي لا تحصى ، وملء الله الذي لا ينفد ولا يحد . **وإذ هو ملآن بالله فقد ملأ كل شيء** » (كياه) . واذ تحرر تماماً من قيود حالتنا الجسدية والأرضية ، **فهو يملأ كل الأمكنة والأزمنة** . هو حاضر **لكل إنسان** في كل العصور وكل البلدان . افهموني كما يجب : **هو الإنسان — الاله الحاضر** تماماً لكل الكون . (الروحانيون يرفضون ببساطة فكرة جسد المسيح الممجد . انهم يرونه كملاك عظيم ، أي كروح غير مائت دائم الحضور لكن — أرجوكم — بدون جسد .

لكن شهد واحد في موضع قائلاً : ما الإنسان حتى تذكره أو إبن الإنسان حتى تفتقده؟ نقصته عن الملائكة قليلاً وكلّلته بالمجد والكرامة وسلّطته على أعمال يديك . وأخضعت كلّ شيء تحت قدميه . ففي اخضاعه له كل شيء لم يترك شيئاً غير خاضع له . إلاّ أننا الآن لسنا نرى بعد كل شيء مخضعاً له . وانما نرى يسوع مكلّلاً بالمجد والكرامة وقد نقص عن الملائكة قليلاً لأجل ألم الموت لكي يذوق الموت بنعمة الله من أجل الجميع . (عبر ٦/٢ — ٩) .

وهذا نكران للتجسد بعد الخلق ! **بينما القيامة** ، **على العكس** ، **هي تتويج للتجسد** : **فيسوع لا يتخلّى عن جسده بل يجلّيه** ، **يؤلهه تماماً وكمالاً** . **فبه لا يزال يتحد حالياً بالكون أجمع** .

وجسد الإنسان لا ينفصل عن الكون حيث يعيش ويجد جذوره : فبين الاثنين تفاعل دائم . «يقول الأب تيار دي شاردان بعمق : «مادتي (أو جسدي) ليست قطعة من الكون امتلكها بكاملها (كشيء) . بل هي الكون بكامله امتلكه جزئياً . فجسد المسيح يملك تماماً الكون بكامله من الآن فصاعداً . فعند موته بالتمام ، تفجرت الحدود التي كانت تربطه بنقطة معينة من الكون . لقد أصبح حراً تماماً بالنسبة الى تحركاته . فهو الآن حاضر للكون في كل مكان في اتحاد شامل مع الخليقة «حيث كل شيء يحيا به» (كولسي ١٧/١) .

«المسيح ينير كل إنسان»

قيامة وصعود الرب هي ثالثاً **لقاء فعلي مع جميع أخوته البشر**. إن كنت إنساناً ، بيولوجياً ، بغنى تبادل العلاقات مع الطبيعة — التنفس والتغذية والبيئة — فأنا شخص انساني بعدد ونوعية علاقاتي مع الآخرين . لا أكثر ولا أقل . والحال أن **العلاقات الإنسانية لا تتم ولا تغتني الا بروابط الجسد وعلاقاته** : لقاء ، نظر ، ابتسام وتنهد ، كلام وسكوت ، اذنان وشفتان ، مواقف . وبكلمة «تعابير جسدية» .

فأتى الى مدينة في السامرة تسمّى سوكار بقرب الضيعة التي أعطاها يعقوب يوسف ابنه وكانت هناك عين يعقوب وكان يسوع قد تعب من المسير فجلس على العين. وكان نحو الساعة السادسة. فجاءت امرأة سامرية لتستقي ماء فقال لها يسوع : أعطيني لأشرب. (يو ٤/٥ —٧) .

وهكذا فالمسيح ، طوال حياته الأرضية ، تعب من **السير على** الطرقات ليلتقي أبناء اسرائيل إذ لم يكن بعد بالإمكان أن يلتقي «جميع الناس» . وهكذا فقد **حاور** في مآدب عدة وفتش عن كل نيقوديموس وكل سامرية . عجائب شفاء عديدة تمت على **يده** بينما كلام الله على **شفتيه** ...

وبعد أن صعد الى يمين أبيه ، هل ترك جسده كقياس قمري لا نفع له ! هذا كمن يتصور روبنشتاين يدفع البيانو الى الكسر ! فإن كان الله صار جسداً ، فليس لكي يرمي بعيداً «ما جعله إنساناً» ، ما أعطاه شخصيته كإنسان ، **والذي بدونه لا يكون إنساناً**.. قيامته حررته تماماً. لكن حالتنا الجسدية ليست هي السجن . السجن

شيء داخلي : القيود هي قلب لا يعرف الحب .

فالرب إذاً قد تحرر ، لا من المادة بل من حدودها الأرضية . فجسده الذي تتم به كل علاقة ، كان على الأرض حاجزاً وعائقاً . أما بعد القيامة فقد أصبح وسيلة رائعة للاتحاد بكل أخوته البشر . أصبح قريباً من الجميع في آن ، قريباً من كل واحد كما لو كان وحده .

هاكم تشبيهاً متواضعاً : تصوروا سمفونية رائعة ، محصورة أولاً في استديو وكرتون موزارت ، في ڤيينّا حوالي ١٧٨٠ . بواسطة تموجات الاوركسترا **الفيزيائية** والالكتروفون والراديو تسحر اليوم العوالم والأزمنة . هكذا ، وعلى صعيد أكمل ، فجسد المسيح الممجد يعمل بطريقة مثلى للقاء والصداقة بين جميع الناس . ألا يعلمنا الكتاب (يو ٣٩/٧) انه ينبوع الروح القدس الذي به «ينير كل إنسان» (٩/١) أوعى هذا الإنسان ذلك أم لا ؟

فبصعوده ، لا يترك الرب جماعة «اخوته» الصغيرة — وذلك بدون أن يتركهم — إلا ليمضي الى لقاء الجميع .

«بكر القائمين من الموت»

وهو لا يمضي الى لقاء الجميع إلا **ليحملهم على الاشتراك في حياته الجديدة ومجده الالهي** . وهذه هي ملاحظتنا الرابعة . وهي «لا تصدق» حيث يسطع حب لا يستبقي شيئاً لذاته وهو الله بالذات . .

لكن الله لكونه غنيّاً بالرحمة ومن أجل كثرة محبته التي أحبّنا بها ، حين كنا أمواتاً بالزلاّت أحيانا مع المسيح . فإنكم بالنعمة مخلصون . وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماء في المسيح يسوع . (أفسس ٤/٢ —٦) .

صار ابن الله إنساناً ليصبح آدم الحقيقي . ليصبح متضامناً معنا كلياً ويجعلنا متضامنين معه كلياً . ليست القضية قضية كلام ، ولا تضامن «معنوي» بل تضامن «محسوس» : مجيئه الى العالم هو «خلق جديد» للعالم حيث لا نؤلف معه سوى جسد واحد .

فإن كان يسوع قد مر بحالتنا البشرية الأرضية الى حياة الله الأبدية ، فهو يجعل البشرية جمعاء تمر في شخصه. إنه «بكر القائمين من الموت»

(كولسي ١/١٨) . قيامته وصعوده يبشران بقيامتنا وصعودنا وهما توقع واستباق لها . سنكون يوماً ما تحقق فيه هو ، لا شيء أقل من ذلك !

« ما سنكونه ؟ » .. المعذرة : ما نحن عليه الآن اذ قد بدأنا بأن نكونه . ليس فقط انه قد اكتسب لنا كل الحقوق . ليس فقط أنه يجر نحو المجد قطار البشرية جمعاء حيث نحن موجودون . **إنما كمسيحي ، أحاول أن أعيش ايماني ، فأنا أؤمن** أن موتي قد أصبح ورائي نوعاً ما لأنني تعمدت في موت « الخادم المتألم » . أؤمن بأن الحياة الأبدية قد أضرمت فينا من حيث **أن « الله قد جعلنا منذ الآن نعيش مع المسيح . اقامنا معه من الموت وأجلسنا في السماء »** . ففي المسيح الممجد ، قد دخل جميع الناس في مجد الله ...

فمجده هو ، كالحبة الميتة ، في أن يحمل ثماراً كثيرة . مجده هو في ألاّ « يبقى وحده » ابناً لله (يو ١٢/٢٤) .

وهكذا **فبيسوع القائم من الموت قد تم كل شيء : لقد أنجز الله وعده له ولنا ، لقد تألّهنا** .

« لماذا تنظرون هكذا الى السماء ؟ »

ولما قال هذا ارتفع وهم ناظرون وأخذته سحابة عن عيونهم . وبينما هم شاخصون نحو السماء وهو منطلق إذا برجلين وقفا عندهم بلباس أبيض وقالا لهم : أيها الجليليون ، ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء ؟ ان يسوع هو الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما عاينتموه منطلقاً إلى السماء . (أعمال ١/٩ — ١١) .

قد تم كل شيء .. ومع ذلك **فكل شيء يجب أن يتم** .

— لقد أنجز الله وعده ... ومع ذلك **فمجد المسيح لا يستنفد وعد الله : إنه يوجّهنا نحو مستقبل ويلزمنا بعمل** : « لماذا تنظرون هكذا الى السماء ؟ » .

« الانتظار المسيحي لا يتوقع سوى المسيح الذي أتى . لكنه ينتظر منه شيئاً جديداً لم يأت بعد : هو ينتظر أن يتم في كل شيء عدل الله الموعود به وتمام قيامة الموتى الموعود بها بقيامته ، وانجاز سيادة المصلوب على كل شيء الموعود بها بارتفاعه في المجد » (يوركن مولتمن) .

يجب ألاّ يحولنا الصعود عن النظر الى المآسي البشرية التي يعيشها أخوتنا ! كان مونيه يقول بواقعية : « هي تجربة كبرى للمسيحي أن يجلس مشفقاً أمام المناظر اللاهوتية الجميلة بينما القافلة البشرية تكمل مسيرها وأرجلها في النار » . والحال أن هذا المسيح الشامل هو في القافلة ورجلاه هي التي تحترقان... هذا المسيح الشامل ساكن فيّ ويطلب قلبي وذراعي للاهتمام بالقافلة وايصالها الى الفرح... هو يعمل في كل مكان « للتغيير التاريخي في الحياة » .

« لا يكتفي اللاهوتي إذاً بشرح **العالم والتاريخ والحالة البشرية بنوع جديد** . **بل عليه أن يغيرها ، بانتظار تغيير العالم الهيأ** » (مولتمن) .

« للرجاء المسيحي إذاً ضرورة هدف سياسي ... **فهو** كحراب التاريخ الذي يرفض الحاضر ليجعل المستقبل حاضراً . فعلى المسيحيين أن يكونوا شهود عهد يبعث **الجديد** في التاريخ » (كلود جفري) . كلمة « شهود » تعني «خلاّقين» . إذ لن يقوم شيء جديد إلا بالالتزام الزمني والسياسي في سبيل العدل والسلام.. مشكلة دقيقة يجب بحثها في الصفحات التالية إذا كنا لا نريد أن نبقى جلوساً أمام مشهد لاهوتي بينما يسير المسيح في النار .

وهكذا فصعود الرب الى السماء يعيدنا بعنف الى الأرض والى قضاياها الملحة : « لماذا تنظرون هكذا الى السماء؟ » .

« فيسوع هذا الذي صلبتموه »

فقالت مريم : تعظّم نفسي الرب . صنع عزّا بساعده وشتّت المتكبّرين بأفكار قلوبهم . أشبع الجياع خيراً والأغنياء أرسلهم فارغين . (لو ١/٤٦ ، ٥١ — ٥٣) .

« هناك الهان يتناقضان ، اله الظالمين واله المظلومين . الهان لا يلتقيان . فلا يمكن الكلام عن اله واحد ومن ثم عن كنيسة واحدة إلا عندما يقوم مجتمع بدون طبقات . كل كلام آخر عن الله مسبّط للعزائم وعقيم .. » .

طالب يتكلم . طالب من أميركا الجنوبية ، هذه « القارة الوحيدة في العالم التي لا تزال متدينة بمعظمها وفقيرة بمعظمها (باستور اندره ديماس) . فلا عجب إذا ولد في هذه القارة « لاهوت التحرير » . فإذا ما فهمناه كما يجب ، **فهو** لا يقتصر على القضايا السياسية أو الزمنية بل هو عودة الى تصميم الله الكامل بالنسبة الى الإنسان عبر الإنسان — الإله المصلوب والقائم من الموت والممجد . **فهو** يرجع الى خطيئة العالم — التي تسطع اليوم أكثر من كل يوم — والى الخلاص التام في يسوع المسيح ربنا . «كامل» أي موجّه إلى كل انسان حتى الى جسده — والى كل تاريخ البشر حتى الى تاريخ هذا العالم . لقد قام وتأله كلياً ، هذا الإنسان يسوع ، يسوع الفقير ، يسوع العامل ، يسوع المعذب ، المصلوب ... **يسوع الممجد أصبح المدافع الفعال — أكثر من ذلك ، انه البديل عن كل ما لم يكن محترماً** . « مهما فعلتموه بأخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه » . معي أنا الاله الابن الذي ارتفع الى السماء وجلس عن يمين الآب ...

ضد هذا اللاهوت التحرري ، بوسعنا أن نلعب لعبة القنفذ الذي يستيقظ غضباً ويوجه شوكه الى الخارج . هذا لا يمنع من أن يكون الكتاب المقدس شهادة للاله الذي يحرر من المظالم ومن المظالم الزمنية والجماعية أولاً — الشعوب والأجناس والطبقات — **في هذا العالم** .

فالله يظهر في عملية تحرير زمنية

لقد نبهنا في الفصل التاسع الى أن الله يظهر للبشر أولاً في عملية تحرير زمنية . وهي هوية الله لا ينتظر الى ما بعد الموت ، بعد التاريخ . **فهو** يظهر ساطعاً في هذا العالم ، في تدخل الهي باهر ، ليضع حداً لظلم « دام طويلاً » . تاريخ شعب اسرائيل ، الذي هو تاريخنا كشعب مسيحي ، يبدأ باختبار تحرير جماعي وسياسي — اختبار الخروج من مصر — يبدأه الله ويقوده : سلالة ابراهيم

مضطهدة في مصر والله يخلصهم — بذراع قوية — ليردهم الى ديارهم ، الى أرض الميعاد . ومذاك يصبح الرب لاسرائيل «ذاك الذي أخرج شعبه من مصر» وقاده الى الحرية . كبرياء قومي ؟ كلا بل اكتشاف الله كما هو في ذاته وكما سيظهر دوماً : الله يحب الإنسان ويقطع معه عهد حب . أي «يحب ألاّ يمس» هذا الإنسان !...»

لماذا أحب الله الإنسان الى هذا الحد ؟ لأن الإنسان — والآن بدأنا نفهم — هو ابنه .**كل إنسان هو واحد مع ابنه** . فلكل إنسان — كما لابنه — ليس لديه سوى تصميم واحد «فكرة واحدة في رأسه» : أن يقيمه ويمجده ويؤلهه ويجلسه عن يمينه .

ورأيت مثل بحر من زجاج مختلط بالنار والذين غلبوا الوحش وصورته وسمته وعدد اسمه واقفين على بحر الزجاج ومعهم كنّارات الله وهم يسبّحون تسبيحة موسى عبد الله وتسبحة الحمل قائلين : عظيمة وعجيبة أعمالك أيها الرب الإله القدير ، وطرقك يا ملك الدهور عدل وحق . (رؤيا ١٥/٢ — ٣) .

لذلك فكلمة «تحرير» لا تفي بالغرض . والكتاب يفضل كلمة «خلاص» أو «عهد» . فالخلاص والعهد بيسوع المسيح يتناول الإنسان ، كل إنسان ، في هذا العالم ، منذ مولده ، ليرفعه بانطلاقة واحدة ، بحركة حب واحد يؤلهه ، الى السماء ، إلى حيث الآب . هذه المسيرة هي أكثر بكثير من التحرر الزمني !

لكنها تبدأ بتحرر زمني ، علاقة تحرير من الموت ، تحرير من حياة خاطئة ، من كون يهدمه غياب الحب ، وتبشير بهذا التحرير .

فيجب قراءة سفر الخروج «كبيان» لله عند بدء دخوله في تاريخنا ، كإرادة الله في تاريخنا الأرضي ، كعمل الله الذي يجب ان نكمله عبر التاريخ ليتكلل في آخر الأزمنة بمجيء الرب الممجد ... فسفر الرؤيا ، كتاب نهاية الأزمنة الموحى به ، يربط صريحاً كل تاريخ الخلاص بالتحرير الاجتماعي والسياسي الوارد في سفر الخروج : إنه يرينا في صفحة التاريخ الأخيرة ، الذين «انتصروا على الوحش وعلى صورته» يرتلون انشودة موسى يوم الاحتفال بعبور البحر الأحمر (خر ١٥) .

الله ، محرر المظلومين ، يدرب شعبه — ابناءه — على الاقتداء به : الممارسات الدينية ؟ العبادة ؟ شيء ثانوي . «بطونكم الفارغة ؟ أنا لا أحب ، يقول الله ، أن يكون أبنائي جياعاً .. تقادم الحيوانات السمينة ؟ أنا لا آكل اللحم . على كل حال ، أنا أعطيكم كل هذا فاستبقوه لكم ..» .

التاريخ المسيحي هو سنة مقدّسة مستمرة

«إني أريد رحمة لا ذبيحة» (هوشع ٦/٦) .

«الصوم الذي أرتضيه ، أليس بأن نكسر القيود الظالمة وان نحرر المظلومين وان نحطم كل نير وان ندخل الى بيتك المساكين والمتسولين ؟ إذا رأيته عرياناً أن تلبسه وألاّ تتهرب ممن هو من لحمك ودمك ؟ عندئذ يسطع نورك كالفجر» (أشعيا ٥٨/٥ — ١٠) . لأجل هذا كان السبت : لكي يرتاح الناس والبهائم .

في كل سبع سنين تصنع ابراء . وهذا حكم الأبراء : كل صاحب دين فليبرّىء صاحبه مما أقرضه ولا يطالب صاحبه ولا أخاه لأنه قد نودي بابراء للرب . (تثنية ١٥/ ١ — ٢) .

تأتي السنة السبتية كل سبع سنوات : لتحرير الأخوة المستعبدين ، بدون مقابل ، ولتخفيف الديون عن الأغنياء ولاعفاء الفقراء من الديون التي لم يستطيعوا ايفاءها طيلة ست سنوات .

وتأتي السنة المقدسة **كل خمسين سنة** حيث ، زيادة على **الاعفاءات السابقة** ، يعيدون مجاناً الأراضي والبيوت الريفية المشتراة الى أصحابها الأولين (خر ١٠/٢٣ ... ؛ تثنية ١٥ ؛ أحبار ٢٥) . هذا ما كان يطلب الله — هذا لا يعني أنه كان يناله — من الذين كان يريدهم شعباً له ، بنين له ، طلائع هذه الانسانية المبرمجة كلها على المسيح من قبل خلق العالم !

وقدّسوا سنة الخمسين ونادوا بعتق في الأرض لجميع أهلها فتكون لكم يوبيلاً وترجعوا كل امرىء الى ملكه وتعودوا كل واحد إلى عشيرته . وفي سنة اليوبيل هذه ترجعون كلّ الى ملكه . إذا بعت من قريبك أو ابتعت منه فلا يغبن الواحد منكما أخاه . بحسب عدد السنين من بعد سنة اليوبيل تشتري من قريبك وبحسب سنّي الغلّة يبيعك . بحسب كثرة السنين تكثّر له الثمن وبحسب قلّتها تقلّله لأنه إنما يبيعك غلالاً محصاة . (أحبار ١٠/٢٥ ، ١٣ —١٦) .

والإنجيل يتبنى متطلبات السنة المقدسة النبوية اليهودية عندما يقول : **من الآن فصاعداً** ، **زمننا كله سنة مقدسة** ، سنة التحرير ، سنة المشاركة ، سنة الاعفاء ، سنة تصفية الامتيازات ، سنة الحب ...

فيسوع دشّن فعلاً رسالته . في الناصرة ، في المجمع . نهار

سبت . أخذ — لأنه أراد أن يقرأه — المقطع الذي يعلن فيه اشعيا السنة المقدسة (أشعيا ٦١/١...) :

« روح الرب علي لأنه كرَّسني مسيحاً . وأرسلني لأبشر الفقراء ، وأعلن النجاة للأسرى وأعيد الحرية للمظلومين **وأعلن سنة الرب المقدسة** » .

« اليوم قد تم هذا المقطع من الكتاب الذي سمعتموه بآذانكم ، يقول يسوع » (لو ٤/١٦ ..) .. بمجيء يسوع بدأت السنة المقدسة لكل أنواع التحرير . **سنة مقدسة يجب ألاّ تنتهي** : **إنها الأزمنة الأخيرة** . أكان يسوع من السذاجة بحيث كان يظن أن الاحتكارات والمظالم قد بلغت نهايتها !.. يا للأسف !.. بشيء من الذكاء والأسى إنّه يزيد على نص اشعيا : «جئت أرد النظر للعميان» . شفاء العميان يملأ مكانا مرموقاً — رمزياً — في حياته العلنية . لماذا ؟ هاكم جواب فتاة ملتزمة في نقابة :

« لا يزال الكثيرون بيننا مصابين بالعمى **عندما يجب أن نرى في تحرير الإنسان** ، **مهما كان هذا التحرير** ، **على كل صعيد** ، **يد يسوع المسيح** » .

يد يسوع المسيح

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، فإنكم تعشّرون النعنع والكمّون وتتركون أثقل ما في الناموس وهو العدل والرحمة والإيمان . وكان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك . أيها القادة العميان الذين يصفّون الماء من البعوضة ويبلعون الجمل . (متى ٢٣/٢٣ — ٢٤) .

لا شك أنه يمكن القول أنه وضع يده في هذا التحرير ضد ظلم السلطات وقبل كل شيء ضد شر قلوبنا الخبيثة . **فالله اشترك في هذا العمل وفي هذا العالم بالذات** .

« لقد قاد يسوع هذا الجهاد ، هو ابن الله المتجسد ، **دون أن ينفصل عن اطاره البشري والتاريخي حيث كان يعيش** : شفى الأعمى والمخلع والمجنون . خلص ذوي العرس في قانا الجليل من ورطتهم وغذى الجماهير وطلب ماء من السامرية . لقد حارب ضد عالم بأسره هو عالم الفريسيين والصادوقيين والهيروديين الذين قتلوه . لقد عرف ما نعرفه من ألم وعداوة وموت ... لقد **حارب** يسوع دوماً **ضد كل اكتفاء**

بشري (اكتفاء الغني بثروته ، اكتفاء الفريسي بأعماله وممارساته) . **وذلك لكي يبشر بالملكوت الفقراء** بحسب الإنجيل (الفقراء الحقيقيين والفقراء بالروح) . **ودعا جميع البشر إلى هذا التحرير الانجيلي الذي هو الفقر الكتابي** . وفي المخطط ذاته **جاهد يسوع ليكسر هذه الدائرة الجهنمية** : **دائرة البغض** : **لقد دعا الى الصفح والحب..**» (بول دي سرجي) .

في يديه السلاح المطلق : المسامير.

الصفح والحب ، اسمان لله... فهما ، في الحرب في سبيل الإنسان ، دعوة يسوع الكبرى لكل الملتزمين ورفضه الأكبر لكل عنف . **الجهاد** ، **نعم** ، **لكن بدون بغض !**

واذا واحد ممن كانوا مع يسوع مدّ يده واستلّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع اذنه . فقال له يسوع : أردد سيفك الى غمده . لأنّ كل من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك . أتظنّ أنّي لا أستطيع أن أسأل أبي فيقيم لي في الحال أكثر من اثني عشرة جوقة من الملائكة ؟ ولكن كيف يتم الكتاب فإنّه هكذا ينبغي أن يكون . (متى ٢٦/ ٥١ — ٥٤) .

البغض يولد البغض وخصوصاً إذا ادعى أن الله يكفل حقه . فاذا ما ربح المعركة ، فهي الساعة الرملية قلبت رأساً على عقب : مظلومو الأمس أصبحوا ظالمي اليوم ويبتدىء كل شيء من جديد . لم يتحرر أحد . وبنوع خاص لم «يخلص» أحد . إذ لم يتصرف أحد كأبناء الله... لذلك لم يأت يسوع لاقامة متاريس بل لهدمها . «فقد هدم في جسده حائط الانفصال ، أي البغض» (أفسس ٢/١٤) . في يديه ، وهما السلاح الاوحد في جهاده ، غرزت مسامير سببت له الموت . لم يرد رمحاً : «ردّ سيفك الى غمده لأنه من يأخذ بالسيف بالسيف يُؤخذ !» كما انه لم يرد عساكر ملائكة كان بإمكان أبيه إرسالهم إليه (متى ٢٦/ ٥٢ ..) . رهان صرخته ضد عبودية الفقراء ومجابهته العظماء ورفضه مجتمع الظلم ، لم يكن في أن يبيد الله جميع المستفيدين وصانعي الشرور عن وجه الأرض . **رهان حياته وموته هو في أن يصبح الإنسان — المستفيد والمستغل — محرراً من بغضه أولاً** . والحال أن أية ظاهرة قوة لا تستطيع ان تحرره من هذه العبودية بل العكس هو الأصح . إذا كان قد تبنى صراخ جميع البؤساء الذين لا مستقبل لهم :

« يذبحوننا كل يوم وقد حسبونا كغنم للذبح . قم يا سيد ، لماذا أنت نائم ؟ » (مز ٤٣/٢٣ ...) .

أبالإمكان نسيان لاعنفه وصلاته الأخيرة لقاتليه : « اغفر لهم يا أبت .. » ؟

« اغفر لهم يا أبت .. »

ولما بلغوا الى المكـــان المسمّى الجمجمـة ، صلبوه هنـاك هو والمجرمين أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار . فقال يسوع : يا أبت اغفر لهم لأنهم لا يـدرون مـا يعملون . (لو ٢٣/ ٣٣ — ٣٤) .

لا يحق لي ، عندما أصلي لجلاّدي الغير ، أن أقول : « اغفر لهم يا أبت » . اذ هذا سهل جداً . لذلك فإله لم يتجسد ، لم يكن بوسعه أن يصفح عن المحرضين والمستفيدين من دموع وعرق الناس . كان عليه أن يقاص وينتقم .

لكن الإله الحقيقي هو غير ذلك . إنه في عداد منبوذي المجتمع . إنه سيدهم . لذا يمكنه أن يصفح . يمكنه أن يفتح طريق السلام . في الواقع ، لم يغفر يسوع بطريقة مجردة . من كان معذباً يمكنه وحده أن يغفر لمعذبيه . وحده من كان عرضة للبغض وضحية عطشه لهدمه يمكنه أن يظهر ضعف البغض اذ يغفر لمبغضيه .. فصفح يسوع وقت موته : « اغفر لهم يا أبت » هو صفح له وزنه وتاريخه . لقد لاحقوه وافتروا عليه وسخروا منه واحتقروه وهزأوا به وحكموا عليه بالموت فمات كمجرم مجدّف . بصفحه وثق أن الكلمة الأخيرة لن تكون لمنطق الموت الذي كان هو ضحيته .

ولمّا استمروا يسألونه انتصب وقال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . ثم أكبّ أيضاً يخطّ على الأرض أمـا أولئك ، فلمّـا سمعوا ، طفقوا يخرجون واحـداً فواحداً ابتداء بالشيوخ . فبقي يسوع وحده والمرأة قائمة في الوسط . فقال لها : يـا امرأة ، أين الـذين

لقد فتح صفحة امكانية مستقبل وهذا المستقبل مكتوب في واقع قيامته . لقد تبنى الله صفحه واقامه سيداً ومسيحاً ودياناً وابناً .. » (كريستيان ديكوك) . **وحده الصفح يفتح باب المستقبل . مستقبل من غُفر له ومستقبل من غفر : مستقبل مشترك بين الاثنين** . « فالإنسان الذي ينطوي على بغضه ، يقول الأب ديكوك ، يبغي ازالة من يبغض . فالحرب التي لا تنتهي بمفاوضات ، لا حدّ لها إلا بفناء أحد المتحاربين. الصفح وحده يناقض هذا المنطق . التاريخ ممكن شرط ألاّ نقاوم البغض

بالبغض وان تتخلى العدالة ذاتها عن كامل حقوقها . الصفح وحده يخلق علاقات جديدة ، يخلق تاريخاً آخر . يسوع يفتح المستقبل للخاطيء ذاته اذ يشهد بصفحه أن لا أحد ينزوي نهائياً في البغض وان الهه هو الذي يهدم كل الحواجز . اذ يغفر للذين يقتلون رسوله . في هذا الفعل ، **نال الصفح كل إنسان لأن الذي تلفظ به هو حي إلى الأبد** . لا يمكن بعد اليوم أن نطلب من الله أن يساند بغض القبائل والأجناس والطبقات . كما انه من المستحيل أن نطلب منه أن يضمن عدالة تامة . لا يمكن التوجّه نحو الله إلا حيث يخلق الصفح علاقات جديدة ... » **لا يمكن أن يضمن الله إلا الحب ... وبما أن الله أبدي ، فالحب هو الكلمة الأخيرة** .

يشكونك ؟ أما حكم عليك أحد ؟ قالت : لا يا رب . أجابها يسوع : وانا لا أحكم عليك . اذهبي ولا تعودي تخطئين . (يو ٨/٧ — ١١) .

بسبب هذا التنازل ، رفعه الله

« أقامه الله ربا ومسيحاً ، يسوع هذا الذي صلبتموه » (أعمال ٣٦/٢) . إنه بطرس يكلّم اليهود المتهافتين إليه يوم العنصرة .

لم يكن بطرس شاهد قيامة عادية بل تلك التي تعطي الحق ذلك الإنسان المهان ، المفترى عليه والمقتول **بسبب وقوفه الى جانب المستغلّين** — ذلك الإنسان « الوديع والمتواضع القلب » الذي لم يردّ الاهانة لما أهين ولا التهديد لما هُدّد » (١ بطر ٢٣/٢) . هو الذي أقامه الله « سيداً » أي في قوة الله الابن بعد قيامته » (روم ٤/١) . هذا الذي أقامه الله « مسيحاً » أي ملكاً شاملاً ونقطة ارتكاز حية للبشرية .

ويركز القديس بولس على هذا الترتيب ذاته بصدد الخلاص : « إذ أن الابن وهو في حالة الهية ، لم يعد مساواته لله غنيمة بل تجرّد من ذاته متخذاً صورة العبد وصار على مثال البشر وظهر بمظهر الإنسان فوضع نفسه وأطاع حتى الموت ، الموت على الصليب . **لذلك رفعه الله** ووهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء كما تجثو لاسم يسوع كل ركبة في السماء وفي الأرض وفي الجحيم ويشهد كل

لأن المسيح أيضاً تألّم لأجلنا وترك لنا قدوة لتقتفوا آثاره . الذي لم

لسان أن يسوع المسيح هو الرب تمجيداً لله الآب » (فيليبي ٦/٢..).

لذلك قام يسوع مع جراحاته. « انظروا يدي وجنبي » ويرمز إليه سفر الرؤيا ٥ . ٦ « بخروف واقف » — أي حي وممجد — لكنه ذبيح أي يحمل أبداً علامات ذبيحته.. جسد المسيح الممجد يبقى دائماً جسد « ذاك الذي طعنه الخطأة ». مجده في جروحه لأنها الجروح التي سببها له الحب : حبه للصغار الذين جاهد في سبيلهم ، حبه للخطأة — أعدائه — الذين اعطاهم حياته.

يصنع خطيئة ولم يوجد في فمه مكر. وكان يشتم ولا يردّ الشتم. وكان يتألم ولا يهدّد. لكنّه فوّض أمره الى الذي يحكم حكماً عدلاً. وحمل خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر وبجراحه شفيتم. (١ بطر ٢١/٢ — ٢٤).

ذاك الذي صُلب ظلماً وغفر ، هو هذا الذي ملك عن يمين الله الآب... لا ننسبَنّ إليه الضعف ! ولا الاستسلام المتباكي !.. هذا المتألم الذي هو الله والذي لم يبد حراكاً لما تحداه مهينوه : « إن كنت ابن الله ، فأنزل عن الصليب ! ». هو أقوى من الذي ربح حرب الأيام الست. « حقاً كان هذا ابن الله » يقول قائد المئة على الجلجلة. فبإمكاننا الاتكال عليه ليغير قلوبنا الحجرية بقلوب إلهية.

قيامته وصعوده اللذان هما تصديق إلهي لآلامه وصفحه ، هما مرتكز رجائنا بأن الله ، وهو الإله الذي يغفر ويرفض كل بغض ، سيبدل في آخر الأمر البشر بواسطة روح المحبة. عندئذ « تكون سماء جديدة وأرض جديدة حيث تسكن العدالة ! » (٢ بطر ١٣/٣).

١٤

من حيث يأتي
ليدين الاحياء والاموات

الدينونـة المدعوّة « خاصة »

مع السنين يأخذ جسمنا سمانة تمنعه من استعمال لباس الشباب . ويكسب من الاكتناز والتقوّس ما لا يحترم القياسات والهندام . ومع ذلك فبدل من أن تعيد هندسة الإنسان حسب قياسات ثياب شبابه ، فنرى من الأسهل تكييف الثياب حسب قياسات الإنسان مهما كان مقوساً .

على صعيد الإيمان ، عرف الدين المسيحي الشعبي تشويهات ناتئة أو معقدة بالنسبة الى قانون إيمان الرسل ، إنما لا يجب هنا تظبيط الثوب — قانون الإيمان — بل الإنسان ، أي المؤمن . وهذا لا يكون بدون ألم . ومع هذا فالمجمع الفاتيكاني الثاني يدعونا لمثل هذه « التجليسات » ، لنعود الى الهندام ، هندام ايمان الرسل الصافي .

اعوجاج في الإيمان

نحن نحاول استعمال هذا العلاج منذ أن أعدنا النظر معاً في قانون ايماننا . لكن الظرف الآن مؤات بالنسبة الى المادة التي نحن بصددها : « سوف يأتي ليدين الأحياء والأموات » . وهكذا فكل القوانين تترك جانباً « الدينونة الخاصة » ، حيث يدان كل بمفرده ، شخصياً بعد موته . ومع ذلك فوحدها هذه الدينونة — المواجهة بين الله والإنسان هي التي ترتكز هموم المؤمنين حولها . واستعدادهم ومع الأسف خوفهم . وبالعكس فالدينونة العامة تتركهم عادة فاترين بينما الكتاب المقدس يتكلم عنها وحدها مطولاً وعنها وحدها تتكلم المجامع وقوانين الإيمان .

ومتى جاء ابن البشر في مجده وجميع ملائكته معه فحينئذ يجلس على عرش مجده وتجمع لديه كل الأمم فيميّز بعضهم من بعض كما يميّز الراعي الخراف من الجداء . ويقيم الخراف عن يمينه والجداء عن شماله (متى ٢٥/ ٣١ — ٣٣)

هذا الاعوجاج في الوحي هو ثمرة الفردانية الذي انتشر عندنا منذ عصر النهضة : حرية فردية ، ملكية فردية ، أخلاقية فردية ، «تقوى عصرية» فردية كل في زاوية يمتص بمفرده الهه الحلو الفردي بانتظار دينونته الفردية وسماءها الخاص بها . هكذا نسينا الأبعاد الكونية للخلاص ، والأبعاد الاجتماعية للكائن البشري ، والأبعاد الاجتماعية أساساً للأخلاق والخطيئة . لا يمكن أن يكون الدين المسيحي قضية شخصية بين الله وبيني : مثل الدينونة الصحيح (متى ٣١/٢٥ ..) يؤكد على أن قضية الإنسان هي هي قضية يسوع المسيح . فأنا سوف أدان إذاً بالنسبة الى علاقاتي بالآخرين . علاقات أشخاص ، علاقات شعوب ، علاقات أمم ، علاقات طبقات — والتحقيق في هذه العلاقات لا يتم إلا في مواجهة عامة ..

سكوت الكتاب المقدس

وهكذا فالكتاب لا يذكر أبداً الدينونة الخاصة **مباشرة** ... بينما العهد الجديد وحده يتكلم أكثر من سبعين مرة عن هذا المنسي الكبير : الدينونة العامة .

لا شك في أنّ مثل اليعازر والغني يفترض الفصل بين الأبرار والخطأة منذ موتهم وقبل انتهاء العالم (اخوة الغني لا يزالون أحياء) . لا شك أيضاً في أن اللص التائب سيكون في الفردوس مع المسيح يوم موته على الصليب . الجميع يؤمنون منذ أوائل عصور الكنيسة ، **أقلّه ببدء محاسبة** ، قبل الدينونة النهائية .

ثم مات المسكين فنقلته الملائكة الى حضن ابراهيم ومات الغني فدفن في جهنم . فرفع عينيه وهو في العذاب فرأى ابراهيم من بعيد ولعازر في حضنه . (لو ١٦/ ٢٢ — ٢٣) .

إنما حتى القرن الرابع ، كانوا يظنون **أن الحساب الأخير والتام مؤجّل** إلى القيامة العامة . القديس امبروسيوس (٣٩٧ +) ، ملفان الكنيسة ، يكتب بهذا المعنى : «يبقى جميع الموتى في اليمبوس الى الدينونة العامة بعضهم ينتظر القصاص والآخرون المجد والشرف» (الموت السعيد ٤٧/١٠) لا يوضع الجميع في «كيس واحد» : بل

كما جاء في المثل : هوة عظيمة تفصل الغني عن اليعازر . لكن «حضن ابراهيم» مكان «النداوة والنور والسلام» ليس هو السماء . دينونة اليعازر الأخيرة ودينونة الغني لم تأت بعد .

الكنيسة تفتش

قبل قيامة الاجساد لا تملك النفوس المنفصلة لا الحياة الأبدية ولا السعادة بحصر المعنى ولا الرؤيا السعيدة . لا الهالكون ولا الشياطين هم الآن في الجحيم . ولا يبعدون اليها الآ في آخر العالم بعد الدينونة الأخيرة . (يوحنا الثاني والعشرون) .

التفكير بأن المجازاة الأخيرة — للمخلص والهالك — ستحدد عند موت كل منهما ، يبدأ مع القديس اغوسطينوس (٤٣٠ +) وتتضح مع القديس غريغوريوس الكبير (٦٠٤ +) وتلقى الثقة الى حد ان القديس توما (١٢٧٤ +) كان يعتبر «إنكارها نوع من الهرطقة» (سؤال ٦٩ مادة ٢) .

مهما يكن رأي القديس توما ، فبعد خمسين سنة يبشر البابا يوحنا الثاني والعشرون (١٣٣٤ +) — قرأتم بوضوح : البابا — دون انقطاع ان لا سماء ولا جحيم لأحد **قبل قيامة الأجساد** ... ينفعل العلماء ! تعترض السوربون ويرفض للملافنة الألمان ، وجمعية أساقفة وحاملي اجازات في اللاهوت يدينون البابا — فقط ! — الى حد أن البابا على فراش الموت تراجع عن تعليمه إنما بطريقة مشروطة تهمنا كثيراً اليوم : «نقر ونؤمن أن النفوس ، المنفصلة عن أجسادها والمطهرة تماماً ، هي في السماء... وهي ترى الله وجهاً لوجه **بقدر ما تسمح حالة النفس المنفصلة**» .

كان يشعر هنا بقضية يتناولها اللاهوت المعاصر وسنحاول أن نعالجها بمناسبة الحديث عن «قيامة الأجساد» .

جاء خلفه البابا بندكتس الثاني عشر يهدىء العاصفة — لكن هل ناقض سلفه ؟ — لما حدد بنوع معصوم أن **النفس التي تطهرت لا تنتظر القيامة والدينونة العامتين لتنعم بالسماء ولا الخاطىء ليهبط الى الجحيم** (دنزنكر) . فالدينونة الخاصة ليست محددة مباشرة بل المجازاة الفورية ، التي هي من الإيمان ، تفترض ضمناً نوراً مؤثراً ينفي كل جدل .

اللقاء المدعو «دينونة»

يجب أن نعرف أن المسيحيين غير الكاثوليك — شرقيون ، انكليكان ، بروتستانت — يقبلون عادة تقرير المصير النهائي لكل إنسان بعد موته : لكنهم يرفضون عبارة «الدينونة الخاصة» التي ، كما قلنا ، ليست من الإيمان .

رفض الكتاب المقدس والكنيسة هذا من أن يجعلا عقيدة من هذه «الدينونة» يقص جناحي بلاغتنا ، ولله الحمد جناحي خوفنا . هذا اللقاء لا يشبه مطلقاً قوانين المحاكمات البشرية من اتهام ودفاع وأحكام . وهو لا يشبه رصيد الحسابات بأرباحها وخسارتها أو أوراق الضرائب .. ولا مواجهة إله غضوب لا يكون قد اجترّ سيئاتنا صامت طيلة حياتنا إلاّ ليرميها في وجهنا بعنف .. كل ما ليس حباً لا علاقة لله به . **فالكلام بدون تمييز** عن «الدينونة» بصدد هذا اللقاء الأول بين صديقين ينتظر أحدهما الآخر منذ زمان طويل هو شيء فظيع . لقد أهين الرجاء المسيحي حتى الموت . وجه الله تشوّه إذ أصبح لقاؤه «مخيفاً» . على صخور كهذه يتحطم الإنجيل عند من لا يتعود على التشوّش . . .

الدينونة المدعوة «خاصة»

لا يمكننا أن **نتصور** لقاء الحب هذا مطلقاً . لكن ألا يمكننا أن نحاول **فهم** بعض الشيء ؟

في كتابه الجميل «وجدنا العالم الثاني» ، يذكرنا الأب مرثيلي هنا «بطريق دمشق» : بولس الطرسوسي سقط عن حصانه اذ انبهر برؤية يسوع القائم من الموت . لقد أخذ بسناء لم يعرفه قبلاً : إنه اللقاء !

لأن الحياة لي هي المسيح والموت ربح . فإن كانت الحياة في الجسد ثمر عمل لي فلست أدري ماذا اختار . لأني محصور بين الاثنين اذ لي رغبة في أن انحلّ فأكون مع المسيح وذلك أفضل بكثير . (فيليبي ٢١/١ — ٢٣) .

لقاء ، ساعة يجرف الموت حياتي ، مع الذي ضمني الى حياته ... شيء يشبه اختبار القديس يوحنا في بطمَس : «عند رؤيته ، سقطت على قدميه كالميت . لكنه وضع يمناه علي قائلاً : **لا**

تخف ، **أنا** الأول والأخير ، **أنا الحي** . عرفت الموت وها أنا حي الى الأبد . بيدي مفاتيح الموت والجحيم » (رؤ ١/ ١٧ — ١٨) .

وأخيراً لقاء الحب شخصياً ، لقاء الحنان المطلق ! هو غوص في « عرض وطول وعلو وعمق محبة المسيح التي تفوق كل معرفة » (أفسس ٣/ ١٨ ..) . **وداخل هذا الحب** ، **النور**.. نور القداسة ، لأن القداسة تكمن في الحب ...

بعد طريق دمشق ، لم يعد القديس بولس يتعزى لكونه اضطهد من هو الحب والحياة بالذات .. في هذا اللقاء بالمسيح في نهاية طريق حياتنا المسكينة التي لم تعرف الحب ، كيف نحتمل **حقيقة ما عشناه** ؟ « يصبح عندئذ كل إنسان قديس فرنسيس جديداً ، وقد أحرقه النوم وتأكّله الأسف وحطمه الجنون الذي يجعل من كل واحد منا ، في حياته ، النقيض المضحك للحب المتناهي » (مارثيلي) . شعورنا بما أضعنا في الماضي يجتاحنا ويحملنا على التنكر لكل أنواع بؤسنا :

« هذا هو مجال حبنا المسكين .
وهذا هو بحر عذابنا الواسع » (شارل باكي) .

لكن ما كان قد كان . « نهار» حياتنا الأرضية قد زال ، هذا النهار الذي أعطيناه « لنعمل أعمال الله » أي لنحب . « لقد جاء ليل الموت حيث لم يعد وقت لأن نحيا النهار» (يو ٩/ ٤) . لا بد من وقت ندع فيه هذا التنكّر المحرق يفني حتى جذور شقاء قلوبنا الانانية . هذا هو « مطهرنا » .

العذابات « المطهرية »

ثم جمع من كلّ واحد تقدمة فبلغ المجموع الفي درهم من الفضّة

اعتدال المجمع الفاتيكاني الثاني بصدد المطهر مثالي . **فهو لا** يذكره إلا في الدستور العقائدي حول الكنيسة بصدد « شركة

القديسين » ليؤكد ببساطة « ان الكنيسة السائرة على الأرض أحاطت بتقوى ذكر الموتى منذ عصورها الأولى اذ قدّمت على نيتهم استحقاقاتها لأن فكرة الصلاة للموتى لينجوا من خطاياهم هي فكرة مقدسة وتقوية » (٢ مكا ١٢/٤٥) . لقد تبنى المجمع الفاتيكاني الثاني اعتدال المجمع التريدنتيني : فهذا المجمع ذكر أولاً بإيمان الكنيسة الكاثوليكية :

فأرسلها الى أورشليم ليقدّم بها ذبيحة عن الخطيئة وكان ذلك من أحسن الصنيع لاعتقاده قيامة الموتى . لأنه لو لم يكن مترجياً قيامة الذين سقطوا لكانت صلاته من أجل الموتى باطلاً وعبثاً . ولاعتباره أن الذين رقدوا بالتقوى قد ادّخر لهم ثواباً جميلاً . (٢ مكا ١٢/٤٣ —٤٥) .

« هناك مطهر » والأنفس الموجودة فيه تساعدها وساطات المؤمنين وخاصة ذبيحة المذبح التكفيرية » .

ثم في سبعة أسطر يطلب الاعتدال في الكلام عن هذا السر ويمنع من أن يؤكد أحد شيئاً بهذا الصدد ليس أكيداً (دنزنكر) .

فالرجاء إذاً التوقف عن الكلام عن مطهر من نار وعن الكلام عن رؤى كبريتية !... منذ قليل ، أرانا التلفزيون عن ايرلندا ، كيف يتم الدخول في هذا المكان السفلي ... دعابة ؟ سذاجة ؟ سخرية ؟.. على كل حال ، لأننا فقدنا الذوق ، انه تشويه لله ونسيان للمجمع التريدنتيني . لقد استغلوا لعبة « التخويف » .

« المطهر » ما معناه ؟

بقيت كلمة « مطهر » حتى القرن الثاني عشر صفة كقولنا « تعويضي » « تكفيري » فكانوا يتكلمون عن « العذابات المطهّرة » . فكان الخطأ بجعله **اسماً** أكثر من لغوي ، « المطهر » .

إذ بدل من أن يدل على حالة ، أخذت هذه الكلمة في عقول غالبية مستعمليه السذّج تدل على كيان ، على شيء ، على مكان ، على سجن ، على نار ، على مدة أيام وسنين يحددها دوران الأرض على ذاتها وحول الشمس . أخطاء بأخطاء !

أتجهلون ان كل من اعتمد بالمسيح اعتمد بموته . فدفنّا معه في الموت حتى أننا كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن أيضاً في جدّة الحياة لأنّا إذا كنا قد غرسنا معه على شبه موته فنكون على شبه قيامته أيضاً . (روم ٦/٣ —٥) .

فالكلمة ، تربوياً ، مزعجة . فلنشرب على صحة من يجد

أفضل منها ... لا شك أن اللغة الالمانية تستعمل كلمة أشد ازعاجاً «فاكفاير» أي النار المطهرة . يجب أن نتطهر نحن من هذه الصور لنتوقف عند تعليم آباء المجمع التريدنتيني الذي نجهله : لا يجب نشر أشياء غير أكيدة حول هذا الموضوع . والحال ان كل ما قيل وكتب بهذا الصدد هو غير أكيد .

فلنضع إذاً بنزاهة سر الآلام المطهرة في السر المسيحي الأساسي والعام : السر الفصحي ، سر موت وقيامة المسيح ولنقل :

١) لقد حمل المسيح كل خطايا العالم وأدخلنا في الحياة الالهية بذبيحته وقيامته وصعوده . به غفرت كل خطيئة وأعطيت كل حياة الهية .

٢) لكن المسيحي ليس طفلاً بعيداً عن المسؤولية . لكي يشترك بهذا التحرر من الخطيئة ، لكي يدخل كابن في بيت الآب ، عليه أن يتحد بإرادته بموت المسيح ومجده هذين ، «أن يصير واحداً مع المسيح» (روم ٦/٥) : العواطف ذاتها ، حب الله والآخرين ذاته ، نسيان الذات . هذا التمثل بالمسيح يتم أولاً في العماد الذي يجعلنا نغوص في موت يسوع وفي سائر الأسرار وبخاصة الافخارستيا وفي الصلاة وفي الحياة المسيحية كلها وأخيراً في الموت المسيحي ، الموت الذي يقبله بحب والحياة التي يقدمها بحب .

٣) ففي ساعة عبورنا الى العالم الثاني ، إن كانت التوبة على أنواعها — كدواء ضد ألم — لم تلغ تماماً مقاومتنا لحياة المسيح فينا ، إن كان لم يزل هناك أنواع من الأنانية لا يمكن المسيح أن يتبناها ، يجب أن يتم التطهير . وان يتم لا بفعل عصا سحرية بل من الداخل اذ عليّ أن **ينضج فيّ الحب** ، إذا الحرية .

العذابات المطهِّرة هي الحب في الكور

كلمة حب ، نقولها من جديد ، تعني كل شيء . الحب قليل

الصبر ، إنه يتألم من الانتظار « أريد أن أنحل وأصير مع المسيح » ، يقول القديس بولس . وتقول القديسة ترزيا الكبرى عند سماع الساعة تدق :

« آه ! هي ساعة مضت من بقائي منفصلة عن يسوع ! »

بموت الإنسان ، يأتي الوقت السعيد ليحقق اتحاده الكامل بالله في « الرؤيا السعيدة » ... إنما بنتيجة خطأه ، يستحيل الاتحاد الفوري . فالاتحاد اذاً مؤجّل ... إنه زواج مؤخّر . هي نار الحب تحملنا على أن نقفز نحو الله . لكن الأنانية خيط مربوط برجل عصفور فاقد البصر . لا يزال للقلب تعلقاته . لذا وجب التحرر أولاً قبل الوصول نهائياً الى الله .

وهكذا يبدو لنا السر المطهّر كسر النضوج الفصحي : الكمال بتدخل خاص من الله ومشاركة من قبل التائب ومطابقة تامة مع المسيح بدأت في العماد .

لقد كتبت القديسة كاترين الجنويّة (١٥١٠ +) « مقالة في المطهر » تقودنا من الآب المنتقم الى اله الحب : لا كلمة واحدة تذكّر بالعذاب . الحب المطهّر ان هو سوى حب الله الذي يحرقنا أي ان يذيبنا بكليتنا فنقول : « لا أظن أنه ، بعد سعادة قديسي السماء ، يوجد فرح يوازي فرح النفوس المطهرية » (فصل ٢) .

فكما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم كذلك الابن يحيي من يشاء . لأن الآب لا يدين أحداً بل اعطى الابن الحكم كله ليكرم الابن جميع الناس كما يكرمون الآب . ومن لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله . الحق أقول لكم : أنّ من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله الحياة الأبدية ولا يصير الى دينونة بل قد انتقل من الموت الى الحياة (يو ٥/٢١ — ٢٤) .

« من حيث يأتي ليدين .. »

المقصود هي الدينونة العامة التي يتكلم عنها الكتاب .

سوف يديننا أخ ، إنسان مثلنا . « لأن الآب لا يدين أحداً فقد أعطى الابن الحكم كله ليكرم الابن جميع الناس كما يكرمون الآب » (يو ٥/٢٢...) .

متى ستكون هذه الدينونة ؟

— « اسهروا لأنكم لا تعلمون اليوم ولا تلك الساعة » (متى ١٣/٢٥) . إنما هناك شيء أكيد **وهو** « **أن الابن سيأتي في مجد أبيه مع ملائكته** » — أي في كل مجد الوهيته — « **وعندئذ يجازي كلا كأعماله** » (متى ٢٧/١٦) .

« وعندئذ ... »

سيأتي ابن البشر في مجد أبيه مع ملائكته . وعندئذ يجازي كلا كأعماله . (متى ٢٧/١٦) .

مجيء يسوع في المجد والدينونة العامة سيكوّنان حدثاً واحداً : السلسلة الأخيرة من التاريخ ، الفصل الأخير لانتصار المسيح على الخطيئة والموت ، كمال تحرير الإنسان وتأليه البشرية : الحصاد البهيج وقد نضج أخيراً ! ..

هذا **الـ** « **عندئذ** » يحدد دينونة **كل واحد** في آخر الأزمنة وليس بين شخصين في السر : « **وعندئذ** يجازي ابن الإنسان كلا كأعماله » . هذا ما يجب التنبه إليه لكي نفهم تحفظ الكنيسة الأولى بالنسبة الى الدينونة الخاصة لكل واحد عقب موته .

« كل حسب أعماله »

لا تتكلوا على الظلم ولا يستهوكم الخطف . إذا وفرت ثروتكم فلا تميلوا اليها قلوبكم . تكلّم الله مرة وثانية والذي سمعته أن العزة لله . ولك أيها السيد الرحمة وأنت تجزي الإنسان بحسب أعماله . (مز ٦١/ ١١ — ١٣) .

« إنك يا رب ، أمين : **تجازي كلا كأعماله** » . هذا هو إيمان شعب الله الدائم . هذه هي عقيدة المجازاة الأساسية . **لا يعرف العهد القديم مجازاة إلا هنا على الأرض** ، **بينما العهد الجديد يجعلها في العالم الثاني** . **لكن المبدأ لا يتغير** : **كل حسب أعماله** . (أيو ١١/٣٤ ؛ أمثال ٢٣/١١ .. ؛ ١٢/٢٤ ؛ سير ١٢/١٦ ؛ إرميا ١٠/١٧ ؛ ١٩/٣٢ ؛ روم ٦/٢ ؛ ٢ تيمو ١٤/٤) . إذاً ، « لكل حسب أعماله » . طبعاً **لكل إنسان ناضج** لأن ليس عند الولد أعمال شخصية بعد . والقديس بولس يشرح للرومانيين (٦/٢ ..) هذا المبدأ الأساسي ، بطريقة معصومة :

« الحياة الأبدية للذين ، **نظراً لثباتهم في الأعمال الصالحة** ، يطلبون

المجد والشرف وعدم الفساد . والغضب والنقمة للذين ، **نظراً تمردهم** ، **يثورون ضد الحق** ويخضعون **للظلم** » .

لا شك أن « الأعمال » البشرية هي أيضاً مصنوعة من « الندم » وقد تكون ذروتها العودة الأخيرة للذي ، كاللص الصالح ، يرتد أمام واقع رحمة لا تبرح تلاحقه . لكن المقصود هو التوبة ، أي الرجوع منذ **هذا العالم** ، **قبل الموت** . لا داعي للتشديد على أن «كل واحد ينال جزاء ما يعمل طيلة **حياته الزمنية** خيراً كان أم شراً » (٢كو ٥/١٠) .

أمهلتها مدّة لتتوب عن زناها وهي لا ترضى أن تتوب . فهاءنذا أطرحها في فراش والذين يزنون معها في ضيق شديد ان لم يتوبوا عن أعمالهم . وسأقتل ابناءها حتفاً فتعلم جميع الكنائس أني فاحص الكلى والقلوب وسأوفي كلا منكم على حسب أعماله . (رؤ ٢/٢١ —٢٣) .

هذا ما يبرر نظرية عصرية تدعى نظرية « الاختيار الأخير» تنطلق هذه النظرية من أن الإنسان نفس مرتبطة بجسد . ما دام الإنسان في الجسد ، فلا يستطيع أن يكون هو هو لأنه متشابك والواقع المادي . فهو «كائن مع الغير» ، «كائن غارق في العالم» . « الالتزام الحياتي بالعالم المحسوس » يمنعه من أن يعرف ذاته وأن يعرف الله . في الموت فقط ، عندما يتفلت من عالمنا المحسوس ، تظهر امكانية أول عمل شخصي محض عند الإنسان . فيصبح الموت عندئذ المكان المفضل للاختيار المتعلق بالمصير الأبدي (لادسلاس بوروس) .

ما رأيكم ؟.. من الواضح أن الولوج في النور ينزع كل الأقنعة من حياتنا المسكينة . كما أنه ، ساعة الامتحان ، غالباً ما تسقط كل الأوهام . إنما يكون هذا **بعد الموت** ، في « نهاية النهار حيث لا يقدر أحد أن يعمل شيئاً » (يو ٩/٤) ... نظرية « الاختيار الأخير» هذه تنفي أهمية هذه الحياة وهذا العالم . انها تدق عنق الشخص البشري الذي نحدّده « كائن مع الغير» عبر العلامات الحسية ، الجسدية . انها تحط من قدر أهم ما في الدين المسيحي حيث « الروحانية » تعاش في المحبة الأخوية على مستوى الأكل والشرب الماديّين . على مستوى القميص الجديد والبيت الدافىء والاستقبال والزيارات

كما أنه كثير الرحمة هكذا هو شديد العقاب فيقضي على الرجل بحسب أعماله . لا يفلت الخاطىء بغنائمه ولا يضيع الرب صبر التقي . لكل رحمة يجعل موضعاً يلقى ما تستحق أعماله . (ابن سيراخ ١٦/١٣— ١٥) .

والمساعي الحبيّة في المستشفى والسجن أو كوخ الفقير والمنبوذ (متى ٣١/٢٥ ..) «من لا يحب أخاه الذي يرى لا يمكنه أن يحب الله الذي لا يرى» (١ يو ٤/٢٠).

لم يكن ليسوع أي اختيار آخر سوى محبة أخوته «حتى الموت. لذلك رفعه الله وأعطاه اسماً فوق جميع الأسماء». هذا هو الطريق .. ساعة الصالحين هي إذاً ساعة يسوع، ساعة هذا العالم، ساعة تاريخنا الأرضي: «هي ساعة ثبات القديسين الذين يحفظون **وصايا الله** والإيمان بيسوع .. اكتب: «طوبى للموتى الذين يرقدون بالرب! نعم يقول الروح هم منذ اليوم يرتاحون من اتعابهم لأن **أعمالهم تتبعهم**» (رؤ ١٤/١٢ ..).

هذه إذاً عين الصراحة: **سوف ندان على** «**اتعاب**» **هذا الجسد**، «**اتعاب**» **هذه الحياة**، **على نور** «**وصايا الله**».

قرأنا عبارة «وصايا الله» في رؤيا يوحنا. ويوحنا لا يستعملها بمعنى «الوصايا العشر». في لاهوته، وصايا الله هي:

— **أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح**.
— **وان نحب بعضنا بعضاً كما أوصانا** (١ يو ٣/٢٣).

إذاً: الإيمان بيسوع المسيح ومحبة الأخوة، هذه هي «الوصايا». هذه هي «الأعمال التي تتبعنا» والتي سوف نجازى عليها.

العمل الأول: الإيمان

بينما الذين لم ينالوا الإنجيل بعد، فهم أيضاً مدعوون للدخول في

الوصية الأولى في تصنيف يوحنا هي إذاً **الإيمان**. طبعاً بقدر استطاعتنا. الخطيئة الأولى التي تسلمنا للادانة هي إذاً رفض الإيمان بعناد رغم النور المعطى لنا. هنا يلتقي يوحنا بتعاليم بولس الذي قرأنا له منذ لحظة شرح «لكل حسب أعماله»: فقد جعل وجهاً لوجه

« الذين يثابرون على الأعمال الصالحة » و« **الذين بتمردهم يثورون على الحق** » . هذه هي خطيئة مقاومة الروح القدس ، خطيئة لا تغفر بمعنى ان كبرياء الإنسان يلتقي كبرياء الشيطان ويمنعه من العودة عنه . هذه هي الخطيئة التي تهلك من يرتكبها ..

انجيل يوحنا بكامله يسير في هذا الاتجاه : فلنقرأ :

بعد تكسير الخبز ، لحقت الجموع بيسوع كما الفراخ وراء الدجاجة .

— تسيرون خلفي لأنكم أكلتم وشبعتم .. اعملوا بالأحرى للغذاء الذي يجعلكم تعيشون الى الأبد .

— كيف نعمل أعمال الله ؟

— **عمل الله هو أن نؤمن بالذي أرسله (يو ٦/٢٦ — ٢٩)** .

لم يقل الرب لنيقوديموس غير هذا الكلام (٣/١٦ ..) : « أحب الله العالم الى حد أنه أعطى ابنه الوحيد **كيلا يهلك كل من آمن به** بل تكون له الحياة الأبدية . لأن الله لم يرسل ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم . **من آمن به لا يدان** . ومن لا يؤمن فقد دين » — دان **ذاته وحكم على ذاته** — « **لأنه رفض أن يؤمن باسم ابن الله الوحيد** » .

هذا يعني أن الجاهل والوثني وغير المؤمن وحتى الملحد عن نية مستقيمة ، **فهم** لا يدانون . لم يرفضوا الإيمان . بالنسبة الى أنوارهم ، هم يعملون « العمل الأول » : الإيمان . أمام الهنا العادل والصالح ، هم يستفيدون من الصعوبة بالنسبة الى « الطوباويين الذين آمنوا » . لهؤلاء يعلن يسوع : « الحق أقول لكم من احترم كلمتي وكرّم من أرسلني له الحياة الأبدية . **وهو لا يأتي الى الحكم** بل قد انتقل من الموت الى الحياة » (يو ٥/٢٤) .

وهذا صحيح بالنسبة الى الذي يتبع باسقامة « نوره » ،

شعب الله... ليس الله ببعيد عن الذين لا يزالون يفتشون في الظلام وفي الصور ، عن اله يجهلونه لأنه يريد أن يخلص كل انسان (الفاتيكاني الثاني) .

« ضميره » . كل ذوي الإرادة الصالحة ، أكانوا مسيحيين أم لا ، قد أوقفوا على خط الانطلاق للامتحان الثاني في الدينونة الأخيرة :

حب بعضهم لبعض .

العمل الثاني : تغذية والباس واسكان... حب

حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالم . لأني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فأويتموني وعرياناً فكسوتموني ومريضاً فأتيتم إليّ . حينئذ يجيبه الصدّيقون : يا رب ، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشان فسقيناك . ومتى رأيناك غريباً فآويناك.. فيجيب الملك : الحق أقول لكم : إنكم كلّما فعلتم ذلك بأحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه . (متى ٢٥/٣٤ — ٤٠) .

كل إيمان ، مهما افترضناه مظلماً أو شاذاً ، يكتشف بسهولة أن عليه أن « يعمل بمحبة » (غلا ٥/٦) . وصية يوحنا الثانية ، هذه امتحان الدينونة العامة هذا — ان **يحب بعضنا بعضاً** — هو مسجل في قلب كل إنسان وكل شعب . سوف لا ندان على احتكارات مسيحية . لا يوجد في البرنامج أسئلة لم تسجل في قلب كل انسان لأنه « **عندما يأتي ابن الإنسان في مجده تجتمع أمامه كل الأمم** » (متى ٢٥/٣٠ ..) لكي تدان بالنسبة الى الشريعة ذاتها ..

أية شريعة ؟... شريعة الحب . « **في مساء الحياة سوف ندان على المحبة** » . هذا ما كانت تردده تريزيا الصغيرة من قول يوحنا الصليبي . من كل الأديان ، من كل الشرائع ، من كل حياة ، سوف لا يبقى سوى المحبة . المحبة هي المادة الوحيدة التي تقاوم نار الدينونة ، كيف نسينا ذلك بينما **الرب ذاته يكشف لنا في متى** (٢٥/٣٠ ..) **سيناريو الامتحان الكبير** ؟

كيف توصلوا الى مناقضة الانجيل فجعلوا من هذا اللقاء الشامل نوعاً من الأسئلة الاخلاقية أو الطقسية ؟ « سوف ندان على الحب »... لكن **أي حب** ؟... ليس تنهدات « النفوس الورعة »... بل الحب العملي الذي نكون قد قمنا به أم لا ، كما يقول الإنجيل بواقعية : ان نعطي الغير المشرب والمأكل والمسكن والملبس والزيارة والمساعدة والتحرّر... الحب العملي الذي نكون قد وزعناه — أو رفضناه — « **لأحد هؤلاء الصغار** » للفقير أي فقير ، للمحتقر ، للمعزول ، للمتسول ، للمجرم في سجنه ، لعازر الذي ترشح

جراحه على أرصفتنا . فالعالم كله اليوم واقف على بابنا : الاعلام وصل إلينا وبإمكاننا أن نعمل .

يا أحبّائي ، فليحب بعضنا بعضاً إذ الحب يأتي من الله — من يحب هو مولود من الله ويعرف الله . ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة . (١ يو ٧/٤ — ٨) .

« من لا يحب ، لا يعرف الله » حتى ولو سجّل ساعة قدومه الى الكنيسة كل أحد وساعة مناولاته كل أول جمعة من الشهر ، حتى ولو كان اسقفاً أو كاهناً أو لاوياً أو راهبة ... الاهتمام بالجريح على طريق أريحا ، وان عدوّا ، هذا ما يضمن الحياة الأبدية ، ولو كنا سامريين ، هراطقة ، ملحدين ، أعداء شعب الله . « لأن من يحبّ مولود من الله ويعرف الله ... لأن الله محبة » . من رضي بالانزعاج ، بالالتزام حباً بأفقر إنسان ، بالمحروم من الحرية ، بالضعيف ، بالمنبوذ ، بالمحكوم اعداماً ، فهو يعيش شيئاً من حياة الله بالذات التي هي تضحية وعطاء وتعرّض للشبهات وحنان وكسر خبز وتقدمة الجسد والدم . لذلك يستقبله يسوع كثمرة ناضجة للملكوت : « تعالوا يا مباركين » . من قلّ ايمانهم وكثرت أعمالهم ، سوف يتعجّبون ... وأصحاب الرأي ؟ ينبهنا المسيح ذاته (متى ٢١/٧) الى أن أكثر من واحد ، يوم الدينونة ، سيبرزون دفتر الممارسة :

« لقد بح صوتنا من الصراخ : يا رب ! يا رب !.. باسمك علّمنا العقيدة الصحيحة وأخرجنا الشياطين وصنعنا العجائب ... بأنياب عدوانية وأظافر هجوميّة دافعوا معاً عن جمود العبارات العقائدية وامتيازات طبقتهم . فهم لا يبالون بالأميّين الذين لا يفهمون طقوسهم ولا بالصغار الذين يموتون بدون خبز أو مقيّدين بالسلاسل .. يريد الديّان أن يقطف ثمار الحب على شجرة حياتهم الانضباطية المشذّبة ... فهم يطلبون :

— يا رب ، افتح لنا ! قد أكلنا وشربنا معك وعلّمت في ساحاتنا ...

— لا أعرف من أنتم (لو ٢٥/١٣ ...) .

« نحن نعلم ، يقول القديس يوحنا ، اننا عبرنا من الموت الى الحياة اذا أحببنا أخوتنا . من لا يحبّ يبقى بين الأموات ... يا أولادي الصغار ، لا نحب بالكلام والفم فقط ، بل بالعمل والحق . بهذا نعرف أننا من الحق ونقدر أن نطمئن قلوبنا أمام الله (١ يو ٣/١٤ و ١٨) .

حكم ، لا ديني ، بل « سياسي »

إذ يتشبّه الله بالإنسان ، يندمج بالمسكين. هو الله من أطعمنا وألبَسْنا وحرّرنا ... وان لم نكن نعرف الله ، حتى ولو كنّا مؤمنين ولم نفكّر بالله ... وهو الله أيضاً من تركنا في عزلته وجوعه واستعباده ، وان لم نفكّر به ... اذ هنا ، في الإنسان ، يتم لنا كلنا وقبل كل شيء اللقاء بالله . **« الدين » الحقيقي هو الذي « يشدنا » الى هذا الاله المجهول ، هذا الأخ المتألم** : « **فمعي فعلتموه !** » **« سر الأخ » وحده يخلّص ، دون باقي الأسرار. والأسرار السبعة الباقية لا تجدي ان لم تقدْ الى الاحتفال به** . هل يمكن أن يدان أحد أجداد ابراهيم وقد عاش قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة بالنسبة الى محبته ليسوع المسيح؟ إنه سوف يدان بالنسبة إلى محبته لإخوته البشر : « معي فعلته ... أو عنّي منعته » . قليلون يكونون قد التقوا بيسوع المسيح . بل قليلون الذين يكونون قد عرفوه . لكنهم جميعاً قد التقوا أخوة أعداء يجب أن يصفحوا عنهم ... « هذا أنا ، يقول لهم يسوع . معي فعلتموه .. أو لم تفعلوه .. » .

فقال الله لموسى : أنا هو الكائن . وقال كذا قل لبني اسرائيل : الكائن أرسلني إليكم . وقال الله لموسى ثانية : كذا قل لبني اسرائيل ، الرب إله آبائكم ، إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، بعثني إليكم . هذا اسمي الى الدهر وهذا ذكري الى جيل فجيل . امضِ واجمع شيوخ اسرائيل وقل لهم : « الرب إله آبائكم تجلّى لي ، إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، وقال أني قد إفتقدتكم وما صُنع بكم في مصر (خر ٣/١٤ — ١٦) .

هذه هي البنية الحقيقية لكل وجود بشري والتي أوحيت لنا نحن المسيحيين : **ما يهمّ الإنسان ، ولأنه يهمه ، هو ذاته يهم الله . حتى ولو كان العمل — المفعول أو المرفوض — لم يعمل في الإيمان** . سوف يقول الانانيون : « لو عرفنا أنّك أنت ! .. » ويقول المحبّون : « عجباً ! لم يخطر أبداً ببالنا أنك أنت ! .. » فيجيب الرب الاثنين : « لم تطعم نواياكم يوماً إنساناً .. لكنني كنت جائعاً في ملايين « النسَخ » وبفضلكم أكلت . لأنني كنت أنا . أو « كنت جائعاً ، كنت أموت

جوعاً في ملايين « النسَخ » فتركتموني أموت جوعاً . لأني كنت أنا . **كلّما كان هناك إنسان ، فهو أنا** ... » **فيظهر** جلياً أن أفق الله الحقيقي هو الأفق الأخوي ، أفق مدينة الناس ؛ ولنقلها بجرأة ، « **الأفق السياسي** » .

إذ ، في مجتمعنا المعاصر ، الأكل والسكن واللباس والتحرر تمر حتماً بالسياسة . في القرن التاسع عشر ، كان بإمكان أعضاء جمعية مار منصور وسيدات الجمعيات الخيرية إيجاد إطار لفقرائهم . أما اليوم فنعلم أن هذا مستحيل وان النظام الاقتصادي الذي نعيش فيه — مستفيدين أو مسحوقين — هو آلة تلد الفقراء على الصعيدين الوطني والدولي . فنحن مجبرون على مسايرة المظالم أو على محو اللامساواة الصارخة وذلك بعمل سياسي .

لا تملّ طقوسنا من ترداد « سلام المسيح » — سلام المسيح هو أولاً سياسي . فالمسيح لا يقف مكتوف الأيدي أمام أمّة تخنق أمّة أو أمة تعمل للحرب وأخرى للسلام ، أو تستعمر الضعيف أو تستغلّه أو تحترمه . أو أمام تعادل ميزان الدفع بواسطة تصدير القمح أو بيع السلاح ...

لذا فالأمم سوف تدان علانية كالأفراد . « أمام الملك ستجتمع الأمم جميعاً . وسوف تدان مثلنا ، بالنسبة الى الإنجيل ، إلى المحبة . الأنظمة الاقتصادية سوف تدان بالنسبة إلى المحبة . الأحزاب السياسية سوف تدان بالنسبة إلى المحبة .. ليس الإنجيل حيادياً . ليس يسوع المسيح حيادياً . **إنه مع الفقراء** .

الله محبة . فمن ثبت في المحبة ثبت في الله والله فيه . بهذا تجعل المحبة كاملة فينا حتى تكون لنا ثقة يوم الدين .. (١ يو ٤/١٦ ..)

والكنيسة أيضاً ، ككنيسة ، سوف تدان بالنسبة إلى المحبة . بالنسبة الى الخدمة ، والتجرّد في سبيل الفقراء ، بالنسبة إلى التزامها في سبيل المظلومين ، بالنسبة الى مغامرتها في سبيل المستعبدين . لا بالنسبة الى اعلاناتها وقوانينها والحق القانوني . المؤسسات الرهبانية

سوف تدان بالنسبة الى المحبة ... الجماعات سوف تدان بالنسبة إلى المحبة .. وأنا سوف أدان بالنسبة إلى المحبة ..

« **الأحياء والأموات** » .

بطرس يبشّر في قيصاريّة !

« إن يسوع الناصري الذي قتله اليهود معلقاً على خشبة ، **قد أقامه الله** في اليوم الثالث... **وهو قد جعله الله ديّاناً للأحياء والأموات** » (أعمال ١٠/٣٩..) .

« الأحياء والأموات » ، ما معنى هذا الكلام هنا ؟

على عهد يسوع ، كان هناك بدعة يهودية ، الصادوقيون ، تنكر القيامة أي الحياة الثانية ، في نظرهم . « بعد الموت ، كل شيء يموت » . هذا كان قانون ايمانهم . وكانت البشرية تقسم في نظرهم الى فئتين : الأحياء ، ما قبل الموت ؛ والأموات ، ما بعد الموت . فيجيبهم يسوع : « الهنا ، كما يقول الكتاب ، هو إله إبراهيم واسحق ويعقوب » **فهو ليس إذاً إله الأموات بل اله الأحياء فقط** » (متى ٣٢/٢٢) . إذاً فابراهيم واسحق ويعقوب والموتى ليسوا أمواتاً ، بل أحياء . لكن حياتهم تتميّز عن حياتنا . بهذا المعنى يرفض يسوع أن نميّز بين أحياء وأموات . لا يوجد سوى أحياء . والموت لا يلد أمواتاً . إنما هو عبور إلى حياة أخرى . حسن لنا أن نتذكّر ذلك : « أمواتنا » — الذين تركوا وظائفهم هنا ليسوا **أمواتاً** بل أحياء .

والآن فلا غرو في أن نقول « الأحياء والأموات » للتمييز بين رفاقنا في الوجود وبين الذين تركونا .

فالرسائل ، كما أعمال الرسل ، تستعمل هذه اللغة المألوفة : « سيُحاسب الخطأة أمام من **هو مزمع أن يدين الأحياء والأموات** » (١ بطر ٤/٥) .

« ياتيموتاوس ، استحلفك أمام الله والمسيح يسوع الذي سوف يأتي **ليدين الأحياء والأموات** » (٢ تيمو ٤/١) .

انطلاقاً من كتابات الرسل حيث درجت مثلاً ، كما رأينا ، أدخلت العبارة « الأحياء والأموات » طبيعياً في قوانين الإيمان . فماذا تعني ؟

المسيح القائم من الموت لن ينسى أحداً

تريد ، أولاً ، أن تطمئننا : في مجيئه المجيد ، لن يميّز المسيح أحداً كيلا يحرم أحدا .

بعد الصعود ، كانت الكنيسة الناشئة ، وكأنّها أرملة منذ أمد قصير ، مشدودة نحو المجيء الذي بشّر به الرب ! لم تكن تريد أن تسمع سوى الرسالة التي اسندت إليها يومئذٍ : « يسوع هذا الذي رُفع إلى السماء سوف يعود هكذا كما رأيتموه يذهب إلى السماء » . هذا التوتّر في الرجاء كان شديداً إلى حدّ أنهم كانوا يشعرون بأن الحدث الأخير قريب جداً . وكان القديس بولس ، في بدء رسالته يشارك في هذا الاعتقاد ؛ فهو يتكلم وكأنّه سيكون بعد على الأرض عند ظهور المسيح في المجد الأخير !

لم يكن قرب هذا الحدث موضوع تبشيره ، إنما كان لديه وحي بالنسبة إلى مصير الذين سيكونون وقتئذ على الأرض يوم مجيء المسيح . وبما أنه لا يزال في عداد الأحياء ، فقد كان يقول : « نحن » عندما يتكلم عن « أحياء » نهاية العالم . فيكتب للكورنثيين : « اسمعوا هذا السر : لا نموت كلنا ، بل نتغيّر كلنا (في جسد ممجّد) في طرفة عين عند صوت البوق الأخير — (أي : البوق رمز للتبشير الرسمي باليوم الأخير) — سيرتفع صوت البوق فيقوم الأموات لابسين الخلود ونحن نتغيّر .. فيتمّ عندئذ الكتاب : لقد ابتلع النصر الموت .. بيسوع المسيح ربنا » (١ كو ١٥/٥١ ..) ومؤمنو

أيها الأحباء ، ينبغي ألا يخفى عليكم أمر وهو أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد . ان الرب لا يبطيء بوعده كما يزعم قوم وإنما يتأنّى لأجلكم إذ لا يريد أن يهلك أحد بل أن يُقبل الجميع الى التوبة . فأيّ سيرة مقدّسة

تسالونيكي ، مع أنهم يترقّبون مجيء الرب القريب ، فلم يكونوا يأملون بالوجود في الحياة يوم المجيء الثاني :

فالوفيات الأولى في الجماعة حملتهم على مواجهة الواقع وأغرقتهم في القلق . من هنا سؤالهم للرسول : ما سيكون مصير الأخوة المتوفّين قبل المسيح ؟ ألا يصلون متأخّرين بالنسبة إلى المسيحيين الذين لا يزالون أحياء ؟ هل سيفوتهم مجيء سيّدهم في المجد ؟ هل هو صحيح أنهم سيقومون من الموت ؟.. فيزيل بولس قلقهم موضحاً : القيامة للجميع . والقائم من الموت لن ينسى أحداً من أخصّائه ، ميتاً كان أم حيّاً . فجميعهم « أحياء وأموات » سيشتركون معاً في اليوم العظيم وعيده . فلنقرأ : « لا نريد أيها الأخوة ، أن تجهلوا مصير الراقدين كيلا تحزنوا كسائر الذين لا رجاء لهم . فإن كنا نؤمن بأنّ يسوع مات ثم قام ، فكذلك نؤمن بأن الذين رقدوا في يسوع ، سينقلهم الله إليه مع يسوع . ونقول لكم ما قاله الرب وهو أنّنا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب لن نتقدّم الذين رقدوا ، لأن الرب نفسه سينزل من السماء عند الهتاف ونداء رئيس الملائكة وصوت بوق الله . فيقوم أولاً الذين ماتوا في المسيح ثم نُرفع معهم في السحاب لملاقاة الرب في الفضاء .. فليشجع بعضكم بعضاً بهذا الكلام » (١ تسا ٤/١٣..).

أمن الضروري التشديد على أن مشاكل التسالونيكيين هذه ، نفاد صبرهم بالنسبة إلى يوم المسيح ، وخوفهم ألاّ يشتركوا فيه ، وجواب بولس المفرح ، كل هذا يبيّن لا الخوف من الدينونة الأخيرة بل نفاد الصبر حتى يأتي ذلك اليوم والإيمان الأكيد بأنه سيكون قبل كل شيء يوم مجد وابتهاج ومحبة .. نشيد « يوم الغضب » قد صنع منه يوم خوف . فحذفته الكنيسة من طقوسها لأن مقاطعه السبعة الأولى تصور لوحة خوف أوحاها مرض الطاعون واحراق الكفرة المألوف في القرون الوسطى ؛ لكنها تناقض الوحي . فلنقرأ ، في رسالة بطرس الثانية (٣) نفاد صبر المؤمنين تجاه يوم الربّ الذي

وتقوى يجب عليكم أن تتصرفوا فيها . منتظرين ومستعجلين مجيء يوم الله الذي به ستلتهب السماوات وتنحّل وتتّقد العناصر وتذوب . لكننا على مقتضى موعده ننتظر سماوات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر . (٢ بطر ٨/٣ — ٩ ؛ ١١ — ١٣) .

قد تأخر كثيراً . المسيحية الأولى ، وقد أنارها إيمان الرسل ، فسّرت رجوع المسيح كحدث ملؤه الرجاء والفرح .

لا يريد الله أن يهلك أحد

كانت كنيسة الرسل إذاً **تنتظر بفرح** وفارغ صبر .. « **دينونة** الأحياء والأموات » .. شيء عجيب ! تناقض !... بل نحن لم نعد نفهم كما يجب ، علينا أن نعود إلى المحبة والتفاؤل الملازمين هذه العبارة الموحاة التي شوّهتها ثقافتنا القانونية ووعّاظنا ذوو الأصوات المدوية ، هذا هو الهدف الثاني لهذا البند من قانون الإيمان . فكرة الدينونة تجعلنا نرتجف نحن أبناء محاكم التفتيش الكبرى والمهلوسين بفكرة حرق الكفرة والعذابات في محاكم الجنايات . انطلاقاً من إرادة تجميد الخطأة حتى العظام ، يصبح سهلاً اختيار بعض جمل من الكتاب المقدّس تعبّر عن الغضب واللعنة . اننا ننسى « شيئاً صغيراً » : الغضب واللعنة ، لقد حملها الابن على منكبيه . نحن نقرأ ونعلن ونشرح القسم الأول من الرسالة إلى الرومانيين حتى ٢١/٣ كما لو كان قرار اتهام يجمّدنا خوفاً ... ونتوقّف عند حكم النعمة بيسوع المسيح : « أما الآن ... » .

بينما ، في الأوساط التي ولد فيها قانون الإيمان ، بقي التراث المسيحي الأول حياً . وكانت كلمة « دينونة » تعتبر طبيعياً كجزء من رسالة النعمة . فالقول : « هو يسوع الذي يدين » كان يعني أن الدينونة وضعت في جو رحمة اله الحب . والقول : « سوف يأتي ليدين الأحياء والأموات » لم يكن يعني أي تهديد : « لن ينجو منه أحد ! » — بل كان كوعد « لن يُترك أحد جانباً بالنسبة إلى حنان يوسف نحو اخوته الخطأة لما التقاهم » . ذاك يعني أن الإنسان يسوع ، الذي كان حيّاً فميتاً ، كان دوره أن يحبّ ويفهم ويجد ويجمع **جميع أخوته البشر ، الأحياء والأموات** ، يوم العيد الأبدي . لا يطرح خارجاً إلاّ من رفض بعناد أن يؤمن أو أن يحبّ .

أنا النور قد أتيت إلى العالم حتى أنّ كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلام . وان كان أحد يسمع أقوالي ولا يحفظها فأنا لا أدينه لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلّص العالم . من رذلني ولم يقبل أقوالي فإنّ له من يدينه ، الكلمة التي نطقت بها هي تدينه في اليوم الأخير . (يو ١٢/ ٤٦ — ٤٨) .

مستند قديم ، عنوانه « الرسالة الثانية الى اقليموس » البابا ، يعبّر بوضوح عن هذا المفهوم الواثق الذي يجب أن نتبنّاه .

« أيها الأخوة ، إليكم كيف يجب أن نعتبر يسوع المسيح : **كإله وكديّان الأحياء والأموات** . لا يجب أن نخفّف من قيمة فدائنا . فإذا لم يكن لدينا عن يسوع المسيح سوى فكرة حقيرة ، كان لدينا أيضاً فكرة حقيرة عمّا يجب أن ننتظر منه . إن لم ننظر إليه إلا باللامبالاة كما ننظر الى الأشياء الصغيرة ، فنحن على خطأ . اننا نخطأ لأننا نجهل من أية وهدة خلّصنا وبواسطة من ولأيّ مصير وبثمن أيّة آلام احتملها يسوع المسيح .. » « دينونة الأحياء والأموات » تعني إذاً الخلاص والفداء والفردوس .

أمـا الآن فقد اعتلن برّ الله بغير الناموس مشهودا له من الناموس والأنبياء . وهو بر الله بالإيمان بيسوع المسيح الى كلٍ وعلى كلٍ من الذين يؤمنون لأنه لا فرق إذ الجميع قد خطأوا فيعوزهم مجد الله . فيبرَّرون مجاناً بنعمته بالفداء الذي هو بالمسيح يسوع (روم ٢١/٣ — ٢٤) .

هكذا نجد لهجة بطرس الموحاة التي أعلنها في قيصرية : « هو يسوع من دعاه الله **ديّاناً للأحياء والأموات** . له يشهد جميع الأنبياء : غفران الخطايا يُمنح باسمه لكلّ من يضع إيمانه فيه » (أعمال ٤٢/١٠ ..) .

عندئذ نفهم رسالة بطرس الثانية (٨/٣ ...) التي تهدف الى تطمين من يكتب إليهم : « حاولوا أن تفهموا : في عين الرب ، يوم هو كألف سنة وألف سنة كيوم . والله لا يتأخّر بالنسبة إلى مواعيده . كما يظن البعض ، إنه طويل الاناة بالنسبة اليكم لأنه يريد ألاّ يهلك أحد بل أن يصل الجميع الى التوبة » .

« بعد هذا كله ، ماذا نقول ؟ إذا كان الله معنا ، فمن يكون علينا ! الله الذي ما بخل بابنه ، بل أسلمه إلى الموت من أجلنا جميعاً ، كيف لا يهب لنا معه كل شيء ؟ فمن يتّهم الذين اختارهم الله ، والله هو الذي برّرهم ؟ من يقدر أن يحكم عليهم ؟ ويسوع المسيح مات ، بل قام ، وهو الذي عن يمين الله يشفع فينا ! فمن يفصلنا عن محبة المسيح ؟ أشدّة أم ضيق ؟.. وأنا على يقين أن لا

موت ولا حياة.. ولا شيء يقدر أن يفصلنا عن محبّة الله في ربنا يسوع المسيح» (روم ٨/٣١..).

«متى سيتم ذلك؟..»

لقد سأل التلاميذ يسوع: «ما هي علامة مجيئك وانتهاء العالم». نجد الجواب في فصلين متوازيين (متى ٢٤/ مر ١٣). خراب الهيكل القريب، زمن الكنيسة ومجيء ابن الإنسان الأخير: بهذا أنذرهم في مشهد متعدّد الآفاق، صعب التمييز غالباً.

أنذر بسبع علامات، بترتيب متشابه وبتعابير متماثلة تقريباً:

* «**مسحاء كذبة وأنبياء كذبة يغشّون أناساً كثيرين**».

— مسحاء ذوو تعليم رخيص: التاريخ مليء بأمثالهم. أشخاص، أنظمة، قوات، عقائد، حركات جماعية... يظهر أن القديس بولس يتنبأ عن مسيح دجّال فرد. لكن متى نعرف أننا نواجه الأخير، المسيح الدجّال الأكبر؟

أمّا مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه، فنطلب إليكم أيها الأخوة، ان لا تتزعزعوا سريعاً في أفكاركم ولا ترتعبوا من نبوءة أو قول أو رسالة كأنها منا تقول أنّ يوم الرب اقترب. لا يخدعكم أحد بشكل من الأشكال فيوم الرب لا يجيء إلا بعد أن يسود الكفر ويظهر رجل المعصية، ابن الهلاك. والعدو الذي يرفع نفسه فوق كلّ ما يدعوه الناس الهاً أو معبوداً. فيجلس في هيكل الله ويحاول أن يثبت أنه اله. (٢ تسا ٢/١ — ٤).

* «**حروب وأخبار حروب... تقوم أمّة على أمة**».

هذه لحمة التاريخ كله، منذ أيام يسوع المسيح.

* «**يكون هنا وهناك مجاعة وهزّات أرضية**».

— منذ الأزل! وحتى متى؟...

* «**يسلمونكم عندئذ للعذاب والموت**».

— ولدت الاضطهادات مع الكنيسة وكبرت معها كالزؤان مع القمح..

* «**كثيرون يسقطون... ونظراً للجحود المتزايد تجف محبة الكثيرين**».

— هذا هو زمننا!... لكن آباء الكنيسة تذمّروا من هذا منذ

ألف وخمسمائة سنة !..

* « **بشارة الملكوت الجديدة هذه سوف تعلن في العالم كله... وعندئذ يكون الانقضاء** » .

— ما معنى « العالم كله »؟ جميع الأمم كما هي ؟ أو أهمّ التجمّعات ؟ والى أي مدى ؟ انّه السر.

* « **والاوّلون يصيرون آخرين** » (متى ١٩/٣٠) . « **قسم من الإسرائيليين قسّوا قلوبهم الى أن يدخل** (في الملكوت) **جميع الوثنيين . وعندئذ يخلص جميع بني اسرائيل** » (روم ١١/٢٥ ..) .

— تبدو هذه العلامة التي يعطيها القديس بولس أوضح من سائر العلامات . أوهام ! لم يقل أن هذا الارتداد سيكون جماعياً . ولا أن مجيء الرب سيتبعه رأساً .

* « **وبعد ضيق هذه الأيام ، تظلم الشمس ويشحب القمر وتسقط النجوم من السماء ... عندئذ تظهر علامة ابن الإنسان..** » .

— الذين ألفوا قراءة الكتاب المقدس وفنّ الرؤيا الأدبي ، يعلمون أن هذه إنما هي صور رمزية مألوفة تعني فقط : « سيكون يوماً عظيماً » كما قالوا عن إرساء بواخر الحلفاء في النورماندي « أطول يوم في التاريخ » .

الحقّ أقول لكم : ستأتي ساعة ، بل جاءت الآن ، يسمع فيها الأموات صوت ابن الله ، فيحيا الذين يسمعون (يو ٥/٢٥) .

وباختصار : **علامات النهاية تظهر لنا عبر كل العصور . وذلك لتحرمنا النوم كالعذارى الجاهلات** : « **اسهروا لأنكم لا تعلمون اليوم ولا تلك الساعة !** » (متى ٢٥/٥ ..) .

على المسيحيين أن يكونوا الساهرين الكبار في عالم نائم لا ينتظر شيئاً : « يأكلون ويشربون ويسكرون ويشترون ويبيعون ويبنون.. » وإذا بالطوفان قد أتى (لو ١٧/٢٦ ..) ..

طوبى للذين يعيشون الحوار الذي يختتم سفر الرؤيا :

— نعم ، إني آتٍ سريعاً .

— آمين ! تعال ، أيها الرب يسوع !

١٥

نؤمن بالروح القدس

« الروح القدس في الكنيسة »

إذا كنتم تحبونني تعملون بوصاياي ، وسأطلب من الآب أن يعطيكم معزّياً آخر يبقى معكم الى الأبد ، روح الحق الذي لا يقدر العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه . أما أنتم فتعرفونه لأنه يقيم معكم ويكون فيكم . لن أترككم يتامى بل أرجع إليكم . بعد قليل لن يراني العالم وانتم ترونني . ولأنّي أحيا ، فأنتم ستحيون . وفي ذلك اليوم تعرفون أني في أبي وأنكم أنتم فيّ مثلما أنا فيكم . (يو ١٤/١٥ — ٢٠) .

لقد دخل الله في صميم التاريخ البشري . لذلك فقانون ايماننا ، في القسم الثاني منه — « نؤمن بيسوع المسيح . . » — يجعلنا نتتبع قصة ابن الله منذ تجسدّه ، حتى صعوده الى السماء .

أما القسم الثالث الذي نحن بصدده — « نؤمن بالروح القدس . . » — **فهو التكملة على الأرض** لقصة المسيح **منذ الصعود والعنصرة** عبر « زمن الكنيسة »

— **قصّته** على الأرض منذ صعوده **الى السماء ؟؟؟.. لا ، ولكن . . .**

— **لم يترك اليهودية إلاّ ليكون حاضراً في كل مكان ولكل أحد** . « أنا ذاهب وآت إليكم » (يو ١٤/٢٨) . « ها أنا معكم طول الأيام حتى انقضاء الدهر » (متى ٢٨/٢٠) .

هذا الحضور ، ديناميّة يسوع هذه العميقة في الكنيسة والعالم هي شخص ، له اسمه : الروح القدس . **هذا القسم الثالث من قانون الإيمان هو إذاً وحي عمل الروح في البشر** .

فهو لا يتكلم عن الروح القدس كأقنوم في الألوهة ، بل عن الروح القدس كعطيّة الله للبشر وبخاصة لجماعة المؤمنين بالمسيح . قانون الإيمان الذي يتلى في العماد في روما في القرن الثالث يعني تماماً ما يأتي : «**أؤمن بالروح القدس في الكنيسة المقدسة ، لقيامة الأجساد**» (نوتان) .

هذا لا يعني أن حياة الثالوث الإلهي بحد ذاتها — حياة العائلة الالهية الخاصة ، إذا صح التعبير — لا تهمنّا . طبعاً قانون الإيمان لا

يهملها . تكلمنا عن هذا في الفصل الخامس . لكننا لا نعرف الله في **ذاته** إلاّ بواسطة **علاقاتنا به** . لذلك فشهادة إيماننا لا تحدّثنا عن إله خارج تاريخنا أو يتخطى تاريخنا ، بل عن إله محبة يهمّه الناس ، عن « الهنا معنا » ، عن « ثالوث معنا » ، الاله الذي أوحي في يسوع المسيح : « إله يسوع المسيح » . لا نجد في قانون الرسل قسما رابعاً : « نؤمن بكنيسة . . » لأن الكنيسة بدون الروح شركة بشرية عادية لا غير ، كجسد بدون روح ، أي جثة فقط — وعلى العكس فالروح بدون الكنيسة لا يجد أمامه من يحييهم ويجعلهم « يتنشقون » ، أي كالهواء بدون رئة .

« ما لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة التي حدّدها الآب بسلطانه . ولكن الروح القدس يحلّ عليكم ويهبكم القوة وتكونون لي شهوداً في أورشليم واليهودية كلها والسامرة حتى أقاصي الأرض (أعمال ١/٧ — ٨) .

في العصور الأولى ، في ضمير المؤمن ، كانت نتيجة ذلك أن الإيمان بالروح والإيمان بالكنيسة لا يفترقان . .

وانها لكارثة أن يكون هذا الاتحاد قد تفكّك . فالتعليم في موضوع الروح القدس وفي موضوع الكنيسة تأثّر بهذا التفكك . فلم يعد يُنظر الى الكنيسة في حقيقتها الروحية ، السرّيّة بل في حقيقتها الأرضية ، المؤسسية كالمؤسسات المدنية والحربية التي عاشت معها وكأنّها ثالثتهما .

وتوصلوا هكذا إلى شرحها انطلاقاً من مفاهيم القوّة ، تماماً كما يشرحون أي مجتمع ، وعندئذ ... لم يعد هناك مكان للروح القدس بعد أن نُحّي بطريقة سخيفة الى نوع من التقوى فحسب ، أو إلى بهلوانيّات النظريات اللاهوتية . فالأمانة لقانون إيماننا يفرض علينا إذاً عملا مهما جدّاً : « فكّ قيود » الروح القدس « لتنقية هواء » الكنيسة . ليس المطلوب حذف الصيغة المؤسسية . فالابن لم يخلّص العالم بتجسّده — على كل بتجسده ظهر بدون شفقة ازاء نواتىء المؤسسيّة — لقد خلّص الابن العالم بموته تحت ضربات السلطات الدينية والمدنيّة ، بقيامته وصعوده ، بإرساله روحه مع « انفتاحه » وعظمته التي لا تعرف حدوداً ولا مساحات محظّرة ، مع حريّة

« الهواء الذي يهبّ حيث يشاء » (يو ٣/٨) .

من هو إذاً الروح القدس ؟

يتكلّمون عنه كثيراً ، وقد عاد الى الواجهة . ومع ذلك .. ليس الكلام عنه بهذه السهولة : « القريب الفقير » في الثالوث الأقدس ، كما قيل عنه مؤخراً ! « نؤمن بالروح القدس » : أؤمن به لأنه يعمل العجائب التي نذكرها في قانون الإيمان بعد أن نذكره . هو يخلق الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة . هو يخلق شراكة القدّيسين . في كل ما يصنع لحمة قانون إيماننا ، الروح القدس حاضر . وكيف يكون الحال على غير هذا المنوال ؟... أيها الروح القدس ، من أنت إذاً ؟

لم يوح ذاته إلاّ تدريجياً

كلمة « روح » تعني « هبوب » ريح ..

* « روح الله » هو قبل كل شيء الريح ، هذا **الريح** العجيب « الذي كان يرف على وجه المياه » (تك ١/٢) . أي **الريح بكل ما في هذه الكلمة من حركة وحياة** . الريح هو عكس المادة الثقيلة والجامدة . هذا الريح يجلب المطر في الصحراء ويخصب الأرض ويسمح بالحياة .

* الروح هو **نفَس الله في الخليقة** : « **فصنع** الله الإنسان من تراب الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان كائناً حياً (تك ٢/٧) ..

* ثم عُرف هذا « النَفَس » **بروح الله** كذلك ينعش القضاة (جدعون وشمشون ويفتاح) ، والملوك والأنبياء . لم يكونوا قد عرفوا بعد أنه شخص . لكنهم عرفوا أنّ هذه السَمة تجعل الإنسان يحيا

الى أن يفاض علينا الروح من العلاء فتصير البرية كرملا ويُحسب الكرمل غاباً . ويسكن الحق في البرية والعدل يستمر في الكرمل . ويكون عمل العدل سلاماً وفعل العدل راحة وطمأنينة الى الأبد . (اشعيا ٣٢/١٥ — ١٧) .

ويفكّر. وهو سيكون عطيّة الأزمنة المسيحانية (اشعيا ٤٤/٣ — ٥) : «سأفيض ماء على الأرض العطشى وأمواجاً على الأرض الجافة. سأفيض روحي على نسلك وبركتي على أبنائك».

الروح هو نَفَس الله في القيامة. فلنقرأ ما جاء في رسالة القديس بولس الأولى الى الكورنثيين (١٥/٤٥) : «جُعل آدم الإنسان الأول نفساً حية وآدم الأخير روحاً محيية». إنه التجديد التام للإنسان بواسطة الروح الذي يقيم الأموات.

ونسمة الحياة في القائم من الموت، هو يسوع الذي يعطيناه. فيسوع سيوحي بوضوح أن الروح هو شخص. وفي العنصرة سيدعون الروح القدس باسمه الحقيقي وسيعرفون أننا أعطيناه بقيامة المسيح : ففي ريح العاصفة سيفهم الرسل ويفهم نيقوديموس أن الروح هو شخص. يسوع أعطانا الروح الذي يسمح لنا بان نتنشّق ريح الآب.

يسوع والروح

قال الملاك لمريم : «الروح القدس يحلّ عليك وقوّة العلي تظلّلك. لذلك القدّوس الذي يولد منك يدعى ابن الله» (لو ١/٣٥).

لقد حبل بيسوع من الروح القدس. فهو بكليّته ثمرة الروح. هذا اسمى بكثير من تكريس يأتي بعد الحبل به، كما هي الحال بالنسبة إلى يوحنا المعمدان وهو أكثر من حفلة تنصيب. جاء يسوع بواسطة الروح القدس.

إنّ روح السيد الرب علي لأن الربّ مسحني لأبشّر المساكين وأرسلني لأجبر منكسري القلوب وأنادي بعتق للمسبيّين وبتخلية للمأسورين. (اشعيا ٦١/١).

لذا لن يكون عمل الروح القدس في يسوع عملاً عرضياً مؤقتاً، بل عملاً دائماً. كل ما يقول يسوع يقوله في الروح. كل ما يعمل يعمله في الروح. لم يمتلك أحد الروح قط كما امتلكه هو. فالروح يحل على يسوع (اشعيا ٦١). ولا وجود لديه من هذا النوع من الاستيلاء الذي يغيّر الإنسان كما حصل للأنبياء. بل يملك يسوع الروح بطريقة عادية بحيث أنه من الممكن القول أنه لا يملكه! لا وقت للروح عنده : بل الزمن كله في ملء الأبدية، لا أكثر ولا

أقل . لا يستولي الروح على يسوع كما من الخارج لأنه في يسوع هو في بيته ، هو روح يسوع كما هو روح الآب .

* **يسوع تعمّد في الروح** على ضفاف الأردن : « حلّ الروح عليه » ويقول متى : « وللحال امتلأ يسوع من الروح القدس **واقتاده الروح الى البرية** » . ليُجرَّب (متى ٤ /١) . وعند الخطر سيسطع روح يسوع البنوي أمام أبيه . فعرف الشر يومئذ أنه غُلب على أمره . اذ لا انتصار بدون اختبار قوة . جاء يسوع في عالم خاطىء ، التجربة من شروطه ومقاومته قدوة لمقاومتنا . اعتمد يسوع في الروح ، وكذلك في التجربة .

وعندما أخذ يسوع الخلّ قال : لقد تمّ كلّ شيء . فأحنى رأسه وأسلم الروح . (يو ١٩ /٣٠) .

* **يسوع يعمل في الروح** . فيه يجابه الشرّ ويشفي المرضى ويحرّر من أنواع العبودية . فيه يبدأ رسالته . فلنتذكّر حديثه في مجمع الناصرة . إنه يعمل في الروح .

وبقوة الروح سوف يقوم من الأموات (روم ١ / ٤ ؛ ١ بطر ٣/١٨) . فالقيامة هي العمل الأكثر انتعاشاً في الروح في حياة يسوع .

* وأخيراً ، يشدّد متى عمداً ، **مات يسوع** « **وهو يُسلم الروح** » الروح هو العطيّة التي بدأت تصدر عنه . وفي الغد سوف ينفخ في رسله قائلاً : « اقبلوا الروح القدس » (يو ٢٠ /٢٢) . القريب الفقير داخل الثالوث الأقدس ؟ لا قريب فقير في هذه العائلة ! الأقانيم الثلاثة مميّزون لكنهم متّفقون دائماً فيما بينهم لأن الروح القدس « المنبثق من الآب والابن » هو ذاته الحب بين الآب والابن كما الولد هو الحب الحي بين الرجل وامرأته ، على وجه التقريب . لقد كتب القديس برنردس ، وقد كان شاعراً هو أيضاً : « إذا تمثلنا الآب كمن يعطي قبلة والابن كمن يقبلها ، فالروح القدس هو هذه القبلة بالذات . اذ هو الرباط غير المنفصم بين الآب والابن . هو الحب الذي لا يفارقهما والوحدة التي لا تتجزأ » .

وفي مساء ذلك الأحد كان التلاميذ مجتمعين والأبواب مقفلة خوفاً من اليهود . فجاء يسوع ووقف بينهم وقال : « سلام عليكم » . وأراهم يديه وجنبه . ففرح التلاميذ عندما شاهدوا الرب . فقال لهم يسوع ثانية : « سلام عليكم ! كما أرسلني الآب أرسلكم أنا » . قال هذا ونفخ عليهم وقال : « خذوا الروح القدس » (يو ٢٠ /١٩ — ٢٢) .

يرينا الكتاب المقدس الله ملتزماً أكثر فأكثر بخليقته ومعطينا ذاته أكثر فأكثر لكي يحيا الناس فيه . قرّر الله مخطّط الحب هذا وقدّمه للتنفيذ . وجاء الابن يبشّرنا به بتعابير بشرية وبحياة وموت بشريين . والروح يعطينا القوّة لكي نحب . «اني باصبع الله أخرج الشياطين» يقول يسوع : **إصبع الله هو الروح** .

أسس يسوع الكنيسة والروح يحييها . أطلق يسوع الرسالة والروح يصادق عليها . اسّس يسوع الأسرار والروح يجعلنا نحيا بها . تكلّم يسوع والروح يجعلنا نفهم الكلمة . العمل هو ذاته يحققه عاملا الآب .

الروح والبشر

ولما جاء يوم العنصرة كانوا مجتمعين كلّهم في مكان واحد . فخرج من السماء فجأة دوّي كريح عاصفة فملأ البيت الذي كانوا فيه . وظهرت لهم ألسنة نار فانقسمت ووقف على كل واحد منهم لسان .. فامتلأوا كلهم من الروح القدس وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغتهم على قدر ما منحهم الروح القدس أن ينطقوا . (أعمال ١/٢ — ٤) .

البنديكستي تعني **الخمسين** . كلمة يونانية : **هو اليوم الخمسون بعد العيد الوحيد** ، **عيد الفصح** ؛ **إنه الفصح يبلغ ذروته** . هو عمل الابن يكمّله شخص آخر . البنديكستي (العنصرة) هو العيد ذاته طيلة خمسين يوماً . هو الفصح يعطي ثمرته ، الروح «رأس الأعياد» يقول يوحنا الذهبي الفم .

لا تعيّد العنصرة شخصاً ما بل حدثاً . لا يوجد أعياد للآب أو الابن أو الروح في حد ذاتهم . العنصرة تعيّد لحدث حصل مرّة وهو يغيّر الى الأبد العلاقات بين الله والناس .

عرفنا يومئذ أن الخليقة المتواصلة وتطوّر العالم يمكن بناؤهما على غير الجريمة والانقسام . برج بابل تهاوى الى الأبد أمام أعجوبة اللغات .

عندما أعيّد العنصرة ، لا أكتفي بأن أعيّد ذكريات . بل أقف في مصبّ عطيّة الله . «إنه كان ولا يزال وهو آتٍ» . هذا ما يقولونه عن الله ؛ ويمكن أن نقوله عن أحداث الخلاص وعن اعيادنا الطقسية . الروح القدس هو الموزّع الأساسي للحياة والحب . في داخلنا هو الصلة الحميمة بين الإنسان والله . «أرسل الله في قلوبنا

وكان بطرس هناك مع الأحد عشر ، فرفع صوته وقال لهم : «أيها اليهود ، ويا جميع المقيمين في أورشليم ، أصغوا إلى كلامي واعلموا هذا ! ما هؤلاء سكارى كما تظنّون . فنحن بعد في الساعة التاسعة صباحاً . وما هذا إلا ما قاله النبي يوئيل : «قال الله : في الأيام الأخيرة أفيض من روحي على جميع البشر ، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً . وعلى عبيدي وإمائي أفيض من روحي في تلك الأيام فيتنبأون كلهم» (أعمال ١٤/٢ — ١٨) .

روح ابنه الذي يصرخ «أبّا» بالآرامية ، وبالفرنسية : «بابا» . محبة الله أفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أعطيناه (روم ٥/٥) .

هذان العاملان العظيمان ، يسوع والروح ، يقومان بالعمل ذاته لمجد الآب ويجبلان التراب الإنساني ليقف الإنسان الجديد على رجليه !

في العنصرة ، قرأ الرسل الكتاب المقدس بعينين جديدتين تماماً . «يسوع هذا الذي قتلتموه قد قام . ونحن شهود لذلك . وهو أرسلنا نحمل البشرى السارة» . بعد أن كان هؤلاء الرجال خائفين ، منزوين في بيت أحكموا إغلاقه تجنّباً لما قد يلي الجمعة العظيمة ، سوف لن يرتجفوا بعد اليوم أمام المحاكم البشرية .

بدون الروح القدس ، يبقى الله بعيداً والمسيح يبقى في الماضي والإنجيل حرف ميت والكنيسة مؤسّسة كاذبة والسلطة تسلّطاً والرسالة دعاية والعبادة ذكرى والعمل المسيحي أخلاقيّة عبيد . (البطريرك اثناغوراس) .

لقد فهموا الإنجيل ، أخيراً ، كبشرى سارة . ومع الرسل ، ها إن البشرية جمعاء قد حرّكها الإيمان والرجاء والمحبة ، وأخيراً لقد اتحد الناس بربّهم ، بواسطة يسوع أخيهم ، كأبناء للآب . كان المسيحيون الأولون يعرفون بوضوح أن الروح القدس يقرّر أعمال الجماعة . والروح يدعو بقوّة : «وبينما كان بطرس يتكلّم إذا **بالروح يحلّ** على كل الذين كانوا يسمعون الكلمة» (أعمال ١٠/٤٤) «وبينما كانوا يقومون يوماً بأعمال العبادة للرب ويصومون ، قال الروح القدس : افرزوا لي برنابا وبولس للرسالة التي انتدبتهم لها» (أعمال ١٣/٢) . فيما بعد أراد بولس وسيلاً الذهاب إلى بيثينيا . لكن «روح يسوع لم يسمح لهما بذلك» . أراد الروح أن ينفتح الغرب ، أي أوروبا ، على الانجيل . فلم يكن من الضروري البقاء في الشرق . كلما تكلموا عن الروح القدس ، روح العنصرة . فالحديث يدور على الجرأة والخلق . فلنعمل على ألاّ ينطفىء هذا الروح في جماعاتنا المعاصرة . يجب أن نجد اليوم كلمات الرسل : «الروح القدس ونحن قرّرنا» (أعمال ١٥/٢٨) .

ما عساه سيحلّ بنا لولا الروح القدس ؟ نصبح خائفين ، غير قادرين على أن نجد حوالينا أشخاصاً نحبّهم أو بواعث للرجاء ! لأن حبّنا ضعيف وايماننا فاتر ، نبقى متعلّقين بأضواء مخيّلتنا الضعيفة . بحجّة أن الحمامة كانت ترفّ على الأردن ، نجعل من الذي لا يقدر الكون أن يسعه طائراً عادياً !

من أنت إذاً ، أيها الروح القدس ؟ لا أعرف تماماً لأنّ الله وحده يقدر أن يتكلّم عن الله . لا أعرف من أنت . ما أعرفه هو أنني بدونك لا أستطيع أن أرفع لله الآب الصلاة التي جاء يسوع يعلّمها للأرض : أبانا... بدونك أصبح قمراً صناعياً أضاع نهائياً مركز جاذبيته وغاص بسرعة كليّة في الليل ..

الروح يجعلنا أذكياء

الروح القدس يخلق رجال « روح » ، أي « أذكياء » . ألا يجب أن نعتبر العقل فضيلة ؟

قد تقولون أن على الأرض عدداً لا يستهان به من السفهاء يبرهنون عن روح خلاّقة . إنما لا علاقة للعقل الذي يعطيه الروح القدس بجيل « دماغ كبير » ! إذا نظرنا العقلانية العلمية ، نرى أناساً أقوياء بالنسبة الى بعض مواضيع وحمقى في حياتهم ! **الروح القدس يجعلنا اذكياء «مفكّرين» وليس «عقلانيين»** . الفرق بين الاثنين كبير . كلّنا يعلم أن العقلانية العلمية قد تجرّ الى الجريمة إذا لم تكن عاقلة : إذ يكفي مثلاً أن نقرّر عقلانياً أن مدنيتنا الغربيّة يجب ألا تشتغل على موادّ أولية بخسة لتسبّب الجوع لقسم من البشرية . هذا أمر عقلاني ، لكنه ليس عاقلاً ، ليس « ذكياً » !

عندي كلام كثير أقوله لكم بعد ، ولكنكم لا تقدرون الآن أن تحتملوه . فمتى جاء روح الحق أرشدكم الى كل حق لأنه لا يتكلم من عنده بل يتكلّم بما سمع ويخبركم بما سيحدث . سيمجّدني لأنّه يأخذ كلامي ويقوله لكم . كل ما للآب هو لي لذلك قلت لكم . يأخذ كلامي ويقوله لكم . (يو ١٦/١٢ — ١٥) .

الروح يجعل الناس خبراء في أسرار الله . في عصور الكنيسة الأولى ، كان العماد « يُثبّت » في سر التثبيت . فالعماد وتثبيته كانا يؤلفان مع

الأفخارستيا أسرار «التنشئة المسيحية» . وكان الروح القدس يضمن صدق المسيرة ويقوّي خطى المهتدين .

أن نكون أذكياء ، لا يعني أن نؤمن بأشياء فحسب . ليس قانون أيماننا مجموعة عقائد ميتة ، ولا مجموعة بين المجموعات ، ولا مستودعٌ «للودائع» . الذكاء ! به أعلم أن يسوع القائم من الموت لا يمكن أن ندفنه بعد في الماضي . ليس لدينا صورة فوتوغرافية عن المسيح ولا نسمع كلامه على شريط مسجّل . ذلك بلا شك لكي نفتّش عن وجهه الجديد دائماً والمحيّر في الآخرين ، بواسطة عقلنا المفكِّر ، ولكي نسمع من فم إخوتنا كلمات الإنجيل الجديدة دائماً .

تجربة الماضي

واطلب من إله ربّنا يسوع المسيح الآب المجيد أن يعطيكم روحَ حكمة يكشف لكم عنه لتعرفوه حقّ المعرفة وأن ينير بصائركم لتدركوا الى أي رجاء دعاكم وأي كنوز مجد جعلها لكم ميراثاً بين القدّيسين وأي قوّة عظيمة فائقة تعمل لأجلنا . (أفسس ١/١٧ — ١٩) .

الروح القدس ينتشلنا من الماضي .

لا نتوصّل الى يسوع القائم من الموت بمحاولة تجميد حضوره في ذكريات الماضي . «لا تفتّشي عن الحي بين الأموات» . فالروح يمنعنا من التلذّذ بالذكرى فقط . «اذكر يسوع المسيح القائم من الموت» . نعم ولكن أذكره لأنه قام من الموت وهو حيّ بين الأحياء .

لقد ظهر يسوع عدة مرات بعد قيامته . لكنه لم يبق طويلاً على هذه الحالة . بعد أن أزال الشك والتردّد عن تلاميذه ، تركهم وقد سلّمهم رسالة : أن يبشّروا بحياته ويغفروا الخطايا ويعيدوا الرجاء للمساكين : الإيمان بيسوع المسيح ليس دين الذكريات ولا دين الأموات .

لو لم يأت الروح ، لبقي الرسل كما كانوا : حافظي ذكريات كحرس نابوليون : ولكانت هذه الحالة دامت زمناً محدوداً أو تحوّلت الى بدعة ؛ ولما كان العالم تغيّر بتاتاً .

إنما لحسن الحظ أتت العنصرة . وللحال تحوّل الإيمان الى مغامرة مع المسيح . واذا ما تذكّر المسيحي أعمال المسيح ، فلكي يعيش هذه

الذكرى اليوم بروح المسيح . **فنحن مدفوعون الى الأمام** .

يرينا الإنجيل أن إحدى كبريات تجارب الرسل قبل العنصرة كانت تجربة الماضي . أرادوا أن يحبسوا يسوع في ذكريات تاريخية بالية وفي أحلام اصلاح سياسي : «هل تريد اليوم بناء الملك؟» أرادوا أن يروه دائماً بعيونهم وأن يلمسوه بأيديهم . فالمجدلية ، التي حاولت ، كما في الماضي ، تقبيل رجليه ، سمعته يقول لها : «لا تلمسيني ، لا توقفيني هكذا..» علينا أن نتعلّم كيف نتخطّى عاداتنا .

هناك ما هو شرّ من الأفكار الشريرة وهو أن يكون لدينا أفكار جاهزة سلفاً . هناك شر من النفس الشريرة ، وهو أن يكون لدينا نفس جاهزة سلفاً . هناك شر من النفس الفاسدة وهي النفس التي اعتادت. (شارل پيكي) .

حقاً ان يسوع اليوم هو هو ذاته . **لكنّ روح الفصح يعلّمنا أن نكتشف وجهه** . لقد حفظت الكنيسة أناجيل أربعة كشهادات ثمينة . أليس على كلّ منا أن يكتب في صدره إنجيله الخاص نظراً لحالة البحث التي يعيشها ! فسوف لا يحسدنا متى أو مرقس أو لوقا أو يوحنا !

بدون الروح ، قانون إيماننا يبقى غامضاً والوحي عمليّة إنزال جوّي . ليس الله استاذاً فاشلاً ترك لنا مجموعة عقائد وأعطانا أمثولة استظهار . فالروح يمنعنا من أن نسمّع ديننا كالشيء المحفوظ عن ظهر القلب . «فليضيء الله عيون قلوبكم» ، هكذا يصلّي القديس بولس . ويقول القديس يوحنا : «تصبحون أبناء النور» . وهذا النور مكوّن من «**حقائق حيّة يجب التعمّق فيها**» ، يزيد القديس ايريناوس . الروح هو نور قوّة يدعونا الى العمل لا إلى الراحة المطمئنّة . فيما يتعلق بالراحة الدائمة ، سنرى فيما بعد . الكنيسة بحاجة الى عقائد تلتقي عندها الجماعة . لكنّ العقائد وحدها ، كما تقول ماري نوال ، هي «الروح القدس في قفص» !

الأسرار حياة بالروح

«بدون الروح القدس ، العبادة محض ذكرى» ، يقول البطريرك

أثناغوراس . بدونه ، ما هي الأسرار ؟ طقوس موروثة تقليدية وغالباً فولكلورية ودائماً بدون جدوى . مظاهر طقسية ! كل ما يلزم : المادّة والصورة . ما يُدوَّن في السجلات . لقد صنفنا ما يجب ! علامات غريزة السحر الدينية القديمة . في هذا الترتيب ، نجد الإيمان بين أغراض المسافرين ، في مستودع المحطة !

فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم : إن لم يولد الإنسان من الماء والروح فلا يمكنه أن يدخل ملكوت الله . فالمولود من الجسد هو جسد والمولود من الروح هو روح . فلا عجب ان قلت لك : يجب أن تولد من فوق . (يو ٣/٥ — ٧) .

مع الروح ، تصبح الأسرار أعمال المسيح القائم من الموت . « المولود من الروح هو روح » يقول القديس يوحنا . نصبح كائنات « روحية » . نعيش حياة « روحية » ، حياة روح المحبة بالذات ، الحياة الجديدة .

كل **عماد** يتم في الروح القدس . « عليك أن تولد من الماء والروح لتدخل ملكوت الله » . هذا ما شرحه يسوع لنيقوديموس .

قلنا سابقاً أن **التثبيت** هو « تثبيت العماد » . فالسران مرتبطان إلى حد أن الكنيسة الأولى لم تكن تفرّق بينهما . ذلك أن من أراد أن يصبح عضواً في الكنيسة ، أصبح عضواً في المسيح وقبل الروح . ولكي يظهر هذا الانتساب المزدوج — إلى المسيح والى الروح — تأسّس سرّان . فالعماد يعبّر خاصة عن الاتحاد بالمسيح والتثبيت عن تقبّل الروح . فالعماد والتثبيت معاً يحققان إذاً ، وكل في حينه ، سرّ المسيح الواحد ، نعمة الفصح الواحدة : فيصبح المؤمن المسيح يعيش الروح فيه . فالروح قد أُعطي في المعمودية والتثبيت يكمّل هذه العطية . العماد يجعلنا أحياء والتثبيت موزّعي حياة . بالمعمودية نحن مدعوّون وبالتثبيت نحن مرسَلون . **والأفخارستيا** تروينا من الروح القدس (١ كو ١٢/١٣) . بينما كهنوت المؤمنين يولد من الروح . إذ كيف نمجّد الآب بيسوع المسيح إذا لم يكن « في أتحاد الروح القدس » ؟ لا صلاة في القداس إلاّ وتُختَتم بهذا الإعلان .

ثم قال لهم يسوع : « السلام لكم ! كما أرسلني الآب . هكـذا أنـا أرسلكم » . ولما قال هذا نفخ عليهم وقال : « خذوا الروح القدس . من غفرتم له خطاياه تغفر له ومن أمسكتم عليه خطاياه ، أمسكت عليه » . (يو ٢٠/٢١ — ٢٣) .

غفران الخطايا ، كما نعلم جميعنا ، تأسّس مساء القيامة ، باعطاء

الروح . « اقبلوا الروح القدس : تُغفر الخطايا .. » (يو ٢٢/٥ ..) روح المحبة هو المصالحة الشاملة .

ما هو الزواج إن لم يكن حياة شخصين راحا يتبادلان كل شيء لأن جسديهما الماديين أصبحا « روحانيين » ، هيكلين للروح القدس ؟

ومسحة المرضى لم تعد ، لحسن الحظ ، المسحة الأخيرة ، نحن نعلم اليوم أكثر مما مضى إلى أي حدّ يعطي هذا السر المريض قوة الروح الذي يجعلنا نحيا ونحب . وعندما يُشفى القلب كثيراً ما يستعيد الجسم الواهن ماويّته ونضارته .

أما « **الدرجة** » المعطاة « لرجال الكنيسة » ، فالنصوص التي توقظ اعتقادات أضعفها الزمن لا تنقصنا ، كذلك العادات والتعب أو الروح الاكليروسية . فلنقرأ الفاتيكاني الثاني :

— « بوضع اليد ، **تعطى نعمة الروح القدس** بنوع أن الأساقفة ينوبون عن يسوع المسيح بطريقة منظورة وسامية » (دستور عقائدي في الكنيسة ٢١) .

— « يعتبر الأساقفة أن مهمتهم تتطلّب وجود كهنة معاونين لهم ومستشارين ، **بفضل عطية الروح القدس الذي قبله هؤلاء في السيامة** » (خدمة الكهنة ٧) .

صلاة تصبح شخصية

عنـدمـا ينير الروح عقـولنـا ، فهـو يعطينـا أن نعيش أسرار الراشدين . وكذا القول بالنسبة إلى الصلاة . فهو يزيل « الولدنات » القدسيّة والسحريّة ، يعطينا القوة « لنصبح كباراً » في حياة الإيمان .

عندما سأل يسوع بطرس : « وأنت من تقول إني هو ؟ » جازف بطرس وأشركنا في تجربته الشخصية . روح المسيح يجبرنا نحن أيضاً على اتخاذ موقف . ليس بإمكان أحد أن يتكلّم عنا ، لا أيّة جماعة

فإذا حييتم حياة الجسد تموتون ، وأمّا إذا أمتّم بالروح أعمال الجسد فستحيون . والذين يقودهم روح الله

هم جميعاً أبناء الله. لأنّ الروح الذي نلتموه لا يستعبدكم ويردكم الى الخوف بل يجعلكم أبناء الله وبه نصرخ الى الله : «أيها الآب أبانا» . وهذا الروح يشهد مع أرواحنا أننا أبناء الله . (روم ٨/١٣ — ١٦) .

ولا الكنيسة ذاتها ، للكنيسة كلمتها في يسوع ، إنَّما يجب أن آخذ على عاتقي كلمة الكنيسة هذه . بما أنّنا نراهن برجائنا **الشخصي** على المسيح ، لا يمكن أن يتمّ هذا الرهان بالتفويض . «كن أنت ذاتك» يقول لنا الروح القدس . «قل كلمتك الشخصية» . لقد قام الرسل بهذه المسيرة وروح العنصرة هو الذي أعطاهم قلباً شخصياً . فلم يبق لأحد أن ينقل الآخر كما لم يبق لأحد أن يعطي أمثولات . لكن بعد أن أصبح كل منهم شخصاً حراً ، راح يقف الى جنب يسوع ، لأنّ كلاً منهم كان قد شعر في جسده أن يسوع قد غلب الموت . كيف تبنى الجماعة إن لم يكن بواسطة أشخاص يعرفون ، ولو من وقت إلى آخر ، الصلاة الشخصية ؟

وحده الله يجعل الإنسان يفهمه . وبدون الروح القدس الذي يفتح القلب على الكتاب المقدس ، يبقى الإنجيل ذاته لغزاً وعائقاً مثل غيره . لقد قاد الروح يسوع إلى البريّة ليلتقي هذا الأخير أباه في الوحدة والصلاة . وهكذا يفعل بنا «عندما تصلي ، ادخل غرفتك» يقول يسوع . ما الصلاة ، إن لم تكن الإيمان الذي يعي ذاته ؟ هذا اللقاء الشخصي بالآب مع يسوع بفعل الروح هو في أساس كل جماعة . وحدها الصلاة الشخصية تؤدّي الى الصلاة الجماعية .

ليس بإمكان أحد أن ينوب عنَّا في هذا البحث عن الله . إذا فقدنا هذا الشعور بالنسبة الى دعوة الروح ، فعاجلاً أم آجلاً سينحطّ إيماننا ويصبح معرفة ثم يموت أخيراً كبذرة مزروعة محرومة من الندى .

«مجانين» بروح التطويبات

العقل الذي ينيره الروح القدس يبدو مجنوناً ؛ وليس جديداً على المسيحيين أن يعتبرهم العالم مجانين . فما يقدّر العالم قبل كل شيء (المال ، الصحة ، الثقافة ، المركز ، الشهرة..) يصبح نسبياً جداً لمن فهم أن الله وحده يقدر أن يملأ القلب «ويسعده» . وهكذا

يقلب الدين المسيحي القيم المألوفة ليقيّم ما يُعتبر عادةً غير ذي قيمة (الفقر ، الرحمة ..) . « فيسوع قد دان الى الأبد السعادة الرخيصة والأفراح السهلة . فهو يعيد إلينا معنى عظمتنا الحقيقية .. » (ايف دي مونشاي) .

لكنّ هذه العظمة تفوقنا ، فالإنسان لا يستولي على الله بل يبقى تجاهه في حالة من يستقبل ضيف . « يجب أن تولد من الروح لتفهم على حقيقتها أمور الأرض والسماء » . فالروح وحده يدخلنا في التطويبات .

ليست **التطويبات** تعليماً لأشخاص مميّزين بل للمعمّدين . **فهي** اختيار حياة معروض على جميع التلاميذ . إنها البيان **المسيحي العام** . الفقر والجوع والسجن والدموع هي أنواع من الشقاء . ويقول لنا الروح ان كل هذه ستصل إلى نتيجة وبسرعة . السعادة في أيدينا لأننا أعطيناها . فهي عطيَّة أكثر منها كتبا . عطيّة الروح التي تصنع « الروحيين » .

مع روح الله لن نقول بعد اليوم : « محروم ، ملعون ، الويل لك ! » . بل « طوبى لك .. ! » فيسوع يبدو كموسى جديد : « سمعتم موسى يقول .. وأنا أقول لكم .. » ست مرات ! (متى ٥/٢١ —٤٨) . وضع ذاته على مستوى موسى لكن بكلمات جديدة ، إيجابيّة ، ترحيبيّة ، يلفظها بروح لا يعرف الحدود ولا الحصر . ليس أمراً نهائياً أن يترك المسيحيون أحكامهم المسبّقة حول التطويبات ، مثل « هذا جميل جداً ، لكنّه حلم ! » . ليس المهم أن يكون هناك أربع أو ثماني تطويبات : إذ ليس هناك سوى ضرورة واحدة . الفقر . ليس الغني بحاجة الى الروح المعزّي ، البارقليط . وهو غير منفتح على روح الفهم .

طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات . طوبى للحزانى فإنهم يعزّون . طوبى للودعاء فإنّهم يرثون الأرض . طوبى للجياع والعطاش الى البرّ فإنهم يشبعون . طوبى للرحماء فإنهم يرحمون . طوبى لأنقياء القلوب لأنّهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلام فإنّهم أبناء الله يدعون . طوبى للمضطهدين من أجل البرّ لأن لهم ملكوت السماوات . طوبى لكم إذا عيّروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كلّ كلمة سوء من أجلي . افرحوا وابتهجوا لأنّ أجركم في السماوات عظيم . هكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم . (متى ٥/٣ — ١٢) .

طوبى للفقراء ، فالجرار الملأى تبقى جراراً . أمّا الجرار الفارغة

فسوف تمتلىء بمكيال الله .

طوبى للودعاء ، لا الكسالى بل الصابرون . لا المخنّثون بل المثابرون ، المزارعون الذين يتركون للحبّة الوقت الكافي لكي تموت في الأرض والذين « يفهمون » المحنة .

طوبى للباكين . ليس المتباكون بل الذين لا يرضون بنزاع العالم . طوبى للجياع والعطاش الى البرّ . إذا كان جوفي مليئاً ، فالروح يجعلني أجوع لجوع الآخرين .

طوبى للرحماء ، ليس الصفح ضعفاً ولا ترفاً ولا كذباً . بل هو رفض للتحجر عن طريق الحقد . بإمكان الروح القدس وحده ان يجعلني أعطي كأساً لعطشان كان بودّه أن يقتلني قبل خمس دقائق . طوبى للنقيّة قلوبهم : القلوب البسيطة والمستقيمة . فالروح لا يحبّ الأقنعة كما أن الفنّان لا يرضى بالرخام المزيّف . يجب أن نكون فقراء لنكون كلنا صادقين . فالفقير يقول : « يا لك من مبرم ! » حيث يقول الغني : « إني مسرور برؤيتك ! » بينما يودّ من كل قلبه أن يطرد الزائر من بيته .

طوبى لفاعلي السلام . الذين يصنعون السلام وهم يعرّضون ذواتهم . الذين يتخلّون عن راحتهم لأنهم تعلّموا أنّ السلام لا يولد في هدوء صالون صغير .

طوبى للمضطهدين . الذين يحملون الصليب مثل يسوع لأنّ الروح عينه أرسلهم ليجذّفوا عكس التيار ويُزعجوا المصالح المسلّم بها . يقوم روح التطويبات بألاّ نضع حدوداً لحبّنا وبألاّ نُحصي أعمال سخائنا . فإذا قبل المسيحي بأن ينجرف بهذا الإعصار ، يكون مجنوناً . لكنّه ليس وحده فهو مجنون مثل إلهه .

الروح يخلق المسؤولين

يدعو القديس يوحنا الروح « البارقليط » : المعزّي . لكن كلمة بارقليط تعني : المحامي . وفي الواقع لقد هزّ الرسل أكثر مما عزّاهم . لقد أُعطوا الحماس أي « الله في الداخل » . مساعدة الروح القدس لا تصنع رجالاً « مساعدين » بل رجالاً « مسؤولين » .

الحرية في الروح

الروح هو ينبوع الحرية المسيحية الوحيد ومن ثَـمّ ينبوع مسؤولية أبناء الله .

« حرية : إمكانية عمل ما يجب أن نريد » يقول مونتسكيو . فنحن أحرار بمقدار ما نحبّ الآخرين والأشياء التي تهمّنا . لذلك دون شك كانت القديسة تراز الطفل يسوع تفتخر بأنها كانت دائماً تعمل إرادتها ! فكل يوم نختار ما يناسب أكثر إيماننا الداخلي بدل من أن نتعلّق بجرس يوقفنا في الصف . « لا يجب أن نذكر ولو مرة واحدة في حياتنا أننا قمنا بواجباتنا الدينية بداعي الإكراه أو بداعي المجاملة » يقول لاكوردار .

ليست الشريعة مسيحية ما دامت لا تدخل إلى القلب . « لا يزول حرف واحد من الناموس » ، هذا مكتوب في الإنجيل . لكن ستزول كل الحروف الأبجديّة ان بقيت الشريعة سلطة مهيمنة . وحده الحبّ يبرّر الشريعة . بدون حب الشريعة تقتل . هذا ما بشّر به دائماً القديس بولس ، وشهود الكنيسة العظام كانوا يكلمونا عن حريّة أبناء الله ، منذ أغوسطينوس الذي كان يقول : « أحبب واصنع ما تريد » ! وتوما الاكويني : « أهمّ ما في شريعة العهد الجديد وما عليه تقوم الفضيلة ، هي نعمة الروح القدس المعطاة مع إيماننا المسيحي . تقوم الشريعة الجديدة اذاً على نعمة الروح القدس بالذات المعطاة للمؤمنين بالمسيح » (الخلاصة) .

أقول : ان الوارث لا فرق بينه وبين العبد ما دام قاصراً ، مع أنه صاحب المال كلّه . لكنّه يبقى في حكم الأوصياء والوكلاء الى الوقت الذي حدّده أبوه . وهكذا كانت حالنا : فحين كنّا قاصرين ، كنّا عبيداً لعناصر العالم الأولية ! فلمّا تم الزمان ، أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة وعاش في حكم الشريعة ليفتدي الذين هم في حكم الشريعة ، حتى نصير أبناء الله . والدليل على أنكم أبناؤه هو أنه أرسل روح ابنه إلى قلوبنا هاتفاً : « أبي ، أبي » فما أنت بعد الآن عبد بل ابن . واذا كنت ابناً فأنت وارث بفضل الله . (غلا ٤/١ — ٧) .

تلمّس الحرية هذا لا بدّ وأن يثير النزاعات نظراً لثقل سمعنا أو

لتصلّب طبيعتنا : هناك من يضغط على دوّاسة البنزين وهناك من يضغط على الفرامل . فلا مخرج من هنا إلا بشيء من التسامح والفكاهة ، وهاتان من عطايا الروح القدس . فكاهة البابا يوحنا الثالث والعشرين وهو بطريرك البندقية . أعطى أحد كهنة المدينة المناولة امرأة ترتدي بنطلوناً . فاغتاظ خوري الرعية اذ رأى أوامره القاسية محتقرة وكتب رسالة شكوى إلى الكاردينال رونكالي . فاستدعى الكاردينال « المجرم » : « يا ابني ، إني أؤنّبك لأنك لا تتمتّع بالشعور الكنسي . إنما بفعلك هذا برهنت أن لديك شعور روح الله . واني أهنئك » .

بشّر بالحرية فيتّهمونك بتسهيل الفوضى ! بشّر باحترام القوانين فيتّهمونك باحترام النظام القائم وبالمحافظة . فالإنسان لا يفهم إلاّ ما يريد أن يفهم . منطق الحبّ وحده قادر على أن يخلق نوعاً من النظام .

أمراض عدم المسؤولية

فقام بعض المؤمنين الذين كانوا من قبل على مذهب الفرّيسيين وقالوا : يجب أن يختتن غير اليهود ويعملوا بشريعة موسى . فاجتمع الرسل والشيوخ للنظر في هذه المسألة . وبعد جدال طويل قام بطرس وقال : «أيهـا الأخوة ، تعرفون أنّ الله اختارني من بينكم من زمن بعيد ليسمع غير اليهود من فمي كلام البشارة ويؤمنوا . والله الذي يعرف ما في القلوب شهد على رضاه عنهم فوهب لهم الروح القدس كما وهبه لنا . (أعمال ١٥/٥ — ٨) .

غالباً ما نستعمل حرّيتنا . ولكن هل نعلم أنه يجب أن نتدرّب على الحرية ؟ يقول كتاب أعمال الرسل (٥/٤١) أن الرسل خرجوا من المجمع « فرحين لأنهم اعتُبروا أهلاً لأن يتألّموا لأجل المسيح » . لم يتأسف أحد على الزمن الذي كان يسوع معهم منظوراً وبخاصة القديس بولس الرسول رغماً عنه . « لن أدعكم يتامى » قال لهم الرب . كلهم يعرفون قرب المسيح الشامل بالروح .

لما كان يسوع منظوراً ، تركوه يعمل وحده واكتفوا هم بالتصفيق لعجائبه . منذ القيامة والعنصرة ، عرفوا أنّ رسالة المسيح أصبحت عملهم وانّ عجيبة الكنيسة الكبرى تقوم منذ اليوم على التشمير عن السواعد . يقول مثل اسباني : « الله يساعد كلامنا بواسطة قوانا » . بالإمكان القول ، والمعنى هو هو : لم يأت الله ليخلصنا بل ليعطينا بروحه قوّة تجعلنا نخلّص ذواتنا . وبهذا يكون قد أحبّنا ، باحترامه

مسؤوليتنا . **عندما تبدأ الكنيسة تنسى الروح القدس** ، وهذا يحصل من وقت إلى آخر ، **تصبح مريضة** .

* من بين هذه الأمراض التي تقتل الحرية والمسؤولية ، نذكر «الاكليروسيّة» . يصيب هذا المرض من ركّز على الكلام والتعابير . فالاكليروس يعلق في فخاخ الشرف الزمني وحقوق التصدّر والتزعّم دون أن يعلم كيف . فتنحطّ الكنيسة الاكليروسيّة إلى مستوى المجتمعات البشرية وتتودّد الى الكبار . فكلّما كانت أقلّ روحانية ، تصبح أكثر زمنية . وهذا أمر محتّم . لا شكّ في أن الكنيسة لن تُحرم مطلقاً من الروح . لكن عندما يخفّ تأثيره فيها ، تنتفخ بامتيازاتها ولا تعود تعني للناس المسيح الخادم . فتفتّش عن الأحلاف الغامضة وترفض المواقف الخطرة والضرورية . لم يدن المجمع الفاتيكاني الثاني شيئاً . لكنّه عرّض بهذه الاكليروسيّة التي لا تهتّم بشعب الله . فالإكليروس يستشير العلمانيين إنما شكلياً فقط . فهو لا يؤمن بالعماد كقوّة رسولية . «يجب أن نشدّد على أن المطلوب ليس إقامة حوار بين الإكليروس والعلمانيين ، بل خلق عمل مشترك : فالإثنان هم أعضاء شعب الله . يجب أن نضع حداً للإكليروسية» (مونسنيور ستاربونو ، في المجمع) ..

فالمواهب الروحيّة على أنواع ولكن الروح الذي يمنحها واحد . والخدمة على أنواع ولكن الرب واحد . والأعمال على أنواع ولكن الله الذي يعمل كل شيء في جميع الناس واحد . كل واحد ينال موهبة يتجلّى فيها الروح للخير العام . فهذا ينال من الروح كلام الحكمة وذاك ينال من الروح نفسه كلام المعرفة . والروح الواحد نفسه يهب أحدهم الإيمان وآخر موهبة الشفاء وسواه القدرة على صنع المعجزات والآخر النبوّة وسواه التمييز بين الأرواح ، والآخر التكلّم بلغات غريبة والآخر ترجمتها . وهذا كلّه يعمله الروح الواحد نفسه على كل واحد كما يشاء . (١كو ١٢/٣ — ١١) .

* هناك مرض آخر قريب من الأول ، **وهو حبّ التسلّط** . يتكلم متى (٢٠) عن السلطة كما عن خدمة . لكن بدون الروح القدس تصبح السلطة تسلّطاً : «أدعوهم فيستسلموا» يقول أحدهم . موقف غريب يقوم بأن نؤمن بمعلّم الحريّة الداخلي وبأن نفرض رأينا في وقت معاً ، بدل من أن نجعل الغير يفهمون ! «كلّما قلّ إيماننا بالمعلّم الداخلي ، كلما اتكلنا على المعلّمين الخارجيين» (مونسنيور هيغ أسقف أرّاس ١٩٦٤) .

فالله صاحب مخيّلة وهو يخلق أشياء جديدة . والروح الذي يملأ

الكون لا ينزل على الكنيسة كشلاّلات تحترم دون شكّ درجات السلّم !

* وهناك أيضاً **النظرة القانونية** . الخانقة . كما يقول غاضباً مكسيموس الرابع . فالأوامر والشرائع والتنظيمات تمرّ قبل الأشخاص وقبل الضمائر وقبل الحريّات ، لأننا نسينا الروح القدس . في أحد الأيام قال نيومن لكلادستون وكانا في مأدبة : «أظن أنه من الأفضل ألا نتكلّم عن الدين في مأدبة . لكن إذا أجبرت على شرب نخب ديني فإنني أشرب دون شكّ نخب البابا ، إذا أردت . لكن افهمني جيداً : نخب الضمير أولاً ثم البابا بعد ذلك» . عقلنا يكفي لكي يقنعنا بضرورة الشرائع والسلطة الأدبية . لكنّه يدفعنا إلى النظام المقبول بحريّة . لكنّ عقلنا يقول لنا أيضاً أن هناك شرائع بالية كذيل ثوب الكاردينال الذي أُقرّ قديماً ليغطي مؤخّر الحصان . لكن الكرادلة ، حسب ظني ، لم يعودوا يمتطون أحصنة !

* وهناك أيضاً امراض أخرى نذكر منها أخيراً «**آداب الحدّ الأدنى**» . التشخيص سهل : هي آداب الحدّ الأدنى للحياة ولداء المفاصل البشري ، آداب متحجّرة فقدت غايتها التربوية وهي لم تعد تتصل بالواقع . بدون الروح تنحطّ قيمة الآداب فتصبح بورجوازية أو غير ذلك ، أي لا تعود سوى سلوك اجتماعي قبلي . فجاء الدركي يحلّ محل صوت الروح والضمير لذلك فالأفضل ألاّ نتزعج أكثر من اللازم .

أتريدون مثلاً «في الحاجة الملحّة ، يجب مساعدة الفقير بقدر الإمكان دون أن نتخلّى عما هو ضروري لحياة تتناسب وحالتنا . واذ كان الفقير ، وهو صاحب الحاجة الملحّة ، يقدر أن يجد بسهولة عون آخر ، فلا نعود مجبرين على مساعدته شخصياً» (هريبرجون) . كلام مضحك لكنه محزن جداً ! سياسة الحدّ الأدنى العقيمة هذه لا يمكن بعد اليوم أن تكوّن قوة تغيّر العالم ! وحده الروح يقدر أن يمنع

الآداب المسيحية من أن تضيع بعيداً عن الضمير ومن أن تصبح عبئاً ثقيلاً عاملة بدون حب .

عمل الناس الذين حرّرهم الروح

فأنتم يا أخوتي ، دعاكم الله لتكونوا أحراراً ولكن لا تجعلوا هذه الحرية حجّة لارضاء شهوات الجسد بل اخدموا بعضكم بعضاً بالمحبة . فالشريعة كلها تكتمل في وصيّة واحدة : «أحبب قريبك مثل نفسك» . أمّا إذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضاً فانتبهوا ألاّ يفني واحدكم الآخر . وأقول لكم : اسلكوا في الروح ولا تتبعوا شهوة الجسد . فما يشتهيه الجسد يناقض الروح وما تشتهيه الروح يناقض الجسد . أما ثمر الروح فهي المحبة والفرح والسلام والصبر واللطف والصلاح والامانة والوداعة والعفاف.. (غلا ٥/١٣ — ٢٥) .

«فإن كنّا نعيش بالروح ، فلنسلك بالروح أيضاً» . هكذا يعظ القديسٌ بولس الغلاطيين (٥/٢٥) . عندما نعمل بالروح ، يُترجَم عمله في القلوب بالعدالة والرحمة والاستقامة . هذه هي «الواجبات المسيحية» الحقّة التي يجب أن نعلنها في الساحات ! فالعدالة تخلق علاقات احترام والرحمة تضمّد الجراح والاستقامة تبني الحقيقة . أن نكون أحراراً في الروح ، فذلك يُخرجنا من الدائرة الجهنميّة حيث الكذب والمديح والتقييد العقلي والرقابة والوشاية تقود الحلقة الراقصة . فحياة روح المحبة فينا ، إذ تجعلنا أكثر إنسانية ، تطهّر الضمائر والعلاقات الإنسانيّة وتعيد تدريجياً المناخ الأخوي حيث نعيش .

في الروح القدس ، تصبح الآداب شريعة المسيح ، حياة البنوّة «لأنّ من ينعشهم روح الله هم أبناء الله» (روم ٨/١٤) . فتتغيّر علاقاتنا بالله : نحن أبناء . وتتغيّر علاقاتنا بالآخرين : نحن أخوة . فهاكم كنيسة تستشير الروح وتنصت الى أسئلة الأحداث وصراخ المساكين وتتوب دائماً وترضى بأن تخدم بفقر ومحبة . هاكم كنيسة بدأت تخلق قديسين هم تحفة الروح القدس . لزماننا قديسوه وشهوده وهم غالباً مجهولون ، قديسون لا يعلمون أنّهم قدّيسون طبعاً ، لكنهم يجاهدون في سبيل المحبة . لأنّ من «يصلي لينال الغلبة دون أن يحب الجهاد ، فهو قليل التهذيب» (بيكي) .

أن نعيش الحب هو أن نقول للغير : «لا أقدر أن أكون سعيداً إلا إذا كنت أنت سعيداً» . هذا ما يقوله الأب لابنه والابن لأبيه منذ الأزل . من هذه العلاقة ينبثق الحبّ اللامتناهي والشخصي المدعو الروح القدس . فالروح القدس يعلّمنا ألاّ نفتّش بذواتنا

ووحدنا عن سعادتنا الشخصية إذ يصبح هذا الوسيلة المحتمّة لعدم الوصول إليها . ما أجمل تحرّر القلب عندما لا يعود يقرّر لذاته ما يختص بسعادته . بل يستسلم لغيره ، للزوج ، للجماعة ، للآب الذي في السماء !

نحن هنا كالبنّاء الذي يتعثّر في وحل الورشة والذي يسكن في بيت بدون نوافذ . ليست هذه الحياة مُريحة ومع هذا فنحن نعلم أن البيت بدأ يأخذ شكلاً وأن الحياة فيه ستكون بعد قليل مريحة .

الروح يجمع للرسالة

من له خبرة في شؤون الحب ، يعرف بوضوح أن للحب حركتين : حركة الحرارة والحياة الحميمة وحركة العطاء وانفتاح القلب . الروح القدس هو في الوقت معاً النار التي تحرق وتجمع وريح العاصفة التي تدفع الى الخارج . **إنّه يجمع ليرسل الى أربعة أقطار العالم** .

وحدة الروح القدس

جاء الروح أرضنا ليعيد بناء بشريّة متفككة : برج بابل البشري ، عالمنا حيث لم يعد الناس يتفاهمون . لقد خلق روح الله الإنسان الجديد ، وتحت تأثير الروح سيرتفع يسوع على الصليب باتحاد تام مع أبيه وباتفاق تام معه . يتحد ويقدر أن يجمع باتحاده يعطي روح الوحدة الذي هو روحه . **العنصرة هي إذاً أن يتكلّم البشر لغة واحدة** . هي المعركة النهائيّة والتي تنتصر منذ اليوم على القوميّات والأعراق والضيافة المحدودة والبخيلة وكل مسكنة البشر . « فبدأ الرسل يتكلّمون لغات عديدة نظراً لما كان الروح يعطيهم أن يتكلّموا » (أعمال ٢/٤) . ويجد صاحب الأعمال لذّة في تعداد جميع الأعراق والشعوب المجتمعة في أورشليم في عيد الحصاد : إنه في الواقع تجمّع حزم القمح ! ستة عشرة لغة مختلفة ، ستة عشرة

من برثية ومادية وعيلام وما بين النهرين واليهودية وكبادوكية وبنطس وآينا وفريجيه وبمفيليا ومصر وليبيا المجاورة للقيروان . ومنا من هم رومانيون يقيمون هنا ويهود ودخلاء وكريتيون وعرب . ومع ذلك نسمعهم يتكلمون بلغاتنا على أعمال الله العظيمة . (أعمال ٢/٩ — ١١) .

عقلية ، ستّة عشرة ثقافة ! ومع ذلك ، فهذه الشعوب الستة عشرة ، لأول مرّة في تاريخ البشرية ، أصبحوا قادرين أن يسمعوا معاً إعلان الإنجيل . دعاية غير مقصودة في النص : يوم العنصرة ، ومن بين سائر الشعوب : «سكان مصر» و«سكان اليهوديّة» سمعوا اللغة ذاتها !

الوحدة في التنوّع

«إن الروح القدس يجدّد دوماً وديعة التقليد المحفوظة في الكنيسة وهو ينقل شبابه الى الإناء الذي يحتويه» . كان القدّيس إيريناوس متفائلاً لما قال هذا وكان على حقّ في ذلك ! فالروح القدس يسمح أخيراً للناس بأن يعيشوا على الموجة الواحدة ! «عمل الروح القدس ، يقول الأب كونكار ، ليس إنارة فلان أو فلان ، بل محبّة وتحقيق جسد المسيح . لذلك فشروط اعطاء الروح القدس وعمله هي في جوهرها اجتماعية» .

أناشدكم أيها الأخوة ، باسم ربنا يسوع المسيح أن تكونوا جميعاً متفقين في الرأي وأن لا يكون بينكم خلاف بل كونوا على وفاق تام لكم روح واحد وفكر واحد . (١كو ١/١٠) .

الروح يصوغ الجسد كله : كل شيء أُعطي «للخير العام» (١كو ١٢/٧) «لبنيان الجسد» (أفسس ٤/١٢) . فالروح بيننا هو مبدأ الإتحاد . وهذا الإتحاد يأتي من الداخل : «ليكن فيكم جميعاً العواطف ذاتها..» (١كو ١/١٠) . ما يعمل النحل بطريقة غريزيّة ، نضعه نحن بوعي وبقوة الروح القدس . لو كانت وحدة الكنيسة خارجيّة فقط ، لما كانت سوى جمعيّة ذات نظام موحّد . فالتجمع الكبير الذي يخلقه الروح هو أساساً تجمّع القلوب .

وهو الذي أعطى بعضهم أن يكونوا رسلاً وبعضهم أنبياء وبعضهم مبشّرين وبعضهم رعاة ومعلمين . وبذلك يهيّيء الأخوة القدّيسين للخدمة في سبيل بناء جسد المسيح الى أن نصل كلّنا الى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله ، الى الإنسان الكامل ، الى ملء قامة المسيح . (أفسس ٤/١١ — ١٣) .

الروح القدس يضعنا جميعاً معاً . إنه يحمل على العمل لمخطّط الله الواحد أناساً مختلفين لم يكونوا قد أتفقوا بعد على العمل . هو أكبر قائد للقاءات بين البشر .

الروح ينعش كل واحد بنسبة ما سوف يكون في الجسد . كالفرق بين كومة من الحطب اليابس والشجرة ، بين كومة من الحجارة

والتمثال . في كنيسة الروح القدس ، الجسد كلٌّ نشيط ولكل فيه مقامه. شرعية التنّوع لا تحتاج إلى برهان. الكائنات المتباينة وحدها تقدر أن تكمّل بعضها البعض ، إذا ما تركت في غرفة الثياب مواقف التملّك والحصر والعناد .

علينا أن نقرأ بهذا الروح الفصل الخامس من الدستور المجمعي في الكنيسة : جماعة حياة أخوية ، جماعة إيمان ، جماعة صلاة وعبادة هكذا صاغ الروح القدس الكنيسة يوم العنصرة وهو لا يزال يصوغ اليوم ، بالطريقة عينها ، الكنيسة الجامعة والجماعات المحليّة والعائلات . فانقساماتنا بين مسيحيين ، ومجابهاتنا بين « تقدّميين » و « محافظين » احتقارنا بعضنا لبعض وفتورنا ، لا تغيّر شيئاً من هذا . لا شيء يقدر أن يوقف التطور الناشيء ولا أن يمنع الزرع من أن يحمل يوماً الثمار !

الرسالة المسيحية

افتخار المزارع في حصاده ، افتخار الكرّام في القطاف ، افتخار الوالدين في الأولاد . افتخار الروح القدس في رسالته . فالروح القدس هو الرسول الكبير. للتأكّد من ذلك ، تكفي قصّة اهتداء السامريين العجيبة (أعمال ٨) أو قصّة قائد المئة كورنيليوس (١٠) ما أشد دهشة المؤمنين المتحدّرين من أصل يهودي ودهشة بطرس ذاته إذ رأوا الروح القدس يحل على وثني ! فالوثنيون إذاً ينعمون بعطية الله ؟ فقال بطرس : « أيمكننا رفض ماء العماد عن الذين قبلوا الروح القدس مثلنا ؟ » ثم عمّدهم. بهذا نعرف الروح : ريح عاصفة أو نسيم عليل . إنما لا حواجز توقفه .

الاشتراك بالسر الفصحي لا يهمّ فقط المؤمنين بالمسيح ، بل كل الناس ذوي النوايا الحسنة الذين تعمل النعمة في قلوبهم وبما أن المسيح مات عن الجميع وبما أنّ دعوة الإنسان الأخيرة واحدة أي إلهيّة ، علينا أن نؤمن ان الروح القدس يعطي الجميع ، وبطريقة يعلمها الله ، امكانيّة الاشتراك بالسر الفصحي . (الفاتيكاني الثاني) .

مع الروح يصبح رسلاً كلّ الذين يستسلمون له. كل مسيحي واع ومسؤول ويرضى بأن يعمل في الحقل المشترك . في الجماعة الأولى ، كلما أرادوا إسناد مهمة إلى شخص ، كانوا يفتشون عن الذين امتلأوا من الروح أكثر من غيرهم . كما حصل عند تعيين

الشمامسة : « فتّشوا بين إخوتكم عن سبعة رجال مشهود لهم ، يكونون ممتلئين من الروح والحكمة فنقيمهم لهذا العمل . . » فأعجب هذا الكلام كلّ الجماعة واختاروا استيفانوس ، رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس . . » (٦/٣ . .)

كل مسيحي مرسل . لكنّ الكنيسة تعلم انها لا تملك الروح الذي يهبّ حيث يشاء . ليس الرب سجن وسائلنا ! الروح هو وعد وعهد جديد وشريعة حيّة وعطية عظمى تجعل من البشرية جمعاء ابناء لله . انطلاقاً من هذه النظرة ، أي أنّ الروح يملأ الكون ، جميع الناس المحيطين بنا يُعتبرون في مملكة الروح . فنحوهم يتوجّه مسعى حالي هو مسعى محبة الله الحاليّة . لم يُسجّل أحد في خانة « الغرباء » (الكنيسة في العالم ٢٢) .

فالكنيسة تتعلّم تدريجياً أن التصنيف أمر ساذج إذ يميّز بين فئتين من الناس ، الصالحين والأشرار . الصالحون هم طبعاً الذين معنا . والأشرار هم الآخرون . هؤلاء « الأشرار » غالباً ما نحذفهم من لائحة نشاطاتنا الراعوية وأفقنا الرسولي . لا نقدر أن نكون رسل جميع البشر إلاّ إذا اقتنعنا بأن الروح القدس يعمل في كل ضمير . فالمرسلون لا يحملون الله لأنّ إلها نحمله هو صنم . فالرب يتقدّمنا دائماً . نحن رسل إذا كنا شهود الروح .

حيويّة الروح الحاليّة

لا خيانة ترتكبها الكنيسة ولا نكث بالعهد ولا مساومة مع روح العالم ولا جبانة من قبل رجال الدين ولا فشل التبشير ، لا شيء يقدر أن يهدم الرجاء الحاضر في قلب عالمنا المعاصر . فالروح يعمل لأن الله هو العامل الدائم .

نذكر مثلاً ذا مغزى ، ما نسمّيه ، بعبارة تقبل الجدل ، « التجديد المواهبي » الذي ظهر في الولايات المتحدة في حركة

العنصرة في البدع البروتستانتية . لا نودّ هنا وصف هذه الحركة الواسعة بل التعبير عن سرورنا لهذه الظاهرة . كثيراً ما ظهرت هذه اليقظات في جماعات هامشيّة ترفض الكنيسة . واليوم تقبل الكنيسة الكاثوليكية هذه « اليقظات » في داخلها ! لا نعرف على العموم من هذا التجديد المواهبي سوى مظاهره الخارقة كالتكلّم باللغات الذي يحمل على العجب أو... على الإرتياب . فلنتوقّف بالأحرى على عفويّة الصلاة ومعنى الشراكة والاهتمام بالتربية العقائدية وحلول الروح الذي يجدّد عطيّة العماد وتثبيته .

الروح ورجاء العالم الجديد

نجاح الروح القدس الكامل سوف يكون التغيير الكبير في الإنسان والكون ، الخلق الجديد ، كنيسة السماء . موت المسيح وقيامته في الروح تفتح لنا مجالاً لا يُحدّ من النجاح والتأليه . لكن هذا المجال ذاته يسلخنا عن الأحلام ليعيدنا الى مهمّات طارئة : تغيير الأرض .

« الأرض حيوان كبير يبذل الإنسان فيها ما في وسعه أو يتخلّى عن كل شيء أو يحقّر ذاته أو يقتل أخاه الإنسان . ثم يعتاد كل هذا » . هذا ما كتبه فكتور هوغو في « البؤساء » . وقد تكون هذه الأخيرة ، أي العادة ، أخطر من الباقي . عندما لا يعود الإنسان يعرف أن يتعجّب لأن المسيحية أصبحت عادية جداً ! وحده الروح يفهمنا أن ملكوت الله ليس في عالم آخر غريب **بل في عالمنا الذي سيصبح آخر .** وان عملية الخلق الجديد قد بدأت ونجحت في جرمها ، أن نحلم بالمستقبل فهذا محض أوهام وعائق واستعباد .

لا يزال عالمنا يُبنى على الجريمة بينما يريد الروح أن يعيد بناءه على الحب . لأن يسوع أحب الناس ، فقد رفض أن يضع مستقبلهم رهن الجريمة ووضع أساسات جديدة للكون . وقد أعطانا الروح القدس أن نتابع هذا العمل ، وهو أرضي تماماً ، عمل الخلق

الجديد . ليس عالمنا جميلاً جداً . إنّما عندما يتّحد المسيحيون بجسد المسيح القائم من الموت ، فلن يكون ذلك تكريساً لفضائلهم بل لكي يشدّدوا ، وهم متّكلون على الروح ، على أنّ الأخوّة البشرية ممكنة .

الرجاء المعطى في العنصرة هو تأكيد على أنه بالإمكان اخراج عالمنا من منطقه الإجرامي ومن هذا المثلّث الشيطاني أي : القتل والكذب والدينونة . المستقبل مستحيل بقوانا الذاتية . فنحن لا نكفي لذلك وهذه هي خطيئتنا الأصلية . لكنّ الروح الذي أقام يسوع ، جاء يسمح بأن تخلق الحياة والحريّة من جديد . عمل المسيحيين هو أفضل من أن يرقّعوا عالم الموت هذا . عليهم أن يكونوا في الصف الأمامي بين أولئك الذين يبنونه على **الحب الذي اسمه الحقيقي** : « **الروح القدس** » .

١٦

وبكنيسة مقدسة جامعة

«كنيسة» تعني «جماعة»

يعلمنا قانون الرسل : «أؤمن **بإله**... **وبيسوع** المسيح ... **وبالروح القدس**» وأيضاً أؤمن بالكنيسة المقدسة». الله (الآب) والابن والروح أشخاص. **نؤمن بهم أو لا نؤمن**. بينما الكنيسة سر ومؤسسة. بالإمكان انكار الله والمسيح والروح. وليس بالإمكان إنكار الكنيسة فهي واقع. إنما بالإمكان جهل معنى هذا الواقع ورفض سر الكنيسة. نقدر أن نعترف بواقع فرنسا دون أن نؤمن بفرنسا : بمستقبلها ودورها ورسالتها. أنا اعترف بوجود الكنيسة «وأؤمن بالكنيسة المقدسة الجامعة».

الكنيسة واقع

فدنا يسوع وكلّمهم قائلاً : إني أعطيت كل سلطان في السماء والأرض. اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلّموهم أن يحفظوا كل ما أوصيتكم به وها أنا معكم طول الأيام الى منتهى الدهر (متى ٢٨/ ١٨ — ٢٠).

الكنيسة واقع : البابا والأساقفة والكهنة والرهبان وقبب الكنائس وجمهور المؤمنين الذين يلتقون هناك. الكنيسة واقع قائم منذ ما يقارب الألفي سنة. بعد ألفي سنة من ميلاد المسيح مؤسس الكنيسة. **فهو** الذي تؤرخ أحداث عصرنا بالنسبة إليه، «العصر المسيحي»، **عصر الكنيسة**.

واقع الكنيسة يفرض ذاته على الكثيرين. فهو البيت الذي ولدوا فيه. طالب عمره سبعة عشر سنة يقول لأحد رفاقه : «أنت كاثوليكي. ليس الذنب ذنبك : هذا دين والديك. لوكان والداك بروتستانتيين، لكنت بروتستانتياً». هذا أكيد... أو مسلماً أو يهودياً أو بوذياً أو ملحداً... كثيرون يقبلون هذا الأمر الواقع دون أن يطرحوا أية تساؤلات : (متى ٢٨/ ١٨ — ٢٠).

عندما نولد، هل نجادل في هوية أمنا أو مكان وزمان ولادتنا أو لغة وثقافة والدينا ؟..

وغيرهم يتساءلون ... منهم من يقبل بفرح ووعي أمر عماده : «إلى من نذهب؟ ان عندك كلام الحياة الأبدية» . غيرهم يفتشون أو يبقون لا مبالين . غيرهم يظل بدون قرار..

في الخارج أيضاً «غرباء» غير مسيحيين ينظرون الى الكنيسة متسائلين : «لوكان هذا صحيحاً؟» .. أو خائبين .

نظرة عنيدة

الانتقادات تنهال من الخارج ومن الداخل . واحدّ السهام تأتي من الشباب . هاكم بعض أمثلة :

— الكنيسة؟ انها عقبة في سبيل الحرية ؛ حاجز في وجه تفتّحنا . هي أرض قامت عليها بنايات بحيث لم يعد فيها عمل لأي كان .

— هي ، أكثر من اللازم ، أم تعطي «تتكرّم» ، تنحني علينا ، تدلّلنا ، تقمّطنا . ونحن لم نعد أطفالاً !

— هي من أجيال متخلفة بأفكارها ولغتها وطقوسها وزينتها الحبرية أو الكهنوتية ! من القرون الوسطى ! انظروا فيلم «روما» لفلّيني . إنها بعيدة عن طريقة تفكيرنا وشعورنا وصلاتنا وحبنا !

— إنها حزينة وخجولة !

— هي قبل كل شيء قانونية تهتم بالآداب ، تحب التسلّط وتتوقف عند دقائق الأمور . فقد قال المسيح : «تعرفون المسيحيين من المحبة» وأنا لا أجد هذه المحبة في كنيستي .

— يتكلّمون كثيراً عن كنيسة الفقراء . يتكلمون ولكن أين الأفعال؟... في الواقع لا تزال الكنيسة مرتبطة بالسلطات المالية . انها دائماً مع الحكم القائم وان ظالماً ، هي ضد الثورات . فتّشوا عنها الى جانب الأقويان والأغنياء . فهي لا تلتزم ككل وبعمق

نتكلّم عن الكنيسة كما لوكنا نقول : «الناس» : ناسين أننا أعضاء فيها . إذا اتهمناها ، فلا نجلسنّ على بنك اتهام الأساقفة واللاهوتيّين وعلماء الطقوس فحسب . بل أيضاً جميع المؤمنين الذين لا يؤمنون إلا القليل .. فلنعترف بأننا حملنا العالم على الظن بأن الأيادي الضارعة غير الأيادي المفتوحة ، الأيادي النشيطة ، الممدودة . لوكان المسيحيون أعاروا انتباهاً تحذير بولس : «لا تخاتلن مع الله الحي» ، لو لم يكونوا قد خاتلوا طويلاً مع المال والسلطة لكان الانتقاد الموجّه إليهم أخفّ وكذلك انتقاد المسيح . بما أن خريطة المسيحية اليوم تنطبق على خريطة البلدان الغنية ، فهذا دليل على أن الغرب المسيحي مؤهّل للملكوت الأرض وليس للملكوت العتيد — ما أقساها صفعة ! (جيلبر سَيبرون) .

بمشاكل الإنسان والعالم الحياتية .

— وادّعاؤها بأنها تعرف كل شيء ! وبأنها «خبيرة بأمور البشر» بينما البشر لا يزالون يفتشون... هي معصومة كعجوز ترى الحقّ دائماً بجانبها .

— إنها كشيخ يكلم جمهورا — نفسه طويل جداً في الكلام !
— بينما الشباب يتركونها بسرعة كلية .

— وهذا التعصّب الذي يجعل المسيحيين يتّهمون بعضهم بعضاً داخل الكنيسة . ففي نظر البعض ، التجدد يتقدم ببطء كبير ، بينما يشعر الآخرون بعدم الامان تجاه التطور الراهن فيها الى اليوم . مثل هذا التوتر في العلاقات الذي يشتد مع الزمن يقلق هؤلاء وأولئك ويوهن من عزم الذين يفتّشون . كيف نؤمن بجماعة ترى بوضوح أعضاءها يمزّق واحدهم الآخر باسم إيمانهم بالذات أو باسم ممارسة ايمانهم ؟

هذه الانتقادات — وغيرها ليست أقل مرارة — تحمل على الثورة بطابعها المتطرّف والمتحيّز . وبالخصوص أن عصير هذا الحصرم يترك في الفم طعم الشباب الحامض ، ولكن في ذات الوقت حقيقة هذا العمر وجماله . جمال الشباب في الذهاب الى الشيء الأساسي وهو أن نرمي البنى الفوقيّة والاعذار الكاذبة ، أن نفضح الخبث والمساومة... هذا العناد في النظر هو نعمة الجيلية . دعوة الأجيال الجديدة هي تجديد الأشياء بالعودة الى الشيء الأساسي .

العودة الى الأساسي

هاكم السؤال الأساسي : هل كان في نيّة المسيح حقاً أن يؤسس كنيسة ؟ وأيّة كنيسة ؟ طبعاً لم يفكّر المسيح بحاضرة الفاتيكان والمجامع ذات التيجان واللون البنفسجي . لم يفكّر بالهرميّة السلطوية المؤلفة من البابا والكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة والخوارنة ونوّابهم . لم

يفكّر بالتقسيم المحلي في المناطق الى أبرشيات ورعايا ولا بالمكاتب القانونيّة والادارية بدءاً بالمجامع الرومانية حتى المجالس الرعوية. كما أنّه لم يفكّر بالأبنية الكنسية: كنائس وأديرة مع أجراسها وشموع وألبسة... لم يفكّر أبداً بدولة بابويّة ولا بفرسان القديس غريغوار ولا بالرؤساء المقرّبين من البابا ولا بالحرس السويسري... أقول هذا بدون أيّة سخرية حتى لا نسجن الكنيسة الحيّة داخل أربع قطع من الخشب الميت.

إذ أننا لم نخرج بعد من هذا القبر! فعندما نقول «كنيسة»، نفكّر بالسلطة وبالعدّة الاكليريكية. نفكّر بالمؤسسة كما هي مصفّحة ومعسكرة أمامنا. ولا نفكّر بشعب الله. يصدر عن البابا أو عن خوري الرعية إعلان ما، فنقول حالاً: هذا ما تفكّر به الكنيسة.. بينما «**كنيسة**» **تعني** «**جماعة**»، «**شراكة**». عندما يعظ الخوري أو يتكلّم البابا، أين هي الجماعة! أين الشراكة؟ فهناك الكنيسة...

ولستُ أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم. ليكونوا باجمعهم واحداً كما أنك أنت أيها الآب، فيّ وأنا فيك. ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا حتى يؤمن العالم أنّك أرسلتني. وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيته لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد.
أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكمّلين في الوحدة حتى يعلم العالم أنّك أرسلتني وأنك أحببتهم كما أحببتني. (يو ١٧/٢٠ — ٢٣).

لكن لا يجب، مع ذلك، أن نغالي: لا نضعنّ البابا والخوري خارج الكنيسة. فهما يقومان بخدمة سنبيّن أهميتها: لكنّهما ليسا الكنيسة.

ما أراد المسيح في الأساس هو توحيد البشر أجمعين في المحبّة... الله محبة. **فهو إذاً في حدّ ذاته** شراكة أشخاص يحبّ واحدهم الآخر في وحدة الروح القدس بحيث أنهم إله واحد. **خارجاً عن ذاته**، وبما أنه محبة، فالله عطاء، الله خالق. عطاء ماذا؟ عطاء ذاته! عطاء محبّة جماعية. خالق ماذا؟ خالق صورته ومثاله: أشخاص بشريّون عديدون متنوّعون لكنّهم متّحدون في جماعة محبّة «في وحدة الروح القدس».

هكذا يجب التفتيش عن جذور الكنيسة أبعد من يسوع المسيح، أي في طبيعة الله الثالوث: عدة أشخاص في كائن

واحد... بفعل محبتهم . الثالوث كنيسة أي جماعة ، شراكة : **فهو** إذاً يخلق كنيسة أي جماعة وشراكة . المغناطيس الذي يجمع معدن هذه البشريّة هو الابن المتأنس : «أنا فيهم وأنت فيّ أيها الآب ، ليكونوا واحداً الى حدّ أنّ **الكنيسة هي يسوع المسيح الموجود بشكل جماعة**» (ديتريش بونهوفر) .

عالم إخوة

فلننظر إلى المسيح يعمل مع اسرائيل : «يا أورشليم ، يا أورشليم ، كم مرّة **أردت أن أجمع بنيك** كما تجمع الدجاجة فراخها..» (متى ٢٣/٣٧) .

فلننظر إليه يعمل في العالم : «كان يجب على يسوع أن يموت ، يقول القديس يوحنا ، (١١/٥١..) ليس فقط لأجل أمّة اليهود بل **ليجمع الى واحد جميع أبناء الله المشتتين** .

كما كان هذا الخبز المكسور مشتّتا قديماً على الجبال فجمعوه ليصبح شيئاً واحداً ، هكذا فلتجتمع كنيستك في أقطار الأرض في ملكوتك . لأن لك المجد والقوة بيسوع المسيح إلى الأبد . (تعليم الاثني عشر ٩ ، ٤) .

إذا ما ذهبنا إذاً إلى الأساسي ، إذا ما فكّرنا بالكنيسة كما أرادها المسيح ، يجب أن نراها كلّها في تجمّع البشر الذين يؤمنون بيسوع المسيح ويرجون الخلاص الذي وعد به ويحبّ بعضهم بعضاً بحيث انهم يريدون بناء جماعة إخوة حقيقيّة على صورة ومثال الثالوث الالهي .

وفي الواقع ، تبدأ الكنيسة كلقاء أخوة ، كصداقة ، كجماعة إيمان وحياة ، كمشاركة في كل شيء .

«وكانوا مواظبين على تعاليم الرسل والشركة في كسر الخبز والصلوات ... وكان جميع المؤمنين معاً وكان كلّ شيء مشتركاً بينهم ... ويلازمون الهيكل كلّ يوم بنفس واحدة ويكسرون الخبز في البيوت ويتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب.. وكان الرب كل يوم يضمّ الذين يخلصون الى الكنيسة» (أعمال ٢/٤٢..) .

هكذا أصبحوا جماعة كبيرة بسرعة . لكن «كان لجمهور المؤمنين قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن أحد يقول عن شيء يملكه أنه له بل كان لهم كل شيء مشتركاً . وبقوّة عظيمة كان الرسل يشهدون بقيامة الرب يسوع (٣٢/٤..) هي هنا هذه الكنيسة التي أرادها المسيح أو بالحري الثالوث .

كنيسة رسولية

في شهادات كتاب «الأعمال» التي قرأناها ، يبدو الرسل مسؤولين عن الجماعة . انهم شهود مميّزون للقيامة ومعلمون ماهرون للإنجيل والكرازة .

«أقام اثني عشر»

كان يسوع قد وضع الخطوط الكبرى للمسؤوليات الأساسية . من بين تلاميذه **دعا الاثني عشر** ، «**اسمّهم**» . لأية غاية ؟ «**ليجعل منهم رفاقه ويرسلهم للتبشير**» .

إذاً ليكونوا **نواة لشعب الله الجديد** ، «رفاقه» في توحيد العالم الذي بدأ حوله وبواسطته . كان أولاد يعقوب الاثنا عشر قد وسعوا في قلوبهم شعب الله القديم **بكامله**. أسباط اسرائيل الاثنا عشر — الرسل الاثنا عشر هم ورثة هذا العدد **الكامل** ، بذار تجمّع شعب الله الجديد والبشر **بكاملهم** في يسوع المسيح . من هنا الغاية الثانية لتأسيسهم : «**أرسالهم للتبشير**» . أي دعوة جميع الناس الى أخوّة أبناء الله الكبرى . رسالة المحافظة على وحدة الإيمان أيضاً ، وتناغم الاتحاد الشامل : «من سمع منكم فسمع منّي» . هذه المسؤولية الرسولية تفترض سلطان القرار ، «سلطان الحلّ والربط» الذي يوضحه الرب بطريقة أخرى . لكنه يرسل إليهم «الروح الذي سيعلّمهم كل شيء» (يو ٢٦/١٤) .

« أنت الصخرة »

في مجمع الاثني عشر — وليس خارجاً عنهم — أَسند يسوع الى سمعان أولى المسؤوليات : في هذا الجسم الذي لا يزال جنينا ثم يعظم ، سيكون هو الصخرة في جسم هذا الشعب « الكاثوليكي » . سيعطى نعمة ورسالة « لتثبيت إخوته » في العالم كلّه في الإيمان والوحدة الأخويّة .

بينما الدور الإداري الذي سيلعبه البابا فيما بعد ، كرئيس الكنيسة اللاتينية ، والذي ينشره تدريجياً على الكنيسة الجامعة — تعيين الأساقفة ، تنظيم الطقوس .. — ليس له جذور في أولوية بطرس . قد يختفي هذا الدور كما ظهر ، بقرار بشريّ دون أن تهتز الكنيسة . وقد يكون ذلك ، نظراً للنزعات المعاصرة ، لصالحها .

الخدام المرسومون

لم يؤسِّس المسيح شيئاً آخر . لكنّ الرسل بكل حرية وبكلّ تنوّع ، سيضعون الأيدي على مسؤولين — أساقفة وكهنة وشمامسة — سيسندون إليهم بهذه « الرسامة » « **خدمة** » الجماعات المحليّة والاتحاد بين جميع أعضائها .

الروح يهبّ

ومع هذه « الخدم بالرسامة » ، سيقيم الروح في شعبه « تنوّع الخدم » الواسع نظراً لتنوّع حاجات الكنائس و« تنوّع المواهب الروحية » : حكمة ، علم ، موهبة الكلام ، العجائب ، النبوءة... (١كو ١٢) . بقطع النظر عن أن كل معمّد ومثبّت يكون شخصياً مسكنا لروح العنصرة ، روح المحبة والحقيقة : كانوا تقريباً مئة وعشرين في العليّة — وليس الاثنا عشر فقط — عندما حلّ الروح بشكل السنة نارية « **على كل واحد منهم .. فامتلأوا جميعاً من الروح القدس** » (أعمال ١/١٥ و ٢) .

انّ لنا مواهب مختلفة باختلاف النعمة المعطاة لنا . فمن وهب النبوءة فليتنبأ بحسب مناسبة الإيمان . ومن وهب الخدمة فليلازم الخدمة والمعلّم التعليم والواعظ الوعظ والمتصدّق صفاء النيّة والمدبّر العناية والراحم البشاشة . ولتكن المحبة بلا رياء . (روم ١٢/٦ — ٩) .

الجهاز الكنسي الذي نعرفه اليوم لا يعود إذا كلّه الى تأسيس

الرب . لقد ولد مع حاجات الأزمنة والأمكنة ، وبقوة الخلق الحية دائماً بواسطة الروح في الكنيسة . عناصر عديدة قد بطلت أو تخطّاها الزمن . يمكننا أن نتمنّى زوالها وان نرجو إحلال أشياء جديدة محلها ، « خدم » جديدة تتلاقى وحاجات الساعة الحاضرة الحقيقية في تنوع الأمكنة اللامتمركزة . الروح تجديد لأنّه حياة... لا شكّ في أنّ الكنيسة بحاجة الى هيكليّة للمسؤوليات محدّدة كما يجب . لكن ، لكي تبقى أمينة ، اذا فعّالة ، هي بحاجة مماثلة أساسياً الى حيويّتها الخلاّقة وقدرتها — بل واجبها — على المبادرات . فإمكانيّة الخلق يجب أن تبقى حيّة ومتنوّعة في الأصل كما كانت في البدء ، انطلاقاً من فكرة يسوع ومثل الرسل وجماعاتهم . « الروح يهبّ حيث يشاء » اليوم كما في الأمس .

اعادة الاتزان في الفاتيكاني الثاني

لأنّه به لنا كلينا التوصل الى الآب في روح واحد . فلستم إذاً غرباء بعد ولا دخلاء بل أنتم رعية مع القديسين وأهل بيت الله . وقد بنيتم على أساس الرسل والأنبياء وحجر الزاوية هو المسيح يسوع الذي فيه يُنَسَّق البنيان كله فينمو هيكلاً مقدّساً في الرب . وفيه أنتم أيضاً تُبنون معاً مسكناً لله في الروح . (أفسس ٢/١٨ — ٢٢) .

هناك لاهوت حول الكنيسة تعلّمناه طويلاً في كتب اللاهوت والتعليم المسيحي لم يعدّنا لهذا التغيير . ذاك أنه مدّة أربعة قرون تحدّد لاهوت الكنيسة الكاثوليكي تقريباً فقط ضد البروتستانت . **فهؤلاء كانوا يشدّدون فقط على الكنيسة الروحيّة وعلى الاتحاد بالإيمان والمحبّة ، ماحين كل هيكليّة هرميّة ومدّعين أن الكنيسة** تقتصر على اتحاد المؤمنين غير المنظور . ضد فكرة المصلحين هذه ، **مال اللاهوتيون الكاثوليك إلى اظهار دفاع ولاهوت السلطة بدلاً من لاهوت الكنيسة ذاتها . فقد حصل للاهوتيين البروتستانت** والكاثوليك في مواجهتهم ما يحصل في شد الحبل : يبذل كلّ من الطرفين ما في وسعه من جهة ، ومن جهة أخرى ينقطع الحبل من وسطه ويقع الفريقان كل من جانبه **ونصف الحبل بين يديه . للاهوتيّين** الاصلاح : الكنيسة — الاتحاد ؛ وللكاثوليك : الكنيسة — السلطة !

هذا ما أعطانا نحن الكاثوليك رؤيا قانونية ، سلطويّة للكنيسة

نعبّر عنها ببناء هرمي : البابا في القمة والأساقفة تحته ثم الكهنة والعلمانيون في القعر حيث لا يحق لهم سوى الصمت .

بعد أن شفي المجمع من هذه الحمّى الناتجة عن حرب الاصلاح ، شدّد على أن يعطينا المعنى الكتابي والتقليدي للكنيسة . فالدستور حول الكنيسة هدم الهرم : وضع القاعدة فوق ، موضحاً أولاً ما أراده المسيح وما يبقى وحده في نهاية العالم : شعب الله . الواقع الأساسي للكنيسة ، الأول والأخير ، هو هذا : شعب الله . والباقي ، مهما كان مهمّاً ، هو عرضي وعابر : هو لهذا العالم . السلطة خدمة ، السلطة للشعب المسافر وبهذا المعنى ليست أسمى منه .

فأتمّوا فرحي بأن تكونوا على رأي واحد ومحبّة واحدة وعلى اتفاق الأنفس واتّحاد الأفكار . لا تعملوا شيئاً عن منازعة أو عُجب بل فليحب بتواضع كلّ منكم صاحبه أفضل منه . ولا ينظر أحد إلى ما هو لنفسه بل الى ما هو لغيره . ليكن فيكم من الأفكار والأخلاق ما هو في المسيح يسوع (فيلبي ٢/٢ — ٥) .

هذه النظرة الى الكنيسة **في قاعدتها** تختلف كثيراً عن النظر إليها **في قمّتها** . لكنّها تقليدية مثلها . إنها تسمح لنا بأن نفهم أن المسيحيين كلهم متساوون تماماً فيما بينهم . وهي تسمح بأن نضع الخدّام (كهنة وأساقفة) وسط الجماعات وفي خدمتهم كشهود لحضور المسيح القائم من الموت وكرباط فيمابين الكنائس . وهي تساعد على فهم دور البابا بطريقة جديدة ! ليس أولاً كالرئيس والمدير العام بل الذي يحمل همّ الوحدة والحوار بين كل الكنائس . وكلّما شدّدنا على الطابع المميّز لكل كنيسة ، يبدو البابا ضرورياً لتسهيل الاتصال والحوار (راجع يوحنا الثالث والعشرين) (بول غيران) .

هذا هو سر الكنيسة ، فهي أخويّة وسلطويّة ، اتحاد ومؤسسة . « منظورة وغنيّة بالحقائق غير المنظورة » (الفاتيكاني الثاني : الليتورجيا) . إنها مرتبطة ببطرس وبولس والاثني عشر وبالتقليد والكتاب الذين أعطونا اياهما — **كنيسة رسولية** — وأخيراً مرتبطة بأساسها أي الرب يسوع .

كنيسة واحدة :

يكتب بولس الى أهل أفسس : « فأسألكم أن تسلكوا كما يحقّ للدعوة التي دُعيتم إليها بكلّ تواضع ووداعة وأناة محتملين بعضكم بعضاً بالمحبة . مجتهدين في حفظ وحدة الروح برباط السلام . اذ ليس سوى جسد واحد وروح واحد . . **ربّ واحد وايمان واحد ومعموديّة واحدة** واله واحد وآب واحد هو فوق الجميع ومع الجميع وفي جميعكم » (٤/١ . .) .

هل الكنيسة مجتمعاً متعدد القوميّات يتبنّى المركزية ، على رأسها البابا ثمّ معتمدو مناطق وفروع محلية ؟

العكس هو الصحيح . **الوحدة هي في أساس الكنيسة** . **وكلّ كنيسة محلية هي الكنيسة كاملة** : كنيسة الله القائمة في أفسس أو في انطاكية أو روما أو باريس . . لكن كلاًّ من هذه الكنائس المحلية — **والتي المسيح وحده هو رأسها** — تعرف أنّها متّحدة حياتياً بسائر الكنائس المحلية وهي تريد ذلك ، بحيث أنها تؤلّف معها كنيسة جامعة واحدة . الكهنة والأساقفة هم أول خدم مسؤولون عن وحدة الإيمان والمحبة المحليّة وهم أيضاً علاقات حيّة للكنائس كالجهاز العصبي بالنسبة الى أعضاء الجسم : خدم كفوئين لجماعاتهم — أو للجماعة العالميّة بالنسبة إلى البابا — ومَعترف بهم كذلك من سائر الجماعات . لكن المركز غير المنظور لهذه الوحدة هو ، كما قلنا ، المسيح . « **فكلّكم واحد في المسيح** » (غلا ٢٨/٣) . فما عسانا أن نفهم من سرّ وحدة الكنيسة هذا ؟

أنا الكرمة وأنتم الأغصان

أنا الكرمة الحقيقية وأبي الحارث . كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه

شبّه اشعيا وصاحب المزامير الشعب الاسرائيلي بكرمة الله . تشبيه عاطفي . فيجب دوماً الاهتمام بالكرمة ونكشها وريّها وتسنيدها وتنقية أوراقها وتسميدها وحفظها من كل الحشرات السامّة والطيور والحيوانات . هذه الكرمة المحصّنة والمؤلّفة من عدّة أشجار ترمز إلى

وكلّ ما يأتي بثمر ينقّيه ليأتي بثمر أكثر..
اثبتوا فيّ وأنا فيكم. كما أنّ الغصن لا يستطيع أن يأتي بثمر من عنده إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. من يثبت فيّ وأنا فيه يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً. (يو ١٥/ ١ — ٥).

وحدة الملكوت على تنوّع أعضائه.

في الفصل الخامس عشر من إنجيل يوحنا، لكي يوحي لنا المسيح التجديد الذي أتى به لشعب الله، يعود الى هذه الصورة وغايته إكمال العهد القديم، لكنّه يحصرها أكثر: لم يعد هو الكرمة المتعدّدة الأشجار بل الشجرة الوحيدة ونحن أغصانها.. الوحدة التي تربطنا به وبإخوتنا ليست وحدة خارجيّة فحسب، وحدة شبه أو جوار كما هي الحال بالنسبة إلى أشجار الكرمة الواحدة. بل وحدة داخليّة حياتيّة عضويّة. **فهو وخاصّته يؤلفون كائناً واحداً حياً**. جذور واحدة وماويّة واحدة. هو والكنيسة يؤلفان شجرة كرمة واحدة. هو جذعها ونحن أغصانها. فكما أنّ الشجرة وجذوعها واحد، كذلك المسيح والمسيحيون واحد. وكما تستمد الأغصان حياتها من الشجرة، كذلك حياة المسيحيين من المسيح هي.

وكما أنّ حياة الأغصان هي هي حياة الشجرة، كذلك حياة المسيحيين هي هي حياة المسيح ابن الله الإلهية.

فمن اتّحد به يحيى ويحمل ثماراً. ومن قُطع عنه مات واستحال عليه أن يحمل ثماراً.

وأخيراً كما أن الغصون هي واحد، وتحيا حياة الشجرة بالذات. فالمسيحيون هم أيضاً واحد في المسيح والحياة ذاتها تجري فيهم جميعاً. حقاً أنّ الكنيسة هي يسوع المسيح حياً بشكل جماعة (بونهوفر).

فالمسيح يؤلّف مع المسيحيّين «**المسيح الكامل، رأساً وأعضاء**» كما يقول القديس أغوسطينوس.

«جسد واحد» «جسد المسيح»

هذا يوصلنا الى العبارة الغنيّة، التي يحب القديس بولس أن

يشرح بها سر الوحدة بالذات : الكنيسة هي جسد ، جسد المسيح . والمسيحيون هم إذاً : ١ — أعضاء المسيح ، ٢ — أعضاء بعضهم لبعض .

* **أعضاء المسيح** : — إنها الحقيقة المدهشة عينها التي عبّرت عنها صورة الكرمة والأغصان : ذات الحياة تجري في الاثنين ، في الجسم وفي الأعضاء . لكننا لسنا هنا في معرض الصور . في نظر القديس بولس ، عبارة « **الكنيسة جسد المسيح** » **تعني حقاً جسد المسيح ، الشخص القائم من الموت** . **جميع المؤمنين متّحدون به حتى في كيانهم الجسدي** بفضل الإيمان والأسرار — وبخاصة العماد والأفخارستيا — لكي يستفيدوا منذ الآن من حياة القائم من الموت ذاتها . وذلك بالمبدأ الحياتي ذاته : الروح القدس ... « ألا تعلمون أن جسدكم هو هيكل الروح القدس الحالّ فيكم ؟ » (١كو ٦/١٥ ، ١٩) .

إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجفّ فيجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق . ان أنتم ثبّتم فيّ وثبت كلامي فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم . بهذا يتمجّد أبي أن تأتوا بثمر كثير وتكونوا لي تلاميذ (يو ١٥/ ٦ — ٨) .

فالله واقعيّ أكثر مما نتصوّر ! ففي التشبيه الذي استعمله الرب « أنا الكرمة وأنتم الأغصان » قد لا يسترعي انتباهنا التمييز بين المسيح والمسيحيين . لأن الكرمة تعني في آن الجذع والأغصان . وبالعكس فإنّ موضوع جسد المسيح يسمح للقديّس بولس أن يوضح السر . « لقد وضع الآب المسيح في رأس الكائنات كرئيس للكنيسة التي هي جسده (أفسس ١/٢٢ ..) . فالرأس والأعضاء تؤلّفا جسداً واحداً . بينما يتميّز الرأس عن الجسد ويفوقه رغم أنّه جزء منه .

كل شيء ينطلق من المسيح الرأس — الحياة الالهية ، الوحي ، الفكر ، الغاية — ويتوجّه نحو جسده الكنيسة التي ترتبط به بوثاق من الحبّ : « ما أبغض أحد جسده . بل بالعكس فهو يغذّيه ويحيطه بكلّ اهتمام كما يصنع المسيح بالكنيسة » (أفسس ٥/٢٩) .

ليس الجسد عضواً واحداً بل أعضاء كثيرة . فإن قالت الرجل لأني لست يداً لست من الجسد أفلذلك ليست من الجسد ؟ وان قالت الأذن لأني لست عيناً ، لست من الجسد . أفلذلك ليست من الجسد ؟.. والحال أن الأعضاء كثيرة والجسد واحد . فلا تستطيع العين أن تقول لليد : لا حاجة لي إليك ولا الرأس للرجلين : لا حاجة لي إليكما . (١كو ١٢/ ١٤.. ؛ ٢١) .

* **أعضاء بعضنا لبعض** : — « وهكذا ، وهنا أيضاً بولس يتكلّم ، مع أنّنا عديدون ، فنحن لا نؤلف سوى جسد واحد في

المسيح ، إذ نحن أعضاء بعضنا لبعض » (روم ٥/١٢) . لا جسد معنوي كمجموعة بشريّة ، كالجسم التعليمي أو الجسم الطبّي ، بل جسد واحد **حقاً** في المسيح : «كما أنّ الجسد هو كلّ ... » (١كو ١٢/١٢) .

« أعضاء بعضنا لبعض » يعني تنوّع الوظائف في وحدة الحياة : غنى الجسم ، توزيع العمل ، تناسق الكل ، التناغم المعقد مع كل فرد ، تبادل الخدمات والحاجات ، الرأفة نحو المتألّم والخاطىء . الأخوّة الحميمة داخل الجماعة ذاتها (١كو ١٢) .

خبز واحد

يا أولادي ، أنا معكم زماناً قليلاً وتطلبوني وكما قلت لليهود حيث أذهب لا يمكنكم أن تأتوا كذلك أقول لكم الآن . انّي أعطيكم وصيّة جديدة : ان يحبّ بعضكم بعضاً وان يكون حبّكم كما أنــا أحببتكم . بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي (يو ١٣/ ٣٣ــ ٣٥) .

أيسمح لنا بسؤال أعمق ؟ كيف تبقى الكنيسة — أعضاء وجماعة — حقاً وعضوياً واحد في ذاتها وواحدة مع ربّها ؟ علام تقوم حقيقة وجودها الجديد ؟ يجيبنا بولس : «كأس البركة التي نباركها (في القداس) أليست شراكة في دم المسيح ؟ والخبز الذي نكسره أليس شراكة في جسد المسيح ؟ بما أنه لا يوجد سوى خبز واحد ، فلسنا نؤلّف جميعنا سوى جسد واحد اذ نشترك جميعنا في هذا الخبز الواحد» (١كو ١٠/١٦ ..)

فالكنيسة هي إذاً جسد المسيح بعماد الإيمان الذي يغطّسنا فيه وهي تتجدّد هكذا بواسطة الافخارستيا : إذ في الافخارستيا يأكل الجميع ذات الخبز وليس من ذات الخبز أو من خبز يتحوّل الى جوهرنا . بل على العكس ، « هو الخبز الحي النازل من السماء ، الخبز الواحد الأحد ، الخبز ذاته — وهو الذي يحوّلنا جميعاً إلى جسده جاعلاً هكذا منّا مسيحاً واحداً . « هذا هو جسدي . خذوا كلوا منه جميعكم : تصبحون جميعكم جسدي ، أي تصبحون واحداً معي وواحداً بعضكم مع بعض ... لذلك أحبّوا بعضكم بعضاً » .

لم يعلن المسيح في مناسبة عادية بل حول مائدة الافخارستيا :

«وصيتي هي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا.. ما أطلب منكم هو أن يحبّ بعضكم بعضاً» (يو ١٥/١٢..). «بعضكم بعضاً» : أي المشتركون بمائدة المناولة ذاتها، الكنيسة المحلية حول القداس الواحد، الرعية الواحدة، أعضاء الجسد الافخارستي.

وبتعبير آخر، إذا كان جوهر الافخارستيا هو اتحادنا فعليا بجسد المسيح وبعضنا ببعض، فالحب اليومي، العادي، بين المسيحيين، هو جزء جوهري من الافخارستيا ذاتها. من هنا فلا يمكن أن يكون القداس طقساً بسيطاً يتم بنصف ساعة. فهو لم ينته عند خروجنا من الكنيسة. **يحتفل بالأفخارستيا فقط كل من يكمّلها في الليتورجيا الالهية التي هي الحبّ الأخوي طوال النهار والأسبوع.**

وهكذا فالوحدة والمحبة التي هي قلب الدين المسيحي تجد هنا جذورها في معطياتها الواقعيّة : الاحتفال بجسد المسيح والمشاركة فيه. إن لم تكن المناولة شرطاً للوحدة والمحبة بين المشتركين بها، فهي في جوهرها باطلة : لم يعد هناك كنيسة ولا جماعة. من هنا كان غضب القدّيس بولس ضد كنيسة كورنثية : «يجب أن ألومكم لأنكم تجتمعون لا لفائدتكم بل لخسارتكم. لقد بلغني أن بينكم شقاقات وانقسامات... فمن يأكل خبز الرب ويشرب كأسه بدون استحقاق، فهو مجرم الى جسد الرب ودمه» (١كو ١١/١٧..).

الافخارستيا رباط الوحدة في الكنيسة

ففي الواقع، في الاحتفال الافخارستي، إذا ما فهمناه كرباط وحدة الكنيسة، يجب أن نفتّش عن اقدم نقطة انطلاق لفكرة الأولية. هنا ينكشف، على ما يرام، المعنى الحقيقي لأولية البابا.

تقريباً هكذا كانت تفهم الكنيسة القديمة الصيغة العملية لوحدتها : كانت تعي ذاتها **كجماعة العشاء السري**. كانت كلّ جماعة محلِّيَّة تفهم ذاتها كمظهر خارجي «لكنيسة الله» الواحدة عندما

كانت تحتفل بسر جسد المسيح برئاسة الأسقف وكهنته . بين هذه الجماعات المختلفة التي كانت تعي أنّها تمثّل الكنيسة جمعاء ، لم تكن الوحدة وحدة إداريّة . كانت تقوم على أنّهم كانوا متّحدين فيما بينهم ، أي كانوا يقبلون في كنائسهم للمناولة أعضاء الجماعات الحاضرين بينهم . لم يكونوا يتّحدون بالهراطقة (افرادا كانوا أم جماعات) . لم يكونوا يقبلونهم للمناولة في جماعات الإيمان الصحيح . فكانوا مبعدين هكذا عن الكنيسة ومشهورين كهراطقة . وعلى العكس فبعض تجمعات للهراطقة كانوا يؤلّفون فيما بينهم جماعات لا تتّحد إلاّ بين بعضها البعض ، وليس مع الكنيسة الجامعة الكاثوليكية . ولكن عند قدوم غريب ما ، كيف كانوا يعرفون إن كان ينتمي إلى جماعة الإيمان الصحيح ؟ هنا كان يظهر البعد الحقيقي — المحبة والإيمان والهيكليّة — لجسد المسيح الافخارستي : كانت كلّ كنيسة تنطلق من الافخارستيا وتفهم ذاتها كجسد المسيح ، لم تكن فقط الجماعة المحليّة للذين يحبّ بعضهم البعض بل أيضاً — وذلك لوحدة الجسد المنظّمة — كنيسة من نوع مقدّس ، كنيسة ذات هرميّة ، فالمسيحي المسافر كان يصطحب من أسقفه رسالة اتحاد تكفل انتماءه لجماعة الكنيسة الكبرى . لكن كيف كانوا يعرفون أنّ هذا الأسقف هو أيضاً ينتمي إلى الكنيسة الكبرى ، كنيسة الإيمان الصحيح ؟ أساقفة المنطقة الواحدة كان يعرف واحدهم الآخر ويكتب بعضهم لبعض رسائل اتحاد ويرسلون أيضاً لبعضهم الخبز المقدّس للتناول من طاولة واحدة . من جهة أخرى ، كان في حوزتهم لوائح سجّلت عليها الكنائس المحليّة للكنيسة الكبرى مع أسماء أساقفتها المنتخبين قانونياً والمعترف بهم والمرسومين على يد أساقفة مقاطعتهم . إنما في النهاية كانت روما المرجع الذي يحدّد أماكن الجماعات الحقيقية . وكان المبدأ : كل من اتحد بروما ، اتّحد بالكنيسة الحقيقية . وكل من لم يتّحد بروما ، لا ينتمي للجماعة الحقيقيّة ، هو ليس جزءاً ، بالمعنى الحقيقي ، في

«جسد المسيح» . روما ، مدينة رؤساء الرسل ، بطرس وبولس ، هي التي ترئس وحدة الكنيسة كلها . **أسقف روما يجسّد ويمثّل الوحدة التي تستقيها الكنيسة من عشاء المسيح الواحد** .

لذلك فما يؤسِّس أولاً وحدة الكنيسة لا كونها تملك حكماً مركزياً موحداً ، بل كونها تحيا من عشاء الرب الواحد . لكن وحدة عشاء المسيح هذه تكفلها «رتبة» مرجعها الأول أسقف روما . **فهو يجسِّد** هذه الوحدة ويحفظ صفاءها . فمن لم يكن على اتفاق واياه فقد انفصل عن ملء شراكة الكنيسة الواحدة غير المنقسمة . حقاً أن الكنيسة تصنع الافخارستيا والافخارستيا تصنع الكنيسة . من هنا نتساءل : ما قيمة قدّاسنا ؟ جواب : إنه متعلّق بقيمة وحدتنا ..

«**هل انقسم المسيح**» ؟

لا يزال المسيحيون خطأة ، ويا للأسف ! كانت الانانيّات ولا تزال تولد الانقسامات ، الانشقاقات ، وكثيراً ما تمزّق أهداب الكنيسة : ارثوذكس ، بروتستانت ، انكليكان ..

واليوم تظهر الانقسامات ، وهي أخطر منها في الماضي ، داخل الكنيسة الكاثوليكية ذاتها على أصعدة تختلف أهميّة . بين الذين يشدّون الى الأمام والذين يشدّون الى الوراء ، بين المحافظين على كنيسة شبيهة بالمومياء والتقدميّين الذين يريدون تحطيم الكنيسة ، الذين يؤمنون باللغة اللاتينية والذين يؤمنون بالعنصرة «حيث كان كلّ واحد يسمع الرسل يتكلّمون لغته» ، بين المتحمّسين للموسيقى الكنسية الغريغورية والمتحمّسين للجاز ، بين الذين يقاتلون مع اليساريين والذين يلتزمون باليمين المتطرّف ، بين العموديّين الذين لا يعرفون إلاّ الله وحده والأفقيّين الذين يريدون «الإنسان أولاً ، معلمي الدين الصادر عن القلب ومعلميّه عن ظهر القلب ..» يرفض القديس بولس هذا الواقع باسم جسد المسيح : «لا يكن فيما بينكم انقسامات ... **هل تقسِّم المسيح** ؟» .

وأسألكم أيها الأخوة باسم ربّنا يسوع المسيح ان تقولوا جميعاً قولاً واحداً وألاّ يكون بينكم شقاق بل تكونوا ملتئمين بفكر واحد ورأي واحد . فقد أخبرني عنكم أيها الأخوة أهل كلوة أن بينكم خصومات أعني أنّ كلّ واحد منكم يقول : أنا لبولس أو أنا لافلو أو أنا لكيفا أو أنا للمسيح . ألعلّ المسيح قد تجزّأ ؟ ألعلّ بولس صُلب لأجلكم ؟ أو باسم بولس اعتمدتم ؟ (١كو ١/١٠—١٣) .

— إذا أيقف الجميع في صفّ واحد للمسيرة العسكرية بلباس ذات لون واحد طقسي لاهوتي سياسي ؟..

معاذ الله ! ! ذلك كمن يعرض على كل الاوركسترات قطعة موسيقية ذات نوطة واحدة ورنّة واحدة.. انه لحلّ ظالم ! لماذا يجب أن تكون كل الأزهار اقحوانه ؟ نعم للوحدة ، لا للتماثل ! نعم لترداد القافية ، لا للرتابة ! فالنوطات والأزهار ترضى بالفروقات ، بل إنها تتناغم وتحبّ بعضها . وهكذا تزداد كل منها جمالاً بجمال الاخريات ..

أأدّعي أني أعبّر أنا وحدي عن المسيح الكامل ؟ والإنسان الكامل ؟ إذاً علينا أن نرضى بالآخرين كآخرين ؛ لا أن نحتملهم فقط كمختلفين عنّا . التعصّب خطيئة رئيسية عند المتديّنين ! يجب أن **أحبّ الآخر وهو مختلف عني** ، أن يبقى هو هو كما أريد أن أبقى أنا كما أنا ، وحتى لا يموت العالم من الضجر والرتابة ، ولو ضحّينا ببعض النوطات الخاطئة شرط ألاّ يكون الإيمان والكرامة في خطر أكيد . على كل حال لماذا لا تكون أذني مخطئة ؟ لماذا هي اذن الغير التي تخطىء دائماً ؟ على كل حال ، هذا ليس من الإيمان ..

ثم ما هي النوطة الخاطئة ؟ هذا التنافر في الأصوات لم يكن مسموحاً به في القرن الثامن شر . وقد أصبح في القرن العشرين ائتلافاً نحبّه بشغف .

إذن نريد حوارا دائماً وتناقضاً بعض المرّات . أما التعصّب فلا . أبداً . لقد كتب الأب كونغار يقول : « ما صدمني في أعماقي ليس أن أجد تناقضاً ، فأنا أقبل به دائماً . إنما ان أجد البغض » .

كنيسة مقدّسة :

اسمحوا لي أن أختصر في موضوع قداسة الكنيسة . ليس ذلك

تهرّباً — كما يصنع الهر على الجمر — من مجابهة قاسية ، بالنسبة الينا نحن المسيحيين ، بل لأن التوسّع في موضوع القداسة المسيحيّة يجد محلاً في الفصول الآتيـة حول «شراكـة القـدّيسين» و«مغفرة الخطايا» . في هذا البند من النؤمن ، عبارة «كنيسة مقدّسة» تؤلّف كلاً متماسكاً حيث كلمة «مقدّسة» ملازمة لكلمة «كنيسة» كصفة طبيعيّة . **المقصود هنا هو شعب الله كشعب** وليس الأشخاص افرادياً . والحال أن هذا الشعب هو دائماً مقدّس مهما كانت نوعيّة افراده .. إليكم كيف :

الأب هو قدوس

العبارة «كنيسة مقدّسة» تأتينا من لغة العهد القديم حيث كان يدعى مقدساً كل ما اختصّ بالله وكل ما هو له بأيّة صفة كانت . اسم مقدس ، هيكل مقدّس ، أرض مقدّسة وشعب مقدّس . **«كنيسة مقدسة» تعني إذاً أوّلاً «كنيسة الله»** . فكما أنّ الأرض معرّضة للشمس دون أن تكون هي شمساً ، كذلك شعب الله مقدّس بقطع النظر عن قيمته الأدبيّة ، وذلك نظراً للعهد الذي يربطه بالله القدّوس : «**تكونون قدّيسين لأنّي أنا قدّوس**» (أحبار ١١/٤٤) .

في السنة التي مات فيها الملك عزّيا رأيت السيّد جالساً على عرش عال رفيع وأذياله تملأ الهيكل . من فوقه السرافون قائمون ستّة أجنحة ستّة أجنحة لكل واحد . باثنين يستر وجهه وباثنين يستر رجليه وباثنين يطير . وكـان هـذا ينـادي ذاك ويقول : قدّوس قدوس قدوس ربّ الجنود الأرض كلها مملوءة من مجده . (أشعيا ٦/١ — ٣) .

وأكثر من ذلك : جماعة العهد هذه مدعوّة ، أخاطئة كانت أم أمينة ، للعبادة الإلهيّة . فهي تؤلّف إذاً جماعة مقدّسة» في خدمتها الكهنوتيّة ، أأهلاً كانت هذه الخدمة أم غير أهل : «**الجماعة المقدّسة» هي التي تجتمع لمديح الله ، أو بالأحرى للذبيحة** . يقول القدّيس بطرس للشعب المسيحي : «أنتـم جيل مختار ، كهنوت ملكي ، أمّة مقدّسة ، شعب افتداه الله..» (١ بطر ٩/٢) .

هذا النصّ الفريد يقول كل شيء : «نجد هنا الميزة الحقيقية «للعهد الجديد» : في المسيح يرتبط الله بالبشر وهو الذي يسمح لهم أن يربطوه بهم . لم يعد العهد الجديد مرتكزاً على الاحترام المتبادل لقوانين معيّنة . بل الله يعطيه كهبة ثابتة رغم خيانة الإنسان . هو

تعبير عن حبّ الله الذي لا يغلبه عجز الإنسان . والله يبدو ، رغم كل شيء ودائماً ومن جديد ، محبّاً للإنسان فيستقبله بدون ملل كالابن الضال ويحنو عليه ويقدّسه ويحبّه » (رتزنكر) .

الابن هو قدوس

رحمة الآب هذه لا يماثلها سوى حنو الابن : « أحبّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه عنها ليقدّسها مطهّراً اياها بغسل الماء وكلمة الحياة (العماد والإيمان) . ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا عيب فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك بل تكون مقدّسة منزّهة عن كل عيب » (أفسس ٥/٢٥ ..) . كانت العروس ، بحسب التقاليد الشرقيّة ، تغتسل وتتزيّن . تبدو هنا كنيسة المعمّدين كشخص جماعي قد غطست ، بفعل واحد ، في دم صليب عروسها الإلهي يسوع الذي أسلم ذاته لأجلها . فالكنيسة اذاً مقدّسة بفعل نضارة عمادها . وهي دائماً تبترد في حمّام التوبة والافخارستيا . هي مقدّسة دائماً وأكثر بقداسة عروسها : « كل ما لي هو لك » . فهو وهي يؤلّفان جسداً واحداً . علينا ألاّ ننسى ذلك .

وأنا يلائمنا حبر مثل هذا قدّوس بريء زكيّ متنزّه عن الخطأة قد صار أعلى من السماوات . لا حاجة له أن يقرّب كلّ يوم مثل الأحبار ذبائح عن خطاياه أولا ثم عن الشعب لأنه قضى هذا مرّة واحدة حين قرّب نفسه . فإنّ الناموس يقيم أناساً ضعفاء أحباراً . أمّا كلمة القسم التي بعد الناموس فتقيم الابن مكمّلاً الى الأبد . (عبر ٧/ ٢٦ — ٢٨) .

من الواضح أن قداسة العريس الأساسية تدعو قداسة شخص العروس : **حياة العماد الجديدة** . لا يبرح بولس يقول : « الذين تقدسوا في المسيح يسوع (بعمادهم) هم بالحري « مدعوون ليكونوا قديسين (شخصياً) مع كل الذين يدعون اسم يسوع المسيح » (١كو ١/٢) . « جميع أحبّاء الله مدعوون ليكونوا قدّيسين » (روم ١/٧) « ليلبسوا المسيح » « الإنسان الجديد » .

لكن مهما يكن من أمر المسيحيين ، « نحن نؤمن أنّ الكنيسة هي دائماً مقدّسة . وفي الواقع ، انّ المسيح الذي ندعوه ، مع الآب والروح ، قدّوساً وحده ، أحبّ الكنيسة كعروسه إذ أسلم ذاته لأجلها ليقدّسها واتّحد بها كجسده ملأها من عطيّة الروح القدس لمجد الله (الفاتيكاني الثاني) .

الروح هو قدّوس

ودعاكم إلى ذلك بتبشيرنا لاقتناء مجد ربنا يسوع المسيح . فاثبتوا إذا أيها الأخوة وتمسَّكوا بالتقاليد التي تعلَّمتموها إمّا بكلامنا وإمّا برسالتنا (٢ تسا ١٣/٢ — ١٤) .

لا ننسينّ أخيراً أن قانون الإيمان يفهم الكنيسة انطلاقاً من الروح القدس . « نؤمن بالروح القدس في الكنيسة الجامعة » وليس « نؤمن بقداسة الكنيسة الكاثوليكية » .

الكنيسة حقل عمل الروح القدس في العالم . فأهمّ ما في الكنيسة إذاً ليس نصيب المساكين المجتمعين فيها ، بل عمل الروح الذي يجمعهم فيها والذي « ينمي الكلمة ويزيد عدد التلاميذ » (أعمال ٧/٦) والذي — كمحطة تنقية الهية — يحفظ فيها نقاوة الإيمان ويبعد عنها دوماً النفايات . « محبة الله أفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أعطيناه . نعم لمّا كنّا خطأة .. تصالحنا مع الله » (روم ٥/٥ — ١١) .

في مساء الفصح الأول ، ظهر يسوع للرسل ونفخ عليهم : « كما أرسلني أبي ، أنا أرسلكم .. خذوا الروح القدس : من غفرتم خطاياه تغفر له » (يو ٢١/٢٠ ..) . **هديّة القائم من الموت الفصحيّة للعالم هي الروح لمغفرة الخطايا** . فقد أسَّس الكنيسة كقوّة ومكان لمغفرة الخطايا . من يتعجّب إذا رأى ثياباً وسخة في هذه الغسلة ؟..

كنيسة كاثوليكية

نؤمن بالكنيسة الكاثوليكية

إذا شئتم أن تبلغوا الى نهاية ذواتكم ، فإيّاكم وكلّ ما يعزل وكلّ ما يلقي جانباً وكلّ ما يَفصل . كل في مضمار ، فكّروا واعملوا للشمول أي للمجموع . وغداً قد تكتشفون فجأة أن لا شيء يجعلكم تختلفون وانّ بإمكانكم أن تحبّوا بعضكم بعضاً .
(تيار دي شردان) .

كاثوليكي يعني « شامل » ، كنيسة كاثوليكية تعني « جماعة عالمية » تجمع جميع الناس في المسيح .

فلنسمعه يعطي الرسل أوامره :

— « اذهبوا الى العالم كلّه وبشّروا بالإنجيل الخليقة كلها » (مر ١٥/١٦) .

— « اذهبوا بشّروا جميع الأمم » (متى ١٩/٢٨) .

— « ستكونون لي شهوداً الى أقاصي الأرض » (أعمال ٨/١) .

— اقرأوا في انجيل القديس متى الفصل الثالث عشر أمثال « ملكوت الله » .

إنه كحبّة خردل ، هذه الحبّة الصغيرة التي لا تساوي شيئاً عندما تبذر في الأرض فهي تسبق بسرعة سائر المزروعات وتصبح شجرة خصبة شبيهة بشخص واحد يملأ بسرعة بلادا . كل طيور السماء بوسعها أن تحطّ على أغصانها (٣١ — ٣٢) .

وهو كخميرة صغيرة جداً خبّأتها امرأة في كميّة من الطحين . هذه القبضة تدخل في العجنة من جانب إلى جانب وتعمل فيها فتختمر العجنة كلها (٣٣) .

وهو أيضاً كشبكة ألقيت في البحر فبلغت العمق وامتلأت سمكاً من كل جنس (٤٧ — ٥٠) . هذه هي قصّة « الملكوت » . ولادة وضيعة في ظلام مذود بيت لحم ثم في الدياميس على ضوء قنديل زيت مضطرب . حبّة صغيرة ، خميرة صغيرة شبكة فارغة في قعر سفينة . ثم يأتي النمو والانتشار العالمي « الكاثوليكي » .

هذه هي ديناميكية ملكوت الله .

ما الكنيسة سوى وجهه المنظور . لذلك لا يمكن أن تكون كنيسة جنس أو لغة أو ثقافة أو أمّة .

العالم ضمن أربعة جدران

يشبه ملكوت السماوات حبّة خردل أخذها رجل وزرعها في حقله وهي أصغر الحبوب . فإذا نمت صارت أكبر من جميع البقول ثمّ تصير شجرة حتى أنّ طيور السماء تأتي وتستظل في أغصانها . وقال لهم مثلاً

فلنذكر أنّ الكنيسة ، قبل أن تنتشر في كلّ أصقاع الأرض . كانت «كاثوليكية» . أجل ، لو أن عاصفة من الاضطهادات الدمويّة حملت على الاستشهاد ٢٨٠٠ أسقفاً ودمّرت كل أمكنة العبادة من الكاتدرائيات الجميلة الى الكنائس الصغيرة الوضيعة ، ولو أحرقت ريح الهرطقات الجافّة أكثرية الديار المسيحية وحوّلتها الى قطيع تائه أمام عصا بابا هارب خائف ، فالكنيسة ستبقى كاثوليكية جامعة .

لقد حدثت مثل هذه الاضطهادات وهكذا بدأت . فالكنيسة كاثوليكية منذ صباح العنصرة لما كانت غرفة واحدة تتّسع لجميع أعضائها .

آخر : يشبه ملكوت السماوات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق فاختمر الجميع . (متى ١٣/٣١ — ٣٣) .

— الكنيسة الجامعة ضمن أربعة جدران !..

— فاعلم أنّ الكاثوليكية ليست أولاً قضيّة عدد أو جغرافيا . ليس أهم ما فيها أن تنتشر في الأرض كلّها .

وهكذا ، أأنت كاثوليكي ؟ إذاً أنت عالمي !

— أنا وحدي ؟

— أنت والمسيح الحالّ فيك . لأنّك **بعمادك تحمل حياة هي لجميع الناس ، بشرى سارّة موجّهة للجميع ، حباً يغمر الجميع ، نعمة تقدر أن توحدّهم جميعاً في محبّة المسيح . ورسالتك أنت هي أن توصلها إليهم** ..

وهكذا وسعت جدران العليّة في يوم العنصرة حياة العالم . وأكثر من ذلك : لقد تجمّعت هذه الحياة ذاك الصباح تحت معطف كلّ رسول ، وسيذهبون نحو الشرق والغرب والشمال والجنوب حاملين نار روح المحبّة وبيدهم سلطة وعلى عاتقهم رسالة لكي يشعلوا بهذه النار أربعة أقطار العالم .

النار في أربعة أقطار العالم

هكذا ستنتشر النار في أربعة أقطار العالم لأن مسيحيين مثلك ضعفاء فهموا أنهم كاثوليكيون وأنّهم يحملون في صدورهم سرّ خلاص الجميع مع قوّة يسوع العجيبة ليحقّقوا هذا السر .

أنظر إلى فرنسيس كسفاريوس يلبس الأطمار ورجلاه داميتان ، على طرقات آسيا أو مجذّفاً من جزيرة إلى جزيرة فوق أخشاب مفكّكة ، أحلامه بالفتوحات تحجب أحلام الاسكندر وشارلكان ونابوليون ..

مرسلون غيره نزلوا على شواطىء افريقيا . وغيرهم كثيرون ألهبوا أميركا من الجليد القطبي إلى أرض النار .. وغيرهم اصطاد جزر أوقيانيا في شباك الحب الفسيحة ..

فالمسيح كما نرى هو هذه الخميرة الصغيرة التي تخمّر العجين البشري بأجمعه ..

قد أتى دورك الآن

هذه ساعتك أنت ، بحسب وسائلك . فالعمل ينتظرك !..

في جيبك بلوّطة . ازرعها فتعرف أنك كنت تحمل غابة .. أنت تخبّىء الإيمان في قلبك . فانشره في الجو من حولك ترَ أنّك كنت تملك النور للكثيرين .. ليست الكاثوليكية أولاً قضيّة عدد وجغرافيا . لكنّها أيضاً قضيّة عدد وجغرافيا . فالكنيسة الجامعة لا يمكنها أن تهدأ إلاّ إذا أصبح العالم كلّه هو الكنيسة .

وأيضاً يشبه ملكوت السماوات شبكة القيت في البحر فجمعت من كل جنس . فلمّا امتلأت أصعدوها الى الشاطىء وجمعوا الجيّد في الأوعية والرديء رموا به خارجاً . (متى ١٣/ ٤٧ — ٤٨) .

« جئت الق في الأرض ناراً ، يقول يسوع ، ورغبتي هي في أن يشتعل كلّ شيء !.. » (لو ١٢/٤٩) .

فأنت ، يا صديقي ، جمرة المسيح المشتعلة . ماذا تنتظر لتُلهب العالم بهذه الشعلة وهذا الحب ؟

لقد قال المعلّم للجمهور ، إذا لك أنت : « أنتم ملح الأرض ، نور العالم .. عليكم أن تنيروا البيت كلّه ، كالقنديل » (متى ١٣/٥ — ١٥) .. لست كاثوليكياً حقاً إلاّ إذا شعرت بأنّ العالم بأسره يخفق في قلبك المسيحي .

١٧

بشراكة القديسين

أوانٍ مُستطرقة

«قال لي الفلاّح في الحلم : اصنع خبزك..»
اصنع قهوتك ، قال لي المزارع البرازيلي .
اصنع زبدتك وحليبك ، قال لي القروي .
اصنع سكّرك ومربّياتك ، قال آخر..

من حسن الحظّ أنّ ذلك حلم وإلاّ فالوداع ، يا فطوري .

بدون الآخرين لما كان لي لغة ولا ثقافة ، لا فكرة ولا قلب ، لا عائلة ولا وطن ، لا بيت ولا ملبس.. بدون الآخرين لست شيئاً . لا روح ولا جسد . لكن ، «أنا موجود»... ويجب «أن أوجد للآخرين» كما الآخرون هم لي . وإلاّ فما أنا سوى حشرة طفيليّة يجب إتلافي .

إخوة بدون حدود

أنا إذا بحاجة الى الغير وبحاجة لأن أكون للغير . لذا فنحن نؤلّف عائلات وأحياء وقرى ومدن ودول واتّحادات ..

لكي نساعد بعضنا البعض طبعاً . ولكن قبل كل شيء لكي نكون «مع بعضنا» ، لكي نكون معاً . لنلاقي الغير ونحبّهم ويحبّو[ننا] ودائماً أكثر ودائماً الى أبعد حد :

«أريد أن أزنّر السيّدة الأرض ،
أن أرسم خطّ استواء بالأحذية .
خطى وأقدام أصدقاء وأخوة ،
وحقّ المرور للعالم كله (جيل ڤينيو) .
هكذا يغنّي الشعراء . هكذا يحلم الناس . «لو كان جميع شبا[ب]

الأرض يشبكون أيديهم ..»

وهذا أيضاً حلم . حلم جميل نقيض حلم إفطاري . وإنه لقاس أن أفيق منه . لا لأوروبا ، لا للنفق تحت المانش ، لا للخمور الأجنبيّة ، لا للأجانب ..

— «أجانب» ؟ ما معنى «أجنبي» ؟
— الذي يعيش خارج الحدود ؟
— ومن رسم الحدود ؟
— ليس أنا ، يقول الله ، لم أخلق سوى إخوة .

إخوة بدون حدود . سلّمت الناس أبنائي كوكباً لا حدود بين بلدانه ، لا حدود بين أراضيه ، لا أسوار بين بساتينه . انّ نار اليوم الأخير المطهّر سوف يحرق دون شك السياجات والأسلاك الشائكة ، الأسوار والستائر ويمحو الكمارك عن الخريطة . فيبلغ الإنسان عندئذ قامة الإنسان . وتعي **الإنسانية ما هي عليه : غابة واسعة واحدة حيث لكلّ الأشجار جذور في قلب الله الثالوث** .

إذ ، في النهاية ، هذه الجذور هي هنا مشتركة وسرية وهي تكوّن وحدة البشر جميعاً . يكشفها الإيمان . وقانون إيمان العماد يعطيها اسمها : شراكة القدّيسين .

شراكة القديسين

مع «شراكة القدّيسين» نتطرّق لاصغر المواضيع سنّاً في قانون الرسل : أي البند الذي أدخل بعد سائر البنود حوالي نهاية القرن الرابع . لذلك لا نجده في قانون نيقيا — القسطنطينية الذي نتلوه في قدّاس الأحد الذي هو قانون الرسل المنقّح سنة ٣٢٥ و٣٨١ في الشرق . أهذا يعني أن «شراكة القدّيسين» شيء ثانوي ؟ عقيدة لا شرعية ودخيلة ! طبعا لا ! «شراكة القدّيسين» هي ترداد بعبارات مختلفة لعبارة «الكنيسة المقدّسة» . أذكر الفصل السابق : «كنيسة

نعمة سيّدنا يسوع المسيح ومحبّة الله وشركة الروح القدس لتكن مع جميعكم . (٢كو١٣/١٣) .

مقدّسة » تعني « جماعة مقدّسة » « الجماعة المقدّسة » أو « شراكة القدّيسين » تعني ذات الشيء .

إذاً لماذا هذا الترداد !

لأن سرّ الكنيسة لا يُسبر غوره تماماً كسرّ الروح القدس العامل فيها . قلنا أن القانون القديم أو جزء الجزء الثالث في هذه العبارة الواضحة : « نؤمن بالروح في الكنيسة المقدّسة لقيامة الموتى » . لكنّهم شعروا بضرورة تفصيل عمل الروح : غفران الخطايا ، تبادل خيرات الجماعة ، مشاركة . شراكة القدّيسين هي احياء لسرّ الكرمة والأغصان ولكن مع التشديد هذه المرّة على علاقات الأغصان بعضها مع بعض . أرض واحدة من جهة وماويّة واحدة ، أوكسجين واحد ومطر واحد وشمس واحدة ، — من جهة أخرى . اشتراك كل واحد في صحّة وحيويّة وخصب كل المجموعة . فالشجرة واحدة يعمل فيها الكرّام الإلهي الواحد .

أنا الكرمة الحقّة وأبي الحارث . كلّ غصن فيّ لا يحمل ثمراً يقطعه . وكلّ غصن يحمل ثمراً ينقّيه ليحمل ثمراً أكثر . أنتم أنقياء لأجل الكلمة التي بشّرتكم بها ! اثبتوا فيّ كما أنا فيكم . كما أنّ الغصن لا يقدر أن يحمل ثمراً من ذاته ما لم يثبت في الجفنة ، كذلك أنتم إن لم تثبتوا فيّ . أنا الكرمة وأنتم الأغصان . من يثبت فيّ وأنا فيه يحمل ثمراً كثيراً ، إذ بدوني لا يمكنكم أن تعملوا شيئاً . من لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن وييبس . والغصون اليابسة يجمعونها ويطرحونها في النار لتحترق . إن ثبتّم فيّ وثبت كلامي فيكم ، اطلبوا ما تريدون فتعطونه . (يو ١٥/ ١ — ٧) .

أو ، وهنا نعود إلى صورة للقدّيس بولس ، ليست شراكة القديسين سوى سرّ جسد المسيح الكامل — رأساً وأعضاء — إنما للتشديد بنوع خاص على علاقات الأعضاء بعضها ببعض : اشتراك بالغذاء الواحد . الدورة الدمويّة الواحدة ، الجهاز العصبي الواحد ، تكامليّة الخدم ، تواقت النمو . الرفاهية المشتركة والألم المشترك والمجد المشترك . **شراكة القدّيسين هي إذاً أولاً ، على صعيد الأشخاص ، جماعة المؤمنين الواسعة في هذا العالم وفي العالم الثاني .**

شراكة القديسين هي أيضاً ، على صعيد الخيرات ، وصل حياة كل من أبناء الله بحياة جميع إخوته في المسيح ، كأعضاء الكرمة الواحدة . كأعضاء الجسد الواحد .

وهي ، على صعيد حياة الله في الكنيسة ، مبدأ الأواني المستطرقة البسيط . فلنأخذ عشر قناني متّصلة بعضها ببعض في قعره

بواسطة أنبوب . لو صبّينا كأساً سائلاً في إحدى القناني ، فحالاً يشترك هذا الإناء بالتسعة الباقية . فيرتفع المستوى في الجميع . وبالعكس ، لو ضخّينا سعة كأس من إحدى القناني ، لهبط المستوى في الجميع . لو صبّينا جسماً ملوّناً في الأولى ، تتلوّن التسع الباقية . بما أن الأواني جميعها متّصلة بعضها ببعض ، فهي لا تكوّن سوى إناء واحد كبير . فلا يوجد إذاً سوى جسم سائل واحد .

هكذا في الكون ، ما عدا الذي ينتزع ذاته بعنف وبإرادته من النعمة ومن دائرة التنفّس والغذاء ، لا أحد يعيش وحيداً . « لا يعيش أحد كجزيرة » . كلّنا مرتبطون بالمسيح وبه نحن متّصلون بالآب وبالروح ، مرتبطون بأخوتنا جميعاً حسب مخطّط يسوع وصلاته : « ليكونوا واحداً : كما أنت فيّ أيها الآب وأنا فيك .. ليكونوا واحداً كما نحن واحد : أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا واحداً بكاملهم » (يو ١٧/٢١ — ٢٣) .

الكنيسة هي كنيسة القدّيسين

في العبارة « شراكة القدّيسين » تكوّن كل كلمة مشكلة .

لغتنا المألوفة تدعو « قدّيسين » النجوم المعروفين في الروزنامة الطقسيّة : المؤمنين الكبار ، أصدقاء الله الحميمين ، الشهداء ، مؤسّسي الكنائس والرهبانيّات ، متسلّقي الجبال الأبطال ، صانعي العجائب . مع أننا رأينا ، بخصوص « الكنيسة المقدّسة » ، أنّ لغة الكتاب مغايرة تماماً لهذا : فكلمة « قدّيس » تعني في الكتاب شعب الله — اسرائيل ثم المسيحيين — شعب المساكين أكثر ممّا هو شعب الابطال . أعمال الرسل (٩/٣٢) تعلّمنا أنّ بطرس كان يزور جميع القـدّيسين . وبولس يتكلم عن «كنيسة القـديسين» (١كو ١٤/٣٣) . وهو يكتب « لجميع القدّيسين الذين في آخائيا » (٢ كو ١/١) . وهو يعني « المؤمنين دون أن يعني كمالا شخصيّاً معيّناً . « القداسة » تعني هنا البعد الجديد لحياة المعمّد — حتى بعاد الشوق

هنـاك شراكـة القـدّيسين وهي تبدأ بيسوع . إنّه في داخلها كما أنه في مقدّمتها .
كل الصلوات وكلّ المحن وكلّ الأعمال وكلّ الاستحقاقات وكلّ الفضائـل معا ، فضائـل يسوع والقـدّيسين ، كـلّ القـداسات مجموعة ، تعمل وتصلّي للعالم كلّه لكل المسيحية ، لخلاص العالم كله معا (بيكي) .

البسيط أي الإرادة الطيّبة — والذي صار عضواً من الآن فصاعداً ، على كل حال ، في «جماعة القدّيسين» ، في الشعب المقدّس بالإيمان والأسرار ، جمهور خدّام الرب الوضيعين الذين يتابعون طريقهم دون ضجيج وهم عرضة لصدمات التجارب وللسقوط . لكن صليب المسيح فيهم هو أقوى من الشر. يعنّف پيكي طالب لاهوت جديد ويتكلّم بدهشة عن «هذا الرباط السرّي .. بين الخاطىء والقديس» في شراكة القدّيسين :

«الخاطىء والخطيئة هما جزء أساسي في المسيحية ، جزء أساسي في البنية المسيحية الرئيسية . الخاطىء والخطيئة جزءان أساسيّان متكاملان ، متبادلا التكامل . يرتكز واحدهما على الآخر ، وارتكاز واحدهما على الآخر يؤلف كل سر المسيحية .

«... ارتباط الخطأة بالقدّيسين .. هو ارتباط وحدة . ما يجعل المرء مسيحياً أم لا — افهموني جيداً — ليس أبداً كونه خاطئاً أكثر أو أقل من غيره .. الخاطىء هو من المسيحية .

«باستطاعة الخاطىء أن يعيش أجمل صلاة ... الخاطىء جزء مكوّن لجهاز المسيحية ، متمّم له . الخاطىء هو في قلب المسيحيّة بالذات . «الخاطىء والقدّيس معاً يدخلان في الجهاز ، هو من الجهاز المسيحي . **من لا يدخل في الجهاز ، من لا يمدّ يده ، هذا هو من ليس مسيحياً** ..

هذا هو الغريب ، الخاطىء يمدّ يده الى القدّيس ، يعطي القدّيس يده ، لأنّ القدّيس يعطي الخاطىء يده . ومعاً ، يسحب واحدهما الآخر ، يصعدان نحو يسوع ، يؤلّفان سلسلة تصعد نحو يسوع ، سلسلة لا تتفكّك أصابعها . من ليس مسيحياً ، من لا يملك أيّة أهليّة لما هو مسيحي ، ليكون مسيحياً ، للمسيحيّة ، هو الذي لا يعطي يده . لا يهمّنا ما سيعمل بهذه اليد فيما بعد .. **لا يحدد**

المسيحي بانخفاض مستواه ، بل باتّحاده مع إخوته » .

الكنيسة شراكة

« شراكة » : هذه هي الكلمة الثانية لهذا البند من قانون الإيمان . مشاة الله هؤلاء يعيشون في « شراكة » ، يؤلّفون « شراكة » .

« شراكة » تعني « اتحاد مع » مع من ؟ بين من ومن ؟

فلنقلها نهائياً : إن المجمع الفاتيكاني الثاني فجّر الحدود — القانونية الضيّقة — حدود براءة البابا بيّوس الثاني عشر « الجسد السرّي » .

أحد الأساقفة المرسلين في داسيا (رومانيا) ، نسيستاس ، رمزيانا ، في القرن الرابع ، أعطى شراكة القدّيسين كلّ أبعادها بهذه الكلمات : « ما هي الكنيسة إلمّ تكن تجمع جميع القدّيسين ؟ منذ ابتداء العالم جميع الآباء والأنبياء والشهداء وكلّ الرجال الأبرار الذين عاشوا أو يعيشون أو سوف يعيشون ، يؤلّفون كنيسة واحدة لأنّهم تقدّسوا بإيمان واحد وطريقة حياتيّة واحدة وقد ختمهم الروح الواحد وأصبحوا جسداً واحداً رأسه المسيح حسب الكتاب . أكثر من ذلك : الملائكة أنفسهم أعضاء هذه الكنيسة الواحدة حسب تعاليم الرسول الذي يعلّمنا أنّه في المسيح يسوع قد تصالح كلّ شيء ليس فقطَ في الأرض بل في السماء . (نيستاس : قانون الإيمان ٥/١٠) .

هناك نجوم عديدة في السماء ، يفوق عددها قدرتي على أن أحصيها . ومع ذلك فلا يوجد واحدة غير ضرورية لتمجيد الله . هناك العديد من الأحياء ونكاد لا نرى إلاّ البعض يتقون بينما الباقون يتململون في الفوضى وفي زوبعة فنجان مظلمة . هناك أنفس عديدة ولكن لا يوجد واحدة لا اشترك معها في هذا المركز المقدّس فيها الذي يقول « أبانا » (كلوديل) .

نحن نفهم هذا بسهولة . إذ ليست الطبيعة البشريّة ، مهما كانت توّاقة الى الشراكة ، هي التي تستطيع أن تمغنط « شراكة » كهذه . يجب أن تكون الطبيعة الالهيّة في قلب العالم . نحن بحاجة الى « نعمة المسيح ربّنا ومحبّة الله الآب وشركة الروح القدس » (٢كو ١٣/١٣) . لذلك فقوّة الاجتذاب والترحيب الموجودة في شراكة القدّيسين تمتد بعيداً :

«إلى هذه الوحدة الكاثوليكية في شعب الله ، يعلن الفاتيكاني الثاني في الدستور العقائدي في الكنيسة : ان جميع الناس مدعوون .. لهذه الوحدة ، **يرتبطون بأشكال شتى بهذه الوحدة** ، **أو هم موّجهون إليها** : المؤمنون الكاثوليك وكلّ الذين يؤمنون بالمسيح **وجميع الناس دون استثناء** ، **الذين تدعوهم نعمة الله إلى الخلاص** (**١٣ — ١٦**) ..

— الموعوظون ... الذين تضمّهم الكنيسة الام كأبناء في حبّها إذ تهتّم بهم ..

— الشعب اليهودي الذي نال العهود والوعود ..

— المسلمون الذين يعترفون بإيمان ابراهيم .

حتى الملحدون الذين لا يزالون يفتّشون في الظلام عن إله يجهلونه بينما الله ليس بعيداً عنهم لأنه ، كمخلّص ، يريد أن يخلّص الجميع » .

ورأيت بعد ذلك واذا بجمهور غفير لا يستطيع أحد عدّه من كل أمّة ومن كلّ قبيلة وشعب ولغة ، وقوفا أمام العرش وأمام الحمل ، عليهم ثياب بيضاء وفي ايديهم سعف النخل . (رؤ ٧/٩) .

« وحدهم الشياطين هم خارج الكنيسة . لا يُحرم كائن بشري واحد من الفداء . حتى الوثنيون في غياهب جهلهم هم كاثوليك بالقوّة ، ورثة الله وشركاء المسيح بالميراث . لو لم يكن جميع الناس قدّيسين بالقوّة ، لما كان للبند التاسع من قانون الإيمان معنى ، لما كان هناك شراكة قديسين . إنّها جوقة جميع النفوس منذ خلق العالم ، وهذه الجوقة منظّمة بحيث أنه من المستحيل التملّص منها » (ليون بلوا) .

بإمكاننا أن نقول أين توجد الكنيسة . لكن ليس بالإمكان القول في أي مكان لا توجد ، المؤسَّسة المنظورة هي في كلّ مكان **تقريباً**.. الملكوت في كلّ مكان على الإطلاق : « المسيح ينير كلّ إنسان» (يو ١/٩) . **يخصّ شراكة القديسين كلّ خير يعمل على الأرض كلها**» يقول القدّيس توما (الصفحة الآتية) . « روح الرب يملأ الكون» (الحكمة ٧١) .

«شراكة القدّيسين هي شراكة الناس ذوي الإرادة الطيّبة (ج. برنانوس).

شراكة «الأشياء المقدّسة»

إننا مدينون للقديس توما الأكويني بشرح مسهب لقانون الرسل بنداً بنداً، هذا الشرح يعود الى سنة ١٢٧٣ كما يقولون، أي قبل موته بسنة.

بوضوح وايجاز يبدأ الملفان الملائكي بتحديد شراكة القدّيسين ومدّ جذورها الى الرب يسوع:

«كما أن عمل العضو، في الجسم الطبيعي، يعود بالفائدة الى الجسم كله، هكذا يحدث في الجسد الروحي الذي هو الكنيسة. وبما أنّ جميع الأعضاء لا يؤلّفون سوى جسد واحد وخير أيّ عضو يفيد منه الآخرون، كما جاء في رسالة بولس الى الرومانيين (١٢/٥): «كلّكم أعضاء بعضكم لبعض»، لذلك فبين الحقائق الايمانيّة التي نقلها إلينا الرسل، نجد في الكنيسة مشاركة في الخيور. هذا ما يسمونه «شراكة القدّيسين».

لكن بين أعضاء الكنيسة، الأول هو يسوع لأنه الرأس كما تقول الرسالة الى أهل أفسس (١/٢٢ — ٢٣): «جعله رئيساً فوق الكنيسة التي هي جسده». لذلك فلكلّ المسيحيين نصيب في خيرات يسوع المسيح كما للأعضاء نصيب في قوّة «رئيسهم». هذا واضح. لكن بالنسبة الى المؤمنين، فما معنى: «خير الواحد يصل إلى الآخر؟ وما هي خيرات يسوع المسيح؟

الجواب على شفاهنا: ليست هذه الخيرات **قوّة آلام يسوع المسيح فحسب بل أيضاً استحقاقات حياته وكلّ ما صنع القدّيسون من خير.. كلّ الخير الذي يتحقّق في العالم كله**. وهذا أيضاً صحيح. وقد قاله القدّيس

توما قبلنا ، كما سمعتم . لكنّه قال ذلك في النهاية أو بطريقة عابرة في مقطع مؤلّف من عشرة أسطر . جوابه الأساسي هو في غير محلّ : «**هذه الشراكة** ، يبدأ القول ، **تتم بأسرار الكنيسة لتعطي النعمة لغفران الخطايا** » . **ثم يتوسع بالأسرار السبعة واحداً فواحداً معتبراً اياها ينابيع مشتركة لجميع الناس** « **لمغفرة الخطايا** » ؛ **من ثم يعود الى موضوع** « **مغفرة الخطايا** » .

في تقليد الكنيسة القديم ، الشراكة ، قبل أن تكون مشاركة في صلاة القديسين الصالحة وأعمالهم ، هي شراكة في الأشياء المقدّسة التي نجدها في الكنيسة ابتداء بالأسرار.

هناك نصّ قديم من النورماندي الفرنسية للقانون يشدّد على هذا المعنى الأساسي الذي نسيناه طويلاً :

« نؤمن بالروح القدس وبالكنيسة المقدّسة الجامعة ، **وبشراكة الأشياء المقدّسة** وبمغفرة الخطايا وقيامة الاجساد والحياة الأبدية .

الأسرار المقدسة

الأشياء المقدسة التي نشترك فيها هي إذاً الأسرار أولاً ، وبخاصة الأفخارستيا .

كأس البركة التي نباركها أليست مشاركة في دم المسيح ؟ الخبز الذي نكسره اليس مشاركة في جسد المسيح . فإنه ليس سوى خبز واحد ، فنحن جميعاً جسد واحد اذ كلّنا نشترك في هذا الخبز الواحد . (١كو ١٠/١٦ — ١٧) .

كانت العبارة « شراكة القدّيسين » تعني قديماً المجتمع الافخارستي الواسع الذي يوحّد الكنائس المنتشرة في العالم في كنيسة واحدة بواسطة اقتسام جسد المسيح الواحد في المجتمع الأكبر ، مجتمع الإيمان الحقيقي . فبهذا المعنى ، ليس القدّيسون الأشخاص الذين يشتركون معاً في عشاء الرب . « القدّيسون » هم سرّ القربان ذاته أي « العطايا المقدّسة » — الخبز والخمر المقدّسان — **الخيرات المقدّمة للجميع** والتي ، عندما تتوزّع في الكنيسة وبين الكنائس في القدّاس ، **تصبح رابط** « **الوحدة المشتركة** » **بين الجميع** . « بما أنّ هناك خبزاً واحداً ، فنحن لا نؤلّف سوى جسد واحد ، إذ كلّنا اشتركنا في هذا الخبز الواحد» . « الأشياء المقدّسة » التي **نشترك فيها — والتي**

توحّدنا — هي أيضاً وأولا غسل العماد حيث نولد جميعاً للحياة ذاتها لكي نؤلّف معاً ، بعد أن كنّا أعداء ، «إنساناً واحداً جديداً» . (أفسس ٢/١٥) في المسيح القـــائم من الموت .. في العماد والإفخارستيا نشترك في الحقائق المقدّسة التي هي الأسرار الأخرى :

— التثبيت يعطينا ملء روح الوحدة .
— التوبة روح المصالحة فالاتّحاد .
— الزواج حيث يصبح الاثنان واحداً .

— المسيحية التي تُدخل في الجماعة من عزله مرضه وأبعده عن الجماعات .
— الزاد الأخير في العبور نحو قدّيسي المجد .

كما الأولاد حول طاولة العائلة ، هكذا الأسرار تسكّ لنا عملة «الكنز المشترك» أي حضور المسيح القائم من الموت العامل فينا في ظروف سفرنا المتنوّعة .

فهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً والبعض أنبياء وانجيليين أو رعاة وملافنة يدبّرون القدّيسين لعمل الخدمة لبناء جسد المسيح حتى نصل جميعنا الى وحدة الإيمان والى معرفة ابن الله في الحالة البشريّة الكاملة في ملء قامة المسيح . (أفسس ٤/١١ — ١٣) .

في قلب هذه الحقائق المقدّسة التي هي الأسرار وحواليها ، ها كلمة الله ، الكتاب المقدّس ، الليتورجيا المقدّسة ، الصلاة العامة والسريّة ، نقل قانون الإيمان وتقاليد آبائنا وتاريخ كنيستنا ومَثَل القدّيسين وتعاليم المُلهمين الكبار آباء وملافنة الكنيسة .. كلّ هذا التراث الروحي العظيم الذي يعيش منه أبناء الله معاً : «ليس هناك سوى جسد واحد وروح واحدة لأنّكم دعيتم الى رجاء دعوتكم الواحد . ليس هناك سوى ربّ واحد وإيمان واحد ومعموديّة واحدة . لا يوجد سوى إله واحد هو أب الجميع وهو فوق الجميع ويعمل في الجميع وهو في الجميع» (أفسس ٤/٤ ..) .

وهكذا فالكنيسة لم تحدّد أولاً كمنظمة أو هرمية أو هيكليّة — مع أن هذا ضروري وان المسيح اعطاها اياه — إنّما حُدِّدَت بالنسبة الى سيّدها وايمانها ورجائها وعبادتها التي تجعل منّا أخوة وأخوات في

أب واحد بفضل الروح عينه وحول المائدة ذاتها .

لقد عاد آباء المجمع الفاتيكاني الثاني الى نقطة الانطلاق هذه متمثّلين بالقدّيس بولس (أفسس ٤/٤ —١٢) .

«هو هذا الروح القدس الذي يحقّق تنوّع النعم والخدمات ، اذ يغني بوظائف متنوّعة كنيسة يسوع المسيح ، إذ ينظم هكذا القدّيسين لعمل الخدمة لأجل بنيان جسد المسيح» (المجمع) .

خدمة الكهنوت المشترك المقدسة

«عمل الخدمة» ، هذا ما يجعلنا نفكّر بالكهنوت . من بين الأشياء المقدّسة النابعة من الصليب والتي على المؤمنين أن يقتسموها في الكنيسة ، ألم ننس الكهنوت ؟

لم ننسَ كهنوت خدمة الكاهن إذ إنّ الأسقف ومعاونيه هم في أساس كلمة الله والأسرار .

إنما نحطّ من قدر الكهنوت ونحتقره إذا ما اكتفينا بكهنوت الكاهن . مع الحقائق المقدّسة التي هم خدّامها المرسومون ، هناك الحقائق التي يغتني بها جمهور العلمانيّين أي الكنيسة — السرّ «فجسدها كلّه ، بفضل جميع الأوصال التي تقوم بحاجته ، يجد التحامه ووحدته ، بالعمل الملائم لكلّ من الأجزاء ليتابع بناءه بالمحبة» (أفسس ٤/١٦) ، ولكي يُظهر للملأ المحبّة التي تنبع من المسيح .

أمّا الآن فأنتم الذين كنتم حيناً بعيدين قد صرتم في المسيح يسوع قريبين بدم المسيح . لأنه هو سلامنا ، هو جعل الاثنين واحداً ونقض في جسده حائط السياج الحاجز أي العداوة . وأبطل ناموس الوصايا بتعاليمه ليخلق الاثنين في نفسه انساناً واحداً جديداً باجرائه السلام . ويصالح كليهما في جسد واحد مع الله بالصليب بقتله العداوة في نفسه . وجاء وبشّركم بالسلام أنتم البعيدين وبشّر بالسلام القريبين . (أفسس ٢/١٣ —١٧) .

«**عمل الخدمة هو كهنوت المعمّدين المشترك الذي** يربط سلسلة الوحدة في الحبّ والخدمة . وهو يرتبط مباشرة بكهنوت المسيح . راعي الخراف ، **الوسيط** ، الذي «جاء ليجمع الى واحد أبناء الله المشتّتين» (يو ١١/٥٢) «ويهدم سور البغض بين الناس ويصالحهم مع الله ومع بعضهم البعض في جسد واحد» . وبكلمة : يؤسس الشراكة ، يخلق جسراً بين الجميع .

كهنوته الراعوي ، الموحّد ، والوسيط ، أعطاه يسوع بالعماد لكلّ شعبه . وكهنوت المؤمنين المشترك يرتبط بكهنوت المسيح ليحققه في الحياة اليومية وينشر ثماره على جميع الناس . على مثال مريم **الشفيعة** ، التي هي قلب الكنيسة ، **كل معمد مكرّس ومعد ليكون ، في المحلّ الذي دعي إليه ، «حارساً لأخيه» ، أي راعي القطيع وشفيع للقاء وشراكة الأشخاص** ... ليس فقط بالصلاة وتقدمة إماتاته الروحيّة لله — فسنتكلّم عن أهمية هذه الأشياء فيما بعد — بل بمساعيه ومساعدته المادية وتوزيع خيراته ووضع مواهبه في الخدمة والتزامه الفعّال في الجماعة الكنسية والجماعة البشريّة . وبكلمة : «كل الأشياء المقدّسة» التي يحياها أو يملكها .

والقديس بطرس يشرح لنا ذلك بطريقة واضحة للغاية : «واجعلوا المحبّة شديدة بينكم قبل كلّ شيء ... ليُضف بعضكم بعضاً بدون تذمّر . وليخدم بعضكم بعضاً ، كلّ واحد بما نال من النعمة كما يحسن **بالوكلاء الصالحين على نعمة الله المتنوّعة** . إذا تكلّم أحدكم ، فليكن كلامه كلام الله . وإذا خدم أحدكم ، فلتكن خدمته **كأنّما هي انتداب من الله . حتى يمجّد الله في كلّ شيء**» (١ بطر ٤/٨ ..) .

افهموا هذا : كلّ ما نحن وكلّ ما نملك أشياء مقدّسة . لكنّها تخصّنا فنحن وِكلاء نعم الله . هذه النعم تخصّ الشراكة أي هي للجماعة من جهة ومن جهة أخرى عليها أن تشدّ أواصر الوحدة بين الجميع . وهذا يحفظ «شراكة الأشياء المقدّسة» من أن تضيع في روحانيّة هوائيّة غامضة ، ندعوها روحانيّة كهنوت المؤمنين .

ولست أطلب من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم ، ليكونوا بأجمعهم واحداً كما أنّك أنت فيّ أيها الآب وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا حتّى يعلم العالم أنّك أرسلتني وأنّك أحببتهم كما أحببتني . (يو ١٧/٢٠ — ٢٣) .

«علينا أن نعود الى نوع من الواقعية ، نسمّيها «دنيويّة» ، بما يخصّ كهنوت شراكة القدّيسين ، أي كهنوت شعب الله : فحتى في طبيعتنا البشريّة يوجد مثل كهنوت طبيعيّ ، يوقظ فينا شخصياتنا في لقاءاتها واتّحادها . بهذا المعنى ، يصبح كلّ واحد راعياً لأخيه .

لكن كيف تعاش هذه الرعاية ؟ كيف نأخذ الآخرين على عاتقنا ؟ بطريقة سهلة للغاية : بالاعتراف المتبادل بعضنا ببعض . نحن مسؤولون عن الطبيعة ، عن تقدّمها وتطوّرها وهكذا نقدّمها لله . نحن مسؤولون معاً عن تقدّمنا الشخصي وعن تقدّمنا في النعمة . حتّى التفتّح الكامل عند الأشخاص الذي أقدّمه للآخرين عندما اعترف بهم كإخوة في نعمة الله . هي مشاركة إلهيّة : هنا يكمن نجاحي وهنا يكمن نجاح الآخرين .

هذه الشبكة حاضرة حيث يتمّ لقاء الناس . في شبكة هذه الوقائع الزمنيّة يعمل كهنوت شراكة القدّيسين . **والشهادة التي نعطيها هكذا كلّ بدوره في الكنيسة ، نعطيها للعالم بأسره . عندئذ يجب أن يبدو أكثر إشعاعاً وأكثر غنى بالخلاص** . هاكم أناساً وجدوا سرّ الحياة الأخويّة . ومن هنا حصلوا على إمكانيّة التفتّح اللامحدود في شراكة خلاص مع الثالوث الأقدس . هكذا يجب أن تكون الوساطة الكهنوتيّة لخلاص العالم كلّه : حياة أخوية في طريق الانتشار» (فرنسوا بوردو) .

شراكة «الأشخاص القديسين» :

منذ مئة سنة ولد في براغ أكبر شاعر وجداني كتب باللغة الالمانية في هذا العصر ، رايزر ماريا ريلك . في رؤياه الشعريّة ، عالم الظواهر — الأشجار والأزهار والعصافير — ليس سوى ظَهْر الواقع : بينما الحقائق الثابتة تبقى في الداخل ، تحت الغلاف أو فوقه ، في عالم آخر حيث الشيء يكمن ويفتّش عن الآخر ويلتقي به . لذا فالكيان الحقيقي للأشجار ليست الأغصان بل الجذور التي تمتدّ نحو جذور الأشجار القريبة وتلتقيها وتجسّها وتقيم معها ، من كل النواحي ، حواراً طويلاً خفيّاً . كذلك فالجزر ليست منعزلة الاّ ظاهراً : أمّا في الأعماق البحرية فإنّها تلتقي أخواتها وجاراتها من كلّ الجهات تحت الماء مؤلفة معها قارّة واحدة كجسم سبَّاح ثلاثة أرباعه في الماء..

رؤيا شاعر؟ تخيّل شاعر؟ أما في عالم النعمة، عالم الإنسان، رغم الظواهر واللاوعي، فالحقيقة تفوق التخيّل.

وجودي للآخرين

الواقع هو أن الاتّحاد بين الأقانيم الالهيّة الثلاثة هو بهذا العمق بحيث أنّهم لا يؤلّفون سوى إله واحد.

والواقع بالنسبة إلى البشر وعالمهم، هو أنّ الله شاء «أن يجمع كل شيء في المسيح» (أفسس ١٠/١). هذا ما يقول المجمع الفاتيكاني الثاني وهو يستشهد بالقدّيسين قبريانوس وأغوسطينوس: «**الكنيسة الجامعة تبدو ذلك الشعب الذي يوحّده اتّحاد الآب والابن والروح القدس**» (دستور عقائدي في الكنيسة ٤).

قصد الله هو إذن، لا أكثر ولا أقلّ، **بين النّاس «الوجود لأجل الآخرين» كما يحدّد كلا من الأقانيم الإلهية**.

بالنسبة الى صغار البشر، كلّ شخص هو في البدء كالزهرة من البرعم، منغلقة على ذاتها في انكفاء اناني. وهي لن تتفتّح ولن تعطي الآخرين من ذاتها إلاّ في مرحلة لاحقة قد لا تظهر قبل عدّة سنين، في حركة هي كلّ دعوة الشخص البشري: أي يكون على صورة الأقانيم الالهيّة والحال أنه في الأقانيم الإلهيّة، لم يكن منذ الأبد سوى حركة الوجود للآخرين فقط. فالآب ليس سوى العطاء الذي يهب كل ذاته للابن الذي ولده — الابن «هو كلّ شيء للآب» ولا شيء غير ذلك. والروح هو فقط حبّهما أي «وجودهما للآخر».

وعطية الروح تفيض في المؤمنين الذين يستسلمون إليه هذه الطريقة للوجود أي «الوجود للآخرين» فقط. تيّار خفيّ عميق شراكة القدّيسين هذه.

فهي ليست «الأشياء المقدّسة» بل «الأشخاص المقدّسون».

البيت مملوء عطراً

نمت وحلمت أنّ الحياة لم تكن سوى فرح . استيقظت ورأيت أنّ الحياة خدمة . خدمت وفهمت أنّ الخدمة فرح . فلأجعلنّ من حياتي فقط شيئاً بسيطاً ومستقيماً . شبيهاً بناي من قصب تملأه أنت بالموسيقى (طاغور) .

نحن فوق الحوار البسيط ، مهما كان هاماً ... باستطاعة الحوار أن يوحّد أو يفرّق ، أن يفني أو يهدم ، أن ينير أو يغلق ، أن يحيي أو يميت . أما الوجود « لأجل الآخرين » فلا يمكن أن يكون إلاّ عطاء الذات بأثمن ما نحن عليه وقبول متواضع بالآخرين .

هكذا يرضى القدّيس بأن تقوده هذه الدعوة الإلهيّة « دعوة الوجود لأجل الآخرين » ، وبأن تحدّ منه أو بالأحرى بأن تنزع منه ما يملك . من يرضى تماماً بروح المحبّة الحالّ فيه ، من يعطي كلّ شيء ولا يترك لذاته شيئاً ، من أراد أن يُسكب في هذا القالب القاسي قالب « فقدان الذات » ، هذا الشخص يمتلك الله ويتصرّف به بكلّ قواه لصالح أخوته . كما صنع بابنه الذي « لم يوفّره بل سلّمه عن الجميع » (روم ٨/٣٢) . لكن في هذه الخسارة يكمن الخصب الأسمى . خسارة حبّة القمح التي تموت وتحمل ثماراً كثيرة . من رضي بذلك ، « خرجت منه قوّة وشفت الجميع » (لو ٦/١٩) . أقلّ من عشرة أبرار كان بوسعهم أن ينقذوا سادوم .

بينما كان في بيت عنيا ، في بيت سمعان الأبرص وبينما هم على المائدة ، أتت امرأة تحمل قارورة طيب من الناردين كثيرة الثمن . فكسرت القارورة وصبّت على رأسه . فتذمّر بعضهم في نفوسهم : لماذا اختارت هذا العطر؟ (مر ١٤/٣ — ٤) .

هذا أحد أبعاد العزوبيّة المكرّسة أي الحرّة في العطاء . قضيّة كسر حقّ المرمر في التزام لا رجوع عنه — بدل من أن نعطي ذواتنا قطرة قطرة — دليل على عزمنا على أنّنا لم نحتفظ بالعطر الثمين . عطر الناردين الحقيقي » ناردين حياتنا الواحدة . لكن عندئذ « فالبيت بكامله يعبق بهذا الطيب » (يو ١٢/٣) .

بعد يسوع المسيح الذي هو أكبر الذين تخلوا عن كل شيء لأنه أكبر المحبّين ، تأتي العذراء مريم : لقد قدّمت ذاتها لله وللعالم بقولها : « ها ءنذا أمة للرب » بدون شرط حيث قطعت جسور العودة الى الذات . فقد وقّعت على بياض صكّ حياتها بكاملها . « ها ءنذا خادمة الرب ، أنا خادمة العالم . اذ السيّد ذاته لم يحتفظ بشيء لنفسه وهو ينبوع كلّ « وجود لأجل الآخرين » .

مملكة النعمة

يجب هنا توضيح بعض المفردات التي تخبّيء قضيّة لاهوتية . أيمكن الكلام عن استحقاقات مريم العذراء ؟ والقدّيسين ؟

إذا كان هناك كلمة لم ترد في الكتاب المقدس ، **فهي** كلمة « استحقاق » . بينما كلمة « نعمة » « مجانية » توجد في كل سفر . وبالفعل ، أيّة خليقة تقدر أن تستحق الخلاص ، أي أن تكون « شريكة في الطبيعة الإلهية » (٢ بطر ١/٤) ؟ لا يمكن الكلام ، بحصر المعنى ، إلاّ عن استحقاقات يسوع المسيح لأنّه وحده الابن الإلهي .

لكنّ الله ، لكونه غنيّاً بالرحمة ، ومن أجل كثرة محبّته التي أحبّنا بها ، حين كنا أمواتاً بالزلاّت ، أحياناً مع المسيح ، فإنّكم بالنعمة مخلصون . وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماوات في المسيح يسوع . ليظهر في الدهور المستقبلة فرط غنى نعمته باللطف بنا في المسيح يسوع . فإنّكم بالنعمة مخلّصون بواسطة الإيمان . وذلك ليس منكم إنما هو عطيّــة الله . وليس من الأعمال لئلا يفتخر أحد . لأنّا نحن صنعه مخلوقين في المسيح يسوع للأعمال الصالحة التي سبق الله فأعدّها لنَسلك فيها . (أفسس ٢/٤ — ١٠) .

لكن عندما يحرّك الله حبّه الحر **والمجاني فيعطي مجّاناً** صداقته لإنسان ، أي عمليّاً حياته ، « يشركه في طبيعته الإلهية » — **إذ يمهّد** الحب للمساواة — عندئذ فالأعمال الصالحة التي يعملها هذا الإنسان المؤلّـه تصبح أعمالاً إلهية ، أعمال ابن الله . تصبح بمستوى يسوع ، لها كرامة وقيمة أعمال عائلة الثالوث الأقدس . **فهي** إذاً توازي مجد السماء ، « تستحق » السماء . وإلاّ **فالله** لا يلعب اللعبة التي وضعها بحرّيته ومجاناً . بانتظار السماء ، تستحقّ هذه الأعمال ازدياد النعمة ، أي ازدياد صداقة الله « للقدّيس » الذي يعملها . إنّها « تستحق ازدياد الحنان والشفقة الإلهيّتين للبشريّة التي يتّحد بها هذا القدّيس لكونه إنساناً » .

بهذا المعنى يمكن الكلام عن استحقاقات العذراء والقدّيسين ... شرط ألاّ ننسى أولاً أن ينبوعها ، أي ارتفاعنا إلى الحياة الالهية ، هو ما نسمّيه **حال النعمة** ، **أي حال لم نستحقها** . شرط أيضاً ألاّ ننسى أن من كان في حال النعمة ، إذا ما قام بعمل صالح ، **فهي نعمة الله « التي تعمل فيه الإرادة الصالحة والعمل الصالح نظراً** لتصميـم الله العطوف (فيليبي ٢/١٣) . بحيث أن الله ، عندما يتوّج استحقاقات القدّيسين ، **فهو** إنّما يتوّج عطاياه . (مقدمة جميع القدّيسين) .

أمام هذه النعم ، هذه العطايا ، **يستسلم الإنسان أو يرفض بحرّيته** . هنا يكمن « استحقاقه » .

فنرى بصراحة أنه في النهاية ، كلّ تاريخ **البشر والعالم يعود الى « مملكة النعمة** ، للقداسة ، للحياة الأبديّة بيسوع المسيح ربّنا » (روم ٥/٢٠) ، لكنّ قصد الله المحب هو أن يشركنا ، بالقرب من ابنه . بمملكة النعمة هذه بواسطة شراكة القدّيسين .

الخاسرون والرابحون

إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أحبّاءك ولا اخوانك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء لئلاّ يدعوك هؤلاء فتكون لك منهم المكافأة . ولكن ادع المساكين والجدع والعرج والعميان .. رجل صنع عشاء عظيماً ودعا كثيرين .. فغضب ربّ البيت وقال لعبده : اخرج سريعاً الى شوارع المدينة وأزقّتها وأتِ بالمساكين والجدع والعميان والعرج إلى هنا . فقال العبد : يا سيّد قد قُضي ما أمرت به وبقي محلّ . فقال السيّد للعبد : أخرج إلى الطرق والأسيجة واضطرهم الى الدخول حتى يمتلأ بيتي . (لو ١٤/١٢ — ٢٣) .

وبما أنّ الكنيسة كنيسة خطأة ، يجب أن ننتظر على مائدة المناولة عدداً كبيراً من المساكين الذين لا يحملون سوى شقاءهم وأقذارهم **وشهيّتهم** . هذا ما يكلّمنا عنه مثل الدعوة : القاعة — **مملكة الله** — ملأى بالفقراء والمشوّهين والعميان والعرج ، ملأى بالصعاليك الرابحين على كل حال دون أن يخسروا شيئاً ..

ومن منّا ليس صعلوكاً في بعض الأحيان أو بالنسبة الى الآخرين ؟ « مَن من القدّيسين الحقيقيين لا يستفيد من طاعة مريم . انّها المرأة الخصبة ، العذراء الأمّ. جميعنا نحتمي في ردائها . تحت هذا الرداء ، يفتح البعض رداءهم الصغير ولا يعرفون من يظلّلون . لأنّ معرفة الحدّ الذي يصل إليه خصب قدّيس يعود الى سرّ الله ، أقلّه على الأرض . ثم يأتي الذين تكبر الخطيئة فيهم وتسيطر ، لكنّهم يجدون رغم كل شيء الوسيلة لتقدمة بعض نقط الدم لنفع الجهاز الدموي الخاص بالجسد كلّه . قد أخذوا أكثر مما يعطون لكنّهم على كل حال يعطون شيئاً .

الخاطىء هو الذي يمتصّ النعمة كلّها دون أن يعطي شيئاً بالمقابل . هناك أيضاً تحرّك عكسي ، لكن لا يمكن القول أنّه يبطل الأول . عضو فاسد بالكنيسة بإمكانه أن يسمّم الكثيرين من الأعضاء المحيطين به . فللشر عدواه ومع ذلك لا نقدر أن نقول أنه

يتمتّع بخصب سلبي : بإمكانه فقط خلق حاجز في وجه الخصب الحقيقي . وحده من كان صالحاً ومتجرّداً يقدر أن يأتي بثمار . أمّا الشرّ فعقيم . ومع ذلك فهذه حقيقة معترف بها : الشرّ يؤلم الخير والألم يزيد الخير خصباً (هانس أورَس فون بلتازار) .

هل أنا غير نافع ! أم حامل عدوى ؟.. أأنا أعطي أم آخذ ؟.. مشهورة قصّة هذا الرجل الكبير الذي كان يهدي الناس . فقد ماتت بلاغته يوم مات ذاك الأخ الصغير الذي كان يساعده على حمل الكيلوات من العظات . ذاك لا يعني أنّ الحمّال المائت تركه بغتة ، لكن كان من المحتّم أن يموت هذا الرجل المسكين لكي يهتدي ويدخل في المجد .

من يعلم لمن أنا مَدين بتلك النعمة المعيّنة من حياتي .. أو من مماتي ؟

« البعض عوض عن بعض »

قد أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا فحسبناه ذا برص مضروباً من الله ومذلّلاً . جُرح لأجل معاصينا وسُحق لأجل آثامنا . فتأديب سلامنا عليه وبجرحه شُفينا . كلّنا ضللنا كالغنم . كلّ واحد مال إلى طريقه فألقى الربّ عليه إثم كلّنا . (أشعيا **٥٣/٤ — ٦**) .

في « محاورات الكرمليّات » لجورج برنانوس ، الراهبة الفتيّة ، الراهبة الجديدة في كرمل كومبياتي ، « بلانش دي لافورس » ليست ، رغم اسمها ، سوى شخص خائف . الظلام يجمّدها في مكانها ، صرخة تجعلها تعرق بغزارة . نحن في عصر الرعب الثوري . لذلك ترى الرئيسة ترتجف بسبب هذه الراهبة الصغيرة . فقدّمت موتها لأجل « أعزّ من عندها » ، المهدّدة أكثر من سواها بين بناتها .. » فاستجيبت تقدمتها : إذ قبلت في فراشها « موتاً حقيراً » ليس لها ، ليس من مقامها .

وتشرح الأخت كونستانس للتي يجب أن تسمّى « بلانش دي لاپير » : « آه ! رغم صباي ، فأنا أعلم أنّ المصائر السعيدة والتقيّة محتومة بداعي الحظّ وليست موزّعة بطريقة منطقية ! لكن ما نسميّه خطأً قد يكون منطق الله !

فكّري بموت رئيستنا المحبوبة ، أيّتها الأخت بلانش ! من كان يظنّ أنها ستخاف هكذا من الموت ، انّها ستموت ميتة سيّئة ؟ يُخيّل إليّ أن الله ، ساعة قدّم لها الموت ، قد أخطأ بالميتة كما أنّ حافظي الألبسة في المسارح يعطونك لباساً ليس لك .

أجل كان يجب أن تكون الميتة لغيرها : ميتتها لم تكن على مستواها . انّها أصغر منها ، لم يكن بوسعيها أن تلبس حتّى أكمامه .

— ميتة غيرها ، ما معنى ذلك أيّتها الأخت كونستانس ؟

هذا يعني أنّ هذه الأخيرة ، عندما تأتي ساعة موتها ، ستتعجّب من دخولها في الموت بسهولة وتشعر بابطمأنينة فيه.. وقد تفتخر به ! «أنظروا كم أنا مرتاحة في الموت ، ما أجمل طيّات هذا الثوب».. لا يموت الإنسان لأجل ذاته بل لأجل الآخرين أو يموت واحد عوضاً عن الآخرين : من يدري؟؟» وها هي بلانش دي لافورس تدخل ، كما إلى بيتها وهي ترتّل على المقصلة ، في موت عظيم . موت الشهداء الذي كان يجب أن يكون موت الرئيسة .

فلنعطِ من فقرنا

عقيدة شراكة القدّيسين هذه تعزّينا بطريقة عجيبة . من جهة تؤكّد لنا أنه في قداسة الكنيسة الخفيّة يوجد غنى يفيض دوماً حيث بإمكاننا أن نستقي منه نحن الفقراء . من جهة أخرى تضع في أيدي الصغار عتلة ترفع العالم .

«نحن لا نتصرّف فقط بقوانا وحدنا لكي نحبّ الله ونفهمه ونخدمه . بل بكلّ ما يلي : من العذراء المباركة في أعلى السماوات حتى ذلك الأبرص المسكين الذي ، وهو حامل جرساً في يده . يستعمل فماً اهترأ نصفه للجواب على طلبات القدّاس . كل الخليقة المنظورة وغير المنظورة ، التاريخ كلّه والماضي كلّه ، كلّ الحاضر والمستقبل ، الطبيعة بأسرها ، كلّ كنوز القديسين وقد ضاعفته

النعمة ، كلّ هذا موضوع بتصرّفنا ، كلّ هذا يكمّلنا ويؤلّف مجموعة أدواتنا.. كلّ ما يُعمل من خيرٍ ومن عظمة وجمال ، من أقاصي الأرض إلى أقاصيها ، كلّ ما يصدر عن القداسة ، كما يقولون أنّ الحمى تصدر عن المريض ، كلّ هذا هو كما لو كان عملنا . بطولة المرسلين وإلهام الملافنة وسخاء الشهداء وعبقرية الفنّانين وصلوات راهبات الكلاريس والكرمليّات الملتهبة ، هي كما لو كانت نحن ، بل هي نحن ! » (بول كلوديل) .

فلنتوقّف عند هذا الأبرص المسكين الذي « يستعمل فمه المهترىء ليجيب على طلبات القدّاس » . من بين أفراد الشعب الكهنوتي ، لا شك أنه هو الذي يعطي أكثر الثمار لأنه مجهول أكثر من الجميع . كثيرون يظنّون أنه لم يعد بإمكانهم أن يعطوا شيئاً لأنهم شاخوا أو مرضوا أو نكبوا أو أسروا . يشعرون كأنهم عبء مزعج وأنه لم يعد لديهم ما يقدّمونه سوى عدم جدواهم والبعض منهم موسوس بهذه الفكرة إلى حد الانتحار . أليست شراكة القدّيسين هي أولاً ارتباط بيسوع وبشركة صليبه ؟ ألا ينبثق من جنب يسوع المطعون الأسرار والكنيسة — السر ، ذاتها ؟

إلتمست الرب فاستجابني ومن جميع أهوالي خلّصني . تأمّلوا فيه واستنيروا ولا تخز وجوهكم . إن هذا البائس دعا فسمع الرب ومن جميع مضايقه خلصه . (مز ٥/٣٣ —٧) .

وصراخ من يؤلم قلب الله أكثر؟ « **ان صرخ فقير ، استمع الله** » (مز ٧/٣٤) . بعد أن طرد إبراهيم وساره هاجر ، راحت تائهة في الصحراء حاملة ولدها على يديها . لا خبز ولا ماء : فرمت به تحت علّيقة : « لا أريد أن أرى صغيري يموت ! » « **فسمع الله صوت الصغير** » (تك ١٧/٢١) .

فالفقير أكثر من غيره ، الفقير وحده ، لأنه فقد الشعور بأهميّته وبشخصه ، قد أصبح بإمكانه أن يعطي دون تردّد . كحبّة القمح المدفونة في الأرض ، لم يعد أمامه إلاّ أن يقدّم ذاته وموته . إنه فلس الأرملة في خزانة الهيكل : « أعطت أكثر من الباقين . يقول يسوع : أعطت من فقرها » .

موتانا ونحن :

فلننطلق من واقع .. يُدهش الذين يغذّون ايمانهم من غير كلمة الله . القدّيس بولس ، مؤسّس الجماعات المسيحيّة العديدة . ولاهوتي الكنيسة جسد المسيح السرّي الملهم ، لم يلمّح ولو من بعيد الى شراكة أو اتحاد بين الأحياء وموتاهم . لم يتكلم مطلقاً عن الصلاة من أجل الموتى ، ولا عن شفاعة الموتى بالنسبة إلى أحيائهم .. فهو يركّز على يسوع المسيح الذي هو حياته وخلاصه . ولا يفكّر بالتوجّه الى شفعاء غيره . بل على العكس ، فحين يتلهّف لكي « يموت ليصبح مع سيّده » (٢ كو ٥/٨ ؛ فيليبي ١/٢٣) ، فهو لا يهتمّ بأن يصلّي للذين « ماتوا في المسيح » ولا يطلب إلى أحد أن يرفع صلاة كهذه : إنّه يشتهي نصيب الأموات فقط .

لأنّ الحياة لي هي المسيح والموت ربح . فإن كانت الحياة في الجسد ثمر عمل لي . فلست أدري ماذا اختار . لأنّي محصور بين الاثنين إذ لي رغبة أن أنحلّ فأكون مع المسيح وذلك أفضل بكثير . غير أن المكوث في الجسد أشدّ لزوماً من أجلكم . (فيليبي ١/٢١ — ٢٤) .

هذا لم يمنع التقليد المسيحي القديم من الصلاة لأجل الإخوة المائتين . يجد هذا التقليد جذوره الطبيعيّة في عقيدة بولس حول الشراكة الأخويّة في جسد المسيح . لكنّ صمت بولس بعد صمت الأناجيل ، صمت الروح القدس هذا — اذ نحن بصدد الكلام الملهم — يبرهن الى أيّ حدّ نضلّ الطريق عندما نصلّي للموتى أكثر مما نصلّي للأحياء ، عندما نزور المقابر ، حيث لم يعد هناك من أموات ، أكثر ممّا نزور المستشفيات والملاجيء حيث يتألم إخوتنا . عندما نشارك من ارتحلوا عنّا أكثر ممّا نشارك الحاضرين معنا ، عندما نهتمّ بالغفارين أكثر مما نهتمّ بالرسالات .

يقول المجمع الفاتيكاني الثاني : « لقد أحاطت الكنيسة بحبّ عظيم ذكرى موتاها منذ بدء المسيحية إذ قدّمت لأجلهم صلواتها » .

وهنا نتذكّر نداء المسيح : « دع الموتى تدفن موتاها . وأنت تعال بشّر بملكوت الله » (متى ٨/٢٢) بين الأحياء !

نحن بحاجة إلى من يضعنا في المحور الأساسي ، إلى من يعيدنا الى الواقع الآن واليوم .

* الآن واليوم ، شراكة القدّيسين لم تنقطع بيني وبين ذويّ

بالموت . فالمسيح القائم من الموت يربط بين العالمين . فبفضله الموت لا يُميت بل يُحيي .

«كما تغيّره الأبديّة وتحوّله الى ما يجب أن يكون» .

« الحب أقوى من الموت » . الحبّ أبدي إذا كان حبّاً حقيقياً . أبدي مثل الله . لأن الله محبة .

* لكنّ الموت حجاب . حجاب مؤقّت سوف أصبح وراءه بدوري . بانتظار ذلك اليوم ، يخبّىء هذا الحجاب أصحابي قدّيسي السماء . لكنّهم يرون الله ويرونني في الله . أنا أعلم أنّهم هنا قريبين منّي وهم صلاة وحنان . هذا التأكيد — « إنهم يرونني » — هو أكبر منشّط ! « أنا في حضرتهم . يجب أن يكونوا راضين عنيّ » .

* هناك حجاب أكثر كثافة يفصلني عن الأنفس المطهريّة . حجاب مزدوج . لا أستطيع أن أراهم طبعاً . وهم بدورهم ، بما أنّهم لا يرون الله ، لا يستطيعون أن يروني في الله . هذا الانقطاع في الصورة والصوت ، إذا صحّ التعبير ، بين عالمينا ، لا يفصلنا عن حنانهم ولا عن صلاتهم . **لكنّهم هم بنوع خاص يطلبون صلاتنا** .

نحن نعرف فطنة الكنيسة تجاه الالهامات الخاصّة وقساوتها وبطأها للاعتراف بصحّة بعضها ، وحذرها في تحديد صفتها النسبيّة بالنسبة الى الوحي ، الى كلمة الله المعاشة والمحتفل بها في الكنيسة . فليس عدد الأشخاص الذين يؤمنون بهذه الإلهامات ولا تقواهم ما يؤلّف مقاييس صدقها ، بل حكم البابا والأساقفة فقط . وأكثر من ذلك : لم تفرض الكنيسة أبداً إلهاماً شخصياً كعقيدة إيمانيّة . فهي تكتفي بأن تحكم على محتوى تعليم هذا الإلهام . (اتشيكاراي) .

« بإمكانكم أن تقصّروا زمن عذابهم ، يقول الله... لقد أضاعت هذه النفوس وقتها ، بجهل منها . والآن وقد انفصلت عن الجسد ، لا يَمكنها أن تستحقّ شيئاً لكونها خارج الزمن . لذلك جعلتكم عنايتي كوسطاء : فلا يزال بإمكانكم ، في هذه الحياة الزائلة ، استعمال وقتكم لأجلهم . بحسناتكم ، بقدّاساتكم ، بصومكم وصلواتكم التي تقومون بها وأنتم في حال النعمة ، فتقصّرون زمن عقابهم اذ تتوسّلون إلى رحمتي » (القدّيسة كاترين دي سيان) .

* وسيلة كبرى لمساعدتهم هي أن نصبح أكثر مسيحيين حباً بهم . في هذه المشاركة وهذا التبادل ، مطلوب منّا أن نتخلّى عن

نقائصنا وأخطائنا ، لكي نكفّر عن الخطايا التي بسببها يتعذّبون بعيداً عن الله ، ونعوّض عن نقصهم الماضي بمشاركتنا الحارّة في عملهم الذي أوقفه الموت . نحمل على عاتقنا ما نقّصه ذوونا وأصحابنا ، نمارس العدالة والقناعة ومساعدة الآخرين والصداقة التي لم يمارسها الراحل، نصالح بقلب كبير من لم يصالحهم وقد يكون منتظراً هذا منّا ليدخل في المجد.. امكانيّة عمل مشترك مدهشة بيننا وبين أمواتنا تعرضها علينا شراكة القدّيسين وسط ظلماتنا المؤقّتة وعزلاتنا المتبادلة .

* ننهي هذه الدراسة بملاحظة مؤاتية . لا يؤيّد الإنجيل الظهورات والإلهامات والتنبيهات الآتية من العالم الثاني . فلنأخذ مثل الغني ولعازر الفقير : الغني في اللهيب يصلّي لأجل إخوته الخمسة المهدّدين مثله بنار النقمة . وهو يرسل لعازر لينبّههم .

— فيجيبه يسوع بلسان ابراهيم : لا ، لديهم موسى والأنبياء . فليسمعوا لهم .

بكلام آخر : كلمة الله الحقيقية تدوّي في الأرض ، في شعب الله ، بصوت الكتاب المقدّس والإنجيل والكنيسة . فهي لا تأتي لا من السماء ولا من المطهر ولا من الجحيم.. « لو جاء إلى الأحياء أحد الأموات ، فلن يتوبوا ، حتّى ولو رأوا ميتاً يقوم » (لو ١٦/٢٧..) .

١٨

مغفرة الخطايا

« معمودية واحدة لمغفرة الخطايا »

نذكّر أن النصّ الأول لقانون ايمان الرسل كانت هذه نواته : « نؤمن بالروح القدس . في الكنيسة المقدّسة الكاثوليكية ، لقيامة الموتى » .

وفي العصور اللاحقة رأوا من الأهميّة أن تحدّد كيفيّة عمل الروح « في الكنيسة المقدسة الكاثوليكية » وفي العالم : انّه « يحقق شراكة القدّيسين » و« مغفرة الخطايا » . هذا يعني أن الروح يعمل على توحيد جماعة الأشخاص في شراكة حياة عميقة ، انسانية والهية — وانّه ينشر ويجدّد هذه الجماعة دائماً بفضل « مغفرة الخطايا » .

هذان البندان من قانون ايماننا يعودان بنا قبل كل شيء ومباشرة الى سرّين ، سرّي الأساس اللذين « يصنعان » الكنيسة :

— شراكة القدّيسين تقودنا الى المناولة في الافخارستيا إذ تجمع مؤمني حيّ أو قرية حول المذبح الواحد — والتي تجمع الكنائس الخاصة المنتشرة في العالم في جسد المسيح الواحد .

— مغفرة الخطايا تقودنا — لا إلى التوبة أولاً ، لا الى الاعتراف والحلة — بل إلى السرّ الثاني الذي يجمع الكنيسة ويؤسّسها : العماد .

وقانون نيقيه — القسطنطينية يحدّد بدقّة : فهو يجعلنا نعلن كل أحد : — ليس : « أنا أؤمن بالاعتراف والحلة لغفران الخطايا » — بل « **أؤمن بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا** » ... فلندع هذا الإعلان الأول والمهمل يهزّنا .

الروح والدم والماء

فلنعد أيضاً إلى الإنجيل . ليلة الفصح ، كان الإثنا عشر متزوين في العلية وهم يجهلون قيامة يسوع . انهم يخافون اليهود . فجأة ظهر الرب بينهم حياً !.. بعد اللحظة الأولى من التأثّر العميق أمام ما لا يصدّق ، تسلَّموا رسالتهم التي هي رسالة الكنيسة : «كما أرسلني أبي أنا أرسلكم . . »

إلى من ؟ إلى العالم ، إلى جميع الناس..
لأيّة رسالة ؟

في البدء خلق الله السماء والأرض . وكانت الأرض خاوية خالية ، وكان الظلام فوق الغمر وروح الله يرفّ على المياه» (تك ١/١ — ٢).

عندئذ نفخ فيهم بطريقة احتفالية : «خذوا الروح القدس . . » لماذا هذا الفيض الاحتفالي من قبل الروح ؟ ما هي هذه العطيّة الفصحية من السيّد لكنيسته ؟ هذه النعمة الأساسية المنبثقة عن موته ومجده الحديثي العهد ؟.. إنّها مغفرة الخطايا : «**خذوا الروح القدس : من غفرتم خطاياه غفرت له**» (يو ٢٠/٢١ . .) عطيّة يسوع الفصحيّة للعالم . رسالة الكنيسة الأساسيّة ، هي إذاً مغفرة الخطايا : **فيض** من الروح يجعل من جماعة المؤمنين المكان والوسيلة لمغفرة الخطايا ، للحياة الجديدة ، للحياة الإلهية في الناس المفتدين . انّه **مهد ولادة** البشريّة والعالم الجديد .

فلما أخذ يسوع الخلّ قال : قد تمّ كلّ شيء وأحنى رأسه وأسلم الروح . ثم إذ كان يوم التهيئة ، فلئلاّ تبقى الأجساد على صلبانها في السبت . لأن ذلك السبت كان عظيماً ، سأل اليهود بيلاطوس أن تكسر سوقهم ويذهب بهم . فجاء الجند وكسروا ساقي الأول والآخر : اما يسوع ، فلما انتهوا إليه ورأوه قد مات ، فلم يكسروا ساقيه . لكنّ واحداً من الجند فتح جنبه بحربة فخرج للوقت دم ومـــاء . (يو ٣٠/١٩ — ٣٤).

عمل المسيح القائـم من الموت ، والذي نفخ في الرسل يوم الفصح ، هو ، بالنسبة للخليقة الجديدة ، إعادة حدث بدء الخلق حينما كان روح الله يرفّ على المياه ليخلق فيها الحياة الأولى . يوم الجمعة العظيمة ، بينما كان المسيح على صليبه : «أسلم الروح» ثم الدم والماء من قلبه المطعون . ذاك كان يعني أنّه ينبوع العالم المخلوق من جديد والإنسان المتجدّد : الروح الذي يجعلنا نولد أبناء الله للحياة الجديدة ، هذا الروح — الروح القدس — الآتي من المسيح ، من أعماق كيانه ، من جسده القائم من الموت . إنّه يعطينا نسمة حياته ، تلك التي أقامته من القبر . **من جسده الميت . من قلبه المطعون ، يجري لنا في الوقت عينه الروح المحيي ودم الإفخارستيا وماء العماد .**

منذئذ ، من هذه الينابيع ، يسكر العيد العظيم ، عيد مغفرة الخطايا وشراكة القدّيسين . وبطرس يشرح ذلك يوم العنصرة إذ يقول :

— « لقد أقامه الله رباً ومسيحاً ، يسوع هذا الذي صلبتموه.. توبوا إذاً **وليعتمد كلّ منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا ، فتنالون موهبة الروح القدس** » (أعمال ٢/٣٦) .

« معمودية واحدة لمغفرة الخطايا »

في تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنّا في الأردن. وللوقت اذ صعد من الماء رأى السماوات قد انفتحت والروح مثل حمامة قد نزل واستقر عليه. وكان صوت من السماء قائلاً : أنت ابني الحبيب بك سررت . (مر ١/٩ — ١١) .

ذاك يعني أنه علينا أن نكتشف معموديتنا .

كما كان الروح القدس يرفّ على المياه الأولى ، هكذا رفّ ، بشكل حمامة ، على مياه الأردن حيث عمّد يوحنا يسوع . هكذا أعطى كلّ مياه العالم أن تصير ، في الإيمان والعماد ، غسلاً الهياً لمغفرة الخطايا . عندئذ دوّى صوت الآب : « هذا هو ابني الحبيب.. » . منذ تلك اللحظة ، راح الروح يرفّ ، بطريقة غير منظورة لكن أكيدة ، على كل أحواض المعموديّة في العالم. عندما ينتعش للحياة الأبدية أخت أو أخ يسوع — أطفلاً كان أم راشداً — فالروح شخصياً يصبح هذه النسمة الحيّة في الكائن الجديد . وأمام هذا المولود الجديد يتهلّل الآب قائلاً : « هذه هي أو هذا هو ، ابنتي أو ابني الحبيب » .

هل يمكن أن نخرج من هذه العائلة ، من صفة البنوّة هذه . لنعود الى الخطايا التي لفظناها ؟ كان ذلك يبدو مستحيلاً للتلاميذ وللمسيحيين الأولين . عندما يشدّد قانون نيقيا على قبول « معمودية واحدة » فهو يذكّرنا بأنّ مغفرة الخطايا لم تكن تمنح في الكنيسة الأولى سوى مرة واحدة . لم يكن ذلك ضرورياً إذ إنّ **الخطيئة المميتة لم تكن ترتكب ثانية**... فالعماد لا يعطى أكثر من مرة لأنّ التغيير الذي يسبّبه لا يمكن الرجوع عنه.. هناك مئات النصوص بهذا الصدد في كتابات القديس بولس :

« أما أنتم (إذ لستم بعد وثنيّين) ، فعليكم **أن تقلعوا عن سيرتكم الأولى فتخلعوا الإنسان القديم** الذي تفسده الشهوات الخادعة وأن تتجدّدوا روحاً وذهناً **فتلبسوا الإنسان الجديد** الذي خلق على صورة الله في البرّ وقداسة الحقّ » (أفسس ٤/٢٠ ...) .

« المؤمنون الذين يسقطون بعد العماد »

لكن يا للأسف ! لقد علّمتنا التجربة المؤلمة والمتتالية أن المؤمن ، بعد العماد ، لم يزل بحاجة الى المغفرة . كثيرون منهم يعودون الى ثمرة الموت ، ثمرة شجرة معرفة الخير والشر.. فوجدوا لقضيّة « العماد الواحد » حلاً أولاً ، حلاً حقيراً : البقاء في صفوف الموعوظين طيلة الحياة . وبقيت حتى القرن الثالث والرابع عادة تأجيل العماد حتى فراش الموت ، كما صنع الامبراطور قسطنطين : كي « يستفيدوا من الحياة.. » كان ذلك خوفاً من العودة ، بعد العماد الواحد ، الى خطيئة مميتة لا دواء لها في الأسرار . فكانوا يتنازلون هكذا **عن الحياة** المسيحية على أمل أن **يُدفنوا** برغد في ثوب العماد البريء . إنها مسيحية المقابر !

أما الآن فأنتم أيضاً اطرحوا الكل : الغضب والسخط والخبث والتجديف والكلام القبيح من أفواهكم . ولا يكذب بعضكم بعضاً . بل اخلعوا الإنسان العتيق مع أعماله . والبسوا الإنسان الجديد الذي يتجدّد للمعرفة على صورة خالقه . (كولسي ٣/٨ — ١٠) .

تفهمنا هذه العادة على الأقل ، الى أيّ حد كانت المعموديّة أمراً جدّياً **وبأيّ ارتداد تام ونهائي كانت تلزمهم** . لذا فعبارة : « إنّي أكفر بالشيطان » لم تكن أمراً سطحياً . كانوا يقرأون في القدّيس بولس :

« دُفنا معه في الموت حتّى أننا كما أقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن أيضاً في جدّة الحياة » نحن نعلم أنّ انساننا العتيق صلب معه لكي يموت جسد الخطيئة وحتى لا نعود **عبيدا للخطيئة.. فاعتبروا ذواتكم مائتين عن الخطيئة** » .. (روم ٦/٤) .

كان ذلك يقال بسرعة.. لم تكن المعمودية عصا سحريّة تحوّل الشياطين الى ملائكة .

ثم منذ القرون الأولى بدأوا يعمّدون الأطفال.. ارتكازاً على

إيمان والديهم ووعدهم . لم يكن هذا العماد ، بالنسبة إلى هؤلاء الأطفال ، عملاً شخصياً ، واعياً ، مقرراً ، مقبولاً ، عمل ارتداد .. لذلك كان لا بدّ من تسجيل سقطات عدّة .

فبدأوا يقبلون بإمكانيّة « توبة ثانية » للمؤمنين الذين سقطوا بعد العماد كما أكّد ذلك مراراً المجمع التريدنتيني . وهكذا ظهر ، كإعادة للعماد الذي كفروا به ، سرّ التوبة بشكله الأول : التوبة العلنيّة .

لم يكن ذلك سوى تدبير يؤخذ في حالات خاصّة ، ومرّة واحدة في الحياة . ثم درجت عادة هذه الحلّة .

من المهم أن نذكر أن المجمع التريدنتيني لا يتكلّم على سر التوبة إلاّ بالنسبة الى فشل العماد و«كدواء يعيد الحياة الى الذين ، بعد العماد ، استسلموا لعبودية الخطيئة ولسلطة الشيطان» (دنزنكر ٨٩٤) . فالإعتراف أنسانا المعمودية بدلاً من أن يستند إليها . وهذ مؤسف جداً . لأنّ العماد هو نقطة انطلاق عودة الحياة كلّها وهكذ يجب أن يبقى . وهو العلامة الأساسيّة للحياة المسيحية . وإليه يعيدن ايماننا « بمغفرة الخطايا » . وفي نعمته الأولى تجد جذورها الشجرة التي هي نحن والتي يحق للربّ أن ينتظر منها الثمار الصالحة . وسرّ المصالحة لا يأتي إلاّ بالنيابة كعماد ثان . وهو يعيدنا الى حالتن كمعمّدين — حالة النعمة — لكي يقويّها ويغذّيها وعند الضرورة يجدّدها .

« الخطيئة ؟... لا أفهم ما تقول ! »

قلنا : مغفرة الخطايا . ولكن ، ما هي الخطيئة ؟

لا ننال الإعجاب ، عند دخولنا المسرح ، بموضوع كهذا . « لا شك في أنّنا نحبّ يسوع المسيح ، لكن لا يقدر أحد في العالم على أن

يحملنا على حب الأخلاق» . إنّها عبارة لكلوديل . قد نكون من رأيه . فلنترك إذاً جانباً الكلام على الاخلاق ، وبخاصة عن «محبة الأخلاق» . ولنتكلّم عن الحب . «حدثني عن الحب» .

لكنّنا سنتعرّض لصواعق الذين يتذمّرون من أنّ «الكهنة يعظون كيفما كان» وان «الشباب يعتبرون كلّ شيء مباحاً» ! وهؤلاء «الاخلاقيون» مستعدّون الى أن يصوّبوا أصبع الاتهام نحو القشّة التي يرونها دون شك في عيننا .

فلنقرأ الفصل الثامن من القدّيس يوحنا : صوّب السيد المسيح اصبعه نحو الأرض ليتأكّد من أنه لن يصوّبه لا إلى المرأة الزانية التي أخذت بالجرم المشهود ولا إلى متّهميها القساة . فهو كان يحبّهم جميعاً وبجنون ، هذا كل شيء .. وهكذا انتهى كل شيء باعتراف عام وغفران عام .

إذاً ، فلنتكلم عن الحبّ .

العهد القديم : قلب من حجر

لندع جانباً الآداب العلمانيّة والوثنيّة ومحظّراتها ومخالفاتها وأنظمة دساتيرها الخارجية وعقاباتها .. أما نحن المعمّدون ، فنؤلّف هذا الشعب المجتمع في كنيسة ، الذي يتحدّث عنه الرب في نبوءة حزقيال **والذي شريعته قلبه** (٣٦/٢٤ ..) .

«وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم إلى أرضكم وأنضح عليكم ماء طاهراً فتطهرون من جميع نجاستكم وأطهّركم من جميع أصنامكم . **وأعطيكم قلباً جديداً واجعل في أحشائكم روحاً جديداً وانزع من لحمكم قلب الحجر وأعطيكم قلباً من لحم**» .

أي أنّ اله الحب يريد أن يعيش مع شعبه علاقة حب رائعة .

الخطيئة ، في العهد القديم ، **تحطيم واع وارادي وشرير لعلاقة الحبّ**

فغسلتك بالماء ونقيّتك من دمك ثم مسحتك بالدهن وألبستك وشيا ونعلتك بجلد سمنجونيّ وحزّمتك بالبزّ وكسوتك بالحرير وحلّيتك بالحليّ وجعلت اسورة في يديك وطوقا في عنقك وجعلت خرصا في أنفك وقرطين في أذنيك وإكليل فخر على رأسك.. فذاع اسمك في الأمم لجمالك لأنّه كان كاملاً ببهائي الذي جعلته عليك يقول الرب السيّد. فاتكلت على جمالك وزنيت على اسمك وسكبت فواحشك على كل مجتاز كان له ما تبتغين. (حز ١٦/ ٩ — ١٥).

الرائعة هذه. صورتان من الكتاب المقدّس تجعلاننا نفهم ذلك ونعود الى ذواتنا :

* الصورة الأولى : **الخطيئة زنى**. هي دون شك «مخالفة شريعة الله» كما تقول كتب التعليم المسيحي. لكنّ هذه الشريعة ليست مـ كنّا **نظن**. **ليست نظام قوانين بل نظام حبّ**. ليست هذه الشريعة سوى العهد الذي يربط الزوج بالزوجة. لا يقدر أحد أن يكون حر كالزوجة، هذا إذا كانت محبّة.. ولا يقدر أحد أن يكون حر كالزوج شرط أن يحبّ.. بينما النفس الخاطئة، كما يقول النبي هوشع. هي تلك المرأة الخائنة لزوجها والتي تفتّش عن عشّاقه وعن زناها.. تحطيم عهد الحب، هذه هي الخطيئة..

* الصورة الثانية : **الخطيئة اغتصاب ورفض للآب**. وهنا أيضـ هي مخالفة ارادية للشريعة، لكن **شريعة الصداقة** والدّالة الواثقة والارتباط الضروري بين الأب وأبنائه. هذا ما نراه بجزن في الفصل الثالث من سفر التكوين : «لقد أخذتم كلّ شيء من الله، تقول الحيّة... وهو يوهمكم أنّ حياتكم مرتبطة بحياته.. كلاّ ثم كلا ! تحرّروا، وسوف تصبحون آلهة !».

كأب حقيقي، خلق الله الإنسان بمحبته. وصنعه، ككل أب، «على صورته ومثاله» وأعطاه كلّ خيراته دون أن يحتفظ بشيء، حتى الحياة الالهية. لكنّه يبقى هو الأب ولا يقدر ألاّ يكون أبا؛ يبقى هو الينبوع ولا يقدر ألاّ يكون الينبوع.. الخطيئة، بالنسبة إلى الإنسان وبالنسبة الى المسيحي الذي يعيش هذا الوحي، هي ـ يدعي تحطيم علاقة الابن هذه؛ هي أن يأكل من «شجرة معرفة الخير والشر» أي أن يدّعي أن لا أحد فوقه وأنّه **هو الشريعة لذاته** و ـ بامكانه أن يقرّر على هواه ما هو خير وما هو شر. بينما «أبوكم يعلم مـ أنتم بحاجة إليه» (متى ٦/٣٢).

شريعة الأب هذه لا تصدر عن أوامر خارجية ، عن محظّرات اعتباطية . بل هي علاقة حنان أكثر منها علاقة تسلّط . انزعوا منكم قلب الحجر وافتحوا قلب اللحم الذي أخذتموه في المعمودية . ففي داخله ، في وسط حياتكم ، تجدون شريعة الحبّ البنويّ هذه . فهي ليست شريعة شخص غريب ، بل شريعتكم أنتم الخاصّة ، شريعة منبثقة من أجمل ما عندكم ..

هنا تكمن مصلحتكم الأساسية . أليس من الجنون أن تنقطعوا عن الذي يأتيكم منه كل شيء ؟ **الخطيئة هي رفض لهذه الحالة البنويّة مع كلّ ما تفترضه من ارتباط حيويّ وحب .**

فقالت الحيّة للمرأة : « لن تموتا لكن الله يعلم أنه يوم تأكلان ، ستنفتح عيونكما وتصبحان كالهة تعرفان الخير والشر » فرأت المرأة أن الشجرة كانت شهيّة للمأكل ومبهجة للنظر ومنية للعقل . فأخذت من ثمرها وأكلت ثم أعطت زوجها الذي كان معها فأكل . (تك ٣/٤ —٦) .

النتيجة المباشرة والمخيّبة تماماً : الخوف من الله .

الخوف من الشعور بالذنب : « فاختبئوا منه بين الأشجار» .

نتيجة أعمق ومأساوية الى ما لا يحدّ : الموت . لقد انقطعوا عن شجرة الحياة.. متسلّق الشجرة قطع حبله !..

هذه الحياة التي تدّعي أنها تصنع ذاتها — **الخطيئة** — اندفعت بقوة في الخطايا . الانفصال عن الأب — «آدم ، أين أنت ؟» — **سبّب الانفصالات المتتالية بين الإخوة** — «أين أخوك هابيل ؟» . فمنذ أن انفرطت السلسلة ، تفرّقت الجواهر وضاعت : انتهت العائلة الزوجية — « المرأة التي اعطيتني .. » — انتهت العائلة الاخويّة — «فانقضّ قايين على أخيه وقتله» — انتهت العائلة الاجتماعية — «لامخ سيؤخذ بثأره سبعاً وسبعين مرة ! » — انتهت العائلة البشرية — بلبلة الألسن في بابل ؛ أصبح التفاهم مستحيلاً .. اقرأوا الأحد عشر فصلاً الأول من التكوين : انها ملحمة خطيئة العالم الحزينة ، ملحمة عالم حلّت فيه أنانية الأفراد والجماعات محلّ شريعة الحبّ .

فقال الرجل : المرأة التي وضعتها بقربي أعطتني من الشجرة فأكلت . (تك٣/١٢) .

يمكننا بعد ذلك أن نستمع الى الأنبياء يشهّرون بالخطيئة . كلّ تعليمهم يختصر بما يلي : **من ادّعى بناء ذاته بمعزل عن الله . يبني على**

حساب الآخرين ، وبخاصة على حساب الصغار والضعفاء . « خطيئة العالم » هي خطيئة الذين يغالون في استعمال قوّتهم — الدينية ، السياسيّة ، الاقتصادية ، الثقافية ، الجسميّة — ليحتّلوا مكانة مرموقة على أنقاض الضعفاء وظلمهم واستغلالهم . هذه هي الخطيئة بعينها التي قتلت الله بشخص يسوع المسيح . هذه هي الخطيئة في وحي العهد القديم : مأساة الحب . مأساة زوجيّة بين زوجين ، مأساة عائلية بين أب وابن .

العهد الجديد : الشر يصدر عن القلب

رجل صنع عشاء عظيماً ودعا كثيرين . فأرسل عبده وقت العشاء يقول للمدعوين : هلمّوا فكلّ شيء قد أعدّ . فطفقوا كلّهم واحد فواحد يعتذرون . قال الأول : قد اشتريت حقلاً ولا بدّ لي أن أخرج وأنظره . فأسألك أن تعذرني . وقال الآخر : قد اشتريت خمسة فدادين بقر وأنا ماض لأجرّبها . فأسألك أن تعذرني : وقال الآخر : قد تزوّجت امرأة فلا أستطيع أن أجيء . (لو ١٦/١٤ — ٢٠) .

بصور أخرى وبتعابير مختلفة ، يقول المسيح الشيء عينه .

* الخطيئة ، في نظره ، هي خطيئة الزوجة المستسلمة لعشّاقها والتي نسيت من أعطاها حياته وموته . **فالخاطىء يغرق في خيرات ومهامّ وملذّات هذا العالم فيعطيها أهميّة أكثر مما يعطي دعوة الله .** المدعوّون الى الوليمة اعتذروا بسبب أرض يريدون نقبها وثيران يريدون تجربتها ومخلوقة لا يريدون أن يتركوها وحدها ليلة واحدة . وليذهب الى الجحيم الملك وعرسه !.. قياس الأرض وتجربة زوج البقر والزواج ... ليست أشياء محظّرة في وصايا الله العشر . الخطيئة هي أن يكون الله في حياتي في المرتبة الأخيرة « في الذنب » ... حتى وإن ذهبت كل نهار أحد إلى الكنيسة ..

أليس هذا ما يلومنا عليه المسيح ؟ « وكما حدث في عهد نوح . فكذلك يحدث في عهد ابن الإنسان » : كان الناس يأكلون ويشربون ، يتزوّجون ويزوّجون بناتهم ، إلى يوم دخل نوح السفينة . فجاء الطوفان وأهلكهم جميعاً... وكما حدث في عهد لوط ، اذ كانوا يأكلون ويشربون ويشترون ويبيعون ويغرسون ويبنون.. » (لو ١٧/ ٢٤) .

هذه الشؤون اليومية جميعاً ليست خطايا ، فالخطيئة هي في **نسيان هذا الحضور المثير ، حضور الحبّ في قلب هذه الشؤون اليومية ،** وبنيان

الحياة بدون هذا الحب. أقول «الحياة» لأنّ حياة الأسبوع تتألّف من ثلاثة أرباع الساعة نقضيها في القداس.

الخطيئة هي إذاً عدم الانتباه اليومي الى ما هو أساسي، هذه اللامبالاة بالنسبة الى حضور الله الدائم، هذا التفضيل لأشياء أخر ولأشخاص آخرين على الله ومحبّته. إنها حياة زنى !...

* **والخطيئة، في نظر المسيح، هي أيضاً رفض كوننا أبناء**. فالابن الشاطر طالب بنصيبه لوحده ثمّ «استودعك الله فقد رأيتك ما فيه الكفاية».. أريد الفضاء الفسيح: أريد الحرية ! أريد المال والحياة المجنونة ! بعيداً عن الأب، أبعد ما يمكن..

* وبذات الفعل بعيداً عن الأخ ! **إذ الخطيئة، في نظر يسوع، هي، في النهاية، رفض الأخ**. الغني متخم وهو في البرفير والأرجوان، بينما لعازار يشتاق عبثاً إلى فتات مائدته.. الكاهن واللاوي خرجا من الهيكل وقد عملا ما يجب عليهما: ولا بأس في أن يموت الجريح الكبير على الطريق.. قلوب متحجّرة !

يجب أن نقرأ الفصل السابع من إنجيل مرقس بكامله.. نرى أنّ الفرّيسيين كانوا يولون أهميّة عظمى للممارسات الخارجية — أيادٍ مغسولة، رشّ ماء، تطهير كؤوس وأباريق — والتقاليد القديمة والعادات القانونية.. بينما الرب يرى القانون ومن ثمّ الخطيئة في قلب الإنسان، في موقفه من إخوته: كان يقول: ما يصدر عن الإنسان، هذا ما يحوّله الى خاطىء. لأنّ الأفكار الخبيثة: الزنى والسرقة والقتل والطمع والخبث والرياء والخلاعة والفسق والحسد والنميمة والكبرياء والجنون، كلها تأتي من الداخل، من قلب الإنسان. كلّ هذه الأشياء الشريرة تصدر من الداخل وتجعل الإنسان خاطئاً.

لأن الفريسيّين وسائر اليهود لا يأكلون ما لم يغسلوا ايديهم مراراً تمسّكاً بسنّة الشيوخ. واذا جاءوا من السوق لا يأكلون ما لم يغتسلوا. وأشياء أخر كثيرة قلّدوها ليتمسّكوا بها من غسل كؤوس وجرار وآنية نحاس وأسرّة. (مر ٣/٧ — ٤).

هذه هي لائحة الخطايا الوحيدة التي تركها لنا المسيح عبر

الجماعة الأولى . كلّها تتعلق بالقريب . عددها اثنا عشرة : العدد الكامل ، لانّ كلّ شيء هو هنا : المحبّة .

وأخيراً ينذرنا يسوع بأنّنا سوف ندان على المحبة . (متّى ٢٥/٣١) .. فلسنا نرى مطلقاً لا في العهد القديم ولا في العهد الجديد شرائع ومحظّرات مكتوبة فقط في ألواح حجريّة أو في مجموعة قوانين ، ومعروضة من الخارج . **ليست الخطيئة أبداً انتهاك ما يدعونه « شرائع وضعية » وضعها الله أو الكنيسة . بل هي انتهاك حرّ وإرادي لشريعة الحبّ المكتوبة في القلوب . وهي دقيقة ومتطلّبة أكثر من جميع المجموعات القانونية .**

الله صديق الخطأة

الله هو عدو الخطيئة . لأن الخطيئة هي عدوّة الله والإنسان . لكن الله ليس عدوّ الخاطىء ، بل على العكس . فإن طلب الينا يسوع أن نحبّ اعداءنا ، فلأنّه هو أعطانا المثل أولاً .

ولم يأت الغضب

كان معاصرو يسوع ينتظرون مسيحاً ينتقم لله . فكان الخطأة يخافون ويأتون زرافات ليعتمدوا على يد يوحنا السابق « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » . وكان المعمدان يخاطبهم بكلام مخيف : « يا أولاد الافاعي ، من دلّكم على الهرب من الغضب الآتي ؟.. ها انّ الفأس موضوعة على جذور الأشجار : فكلّ شجرة لا تثمر ثماراً صالحة تقطع وتلقى في النار... والذي يأتي بعدي يحمل في يده المذراة لينقّي بيدره : فيحرق القشّ في نار لا تطفأ » (متى ٣/٥ ..) . مسكين يوحنا المعمدان فإنه سوف يذوق مفاجأة يونان المرّة !

لقد راح يونان يطوف نينوى ، المدينة العظمى ، وهو ينادي من قبل الله : « بعد أربعين يوم سندمّر نينوى ! » ... واذا بيونان ، بعد

أربعين يوم ، يدمّر ذاته . راح يئن : «أيها الربّ الاله ، هذا ما كنت قد قلته ! كنت أعرف أنّك اله شفوق رحيم ، بطيء الغضب ، كثير الأمانة ، لا تحبّ أن تضرب . فالآن ، اقتلني : لقد حرمتني لذّة الحياة ..

— لقد أخطأت بغضبك ، قال له الله... في نينوى المدينة العظمى ، أكثر من مئة وعشرين ألف شخص لا يميّزون بين يمينهم وشمالهم : فكيف تريد ألاّ أشفق عليهم ؟..

فالغضب لم يأت على الشعب اليهودي عند مجيء المسيح كما أنّه لم يأت على نينوى . الذي أتى هو يسوع ، ويسوع يعني « الله يخلّص » .

لقد أتى يسوع حتى إلى وسط الخطأة ، وكخاطىء وسط آخرين ، جاء واعتمد معهم . كان هذا أول تدخّل علني لابن الله : تدخّل خاطىء ومماثلة للخطأة . فهو والخطأة أصبحا من الآن فصاعداً شيئاً واحداً . انّه معهم وهو لهم ، هو واحد منهم وهو أوّلهم لأنّه يحمل مسؤولية خطايا الجميع : وسيدفع ثمن ذلك على الصليب . وقد شعر يوحنا المعمدان سلفاً بذلك لمّا أعلن : «**هذا هو حمل الله الحامل خطيئة العالم**» .

فمن الآن فصاعداً ، في كلّ إنسان وفي كل جماعة ، يصعد الى الله صراخ الخطيئة ، سيكون هناك حضور خاص للمسيح يسوع لكي يتصاعد صراخ الحب أعلى وأقوى . لذلك فعالم الخطيئة هذا لا ينفجر ولن ينفجر أبداً أمام غضب الله.. بدل الغضب أتى يسوع . ويسوع يعني « الله يخلّص » ...

لقد جاء طبيباً للمرضى وراعياً للنعجة الضالّة . جاء للابن الضالّ .

« لم آت لأدعو الصدّيقين بل الخطأة » (متى ٩/١٣) .

ثم اجتاز فرأى لاوي بن حلفى جالساً عند مائدة الجباية فقال له : اتبعني . فقام وتبعه . وفيما كان متّكئاً في بيته كان كثيرون من العشّارين والخطأة متّكئين مع يسوع وتلاميذه . لأنّ كثيرين من هؤلاء أيضاً كانوا يتبعونه . فلمّا رأى الكتبة والفرّيسيون أنّه يأكل مع العشّارين والخطأة ، قالوا لتلاميذه : ما بال معلّمكم يأكل ويشرب مع العشّارين والخطأة ؟ فلمّا سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الاصحاء الى طبيب لكن المرضى . فإني لم آت لأدعو الصدّيقين بل الخطأة . (مر ٢/١٤ — ١٧) .

منذ خطواته الأولى في حياته العلنيّة في كفرناحوم ، نراه يشفي الخطأة ويغفر لهم ويدعو لاوي العشّار ويغيّر بالحب خاطئة معروفة ويخفّف قوانين الصوم والسبت ... وقريباً جداً يبدأ تدفّق الخطأة نحو يسوع . ويقيم متّى وليمة كبيرة في بيته لأن البشرى السارة ، وهي أن الله يحبّ الخطأة ، قد انفجرت في حياته وفي العالم (متى ١٠/٩) .
الى حد أن العشّارين والخطأة كانوا يقتربون منه ليسمعوه . (لو ١/١٥) .
أيّها الكهنة ، عودوا الى عظة الأحد ، والمنشور الرعائي الأخير . والبراءة البابويّة الأخيرة . وتساءلوا إذا كان الخطأة يريدون «الاقتراب والسماع» ... سؤال مخيف وجدّي : المطلوب هو أن نعرف إذا كنتم تكمّلون يسوع المسيح ؟ أو إذا كنتم تعملون غير ذلك ؟..

تجربة يوحنا المعمدان

فالذي خاب أمله إذاً هو يوحنا المعمدان . لقد انتظر ضربات الفأس المنتقمة والنار في الحزم المكدّسة والنار في عشّ الافاعي والنار في الشجرة المقطوعة . بينما يعدّ النقاط وهو يأكل الجراد والعسل البرّي .

فكان ، عكس ذلك ، بيان الناصرة (لو ١٦/٤ ..) .

ولما سمع يوحنا وهو في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه يقولان له : أأنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟ فأجابهما يسوع : اذهبا واعلما يوحنا بما سمعتما ورأيتما : العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهّرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشّرون وطوبى لمن لا يشكّ فيّ (متى ٢/١١ — ٦) .

«فجاء يسوع إلى الناصرة حيث تربّى . ودخل على عادته نهار السبت إلى المجمع وقام ليقرأ . فدفعوا إليه سفر إشعيا النبي . ففتح السفر وقرأ المقطع المكتوب فيه : روح الربّ الاله عليّ لأنّه كرّسني بالدهن وأرسلني لأحمل البشرى السارّة للمساكين وأعلن الخلاص للأسرى والنظر للعميان والحريّة للمظلومين ولأعلن سنة مقدّسة للربّ .

فتوقّف يسوع عند هذا الكلام تاركاً الإعلان الذي يتبع مباشرة «يوم انتقام إلهنا» (أشعيا ٢/٦١) ، وأضاف «اليوم تمّ هذ الكتاب الذي سمعتموه» .

لقد علم يوحنا بأعمال المسيح وهو في سجن هيرودس .. لا شيء من الغضب المحكي عنه ، لا فأس مرفوعة ولا نار على بيدر الله... فشكّ في أمر يسوع. ولصراحته كنبي ، أرسل اثنين من تلاميذه يسألون نسيبه :

— أأنت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟

أمام أعينهم راح يسوع يفيض عجائب الشفاء والمغفرة على المساكين والفقراء الذين ما برحوا يزحمونه ؛ واستشهد بالنبي أشعيا :

— ألست أعمل ما كان قد تنبأوا عنه : البشرى السارّة للفقراء ؟ (لو ٧/١٨ ..) فهم يوحنا المعمدان : هناك مخطّطات مختلفة في الأفق عينه . يوم عدل الله سوف يأتي إنّما في نهاية زمن الرحمة . مغفرة الخطايا لا تبطل الدينونة ، لا تلغي حقيقة الجزاء النهائي في حياة الإنسان وتاريخه . هاتان الحقيقتان متواجدتان في الإنجيل . لكنّ تحقيقهما مفصول في الزمن بالأجيال الطويلة ، أجيال صبر الله. «لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلّص به العالم» (يو ٣/١٧) .

لا فأس بل سماد

هذه هي عبرة التينة غير المثمرة : «كان لرجل تينة في كرمه : فجاء يطلب منها ثمراً فلم يجد . فقال للكرّام : ها منذ ثلاث سنوات آتي وأطلب ثمراً في هذه التينة ولا أجد . فأقطعها : فإنّها تتعب الأرض دون فائدة ! فأجابه الكرّام : دعها ، يا سيدي ، هذه السنة أيضاً . حتى أفلحها واسمّدها . علّها تعطي ثمراً في المستقبل.. والاّ قطعتها» (لو ١٣/٦ — ٩) .

ينبغي ألاّ يخفى عليكم أمر وهو أنّ يوما واحداً عند الربّ كألف سنة وألف سنة كيوم واحد . ان الرب لا يبطىء بوعده كما يزعم قوم وانّما يتأنّى لأجلكم اذ لا يريد أن يهلك أحد بل أن يقبل الجميع إلى التوبة . (٢ بطر ٣/٨ — ٩) .

هل قطعت التينة أم لا ؟ لم يعرف ذلك أحد عندما كان يسوع يتكلّم . الشجرة هي التي تقرّر. أمّا الآن ، فهذا وقت محبّة البستاني

لشجرته غير المثمرة التي تتغذّى بالأرض والشمس والماء والعمل والسماد . هذا زمن صبر صاحبها ، رجاء صاحبها . والبستاني — يسوع — سيزداد جهداً وعطاء «علّها تثمر في المستقبل» — ثماراً تليق بالتوبة» — «والاّ قطعها» ..

زمن الحياة ، زمن التاريخ هو زمن الانتظار . انتظار ايجابي يعمل فيه الله بأنواع عدّة ليكسب قلب الإنسان . فالله لا يخلّص — أي «لا يؤلّه» — الإنسان بدون الإنسان ، بالأحرى لا يؤلّهه رغماً عنه ، لأن الانسان حرّ والله يحترم هذه الحرية . فالله يترك للإنسان الوقت ليخلص ذاته . يعطي هذه البشريّة المحبوبة **الوقت لتصبح محبة** . الغاء الخطايا يصبح ضرباً من العنف . غفران الخطايا هو ضرب من الحنان .

في البدء كان الحب

قل عنه ما شئت فأنا أعرف هفوات ولدي . لا أحبّه لأنه عاقل بل لأنّه ولدي الصغير . ماذا تعرفون عن الحنان الذي يوحيه إليّ أنتم يا من تدّعون أن بإمكانكم أن تعدّوا بدقّة صفاته ونقائصه ؟ عندما أجبر على قصاصه ، يصبح عندئذ شخصاً واحداً معي . أجبره عندئذ على ذرف الدموع فقلبي يبكي معه . بإمكاني وحدي أن أوبّخ وأقاصّ لأنّ من يحبّ يحق له أن يقاصّ . (طاغور) .

يهمّنا أن نتخلّص من كرازة خاطئة لكنّها مألوفة . لقد رأينا أنّ تحديد الخطيئة هو هو في العهدين . **لكن مغفرة الخطايا لم تظهر كاملة إلاّ بيسوع المسيح** . من الخطأ القول : توبوا فيغفر لكم . فالغفران ليس جواباً على توبة الإنسان ، بل هو سابق لها . لقد احتمل البستاني التينة طويلاً واهتم بها طويلاً قبل أن تعطي أيّة ثمرة . الابن الضال نال الغفران حتّى قبل أن يترك البيت الأبوي . **في البدء كان الغفران . دون شرط** .

« هذا هو الحب : لم نحبّ نحن الله بل هو أحبّنا وأرسل ابنه كفّارة عن خطايانا » (١ يو ٤/١٠) .

إذن « نؤمن بمغفرة الخطايا » المجانيّة ، المعطاة سلفا ، ونهائيّ وبطريقة مطلقة ، لا نظراً إلى مسعى الخاطىء . أجل لقد مات المسيح عن الكفرة . وهذا برهان كبير لحب الله لنا : **فاذ كنا لا نزال خطأة ، مات المسيح عنا** » (روم ٥/٦ — ٨) .

كنّا اخترعنا الها كاذباً غير قادر على أن يعمل هو ما يطلبه منّا : تحويل الخدّ الأيسر ، مسامحة الاعداء !.. « لكن أباكم السماوي يصنع هذا ، يقول لنا يسوع . كونوا كاملين مثله » . تحديد الله هو أنّه يحوّل الخدّ الأيسر ويحب اعداءه ، ويحب دون أن يُحَب . يحب **مسبّقاً** ومهما صنعوا به ، كالذي يغفر « سبعين مرة سبع مرات » أي دائماً .

إذن « نؤمن بمغفرة الخطايا مغفرة تسبق كل توبة ، تمنح قبل كلّ توبة . وقبل الحلّة وبدون شرط . أؤمن أن خطاياي مغفورة . لكي يكون هناك غفران ، يكفي أن يكون الله هناك ، لأنّه محبة . **لكنّ المصالحة تفترض اثنين** . **فالأب لا يستطيع أن يقبل ابنه الضال إلاّ إذا عاد هذا حراً مختاراً** ... » .

أسرار الغفران

المحب الحقيقي يعرف أن يجد ألف طريق ليلاقي القلب الذي يحبّ ، ليؤثّر فيه . ليغيّره ، ليربحه ، الله هو في أن يحبّ ويغفر لا يغلبه الحب البشري . « **يريد** الله أن يخلص **جميع الناس** » (١ تيمو ٤/٢) . « **هكذا أحب الله العالم** حتى أعطى ابنه الوحيد ... **ليخلّص به العالم** » (يو ١٦/٣ ..) . كلمات الله هذه يجب أن تتردّد ليل نهار في قلبنا وان تشرح لنا أفكاراً لاهوتية لا تحدّ ... « العالم » « جميع الناس » ... لا يقتصر يسوع المسيح وقدرة دمه وقوّة قيامته التي تؤلّه الإنسان على فئة الممارسين المحدودة !

اذ فيه رضي الآب أن يحلّ الملء كله . وان يصالح به الجميع لنفسه مسالماً بدم صليبه ما على الأرض وما في السماوات . وأنتم الذين كنتم حيناً غرباء وأعداء في الضمير بالأعمال الشريرة ، قد صالحكم في جسد بشريّته بالموت ليجعلكم قدّيسين بغير عيب ولا مشتكى أمامه . (كولسي ١٩/١ — ٢٢) .

ألا يبشّر بولس أهل أفسس بخلاص شامل (٣/١ ...) ؟ : « تبارك إله ربنا يسوع المسيح وأبوه الذي باركنا في المسيح بكلّ البركات الروحية في السماء . ذلك بأنه اختارنا قبل إنشاء العالم لنكون عنده قدّيسين بلا عيب في المحبة » . « قدّيسين وبلا عيب » كيف

ذلك ؟ « ففيه ، بدمه ، لنا الفداء ومغفرة الخطايا **حسب غنى نعمته التي اعطانا الله**... » يكفي هذا الكلام للدلالة على أنّ أب الخطأة ، علاوة على سرّي العماد والتوبة ، ينتظر أولاده على ألف طريق وطريق ليضمّهم إليه ويقودهم الى عيد المصالحة .

هذا هو رأي البابا القديس لاون الكبير : « سرّ الخلاص لم يغب يوماً في الأزمنة الغابرة » . هذا يعني — للأزمنة الغابرة كما لليوم ولكل يوم — ان الله يريد **حقاً** خلاص جميع الناس . ولذا ، فعبر علامات متنوعة ، هناك عروض عمليّة وصادقة ومحبة للمسامحة معروضة على كل إنسان أكثر من مرّة . هذه « العلامات الحسيّة والفعّالة » حيث يجد الخطأة مغفرة الخطايا معروضة عليهم ، فلنسمّها ، بالمعنى الواسع الذي يستعمله المجمع الفاتيكاني الثاني ، « أسراراً » .

الكنيسة سرّ

يجب أن نكرّر القول بأن العماد ، وللذين سقطوا في الخطيئة المميتة بعد العماد وسرّ المصالحة هما الوسيلة المميّزة لمغفرة الخطايا . يجب التذكير أيضاً بأن مسحة المرضى هي أحد أسرار مغفرة الخطايا . وبنوع خاص أن الافخارستيا ، وليمة العهد ، شرط أن نتقدّم منها بنيّة صافية لا بمسعى دنس ، « تغفر الجرائم مهما كبرت » . إنّي استشهد هنا بالمجمع التريدنتيني . المناولة هي ذروة المصالحة مع الله ومع الجماعة . **ونزيد أخيراً أن الكنيسة هي السرّ الأول للمغفرة وهي مكان الغفران التام كما أنّ البيت هو مكان الحبّ** .

الكنيسة أي جماعة المسيحيين ، الكنيسة أي كل جماعة مسيحية . الكنيسة أي كل عائلة مسيحيّة . الكنيسة أي كلّ معمّد .

وهكذا ، حتّى خارج الأسرار السبع ، كل ما يعاش بصلاح في الكنيسة هو لمغفرة الخطايا : الحب والخدمة ، الصلاة والعمل ، الابتسامة والدموع ، الألم والشيخوخة ، العدالة والمحبة ، التوبة

والشكر ، الحياة والموت ، كلّ شيء... — الكنيسة هي معمل ضخم لحرق النفايات اليومية ، هي محطّة تطهير تعمل دوماً ، غسّالة نشيطة وفاعلة دوماً.. واننا نأسف لهواة المطهر ! نؤمن بمغفرة يوميّة للخطايا اليومية في الكنيسة . أؤمن أن عددا كبيراً من الناس يلبس يومياً زيّ العبيد..

عماد واستشهاد و« غفران »

علينا أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونحترم تقليد الكنيسة بكامله ، ولو أن التصلّب العصري جعلنا نصمّ الآذان عن بعض معزوفاتها .. ليس صحيحاً ولا يمكن أن يكون صحيحاً أن مغفرة الخطايا أصبحت أصعب ممّا قبل بعد مجيء المسيح .. ما معنى ذلك ؟

لم تكن الكنيسة الأولى تعرف سوى التوبة العلنية القاسية والصعبة . فمنذ القرن الرابع كانت قد زالت كليّاً تقريباً . لم تكن مقبولة إلاّ على فراش الموت ، الا إذا كان الإنسان بطلاً . لكن مدى حياتهم ، كان باستطاعة معاصري القدّيسين قبريانوس وأغوسطينوس ولاون الكبير وسيزار دارل عملياً ، حتى ولو كانت ارادتهم طيّبة ، اللجوء إلى المصالحة السريّة عندما كانوا يقعون في الخطأ المميت . ومع هذا كانوا يتقدّمون من مائدة الخلاص . والكنيسة ذاتها كانت تجبرهم على المناولة ثلاث مرات في السنة على الأقل . وبعد ؟.. وبعد هوان المسيحيين كانوا يعملون وكذلك أساقفتهم والكنيسة ما قد نسيناه اليوم : وهو انه كان في الكنيسة وسائل أخرى تقليديّة تمنح مغفرة الخطايا المميتة . هذه الوسائل غير السريّة والفاعلة كانت « الغفارين العشر » . في محاضرته العشرين ، في الآية الثامنة ، يعطينا يوحنا كاسيان اللائحة التقليديّة :

« علاوة على نعمة العماد المشتركة ، وعلاوة على نعمة الاستشهاد الجزيلة الغنى حيث يعتمد المرء بدمه . هناك « ثمرات توبة » عديدة كلها تؤمّن التكفير

عن **الجرائم** . وفي الواقع لم يعد الله بالخلاص الأبدي فقط الذي يتوب بالمعنى الحقيقي للكلمة (أي توبة سريّة) .

— **المحبة** أيضاً تدفن كثيراً من الخطايا (١ بطر ٤/٨) .

— كما يطفىء الماء النار ، كذلك تطفىء **الصدقة** الخطيئة (ابن سيراخ ٣/٣٣) .

— **الدموع** أيضاً تطهّر دنس نقائصنا (مز ٦/٧ ، ٩ في السبعينية) .

— **الإقرار** بالجريمة بوسعه أن يمحوها (مز ٣٢/٥ ؛ أشعيا ٤٣/٢٦) .

— بإمكان نوال غفران النقائص **بانسحاق القلب والجسم** (مز ٢٥/١٨) .

— وخاصة **بإصلاح السيرة** (أشعيا ١/١٦ — ١٨) .

— ومرّات **شفاعة القديسين** تنال غفران خطايانا (١ يو ٥/ ١٦ ، يعقو ٥/١٤ — ١٥) .

— وأيضاً **الرحمة والإيمان** (أمثال ١٥/٢٧) .

— عادة كلّ **من يهدي خاطئاً** يخلص هذه النفس من الموت الأبدي ويَستر خطاياه العديدة (يعقو ٥/٢٠) .

— وأخيراً **إذا غفرتم للناس زلاّتهم** ، يغفر لكم أبوكم السماوي زلاّتكم (متى ٦/١٤) . «إنكم ترون الدروب المتعدّدة التي امتنّها لنا محبة المخلص لنصل إلى رحمته حتى لا ييأس كلّ الذين يريدون الخلاص ، بينما الأدوية المحيية متعدّدة..

سرّ الوجود البشري

ان كنت أتناول بشكر فلماذا يفترى عليّ فيما أنا شاكر عليه . فإذا أكلتم

في الكنيسة وبواسطتها ، سواء قبلنا أسرارها أم عشنا أعمال التوبة ، فإنّنا نعيش مغفرة الخطايا بطريقة فعّالة وواعية وشخصية وواضحة . حضور المسيح القائم من الموت ، الذي وعد به وبدأ في ليلة الفصح ، يعترف به المؤمنون وقد أصبح أمراً «منظوراً» بشرياً .

وغير المسيحيين ؟

يريد الله خلاصهم . فالمسيح مات وقام لأجلهم أيضاً . هم أيضاً « مدعوّون قبل انشاء العالم ليكونوا دائماً قدّيسين وبلا عيب في المحبة » .. فلأجلهم أيضاً **حضور المسيح القائم من الموت يتحقق في الوجود البشري** . بطريقة لا واعية وناقصة طبعاً . ولكن بطريقة حقيقية وفعّالة . كيف ذلك ؟

أو شربتم أو عملتم شيئاً . فاعملوا كـلّ شيء تمجيـداً لله . (١كو ١٠/٣٠ — ٣١) .

لا يقدر الطفل أن يحقّق ذاته ، أن يصير رجلاً ، ورجلاً أكثر .. إلاّ إذا خرج من ذاته وتخطّى ذاته بالجهد وانفتح على المجتمع وأخذ على عاتقه خدمة اجتماعية في الوظيفة ، واعطى ذاته لامرأة ، لزوج ، لأولاد ، لوطن .. أكان الكلام على الرياضة أو الوظيفة أو التقدّم في السّلم الاجتماعي أو الثقافة العقليّة أو المسؤولية السياسية أو الاجتماعية أو الحياة العائلية .. فالإنسان مدعو الى أن يباعد دوماً معالم حدوده ويتخلّى عمّا هو عليه ليصبح أفضل .

يسوع : «من أحبني حفظ كلمتي وأبي أحبّه واليه اتينا وعنده صنعنا منزلاً» (يو ١٤/٢٣) .

ومعلوم أن حالة البشر هذه قد لبسها ابن الله يوم تجسّد . حالة التخلّي عن الذات لكي يصبح شخصاً آخر ، إنساناً ، ليكون مع الإنسان ومثله «ليغسل له رجليه» «ليحبّه الى النهاية» (فيليبي ٢/٥ .. ؛ يو ١٣ و ١٤ — ١٦) .

في التجسّد تغيّر كل شيء بالنسبة الى الإنسان وان جهل ذلك . وسط جماعته البشريّة ، يقوده الله في هذه الحياة البشرية ، يوجّهه نحو الآخرين ، لأجل الآخرين. هناك يسوع ، آدم الجديد ، الذي أصبح رأس البشرية جمعاء ليقودها وسط كلّ ما حقّقه الإنسان للاتحاد الشامل بالآخرين وللاتحاد الإلهي بالله . هذا هو تحقيق الذات — الإنسان الكامل — الذي نسير كلّنا نحوه والذي لأجله نجاهد دون أن نعلم . **لكن يسوع يقود القافلة ويعلم ذلك .**

كل حياة بشريّة على الأرض هي إذاً ملأى بوجود النعمة الفعال وبقيامة

يسوع المسيح كإسفنجة ملأى ماء ، الا إذا رفضت ذلك . كل إنسان وفي كل المواقف يجد هنا نعمة المسامحة والتقدّم والخلاص والحياة البنويّة بيسوع المسيح . حتى ولو كان يحارب الكنيسة والله والمسيح عن نيّة سليمة . عديدون هم الملحدون الذين يعبّرون برعونة عن أنّهم يعيشون في سرّ يتخطّاهم ويحملهم ويدعوهم الى الاستسلام إلى هذه الحركة التي لا يستطيعون تسميتها أو التي يسمّونها المساء الكبير أو الصباح الكبير — لا فرق — والتي هي جسد المسيح الكامل الذي هو قيد البنيان .

هذا يسميّه اللاهوتيون الإيمان الضمني ، عماد الشوق . ويعلّمنا التعليم المسيحي أن **عماد الشوق لا يقلّ فاعلية عن عماد الماء لمغفرة الخطايا** .

يقول المرحوم الأب هيتز : «كثيرون هم الناس الذين ، عبر الأزمنة والأمكنة ، يحملون مسؤوليتهم الانسانية كل بحسب وضعه الواقعي ، بصبر وصمت ، وبثقة عمياء ، بأمانة صادقة ، بغيرة خفيّة ، في وحدة مؤلمة لكنّها سخية ، في حياة غالباً ما تكون تافهة ومخيّبة ، وهكذا ينفتحون على الحب المخلص ، حب المسيح ويستفيدون من وعوده وتطويباته : «طوبى للفقراء بالروح لأن لهم ملكوت السماوات» (متى ٣/٥ — ١٠) لهؤلاء تتحقّق نصوص القدّيس يوحنا الشمولية : «من يصنع الحقيقة يأت الى النور (٢١/٣) ، «من كان من الحق يسمع صوتي» (٣٧/١٨) . لأن المسيح في ملء قيامته الأخيرة هو النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آت الى العالم... والذي يعطي كل الذين يقبلونه أن يصيروا أبناء الله» (١٩/١ — ٢٠) .

بعض أمثلة قد تنير بعض ما نحاول قوله :

هناك أوقات أزمات ، أوقات حريّة خلاّقة فيها يقرّر الناس حياتهم في القلق والرجاء ، اذ يختارون الحبّ أو الأنانية . الخير أو الشرّ حسبما أُعطوا أن يفهموا ..

وهناك خاصة الحياة اليوميّة ، هذا المصير المظلم كاللغز الذي يثقل كاهل الناس وحيث يشعر كل واحد بأنه مدعو لأن يكون صادقاً وصبوراً وسخيّاً في العائلة والعمل وخدمة القريب والهموم اليوميّة . . » (قيامة المسيح) .

سرّ الأخ

وأيضاً : **في علاقاتنا مع الغير بنوع خاص ، نجد ذواتنا بحضور المسيح يسوع** . كلّ إنسان هو ابن الله ، أخ يسوع . وأكثر من ذلك : هو عضو في يسوع المسيح . «كل ما تفعلونه بأحد أخوتي هؤلاء الصغار فبي تفعلونه» . هذا هو «سر الأخ» . من اعترف بأخيه اعترف بيسوع المسيح . من أحبّ أخاه أحبّ يسوع المسيح . «ان أحبّني أحد ، أبي يحبّه واليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» . لا يمكن أن نؤكّد على مغفرة الخطايا بأقوى من هذا الكلام إذا كنّا نحبّ . كل ما هو حبّ يصنع مغفرة الخطايا . «لأن الحب من الله . ومن أحبّ هو مولود من الله ويعرف الله» (١ يو ٤/٧) .

أمن الضروري أن نردّد ذلك : كل محبة هي موت عن الذات . وهذا الموت اتحاد بموت وقيامة يسوع المسيح .

والغفـرانات ؟

كنت أفضّل ألاّ أتكلّم عليها اذ تاريخها ملوّث بالشكوك والغموض . فالخرافات في هذا الموضوع لا تزال كبيرة عند الكثيرين . مع أن الغفرانات هي تطبيق لشراكة القدّيسين لمغفرة الخطايا .

في الكنيسة الأولى كانت الاضطهادات تسبِّب الجحود عند الضعفاء : أمام العذابات ، كانوا ينكرون يسوع المسيح . وهؤلاء الجاحدون (ضمّوا إليهم فيما بعد القتلة والزناة) كانوا «محرومين»

ومجبرين على صنع توبة مؤبّدة : كانوا يلبسون مسحا ويقصّون شعورهم وينقطعون عن أكل اللحم مدى العمر ، وان كانوا متزوّجين ينقطعون عن العلاقات الزوجيّة ، كما كانوا يمنعون من الخدمة العسكرية ومن الوظائف العامّة ومن كلّ أنواع التجارة .. وان بعض الشهداء الذين كانوا ينتظرون تنفيذ حكم الاعدام في السجون أو بعض المعترفين الذين نجوا من العذابات ، كانوا يعطون هؤلاء الجاحدين التائبين «بطاقات سلام» : كانوا يشفعون بهم لدى الاسقف لكي ، بشفاعة آلام الشهداء ، ينقل «استحقاق هؤلاء الساقطين فيقصّر مدة توبتهم . يقول القدّيس قبريانوس : «نؤمن أنّ لاستحقاقات الشهداء قوة كبرى لدى الحاكم الأعلى .. فبإمكانه المصادقة على ما طلبه الشهداء وما صنعه الأساقفة» .

هذه هي **الغفرانات** بصفائها . «القصاص الزمني الذي سبّبته الخطيئة هي هذه التوبة العلنيّة والقاسية . **وليست الغفرانات رجوعاً الى صلوات الكنيسة لأجل الخطأة بل تحويل غنى تعويض السيد المسيح والقدّيسين الى الخطأة** .

منذ القرن الرابع زالت عادة التوبة العلنية . وطيلة قرنين أو ثلاثة ، كان هناك فراغ في التوبة الكاملة حيث كانوا يعيشون المصالحة فقط باللجوء الى «الغفارين العشر» التي يتكلّم عنها كاسيان .

ثم أدخل الرهبان الارلنديون التوبة — السرّ انّما بشكل «التوبة ذات التعرفة» : الخطايا المميتة تتطلّب توبة تعيّنها تعرفة رسمية : مئة يوم ، سنة ، سبع سنوات ، سبع اربعينات (زمن الصوم) ... يأكل الخاطىء فيها الخبز والماء فقط .. هذا كان القصاص الزمني الذي تتطلبه الخطيئة .

لتخفيفها ، أصبح بالإمكان دفع ، بدل «بطاقات السلام» .

أوراقاً نقديّة لبناء الكنائس والأديرة والمستشفيات والجسور والسدود في هولندا أو لافتداء الأسرى . وهكذا كان الباب مفتوحاً لأعمال الخير وفي الوقت عينه للمساومات والمشاجرة . على كلّ حال ، طوال هذا الزمن ، كان للتوبة ذات التعرفة معنى ، لكنّ هذا المعنى ضاع عندما ضاعت التعرفات في النسيان منذ القرن العاشر . فحوّلوا الأيام والسنين والاربعينات الى قصاص غامض متعلّق بحدّ ذاته بالخطيئة وبعذابات المطهر حيث لا أيام ولا سنون حتى ولو كانت الأنفس مرتهنة . فلم يعودوا يفهمون شيئاً من هذا الموضوع . فراحت المشاجرات تتّسع لدى الكبار وكذلك الخرافات لدى الفقراء . فالغفرانات التي بشّر بها لاون العاشر لبناء القدّيس بطرس في روما سنة ١٥١٥ هي التي أجّجت غضب لوتير لأوّل مرّة . وسنة ١٥٦١ أوقف المجمع التريدنتيني جباة صدقات الغفارين . وسنة ١٥٦٩ أعلن بيّوس الخامس مجّانية الغفارين : فحلّت الصلاة أو زيارة الكنائس أو غيرها محلّ الصدقة . لكنّ الناس ظلوا لا يفهمون شيئاً من هذا . فالعمليّات التجاريّة تركت مكانها للروح التقوية التجارية التي كان همّها المحاسبة في الغفارين الجزئية وجمع الغفارين الكاملة بدلاً من التوبة والتفتيش عن « الغفران الكامل في المحبّة التي تغطي العدد الكبير من الخطايا » (تريز دي ليزيو) .

في أول كانون الثاني ١٩٦٧ أعاد البابا بولس السادس اصلاح الغفارين . نقطتان أساسيتان :

— لم يعد وارداً تحديد تعرفة للغفارين **الجزئيّة** . كل مؤمن ، بروح التوبة ، يعمل عملاً يتعلّق عليه غفران جزئي ، تعطيه الكنيسة قيمة تعويضيّة مزدوجة : من يعوّض بعمل صالح يعوّض مرّة ، ومن يعوّض بعمل تتعلّق عليه الغفارين يعوّض مرتين : لأن الكنيسة تعوّض معه .

لقبول الغفران **الكامل** يجب الاعتراف والمناولة والصلاة على نيّة

البابا وترك «كل تعلّق بأية خطيئة حتى العرضيّة» . هذا ممّا «يجعل الغفران الكامل شبه مستحيل» (ديمون ، المجلة اللاهوتية الجديدة . اذار ١٩٦٧) . وهذا نفهمه جيداً .

١٩

نؤمن بقيامة الاجساد

العالم الآتي :

وصلنا إلى نقطة من قانون الإيمان تجعلنا ندور حول ذواتنا كما تصور الكاميرا مشهداً أفقياً لتصوّب انظارنا نحو مستقبل الإنسان والعالم . نهاية قانون الإيمان تحدثنا عن نهاية العالم :

« نؤمن ... بقيامة الموتى والحياة الأبدية » يقول قانون الرسل . « ننتظر قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي » يقول قانون نيقيا — القسطنطينية . وبلغة اللاهوتيين — ولكل علم لغته — هذه النظرة الى المستقبل تدعى « علم الإسكاتولوجيا » . اذ الصفة « اسكاتوس » باليونانيّة يعني الأخير » . فالإسكاتولوجيا هي معرفة الحقائق الأخيرة المتعلقة بالإنسان والكون . كانوا قبلاً يسمّونها « النهايات الأخيرة » ليس بمعنى الطريق المسدود ونقطة التوقّف بل بمعنى الهدف ونقطة الوصول . هدف النزهة ليس نهايتها بل على العكس هو ذروتها وملؤها . عندئذ يبدأ كل شيء حقاً .

وكما لبسنا صورة الأرضي كذلك سنلبس صورة السماوي .. انّنا سنقوم كلّنا ولكن لا نتغيّر كلّنا ... ومتى لبس هذا الفاسد عدم الفساد وهذا المائت عدم الموت ، حينئذ يتم القول الذي كتب : قد ابتُلع الموت في الغلبة . فأين غلبتك أيها الموت واين شوكتك يا جحيم . (١كو ١٥/٤٩..)

ما الذي ينتظر الإنسان ؟ ما الذي ينتظر العالم ؟ إلى أين يقودهما الله ؟ ماذا يخبىء لنا ؟ ما هو رجاؤنا ؟ علم الإسكاتولوجيا يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة .

قانون إيماننا اعطانا بدء جواب في القسم الثاني : « نؤمن بيسوع المسيح .. وقام وصعد الى السماء وسوف يأتي ليدين الأحياء والأموات » ، رأينا انساناً ، الإنسان — الإله ، « يقتل الموت » و« يجلس عن يمين الآب » ليعدّ لنا مكاناً .

نؤمن بالروح القدس لقيامة الموتى

القسم الثالث من القانون — « نؤمن بالروح القدس ، في

الكنيسة المقدسة ، لقيامة الموتى » — يجد جذوره إذاً في القسم الثاني كما أنّ رجاءنا المسيحي يجد جذوره في مغامرة يسوع الذي مات لأجلنا وقام لأجلنا وصعد إلى السماء لأجلنا . فحاز قوّة تحوّله من دينونة الأحياء والأموات في نهاية التاريخ والعالم .

لكن لا ننسى الروح القدس ! فقد بلغنا ذروة عمل « الروح القدس في الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة » : « إذا كان روح الذي أقام يسوع من الموت يسكن فيكم ، فالذي أقام من الأموات يسوع المسيح **يعطي أيضاً الحياة لاجسادكم المائتة بالروح الحالّ فيكم** » (روم ١١/٨) .

العالم الثاني هو هنا منذ الآن

إذا كنتم قد متّم مع المسيح فابتغوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله . افطنوا لما هو فوق لا لما هو على الأرض . فـإنّكم قـد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله . ومتى ظهر المسيح الذي هو حياتنا فأنتم أيضاً تظهرون حينئذ في المجد . (كولسي ٣/١ — ٤) .

نحن مدعوّون الآن لأن نتّجه نحو هذا الأفق ..

تعطينا كلمة **أفق** صورة مهمّة . الأفق أمامي هو آخر الطريق الذي يتصل بالسماء الى أبعد ما يرى نظري . من جهة أنا أسير نحوه لأنه بعيد ، لأنّه « آت » ، فليس **هو هنا بعد** بل هو « **ما وراء** » . ومن جهة ثانية هذا الطريق الذي ينتهي هناك ، أنا عليه الآن ، عليه أسير : بواسطة هذا الطريق الذي تدوسه قدماي ، **الأفق هو هنا منذ الآن** ، الأفق هو النعمّة الأخيرة من السهل الذي تدوسه قدماي .

هكذا في الإيمان ، فإننا نمشي نحو القيامة والسماء والسماوات الجديدة والحياة الأبدّية ... هذه الحقائق الأخيرة « النهائية » ، ليست **هنا بعد** ، بل هي « **العالم الآتي** » . ومع ذلك ، فمنذ حياة يسوع الزمنية في شخصه الالهي المتجسّد ، قد نزل العالم الآتي إلى العالم الحاضر ، إلى يومنا هذا .

والآن ، وقد قام من الموت وصعد إلى السماء ، فالإنسانية الحاضرة قد دخلت في المستقبل بيسوع أخينا اذ معه نؤلّف شخصاً واحداً .

فمن الحماقة القول بأن البنود السابقة كانت تتحدّث عن هذا العالم وعن هذه الحياة ، بينما البندان الأخيران يتحدّثان عن العالم الآخر والحياة الأخرى .. ليس هناك عالمان ولا حياتان .. ليس هناك الزمن الهارب والزائل والمحدود من جهة ، ومن جهة أخرى الابديّة الثابتة وذات القيمة اللامحدودة والنهائية . هناك عالم واحد لكنه في طريق التغيّر بفعل الإيمان والمعمودية ، لكنها ليست حياة أخرى . ليست الفراشة حيواناً يختلف عن الدودة . وليست المرأة شخصاً غير الفتاة الصغيرة . إنما كلّ هؤلاء هم غير ما كانوا عليه سابقاً .

ويؤكد لنا القدّيس بولس : لقد متّم مع المسيح وقمتم معه ومعه صعدتم إلى السماء . ففينا وفي العالم يجعل الروح نعمة المسيح وحياته الممجدة حاضرتين : الحياة الأبدية قد ابتدأت لكنّها لم تظهر بعد . فهي لا تزال خفيّة مع المسيح في الله .

« ما لم تره عين الإنسان »

القيامة والحياة الأبدية ونهاية العالم والعالم الجديد ، حقائق تبدأ هنا لكنّها تبقى خفيّة بالنسبة الينا .

وسريّة العالم الماورائي تعود إلى أنّنا لا نملك أي اختبار عنها . حتّى الحقائق الحاضرة بيننا — حياة الله فينا ، حضور الأقانيم الثلاثة ، عمل الروح — لسنا نعرفها إلاّ بالإيمان . قد نرى منها بعض علامات لكن علامات ضعيفة جداً كصوت موسيقى بعيدة يحمل إلينا الهواء بعض نغماتها الهاربة . فإذا كان **ما هو حاضر** لا يظهر إلا قليلاً ، فبالأحرى يستحيل علينا أن نتصوّر العالم **الآخر كما يجب** . فنحن أمام مستقبلنا الأبدي كالولد الذي لا يزال في حشا أمه : يشعر بحياته في الحشا — يشعر بالبرد والحرارة . بالراحة أو التعب — لكنّه لا يقدر أن يكوّن فكرة ولو ضعيفة عن حياته الآتية عندما سيرى النور ويمشي ويكبر ويتكلّم ويأخذ محله على الأرض ..

اني أعرف رجلاً في المسيح اختُطف الى السماء الثالثة منذ أربع عشرة سنة . أفي الجسد ؟ لست أعلم أم خارج الجسد ؟ لست أعلم . الله يعلم ... اختُطف إلى الفردوس وسمع كلمات سرّية لا يحلّ لإنسان أن ينطق بها . (٢كو ١٢/٢ — ٤) .

كذلك لا نقدر أن نحدّد مستقبلنا الأبدي . فقبل أن نتمتم أيّ كلام ، انطلاقاً من الوحي ، علينا ألاّ ننسى أبداً اعلان القدّيس بولس الأساسي هذا : « نتكلّم على حكمة الله السريّة الخفيّة التي اعدّها الله لنا قبل الدهور في سبيل مجدنا . انّها حكمة لم يعرفها أحد من رؤساء هذه الدنيا . ولو عرفوها لما قتلوا رب المجد . فقد ورد في الكتاب : **أعدّ الله للذين يحبّونه كلّ ما لم تره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر.** فلنا كشفه الله بالروح » (١كو ٢/٧ ...) .

عندما تلتوي الخطوط الحديدية

لنا نحن « العبرانيين » ، « لنا نحن » الساميّين ، كشفه الله . وهاكم صعوبة جديدة : نقل إلينا الرسل عقائد من الوحي أساسيّة بكلمات وصور ساميّة ، بتعابير مأخوذة من الثقافة العبريّة التي كانت ثقافتهم — وآباء كنيستنا اليونانيون واللاتين سكبوها في قالب الصور اليونانيّة التي كانت صورهم . ونحن اليوم نقولها بصور عصرية هي صورنا . **كلّ هذه الصور ناقصة ، نسبيّة ، قابلة الجدل وعابرة .**

وكانت عليّ يد الرب فأخرجني بالروح ووضعني في وسط البقعة وهي ممتلئة عظاماً . وأمرّني عليها من حولها فإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة واذا بها يابسة جداً . فقال لي : يا ابن البشر ، أتُرى تحيا هذه العظام ؟ فقلت : أيها السيّد الرب ، أنت تعلم . فقال لي : تنبّأ على العظام وقل لها : أيتها العظام اليابسة ، اسمعي كلمة الرب.. (حز ١/٣٧ ..)

من هنا الأفكار الخاطئة أو ، على الأقل ، التي ضاع مفهومها ، قد علقت في رؤوسنا كقطع غيوم خريفيّة . لم تأت من الوحي كما أنّها لم تأت من اختبارنا ، بل من الفلسفة اليونانية التي أثرت جداً في الكتّاب المسيحيين عبر عشرين قرناً .

هاكم أمثلة على هذه الأفكار الناقصة : الإنسان مخلوق عاقل مركّب من نفس وجسد — الموت هو انفصال النفس عن الجسد — الخلاص أمر فردي — النفس من طبيعتها غير مائتة — في العالم الآخر سعادة للنفس وحدها ، « للنفس منفصلة » — بعد ذلك تقوم الأجساد (لا الأموات) — فبالنسبة اليّ ، يصبح مصير الانسانيّة ككلّ أمر ثانوي ، فلأعمل على خلاص نفسي وليعمل كل إنسان مثلي ، يؤمّن على ذاته ..

إن لم تكن هذه الأفكار خاطئة تماماً ، فهي أقلّه « ملتوية » جداً .. فإذا تركنا القطار يسير على خطوط ملتوية ، نعرّضه لخطر الخروج عن الخط . كذلك فهذه الأفكار المغلوطة تضعنا على طريق مسدود أو في تشوّش إذا ما أردنا فهم « قيامة الأجساد » . مثلاً . فالعهد القديم والإنجيل يعلمانا شيئاً مغايراً تماماً . المهمّ هو فهم لغة الكتاب ..

صور وبائعو صور ولاهوت خيالي

هكـذا قـال السيّـد الرب لهذه العظـام : هاءنذا أعطيك روحاً فتحيين. اجعـل عليك عصبـا وانشيء عليك لحماً وابسط عليك جلداً واجعل فيك روحاً فتحيين وتعلمين أني أنا الرب . فتنبأت كما أُمرت فكان صوت عند تنبّؤي واذا بزلزال فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه ورأيت فإذا بالعصب واللحم قد نشأا عليها وبُسط الجلد عليها من فوق ولم يكن بها روح . فقال لي : تنبّأ نحو الروح يا ابن البشر ، وقل للروح هكذا قال السيد الرب : هلمّ أيها الروح من الرياح الأربع وهبّ في هؤلاء المقتولين فيحيوا . فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أرجلهم جيشاً عظيماً جداً . فقال لي : يا ابن البشر ، هـذه العظـام هي آل اسرائيـل باجمعهم (حز ٣٧/١ ..) .

لغة الكتاب المقدّس تؤلّف غالباً ، بسبب خطأنا ، حاجزاً ثالثاً : فهي بطبيعتها رمزيّة وشعرية . ونحن بطريقة سطحيّة معرّضون لفهمها كلغة واقعيّة . لقد واجهنا هذه الصعوبة بصدد الخطيئة الأصلية . فلنأخذ مثلاً معاصراً : في السادس من حزيران ١٩٤٤ . نزل أسطول الحلفاء في مقاطعة النورماندي . فكان ذلك موضوع كتاب ثم فيلم عنوانهما : « أطول يوم في التاريخ » . طريقة معبّرة تعني أن لكلّ دقيقة من هذا الحدث وزناً تاريخياً في هذه الحرب أثقل من وزن ساعات باقي الأيام . لكن اليوم لا يدور في خلد أحد أنّه في الحرب العالمية الثانية كان هناك نهار ساعاته مؤلّفة من ستمئة دقيقة عوضاً عن الستّين ! هذا ما أراده الكتاب المقدس بالضبط (يشوع ١٣/١٠) لمّا أكّد على أن يشوع ، في معركة جبعون . « أوقف الشمس » حتى تم انكسار الأموريين وحلفائهم . ونحن السذّج اعتبرنا تلك الصورة ، صورة النصر السريع ، كظاهرة شمسيّة عجائبية . وهكذا أيضاً جعلوا من حجاب الهيكل الممزّق من فوق الى تحت عند موت يسوع أمراً موضوعياً ، بينما هذه الطريقة التعبيريّة في الكلام تعني : انتهت العبادة الموسويّة وحلّت محلّها نهائياً ذبيحة يسوع المسيح .

لنعد إلى « النهايات الأخيرة » ؛ لقد وجدت المصير ذاته تلك الكناية البديعة التي يتحدّث عنها حزقيال في الفصل السابع والثلاثين

حول العظام اليابسة . فشعب الله ، وقد غلب على أمره ونُفي واستُعبد ، أصبح مجموعة جثث منشورة على الأرض . وأفظع من ذلك : أصبح مجموعة عظام يابسة تغطّي وجه السهل . فيقول الله « أريد أن أعيد الحياة الى هذه العظام » . « وكان صوت واذا بزلزال فتقاربت العظام بعضها من بعض . ورأيت فاذا بالعصب واللحم قد نشأا عليها وبُسط الجلد عليها ... فدخل فيهم الروح : فعادوا إلى الحياة وقاموا على أرجلهم جيشاً عظيماً » . ثم يشرح النبي أن ليس هذا سوى رؤيا **خياليّة** لحقيقة هي الآتية : « هذه العظام هي آل اسرائيل بأجمعهم . وها هم يقولون : لقد يبست عظامنا ومات رجاؤنا » .. ها أنا أقيمكم من قبوركم ، يا شعبي ، وأعيدكم الى أرض اسرائيل .. وتحيون » . هذه هي الحياة ! ... لكن مصوري الرسوم الجدرانيّة والزجاج الملوّن والبوابات المنحوتة أخذوا هذا الرمز ليصوّروا قيامة الأموات .. وكثيرون هم المسيحيون الذين اعتبروا هذه الصور أوصافاً واقعيّة لما سيحدث في نهاية الأزمنة ! انقلاب عظيم في المقابر حيث مليارات الموتى سيجمعون عظامهم ويستعيدون رفاتهم ويطرحون عنهم أكفانهم وينهضون من قبورهم ..

الكتاب المقدّس ، كالشعر ، يضعنا أمام رموز وعلامات . وبدل من أن نتخطّاها ، ها نحن محمولون على التوقّف عندها . كالسيّاح الذين يتوقّفون عند يافطة كتب عليها « الجبل الأبيض » ظانّين أنهم وصلوا الى قمّة الجبل الأبيض . وبالتباسات كهذه خلقوا « اللاهوت الخيالي » حول القيامة العامّة والأجساد الممجّدة والزمان والكوارث الكونيّة في نهاية العالم ..

« وأظهر له ذاتي »

ربّما تقولون : لماذا استعمل الله هذه اللغة الرمزيّة بدلاً من أن يكشف لنا بكلام واضح ما أراد أن يوحيه لنا ؟

ـــ أولاً : من حقّ الله أن يكون شاعراً وان يتمنّى لنا أن نكون

هاءنذا واقف على الباب أقرع . فإن

سمع أحد صوتي وفتح الباب ادخل إليه واتعشّى معه وهو معي . من غلب فإنّي أوتيه أن يجلس معي على عرشي كما غلبت أنا وجلست مع أبـي على عرشه . (رؤ ٣/٢٠ — ٢١) .

وجدانيين وأذكياء .

ثـم ، وعلى الأخصّ ، ماذا يمكنكم أن تقولوا «بكلام واضح» للولد قبل ولادته والذي — والاختبار يعلّمنا ذلك — يقدر أن يسمعكم في حشا أمّه ، ما الذي تقولون له عن الحياة التي تنتظره ؟ فلنفرض أنّه يفهم لغتكم ، فكلامكم لا يعني له شيئاً مطلقاً ، لأن ليس لديه أية خبرة عن عالمنا . لا يقدر أن يبدأ باكتشافه إلاّ عندما «يأتي إلى العالم» .

فالله الذي يريد أن يحرّك رجاءنا وفرحنا لم يكن بإمكانه أن يحدّثنا عن العالم الثاني إلا برموز بسيطة مأخوذة من اختبارنا لهذا الجانب من العالم . مثلاً : بوق التجمّع والقبور المفتوحة واجتماع الوليمة الكبرى وعيد العرس وحبّه والعشاء الحميم وخبز المشاركة وفرح الخمر الجيّدة والحصاد وتنقية الحبّ الجيّد والنار التي تحرق ليل نهار النفايات في وادي جهنّم جنوبي أورشليم .. يوجد هنا على كلّ حال أكثر من قضيّة صور... هذه الحقائق التي هي الصداقة والحب والأبوّة والأمومة والبنوّة والصفح والتجمّع والعيد والعرس .. حقائق الإتحاد هذه هي على اتصال مباشر وان غير كامل بحياة الله : «المحبّة من الله : ومن يحبّ هو مولود من الله ويعرف الله .. لأنّ الله محبّة» (١ يو ٤/٧ — ٨) .

وأكثر من ذلك : لكوننا مخلوقين على صورته ومثاله ومخلوقين من جديد في النعمة التي تجعلنا أبناء في الابن الذي صرنا معه واحداً ، فلدينا نوع من اختبار الله والحياة البنويّة ، اختبار متقطّع طبعاً وكلامه تمتمة لكنّه **منذ الآن** يشبعنا . مرات عدّة ، يتّحد الروح القدس الحالّ فينا بصلاتنا فنروح نصرخ «أبانا» حيث «**الروح ذاته يشهد فينا أنّنا أبناء الله**» (روم ٨/١٥ — ١٦) . وعد يسوع موجّه لمن يريده : «من يحبّني يحبه أبي وأنا أحبّه **وأظهر له ذاتي**» (يو ١٤/٢١) . إذا ما استسلمنا للإيمان وللصلاة ، فكثيراً ما نشعر بنشوة حضور يملأنا ،

وبما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه الى قلوبكم داعياً أبّا ، أيها الآب . فلست بعد عبدا بل أنت ابن ، واذا

يضجّ فينا ، يرافقنا مدة ، ونجده ، في الإيمان ، من وقت الى آخر كما يجد الولد أباه ، كما يجد الصديق صديقه ، كما يجد الزوج زوجته ، والعكس بالعكس ..

كنت ابناً فأنت وارث بالله . (غلا ٤/٦ — ٧) .

هذا لا يمنع أن تكون الهامات كهذه : «نحن شركاء الطبيعة الالهية» (القدّيس بطرس) ، «شبيهون بالله» (القدّيس يوحنا) ، «سوف نراه وجهاً لوجه» (القدّيس بولس) حقائق أكيدة تسطع إلى حدّ أنّ أعين البوم — اعيننا — تُبهر عن رؤيتها ..

خلود النفس :

«كنّا قد بلغنا المدافن .. أذكر صوت الازهار يرمونها فوق الأخشاب . ثمّ أول رفش من التراب ذات الصوت الأجشّ القاسي الذي ينتهي منقطعاً رقيقاً كلّما تدحرج التراب على الخشب . كنا وحدنا في العالم : أنت النائم وأنا الواقفة . كان نظري يخرق الخشب والرصاص . ولكنت أعطيت كلّ ما في العالم ، أقول كل شيء ، لأراك تقوم حياً ، لأتنزّه معك على الرابية كما كنّا نصنع عادة . مدّة عشر دقائق لا أكثر . وليأت الموت بعدئذ والعذاب وغير ذلك ؛ فالمهمّ هو أن أراك .

«لأول مرة في الحياة طلبت المستحيل . بعد أيّام سألني أحد أولادي : «أنت يا من تقدرين على كلّ شيء ، دعيه يرجع يوماً واحداً ، لا شيء سوى يوم واحد ؛ فنعيّد ذلك اليوم ونكون عقلاء . فيرى أنّنا سعداء» . فشرحت له عدم امكانيّتي وفهمت أن ولدي اكتشف معنى «اللاعودة» وانه ، مثلي ، لم يتمكّن من احتمال هذه الفكرة» (آن فيليب) .

هذه هي كلمات آن فيليب أمام ضريح زوجها الحبيب ، جيرار فيليب الفاتن الذي غادر الحياة بعد مرض بضعة أسابيع في زهرة

العمر..

بدون الإيمان ، أجمل حبّ في العالم لا يمكنه إلاّ أن يتحطّم أخيراً في اليأس . هذا هو معنى « الأسف الأبدي » — الأبدي ! — الذي نقرؤه على المقابر التي بناها من لا رجاء لهم .. عبارة تناقض ذاتها من جهة ثانية : فإن كان أسفي أبدياً ، فذلك يعني أنّني سوف أعيش الى الأبد لكي أتأسّف : امّا وكلنا مائتون ، فلا يوجد أسف من قبل أحد على أحد .

الفجر يتأخر مجيئه

سوف نلتقي : هذا هو الرجاء المسيحي الوطيد . « ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر العتيد » . هذا ما نؤكّد عليه منذ قيامة يسوع المسيح . هذا ما تبشّر به كتابات القرنين الأخيرين قبل مجيء المسيح .

أقول : « القرنين الأخيرين » . نكاد لا نصدّق جهل العبرانيين في العهد القديم لما يتعلّق بما وراء الموت . طيلة ستّة عشر قرناً من التاريخ المقدّس ، كانت كل أضواء الوحي مسلّطة على الله . وفي الأيام المتأخرة — حوالي ١٥٠ قبل المسيح — انطلاقاً من شعور مرهف بعدالة الله وصلاحه ، تسلّط قبس من نور ، بطريقة صريحة ، على الحياة الثانية .

كتابة لحزقيا ملك يهوذا حين مرض وأفاق من مرضه ، قلت أنّي في منتصف أيّامي ذاهب إلى أبواب الجحيم وقد حُرمت بقية سنّي : قلت لا أرى الرب في أرض الأحياء ، ولا أنظر البشر بعد عند سكّان الفانية .. فإن الجحيم لا تعترف لك والموت لا يسبّحك والذين يهبطون الى الجبّ لا يرجون حقّك . بل الحيّ الحي هو يعترف لك كما أنـا اليوم . (أشعيـا ٩/٣٨ ..) .

كتاب أيّوب ، وهو من القرن الخامس قبل المسيح ، يشذّ عن القاعدة عندما يصرخ (١٩/٢٥ — ٢٧) :

« إني لعالم بأنّ فاديّ حيّ وسيقوم آخراً على التراب . وبعد ذلك تلبّس هذه الأعضاء بجلدي ومن جسدي أعاين الله » .

فلنفرض أنّ هناك شعوراً مسبّقاً غامضاً وعابراً ، فالكتاب يناقض هذا الشعور في أماكن عدّة . مثلاً ١٤/٧ ..

للشجرة رجاء فإنّها اذا قطعت تخلف أيضاً وفراخها لا تزول ..

أما الرجل فإذا مات لبث هناك. والإنسان متى فاضت روحه فأين يوجد؟ البحر تنفذ مياهه والنهر ينضب ويجفّ : والإنسان يضجع فلا يهب الى أن تزول السماوات. لا يستيقظون ولا ينبعثون من منامهم » . فيجب ألاّ نتشكّك عندما يشدّد الآباء وأصحاب المزامير والأنبيـاء على القيـم الزمنيّـة : الغنى الماديّ ، طول العمر ، الخصب ، النسل الكثير ، بقاء الصيت والمجد ، الثأر المباشر.. فهم لم يكونوا ينتظرون مكافأة أو عقاباً بعد الموت .

الأبرار يحيون الى الأبد

سنة ٣٣١ قبل المسيح ، حمل الاسكندر الكبير الثقافة الاغريقيّـة الى الأرض المقـدّسة . وبـالمقـابـل انتشر اليهود في الامبراطورية ، وبخاصة ناحية الاسكندرية القريبة . هكذا أثّرت الفلسفة الإغريقية في كتب الحكمة المتأخّرة ، وبخاصة سفر الحكمة .

عاش واضعه في الاسكندرية حوالي سنة الخمسين قبل المسيح . وهو متشبّع من الفكر الاغريقي . والروح القدس ، الذي يختار ادواته ويستعملها كما هي ، سوف يستفيد من افلاطونيّته ليلهمه وحياً أكيداً وجديداً حول الحياة الأخرى : «ليس الكفّار على حقّ عندما يفكّرون هكذا في ذواتهم : لم يرجع أحد من مثوى الأموات.. لقد ولدنا صدفة وسنكون يوماً كمن لم يوجد أبداً.. سيعود الجسد الى التراب والروح سينحلّ كنسيم لطيف»... الذين يتكلّمون هكذا لا يعرفون أسرار الله.. **فقد خلق الله الإنسان خالداً** (١/٢ — ٢٣) . وكتلميذ صالح لافلاطون ، يميّز الكاتب الملهم بين الجسد والروح أو النفس ، ويبشّر **بخلود النفس** :

« أما نفوس القدّيسين فهي في يد الله فلا يمسّها العذاب . وفي ظنّ الجهّال أنّهم ماتوا وقد حسب خروجهم شقاء وذهابهم عنّا عطباً . أما هم ففي سلام... ورجاؤهم مملوء **خلوداً**.. وبعد تأديب يسير ، لهم ثواب عظيم» (١/٣ — ٥) .

« الخلود » ! لأول مرة تذكر هذه الكلمة في الكتاب . النفس لا تموت . وموت في الشباب لم يعد يعتبر قصاصاً : « فإنّه وان تعجّله الموت ، يستقرّ الصدّيق في الراحة » (٤/٧) . « أما الصدّيقيون فسيحيون الى الأبد . وعند الربّ ثوابهم ولهم عناية عند العلي . فلذلك سينالون ملك الكرامة وتاج الجمال » (٥/١٥ — ١٦) .

نصوص الحكمة هذه تشبه فلسفة أفلاطون . أية فلسفة ؟ الإنسان مركّب من عنصرين مختلفين تماماً : النفس والجسد . النفس روحية ، إذا غير فاسدة من طبعها ، إذاً غير مائتة ، كما نحبّ أن نؤمن ، والجسد مادّي ، إذا فاسد ، مائت ، والتحقق من هذا أسهل . وليس الاتحاد بين النفس والجسد طبيعياً . بل على العكس :

« جسد فاسد يثقل النفس ، هذا الغلاف الترابي يخفض الروح الكثير الهموم » (٩/١٥) .

والموت هو انفصال النفس عن الجسد ، فيعود الجسد إلى التراب وهذا أفضل انعتاق للنفس ! فتعيش النفس الى الأبد وقد تحرّرت من الجسد ، لأنّها **غير مائتة** من طبعها ، يقول أفلاطون ، وتقول الحكمة ، لأنها غير مائتة **بنعمة الله** .

ما يؤكّده الروح القدس هو إذاً الحياة **بعد الموت** ، **الخلود** ، **الأبدية السعيدة** .

نأخذ على هذه النظريّة أنّ تعليمها فيما يتعلّق بالآخرة فردي ويختص بالأبرار فقط . فهي تجهل معنى المغامرة البشرية ككلّ . وهي تحتقر الجسد والكون... لكنّ الروح ، وهو المربّي الحكيم ، يسير خطوة خطوة .

وليقدّسكم إله السلام نفسه تقديساً كاملاً ولتحفظ أرواحكم ونفوسكم وأجسادكم سالمة بغير لوم عند مجيء ربّنا يسوع المسيح . (١ تسا ٥/٢٣) .

وهو كمربّ ، يكلّم الناس بلغتهم : في الاسكندرية ، يقبل بأن يعبّر بمقولات غير عبريّة .

في نص انجيلي واحد ، يجعل متّى السيد المسيح يعبّر بالمقولات الافلاطونية ذاتها : « لا تخافوا ممّن يقتل الجسد ولا يمكنه أن يقتل النفس . خافوا خاصّة ممّن يمكنه أن يقتل النفس والجسد في جهنّم » (١٠/٢٨) . وفي الرسالة الثانية الى الكورنثيين (٥/١ — ١٠) يميّز بولس ذاته عن جسده : « نحن الذين في جسد يشبه الخيمة » . هذه اللغة الثنائيّة تأتيه من أفلاطون وليس من الكتاب المقدّس ، لكنّه يعبّر عن إيمانه بواسطتها ويجعل سامعيه ، وهم من اليونانيين ، يفهمون بطريقة أفضل .

ولماذا هذا ؟

ومع ذلك فهذه الثنائيّة الافلاطونيّة ، التي تضع الجسم من جهة والنفس من جهة ، لا تعبّر كما يجب عن الواقع الانساني وفي الوقت عينه عن الوحي فيما يخص العواقب الأخيرة . فالجسد لا يُعطى كلّ أهميته ، واذ يضيع الاتزان ، يخشى من أن نقع في المذهب الروحاني . وهكذا نخطيء في تقويمنا الإنسان . الكشف عن خلود النفس يخلق رجلاً من الاسكاتولوجيا بينما لا تزال الرجل الأخرى ناقصة . وما دام هناك رجل ناقصة ، فالأمر لا يسير كما يجب . تنقص قيامة الأجساد .

وان الربّ الإله جبل الإنسان من تراب الأرض ونفخ في انفه نسمة حياة فصار نفساً حيّة . وغرس الربّ الاله جنّة في عدن شرقاً وجعل هناك الإنسان الذي جبله . (تك ٢/٧ —٨) .

لاعادتها ، يظنّ البعض أنه يكفي أن نتصوّر أنّ انفصال النفس الخالدة عن الجسد المائت ليس سوى شيء عابر وانّ قوة الله سوف تقيم الجثث في نهاية الأزمنة ليتمكّن الجسد من مشاركة النفس مصيرها إلى الأبد للخير أو للشر .

لكن في الواقع ، كثيرون من المثاليّين و« الروحانيين » لا يهمهم أن ينضمّوا الى أجسادهم . فهم لا يأبهون كثيراً بالقيامة . ويحدّد القدّيس اغوسطينوس ، شفيع الافلاطونيين ، الإنسان : « نفس عاقلة تستخدم جسداً » . نودّ لو نسأله : « لماذا هذا ؟ » . بما أن لا جواب على هذا السؤال ، فإنّ بعض اللاهوتيين منذ حوالي ثلاثين

سنة لم يروا في قيامة المخلّص سوى شيء من الزخرفة : فآلامه وموته كافيان لخلاص « النفوس » !

لسوء حظهم ! ولحسن حظّنا ! الجواب بسيط : بدون جسم لا نفس ، لأنّ نفساً لا تحيا شيئاً ليست بنفس ، ليست شيئاً . ليس الإنسان نفساً . بل هو إنسان أي **جسد تحييه نفس** . من هنا أهميّة قيامة الأجساد الفريدة .

قيامة الأجساد

اقرأ ما كتبت آن فيليب ، أمام جيرار المائت ، وقل لي ان كنت لا تفكّر مثلها :

« أحببتك الى حدّ لا أقبل معه بأن يضمحّل جسدك وبأن أكتفي بنفسك لأنها حيّة . ثـم كيف يمكن فصلها والقول : هذا هو جسده وهذه نفسه ؟ ابتسامتك ونظرتك ، مشيتك وصوتك ، هل كانت هذه مادة أم روحاً ؟

الاثنان ، ولكن **دون انفصال** (ص ٤٨) .

لا ينفصلان

أليس هذا ما نشاهده كل يوم ؟ لقد اختبرنا كيف يموت الناس . واختبرنا وجود جثّة أمامنا . لكن الجثة ليست جسداً بشرياً . فعند موت الجسد ، لا يوجد أي اختبار يسمح لنا بالتفكير بأنّ النفس لم تمت هي أيضاً . اكسروا قنديلاً كهربائياً ، فنوره لم يطر الى محل آخر : فهو ليس شيئاً بدون الاسلاك المضيئة ، ليست سوى توهّج هذه الأسلاك . هكذا القول عن النفس في الجسد . هكذا صحّح أرسطو الانتروبولوجيا الافلاطونيّة (انتروبولوجيا تعني علم الإنسان) . النفس هي الشيء الذي به **يحيا الجسم البشري** ويشعر ويفكّر . فكيف تقدر نفس ان تحيا وتشعر وتفكّر بدون جسم ؟ الفلاسفة المعاصرون

يلتقون على هذا الصعيد مع أرسطو والقديس توما ؛ يلتقون بالاختبار المألوف . فلا يمكنني القول : **عندي** نفس ، **عندي** جسد ، كشيئين أنا أملكهما . يجب الغاء كلمة « عندي » وابدالها بكلمة « **أنا** » . **أنا** « روح وجسد » . وبدون هذا « الروح — الجسد » ، لا يوجد أي « أنا » . يصبح الأنا غير موجود ... كما أنّني لا أقدر أن أقول : انا نفس . اذ النفس هي حياة الجسد .

النظرة الاغريقيّة والنظرة الكتابيّة

ان هذه الانتروبولوجيا الحديثة ، التي شعر بها أرسطو والقدّيس توما ، تلتقي تماماً والانتروبولوجيا الكتابية . هكذا كان يفكر العبرانيّون اذ كانوا رجال اختبار . من خلال هذه النظرة الكتابيّة للإنسان والموت ، تأخذ القيامة مكانها ، وأي مكان !

« الفكرة الكتابية حول القيامة لا تشبه بتاتاً فكرة الخلود الاغريقية . **في نظر الاغريق** ، نفس الإنسان ، غير القابلة الفساد من طبعها ، تدخل في خلود الله ، منذ أن يحرّرها الموت من قيود الجسد . **في نظر الكتاب المقدّس** ، الشخص البشري بكامله معد في حالته الحاضرة للوقوع في سلطة الموت : فتصبح النفس سجينة الجحيم بينما يفسد الجسد في القبر : لكن هذا ليس سوى حالة عابرة ينهض منها الإنسان حياً بنعمة الهية ، كما ينهض من الأرض حيث سقط ، كما يستيقظ من نوم دخل فيه . (قاموس اللاهوت الكتابي) .

قيامة الأموات

أيها الرب إله خلاصي ، في النهار صرخت وفي الليل أمامك . لتبلغ صلاتي الى أمامك ، أمل اذنك الى صراخي . فقد شبعت من البلايا

لكن فكرة القيامة في العهد القديم متأخّرة بقدر ما هي متأخّرة فكرة خلود النفس . والتعبير الأول الواضح بهذا الصدد ظهر قبل المسيح بقرنين في الفصل الثاني عشر من دانيال : « وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبديّة وبعضهم للعار والرذل الأبدي... وانت اذهب الى الانقضاء

نفسي ودنت من الجحيم حياتي.. حرا بين الأموات صرت مثل القتلى الرقود في القبور الذين لا تذكرهم بعد وهم عن يدك منقطعون. (مز ٢/٨٧ — ٦).

وستستريح وتقوم في قرعتك الى انقضاء الأيام» (٢ ، ١٣).

بعد دانيال بقليل ، هاكم شهادة سفر المكابيّين الثاني ، الفصل السابع . نحن في عصر اضطهاد مريع يحركه انطيوخوس ابيفانوس ضد اليهود . وعبّاد الله يسلمون الى الموت بسبب ايمانهم . ولكن أليس الله ربّ الحياة ؟.. مات الشهيد الأول ؛ فصرخ الثاني : «ملك السماء سوف يقيمنا لحياة أبدية» . والثالث ، وقد مدّ لسانه ويديه للعذاب ، أوضح قائلاً : «هذه الأعضاء أخذتها من السماء لكن لأجل شريعة الله أنا أحسبها كلاشيء . لأني أرجو أن استعيدها من عنده» . والرابع : «الأفضل أن أموت بيد الناس اذ أنّي انتظر القيامة التي وعد بها الله» .

لم يكن واضعو كتابي دانيال والمكابيين يفكّرون مطلقاً بنفس خالدة تنفصل ساعة الموت وتذهب الى السماء . فالإنسان ، في نظرهم ، جسد أعطاه الله «نفحة حية» . النفحة الحيّة هي الحياة . لكن لا وجود للحياة في ذاتها : الحياة هي حياة جسد أو ليست شيئاً . اذ لا يوجد حياة بل أحياء . عند موت الإنسان ، يعود الجسد إلى الأرض حيث يفسد ويصبح تراباً ، والنفحة الحيّة تهبط إلى الجحيم أي تضيع في حالة اللاوعي ، في نور مظلم . «فالله ذاته لا يعود يذكرهم ، إذ هم عن يده منقطعون» (مز ٦/٨٨) .

فالموت إذاً بطبيعته هو المأساة التّامة التي لا رجوع عنه . انه يهلك الإنسان من جذوره نفساً وجسداً .

هنا نفهم كل ما تمثّل لدانيال وللمكابيّين ، كل ما يجب أن تمثّل لنا ، هذه الحياة بعد الموت . **ليس فقط خلوداً للنفس بل قيامة للأجساد** . أيّة قيامة ؟ لا عودة نفس خالدة الى جسدها بل عودة الإنسان بكامله الى الحياة . افنعجب إذا كان هناك كثيرون من اليهود معاصري يسوع ، وبخاصة الصدّوقيون ، وهم أعضاء الارستقراطية

الكهنوتيّة ، «يزعمون أن لا قيامة للأموات» (متى ٢٢/٢٣) ؟

«بكر القائمين من الموت»

ومع ذلك ، فهذا هو الرجاء الوطيد للمضطهدين في اسرائيل في القرنين اللذين سبقا مجيء المسيح .

السبب : الله عادل ، الله محبّة . يقول صاحب المزمور السادس عشر لله : «لا يمكن أن تدع صفيّك يرى الفساد». بتعبير آخر : تحبّني إلى حد أنّك لا تستطيع أن تسلّمني الى الموت وتعيش بدوني إلى الأبد . وصاحب المزمور ٧٣ : «أمسكتني بيميني» وسوف تأخذني في المجد . يا صخرة قلبي ونصيبي . يا الهي ، الى الأبد ! » أي : أحبّك الى حدّ أنه مستحيل ألاّ أحبك إلى الأبد . وهذه الصداقة التي خلقتها ، لم تخلقها لتحطّمها ... إذ «الحبّ أقوى من الموت» (نشيد ٨/٦) .

لـذلك فرح قلبي وابتهج مجدي وجسدي أيضاً سيسكن على الرجاء ، لأنّك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تـدع قـدّوسك يرى فساداً . قـد عرفتني سبـل الحياة وتملأني فرحاً مع وجهك ولي من يمينك لـذّات على الـدوام . (مز ١٥/٩ — ١١) .

لكن ليس باستطاعة أحد أن يمنح ذاته هذه النفحة الإلهيّة التي تجعله يجوز الموت الى شاطىء الحياة الآخر . نفحة الحياة البشريّة تنطفىء على هذا الشاطىء الزمني . فيجب أن يأتي الروح القدس فينوب عن مبدأ الحياة البشري المائت بحيث أنّ الروح يصبح حقاً روحنا ، نفحتنا الشخصيّة بالذات .

هذه هي عطيّة العطايا التي ظهرت بوضوح ونهائياً في قيامة يسوع المسيح . ففيه هو ، آدم الجديد ، تتحقّق هذه الحياة بعد القيامة وتظهر وكأنّها مصير كل انسان . يقول القدّيس بولس : «بلغتّكم كلّ ما تلقّيته ، وهو أن المسيح مات لأجل خطايانا كما جاء في الكتب ، وانّه قبر وقام في اليوم الثالث كما جاء في الكتب ، وانّه تراءى لصخر فالاثني عشر ثم تراءى لأكثر من خمسمئة أخ معا لا يزال معظمهم حياً وبعضهم ماتوا ، ثمّ تراءى ليعقوب ، ثم لجميع الرسل . حتى تراءى لي أخيراً» (١كو ١٥/٣..) .

قد توغّر قلبي وانتخست في كليتي . وانا غبي لا علم عندي . قد صرت عندك كالبهائم وأنا معك في كلّ حين . أنت أخـــذت بيميني . بمشورتك تهديني ومن بعد الى المجد تأخذني .. (مز ٧٢/٢١..)

هذه النقطة هي ركيزة الإيمان ، قانون ايمان الكنيسة الأولى . لأنّ قيامة يسوع المسيح هذه تدشّن **المستقبل الموعود به الإنسان** .

« ولا نريد يا أخوتي ، أن تجهلوا مصير الأموات .. نحن نؤمن أنّ المسيح مات ثم قام . فكذلك نؤمن بأنّ الذين ماتوا في المسيح سينقلهم الله إليه » (١ تسا ٤/١٣ — ١٤) . وحقاً « **لقد قام المسيح من الأموات وهو باكورة الراقدين** » (١ كو ١٥/٢٠) . باكورة أي أول ثمار الأرض أو المزرعة . بهذه العبارة المصوّرة ، أراد بولس أن يشدّد على أن قيامة المسيح وقيامة الذين رقدوا مثله في الموت هما متكاملتان . « فالمسيح أولاً لأنّه الباكورة ، ومن بعده الذين يكونون خاصة المسيح عند مجيئه » (٢٣) . فكما أنّ القطاف الأول يبدأ أو يبشّر ثم يمر القطاف كلّه ، هكذا فقيامة المسيح تبدأ وتبشّر ثم تأتي قيامة جميع الناس . والذي أقام يسوع الناصري يقيمنا نحن أيضاً مثله . إذ لم يأخذ حياتنا وموتنا البشريّين إلا ليكون « بكر القائمين من الموت » (كولسي ١/١٨) ؛ « أول من قام من الموت » (أعمال ٢٦/٢٣) ؛ « أمير الحياة » (٣/١٥) . « **كما أن الجميع يموتون في آدم ، فكذلك سيحيون في المسيح** » (١ كو ١٥/٢٢) .

قيامة الأجساد

يعلن قانون الرسل إيمان الكنيسة بعبارة غير كتابية : « قيامة **الأجساد** » . يتكلّم العهد الجديد على « القيامة التي من بين **الأموات** » ونادراً عن « **الجسد** القائم من الموت » . لكنه لم يتكلّم أبداً على « قيامة الأجساد » . ويقول قانون نيقيا — القسطنطينية : « وننتظر قيامة **الموتى** » . لماذا في القانون القصير بدلت هذه العبارة بكلمة « جسد » ؟

وانّ توما أحد الاثني عشر الذي يقال له التوأم لم يكن معهم حين جاء يسوع . فقال له التلاميذ الآخرون :

أولاً : لأنّ كلمة جسد هي من صميم الكتاب ، وان كانت عبارة « قيامة الأجساد » غير كتابية . ثم ، وبنوع خاص ، منذ بدء الكنيسة ، كان هناك جماعة الروحانيين المتأثّرين بأفلاطون أكثر مما

كانوا متأثّرين بالإنجيل. فلم يكونوا يؤمنون إلاّ بحياة النفس بعد الموت. فكان هذا احتقاراً للمادّة ولخالقها وجهلاً لجوهر الإنسان ورفضاً ليسوع القائم من الموت كما ظهر. فكانت ردّة الفعل ضرورية. راجعوا الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب. بعد قيامته، لم يظهر يسوع كروح محض. فالقبر الفارغ يدلّ على أنّ الجسد حي. فالإنسان ليس ملاكاً ولن يكون أبداً ملاكاً. بدون جسد لا يوجد انسان. والواقع أنّ يسوع القائم من الموت هو إنسان. فقد رآه تلاميذه بعيونهم هنا وهناك وفي غير مكان. والنساء القدّيسات عانقن رجليه. وأكل في حضرة الاثني عشر. ودعا توما إلى أن يمسّه، هذا يعني أن باستطاعة توما أن يمسّه.. ولو لم يكن باستطاعته أن يمسّه، لما كان باستطاعته أن يراه ويسمعه. فالحواس هنا متساوية! لا يقولنّ أحد: «هذا يشبه ما يجري في لورد: لم ير أحد العذراء القديسة سوى برناديت: «الجسد الممجّد هو غير هذا. إنه **يظهر ذاته لمن يريد** ويجعل الشخص **الذي يريد** يمسّه، **وليس سواه**. سنعود الى هذه النقطة. لكنّ الجسد الممجّد هو حقاً جسد «لحم» والاّ لما كان هناك قيامة بل خلود النفس.

قد رأينا الربّ. فقال لهم: ان لم أعاين أثر المسامير في يديه واضع اصبعي في جنبه لا أؤمن. وبعد ثمانية أيام كان التلاميذ أيضاً داخلا وتوما معهم فأتى يسوع والأبواب موصدة ووقف في الوسط وقال: السلام معكم. ثم قال لتوما: هات اصبعك الى هنا وعاين يديّ وهات يدك وضعها في جنبي ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً. أجاب توما قائلاً: ربي والهي. قال له يسوع: لأنّك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين لم يروا وآمنوا. (يو ٢٠/٢٤ — ٢٩).

فضد جميع الروحانيين القديمين والمحدثين، يشدّد قانون الإيمان على حقيقة القيامة الحسيّة: «لحم» أي جسد.

فما معنى «جسد» في لغة الكتاب والكنيسة الأولى؟

«الكلمة تعني أساساً الناحية الماديّة للجسم الحي. جسد الحيوان الذي يقدّم ذبيحة (إرميا ١١/١٥) ويأكله الناس (تك ٩/٤). جسد اعدائه، أي جسمهم، سيمزّقه جدعون (قضاة ٨/٧) (كازيل في كاثولسيسم).

وبمعنى أوسع هذه الكلمة تعني الطبيعة البشريّة: «كلّ جسد هو كالعشب الذي يذوي». «كل جسد سوف يرى خلاص الله» أي «كل إنسان». وهكذا نجد الانتروبولوجيا الساميّة:

« في نظر العهد الجديد والعهد القديم ، لم يُفهم الإنسان كمركّب من عنصرين مميّزين : المادّة (الجسد أو اللحم) والصورة (النفس) التي تحييه . بل يُفهم الإنسان في وحدة كيانه الشخصي . فالقول انّه جسد يميّزه بالنسبة إلى ظاهرة الجسدي الأرضي ، أي بالنسبة إلى ما يجعله يعبّر عن ذاته عبر هذا اللحم الذي هو جسده مميّزاً الشخص البشري في حالته الأرضيّة (قاموس اللاهوت الكتابي) .

(في كتابات بولس ، كلمة جسد تعني أيضاً الضعف الأدبي وحياة الخطيئة . « أعمال الجسد » تضادّ إذاً « أعمال الروح » . لكن لا محلّ لهذا المعنى هنا) .

قيامة الأجساد هي إذاً بعد الموت ، في حياة أخرى ، نهوض الكائن البشري بكامله وليس المادّة وحدها بدون الروح ، ولا الروح وحده بدون المادّة . فإن كان كلمة الله قد تجسّد ، فليس ذلك لكي يحتقر الجسد ولا ليهدمه طبعاً ، بل ليخلّصه ويمجّده .

نعم ، هذا أنا بالذات !

تعني القيامة أن الكائن ذاته ، الجسد الحي ذاته ، الجسم الحي ذاته الذي ظهر لأوّل مرّة في حالة الحياة الحاضرة المائتة ، هو ذاته ينهض في حياة جديدة . هذا بند من الإيمان :

« **سوف يقومون جميعهم في أجسادهم التي يعيشون فيها الآن** » ، هكذا يعلن المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥) — ومجمع ليون الثاني (١٢٧٤) : « **نؤمن بقيامة هذا الجسد ، الذي هو الآن جسدنا ، قيامة حقيقية** » . فالموت إذاً لا يشبه بشيء حيلة الذين يهربون ، الذين يتركون سيّاراتهم المشبوهة ، وقت عمليّة السلب ، ليقفزوا في سيارة أخرى بريئة لا تلفت الأنظار .

وقف يسوع في وسطهم وقال لهم : السلام لكم لا تخافوا أنا هو . فاضطربوا وخافوا وظنّوا أنّهم يرون روحاً . فقال لهم : ما بالكم مرتعدين ولماذا ثارت الأوهام في قلوبكم ؟ انظروا يديّ ورجليّ . انّي أنا هو . جسّوني وانظروا . فإنّ الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لي . وعند قوله ذلك ، أراهم يديه ورجليه . واذ كانوا غير مصدّقين بعد من الفرح ، ومتعجّبين قال : أعندكم هنا طعام ؟ فأعطوه قطعة

« هناك حدث صريح . جسد يسوع القائم من الموت هو هو ذاته الذي كان له قبل موته ، الجسد الذي تألّم . لا شكّ في أنه أصبح في حالة جديدة ، قادراً على التحرّك كما يريد ، غير خاضع للمكان ولا لجاذبيّة الأرض . ومع هذا فهو ليس جسد شبح .. بل هناك ، بطريقة سريّة ، استمرار بين حالته الآن وما كان عليه سابقاً .. هذا الاستمرار أثار بعض الشكوك . فالبعض رأى في اخراج الظهورات هذا تعبيراً فظاً ومتأخّراً لإيمان ساذج وغير روحاني .. لكن هذا الإيمان المسيحي برهن على العكس عن فهم روحي غريب إذ أوّل تأكيد مسيحي هو أنّ يسوع رب عن يمين الآب (أعمال ٢/٣٣ــ ٣٦) . والميل الطبيعي ، لو كانوا قد توهّموا عودة يسوع ، كان أن يظهروه في مجد الهي يشعّ بنور لا تطيقه الأنظار .. بينما يسوع بقي هو هو .. يريد أن يبيّن لهم أنه لم يتغيّر وان له ليس فقط جسداً يمكن لمسه بل أيضاً حركات يعرفونها لديه ... فاستمراريّة الجسد تأخذ هنا كلّ معناها . فهي طبيعية في الوقت الذي بقي فيه يسوع الإنسان الذي عرفوه » (جاك كيّاه) .

وهكذا تمكّن يسوع القائم من الموت من أن يقول للرسل : « أنظروا يديّ ورجليّ : نعم هذا هو أنا . المسوني . واعلموا أن ليس للروح لحم ولا عظم كما ترون لي ... هل لديكم شيء يؤكل ؟ » وأكل أمامهم . قد يقول بعض المتفذلكين أنّ ذاك لم يكن سوى رموز !.. رموز ماذا ؟ رموز روح محض ؟ رموز مضحكة حقاً ..

من سمك مشويّ وشهد عسل . فأخذ وأكل أمامهم . ثم أخذ الباقي وأعطاهم . (لو ٢٤/ ٣٦ــ ٤٣) .

عندما نقوم مع يسوع ، سنقول كما قال : نعم ، هذا أنا .. وكلمة « أنا » تعبّر عن كياني التام ! جسد تحييه نفس . لأنّني سوف أقوم بجسدي . هل هذا ممكن ؟

يسقط رجل في البحر ويبتلعه حوت . يصطاد الصيّادون الحوت ويأكلونه . فكيف يقدر الرجل الأول أن يستعيد جسده .. الذي أصبح جسد الذين أكلوه ؟.. لقد بعد الزمن حيث كان اللاهوتيون

يتعبون في التفكير بهذه المعضلات . تعلّمنا البيولوجيا العصرية ان ذاتية الجسد لا علاقة لها بوجود هذه القطع من المادّة في أجهزته تحمل رقمه . فالجسد يجدّد دائماً مادته كما يجدّد الينبوع دوماً ماءه . ويقدّرون أنّه في مدّة ستّة أشهر تقريباً ، كل خلايا الجسم البشري ، حتّى خلايا العظام ، تستبدل بغيرها .

ومع ذلك فالولد الذي أنظر الى صورته هو أنا رغم العشرين أو السّتين سنة التي تفصلنا : سمات الوجه ، علامة فارقة ، أثر الجرح بعد حادث ، كل هذا لا يزال قائماً . الخلايا تمرّ والمادة تستبدل كماء النهر القديم . لكنّ جسدي يبقى كالرون أو اللوار . لأن « جسدي » هو الكون بكامله الذي منه آخذ دوماً الغذاء والشراب والاوكسجين والنور والحرارة والإشعاعات .. بينما أترك له نفاياتي وخلاياي العتيقة والغاز الكربوني .. فنحن على تبادل دائم للذرّات والجزئيّات . وأخيراً بعد ثلاثين أو ستّين سنة ، أيّ جزء من المادّة أو الأشعّة لم يكن جسدي الخاص ؟

قد يقول قائل : كيف يقوم الأموات وبأيّ جسدٍ يظهرون . يا جاهل ، ان ما تزرعه لا يحيا إلا إذا مات . وما تزرعه ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون ، بل مجرّد حبّة من الحنطة أو غيرها من الحبوب . إلاّ أنّ الله يعطيها جسماً حسبما شاء ولكلّ من البزور جسمه المختص به .. فأقول هذا أيّها الاخوة ، ان اللحم والدم لا يستطيعان أن يرثا ملكوت الله والفساد لا يرث ما ليس بفاسد . ها أنا أكشف لكم سرّاً : انّنا سنقوم كلنا ولكن لا نتغيّر كلّنا . في لحظة وطرفة عين ، عند البوق الأخير ، سيقوم الأموات عادمي الفساد ، ونحن نتغيّر . لأنّه لا بدّ لهذا الفاسد أن يلبس عدم الفساد ولهذا المائت أن يلبس عدم الموت . (١كو ١٥/ ٣٥..) .

ثيابك ، سيّدتي ، ليست فقط ما تلبسين ... يجب أن نرجع الى كلمة تياردي شاردان العميقة هذه : « مادّتي (وجسدي) ليست جزءاً من الكون أملكها تماماً (كشيء ما) . بل هي الكون بكامله أمتلكه أنا جزئياً » .

وباختصار : جسدي هو عناصر الكون أنعشها وفيها أوجد وأظهر والتقي الآخرين وأتكلّم وأسمع وأحيا وأعمل . وان لم تكن عناصر السنة الماضية . وان لم تكن عناصر الأمس . « جسدنا الحقيقي هو الكون بكامله ، الكون كما أحياه » (ادوار لروا) .

« كما أحياه » أي أنا أبقى وان جرى ماء النهر . أنا هو هذا الجسد الجاري والباقي . أنا هو هذا الحيّ الذي يتبدّل دائماً والذي يبقى هو هو والذي يشتري كل يوم ، اذا صحّ التعبير ، العناصر الجامدة

والسائلة والغازيّة التي تشعّ في الكون . أنا بنوع خاص ذلك الحيّ الذي يحافظ على ذاتيته لأنّ الذكريات والعادات والمعلومات والاختبارات والاختيارات التي رافقتني مدّة حياتي تسجّلت على الشريط الصوتي السرّي الذي يحمل اسمي ويبقى رغم تبدّل كل هذه الركائز الماديّة .

جثماني سيكون هذا الكون ذاته الى حيث ترجع خلاياي الأخيرة لتنضمّ في الخضمّ الواسع الى التي سبقتها بعد أن كانت نظري ويدي ودماغي وفكري وحبّي ... فقيامة جسدي لن تكون إذاً انعاش جثماني . لن تنطلق من « بقايا » غير هذا الكون . ذاتيّة الأجساد القائمة من الموت لا يجب أن نفتّش عنها على الصعيد الفيزيائي والكيمائي . « قيامة الأجساد التي ننتظرها ستكون تغييراً سرياً للإنسان ككل ، اذ ستتفتّح فينا حقيقة تختلف عن الجسد الأرضي بقدر ما تختلف الزهرة عن الحبّة . ومع ذلك فستكون تفتّح كل ما كان جسدي بحركاته المألوفة والعادات المدوّنة فيه مع كلّ تفاصيل شكله الخارجي . **بأيّة حالة ؟ هذا هو السرّ**. إنّما في حقيقته التامّة (ج. كيّاه) .

كيف ؟ ... متى ؟...

الكلمة الفرنسية التي تعني « القيامة » : تتضمّن حقيقتين مختلفتين : إنعاش جثّة بطريقة سرّية كما حدث للعازر ونهوض من الموت في الحياة الأبديّة للأجساد الممجّدة كما حدث ليسوع المسيح . ولكي نشدّد على هذا الفرق ، نستعمل في المعنى الثاني الكلمة كاسم علم . حالة الجسم المنتعش كحالة أجسام هذه الأرض ونحن نعلم ذلك . إنما حالة الجسد الممجّد الذي وعدنا به في القيامة ؟ يجيب القدّيس بولس : « أيها الجاهل ، هل تعطيك حبّة الحنطة فكرة الحصاد ؟ وهكذا فإنّ جسدنا المائت ليس سوى بذار جسدنا القائم

فإن كنّا نؤمن انّ المسيح قد مات ثم قام ، فكذلك سيُحضر الله الراقدين بيسوع معه ، فنقول لكم بكلمة الرب ! أنّا نحن الاحياء الباقين إلى مجيء الرب لا نسبق الراقدين . لأنّ الرب نفسه عند الهتاف ، عند صوت رئيس الملائكة وبوق الله سينزل من السماء ويقوم الأموات في المسيح أولاً . ثمّ نحن الاحياء الباقين نختطف جميعاً معهم في السحب

لنلاقي المسيح في الجو وهكذا نكون مع ربّنا دائماً. (١ تسا ١٣/٤ -١٦).

من الموت» (١كو ٣٥/١٥..) ويستعمل كلمات حقيرة : سطوع ، عدم فساد ، مجد ، قوّة ... وينتهي بالكلمة الاساسيّة : «يزرع جسد حيواني فيقوم جسد روحاني» .

* «**جسد روحاني**»؟ تناقض في التعبير! كلا . لا يعني الجسد الروحاني جسداً اثيرياً كالغاز ، غير مادّي ، إنّما ، قبل كل شيء ، **هو الجسد بكامله في خدمة الروح** ، متحرّر من المكان والزمان والشعب والغذاء والشيخوخة ، وحاضر لكل من يريد وغائب عن كلّ من يريد ، إنّه وسيلة رائعة للمشاركة وللحبّ الكامل . هو كمنجة كل هيكلها موسيقى .. ثم وبنوع خاص : **جسد لا ينعشه مبدأ حيواني بل الروح القدس** . نحن أمام حقيقة متكاملة وفي الوقت ذاته أمام سرّ تامّ...

* **لكن ، متى ستكون هذه القيامة**؟ للجميع في نهاية العالم؟ أم لكلّ واحد رأساً بعد الموت ، كما ينشر بعضهم هذه الأفكار؟ خطأ قديم قدم الكنيسة : «منهم منايس وفيليبي ، فقد ضلّوا عن الحق اذ زعموا بأنّ القيامة قد أتت وهدموا هكذا ايمان بعض الناس» (٢ تيمو ١٧/٢) . يسوع ذاته يضع القيامة في اليوم الأخير (يو ٣٩/٦..) .

والاّ فالإيمان بانتقال العذراء الذي عيّدت له الأجيال وأعلنه البابا بيّوس الثاني عشر عقيدة ليس سوى «امتياز» (يستعمل بيوس الثاني عشر هذا التعبير) نعمت به العذراء مثل غيرها! كلا . فقانون الإيمان لا يمكن أن نلغيه : «نؤمن بقيامة الموتى والحياة في الدهر العتيد» . ننتظر الباقين ، جميع الباقين ، لأنّ الخلاص جماعي . وننتظر أيضاً الى أن يصبح جوّنا الحيوي ، هذا الكون ، ناضجاً للتجديد : سماء جديدة وأرض جديدة .

* وبانتظار ذلك؟ كيف نعيش بلا جسد ، اذا ما كان الإنسان

فاذا بما أنا نجترىء كل حين ونعلم أنا

جسداً تنعشه روح ؟ ما معنى السماء أو الجحيم بالنسبة إلى « نفس مفصولة » ، إذا كان الجسد هو الواسطة **للاتحاد البشري مع الله** ومع الغير؟ اذكروا أنّ هذه الصعوبة كانت صعوبة البابا يوحنا الثاني والعشرين . ولا يزال معاصرونا حساسين تجاه هذا الموضوع .

أمّا الجواب فيعطينا ايّاه بولس في رسائل الأسر . من كان متّحداً بالمسيح فهو من الآن قائم من الأموات معه وجالس في السماوات (كولسي ٢/١٢ ؛ أفسس ٢/٦) . لكنّ هذه الحياة الجديدة لن تظهر إلاّ يوم مجيء المسيح (كولسي ٣/٣ — ٤) . أي عندما تسقط « خيمة » هذا الجسد الأرضي ، « فلنا في السماء بيت لم تصنعه الأيدي البشرية » (٢كو ٥/١) أي جسد المسيح الممجّد والمنتصر على الموت . يعلّمنا الإيمان أنّنا اعضاء المسيح وذلك بمعنى واقعي للكلمة . لن تكون أبداً « نفوسنا منفصلة عن أجسادها » . عند موتنا يصبح جسدنا ، وسيلة اتصالنا بالعالم ، جسد المسيح الممجّد الذي نحن اعضاؤه والذي بقيامته « يملك الكون بكامله » . « **الأموات هم في المسيح** » (١ تسا ٤/١٦) .

ما دمنا مستوطنين في الجسد فنحن متغرّبون عن الرب . لأنّا نسلك بالإيمان لا بالعيان . نجترىء ونرتضي بالأحرى أن نتغرّب عن الجسد ونستوطن عند الرب . (٢ كو ٥/٦ — ٨) .

وبالاختصار ، **اشتراكنا بقيامة المسيح يكون على ثلاثة مراحل** : **يبدأ بالعماد** (النصوص السابقة) **ويجتاز مرحلة كبرى نحو الموت** : « ستأتي ساعة وهي الآن حاضرة عندما يسمع الموتى صوت ابن الله والذين يسمعون يحيون » . **ثم يظهر كاملاً في النهاية** : « ستأتي ساعة حيث الذين في القبور ينهضون للحياة والذين عملوا السيّئات يقومون الى الدينونة » (يو ٥/٢٥ — ٢٩) .

٢٠

الحياة الأبدية،

آمين

الاله الحي :

رغم كل شيء ، أنا أشعر بأنّ كل حياة تعاش . من الذي يعيشها ؟ أهي الأشياء التي تبقى الصوت الحاضر في القيثارة كنغم لا تعزفه أية يد ؟.. أم العصافير التي تحلّق ، غريبة ! من يعيشها إذاً ؟ هل الحياة ، هي أنت يا الله ! (ريلكه) .

في «سيزار» يقول أحد أشخاص مارسل بانيول — يانيس على فراش الموت — : «الموت لا يهمّني . فما يزعجني هو أن أترك الحياة..» .

لا يريد الناس أن يموتوا .

الواقع هو أن خلود النفس الطبيعي ، حياة «النفس» بعد الموت ليس أمراً صريحاً . لوكان واضحاً لآمن به جميع الناس ، ولكان الموت أقلّ مأساوية .. فثلاثة أرباع الملحدين ، مهما كانوا علماء وفلاسفة ، يظنون أنّ الموت هو موت كلّ شيء .

الواقع أنه لا علم ولا فلسفة تقدر أن تبرهن أنّ الموت هو موت كلّ شيء ، بالنسبة إلى الإنسان . وعلى العكس ، لا علم ولا فلسفة تقدر أن تبرهن ، بطريقة قاطعة ، عن خلود النفس . بتعبير آخر ، لا عالم ولا فيلسوف يمكنه أن يؤكّد على الحياة الأبدية . أمّا المسيحي فيقدر على ذلك ، انطلاقاً من إيمانه بالله وبيسوع المسيح .

الإله الحي

إلهنا هو «الإله الحيّ» يردّد الكتاب المقدّس . ذلك على عكس جميع الآلهة الكاذبة المصنوعة من الذهب والفضّة والحجارة والخشب . الذين لهم فم ولا يتكلّمون ولهم أذن ولا يسمعون واعين ولا ينظرون.. «الهنا يحيا الى الأبد» (سير ١/١٨) .

ما معنى هذا ؟ ما معنى الحياة ؟

هي قبل كل شيء مفهوم واقعي لا يحدّد . إنما بإمكان كلّ واحد أن يصفها . إذ الجميع يعلمون ما الولادة وما النشوء وما العمل وما

لِمَ تقول الأمم : أين الههم ؟ إنّ الهنا في السماء كلّ ما شاء صنع . أمّا

الانفعال وما الانحطاط وما الموت . الحياة حركة تنبعث من داخل كائن **يتحرّك** . حياة الأشخاص الكاملة هي أيضاً معرفة وهي نور : يعرف الإنسان أنّه يعيش ، يشعر بأنّه يعيش ، هو سعيد أن يعيش وان يجعل غيره يعيش .

« الحيويّة » هي القوّة والحرارة التي تجعلنا نتحرّك ونعمل ونخلق ونشع ونُنعش ونجعل الغير يحيا ونحبّ بسهولة وكثافة . وهكذا يصف أشعيا حيويّة الاله الحي (٢٦/٤٠ — ٣١) :

« ارفعوا عيونكم الى العلى وانظروا : من خلق هذه ! من الذي يبرز جندها بعدد ويدعوها جميعها بأسماء لعظمة قدرته وشدّة قوته فلا يفقد أحد ؟ فلِمَ تقول يا يعقوب وتتكلم يا اسرائيل ؟ انّ طريقي تخفى على الرب ودعواي تفوت الهي ؟ أما علمت أو ما سمعت أنّ الرب إله سرمديّ خالق اقاصي الأرض لا يتعب ولا يعيى .. يؤتي الشعب قوّة ولفاقد القدرة يكثر الحول . الفتيان يتعبون ويعيون والمختارون يعثرون عثاراً . أمّا الراجون للربّ فيتجدّدون قوة . يرتفعون بأجنحة كالنور . يعدون ولا يعيون . يسيرون ولا يتعبون » .

وهكذا نرى أنّ الحيويّة اشعاع . الحيّ ، ولوكان الله ذاته ، — وخاصة اذا كان الله — لا يحقّق ذاته الاّ بوضع ذاته في خدمة الآخرين ، في حركة نامية من بذل الذات وتقبّل الآخرين . الحياة الحقّة هي حب . هذا هو سرّ الأقانيم الثلاثة ، فكلّهم عطاء وكلّهم قبول للغير ، كل واحد في الاثنين الآخرين ..

هذا هو سرّ الخلق : ثالوث الحياة والحب يخرج من ذاته ليعطي الوجود والحياة للعالم وللبشر .

أوثانهم ففضّة وذهب صنع ايدي البشر . لها أفواه ولا تتكلّم وعيون ولا تبصر وآذان ولا تسمع وأنوف ولا تشمّ وأيد ولا تلمس وأرجل ولا تمشي ولا تصوّت بحناجرها . مثلها ليكن صانعوها وجميع المتكلين عليها . (مز ٢/١١٣ — ٨) .

نبع الحياة

فعلاً أن الله الحي هو « نبع حياة » (مز ١٠/٣٦) .

لنقرأ المزمور ١٠٤ ! كلّ كيان وكلّ حياة تنبثق عنه على مدى

أنت مفجّر العيون في الشعاب فتسيح بين الجبال . تسقي جميع وحوش الصحراء وبها تطفىء الفراء ظمأها . عليها تسكن طيور السماء وتغرّد بين الأغصان . أنت الذي يسقي الجبال من علاليّه من ثمرة صنائعك تشبع الأرض . أنت المنبت كلأ للبهائم وخضرا لخدمة البشر .. (مز ١٠٣/١٠..)

استمرار الزمن كما الساقية من ينبوعها والتيّار من المولّد الكهربائي . إنّما يعطي الله الإنسان الحياة من نسمة شخصية ليجعل منه حياً على صورته ومثاله (تك٢/٧) . فهو يريد إذاً أن يكون لهذا الابن شجرة الحياة التي تجعله «يحيا إلى الأبد» (٣/٢٢) .

لذلك فالله لا يلتذّ بموت أحد (حز ١٨/٣٢) ولا بموت الشرّير (٣٣/١١) . فهو يحرّم القتل حتّى قتل قايين قاتل أخيه (تك ٤/١١ — ١٥) . فالموت انحلال كلّ شيء ، بينما بالحياة يصبح كل غنى وكل فرح وكلّ حب ممكناً .

لذلك فحب الحياة ، هذه الشعلة الإلهيّة في قلب الإنسان ، يؤكّد عليها كلّ العهد القديم . فاليهودي يؤمن ببساطة أنّ الصدّيق يعيش أكثر من الشرير (أمثال ٣/١ — ٢) ورغبته في الحياة تستمرّ حتى في ليل الموت (مز ١٦/٩ ..) .

«لذلك فرح قلبي وابتهج مجدي وجسدي أيضاً سيسكن على الرجاء . لأنّك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدّوسك يرى فساداً . قد عرّفتني سبل الحياة وستملؤني فرحاً مع وجهك ولي من يمينك لذّات على الدوام» .

نشعر بتفجّر الرجاء بالحياة الأبدية ، بعد الموت ، كما سيؤكّدون عليها قبل المسيح بقرن ونصف .

«أنا الحياة»

هذه الحياة الأبدية التي تلد لله بنين وبنات معدّين للقيامة ، هي في المسيح يسوع ، ومنه تمرّ الى جميع الذين لا يرفضون الإيمان بمقدار النور — كبيراً كان أم صغيراً — المعطى لهم : «**من يؤمن بأنّ يسوع هو المسيح ، فهو مولود لله**... من الذي غلب العالم — (أي القوى المضادّة لله والتي تقود الى الموت الأبدي) — إن لم يكن ذاك الذي آمن بأنّ يسوع هو ابن الله ؟

« هذا الذي جاء بالماء والدم (من جنبه المطعون : نبع العماد والافخارستيا) . والروح يشهد لأن الروح هو الحقّ .. وهذه الشهادة هي أن الله منحنا **الحياة الأبديّة وان هذه الحياة هي ابنه . من كان له الابن ، كانت له الحياة ومن لم يكن له الابن ، لم تكن له الحياة** .

قال له توما : يا رب ، لا نعلم الى أين نذهب . فكيف نعلم الطريق ؟ أجابه يسوع : أنا الطريق والحقّ والحياة ! لا يذهب أحد الى الآب إلا بي » . (يو ١٤/٥ — ٦) .

«كتبت إليكم بهذا لتعلموا **أنّ الحياة الأبديّة لكم أنتم الذي تؤمنون باسم** — أي بشخص — **ابن الله**» (١ يو ١/٥ — ١٣) .

أليس هذا ما أكّده لتوما : «أنا الحياة» (يو ٦/١٤) ؟ ولمريم في بيت عنيا : «أنا القيامة والحياة . من آمن بي وان مات فسيحيا . ومن عاش وآمن بي لن يموت أبداً» (٢٥/١١ — ٢٦) !

وفعلاً ، «منذ البدء ، كان الكلمة عند الله (الآب) وكان هو الله . **فيه كانت الحياة** ، **حياة معدّة لأن تكون نوراً** — الحياة النيّرة — **للناس**» (يو ١/١ ..) .

« والكلمة صار جسداً » ... « **لتكون لهم الحياة وتكون لهم بوفرة** » (يو ١٠/١٠) . لذلك يقول يسوع : «خرافي التي تسمع صوتي **اعطيها الحياة الأبدية** ، فلا تهلك ولا يقدر أحد أن ينتزعها من يدي» (٢٨) .

كل إنجيل يوحنا يندفع كباقة حياة عظيمة تدعى يسوع . هو «كلمة الحياة» (١ يو ١/١) و«شجرة الحياة» (رؤ ٢/٢٢) و«خبز الحياة» و«نور الحياة» و«ماء الحياة» (يو ١٤/٤ ؛ ١٢/٨ ؛ ٣٥/٦ ؛ رؤ ١٧/٧ ؛ ٦/٢١) ..

«الحياة الأبدية هي أن يعرفوك»

بالاختصار : الله هو الحي — ينبوع كلّ حياة — ينبوع الحياة الأبديّة للبشر — بيسوع المسيح ، «أمير الحياة» .

فهناك حياة وحياة كما أنّ هناك جسد وجسد ، يقول القدّيس

بولس للقورنثيين (١/١٥ ، ٣٥..) . «هناك **جسد حيواني وجسد روحاني**» (٤٤) . أي — كما شرحنا في الفصل السابق — **جسد قائم من الموت** ، **إنسان قائم من الموت مبدؤه الحياتي** ، بدلاً من أن يكون حيوانياً كما في هذه الحياة الأرضيّة ، **هو الروح القدس عينه** ، اذ لا نعيش إذّاك الاّ من الله .

ونعلم أنّ ابن الله قد أتى وآتانا بصيرة لنعرف الإله الحقيقي ونحن في الإله الحقيقي ، في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحقيقي والحياة الأبدية . (١ يو ٥/٢٠) .

«وهكذا كتب : آدم الإنسان الأول كائن حيواني فيه حياة (تك ٢/٧) . وآدم الآخر — يسوع القائم من الموت — **روح يعطي الحياة** . لكن الذي يظهر أولاً ليس الروحاني بل الحيواني (في الولادة) ثم الروحاني (بعد القيامة) . الإنسان الأول أرضيّ من الأرض . والإنسان الثاني من السماء.. فكما لبسنا صورة الأرضي ، يجب أن نلبس صورة السماوي» (٤٥..) .

فليست الحياة الأبديّة إذاً حياة حيوانية لما وراء الموت ، مع كلّ أجهزتها : التنفّس وجريان الدم وغيره.. «**الحياة الأبديّة** ، يقول يسوع لأبيه وهو يتكلّم علينا ، **هي أن يعرفوك أنت الاله الواحد الحقيقي والذي أرسلته ، يسوع المسيح**» (يو ١٧/٣) .

«**أن يعرفوك**»... لا تفكّروا بمعرفة عقلانيّة محضة تدور حول مفاهيم وتعابير وكلمات علميّة وأفكار جميلة لمتكلمين لامعين.. كلا ! بل حبّ حميم حيث يصبح شخصان شخصاً واحداً . «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» يقول يسوع (يو ١٥/٤) . كما في الحديد المشتعل يصبح الحديد والنار واحداً ؛ الحديد يعرف النار إذ أصبح ناراً . فنحن **سنختبر** الحياة الأبديّة التي في الله كما تختبر الساقية ينبوعها إذ تأخذ منه ماءها بكميّة لا تنضب .

تمتمات حول سر !... لم تره عين بشر... وعقله لا يقدر أن يتصوّره.. أقله قبل ظهوره في العالم الثاني .

«يا أحبائي ، **نحن منذ الآن أبناء الله ولم يكشف لنا بعد عمّا نصير إليه** .

نحن نعرف أننا نصبح عند هذا الكشف أشباهه لأنّا نراه كما هو»
(١ يو ٣/٢) .

حياة أبديّة

هذا يعني أنّ «الحياة الأبدية» ، «حياة العالم الآتي» قد بدأت : «**نحن أبناء الله منذ الآن**» .

حياة «أبديّة» لا تعني حياة «عتيدة» . فلم نُعط النعمة لزمن «آت» لا نعرفه . بل أعطيناها لنولد من جديد ، لنولد من فوق ، هذه الولادة من الماء والروح التي يتحدّث عنها المسيح مع نيقوديموس (يو ٣/٣ ..) . الولادة الأبديّة هي قلب الزمن في الإيمان والعماد . الحيـاة الأبـديّـة تمشيها على طرقاتنا الزمنيّـة وهي تتغذّى من الافخارستيا : «من يأكل جسدي ويشرب دمي له الحياة الأبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (٦/٥٤) . ومع ذلك فالحياة الأبديّة تختلف تماماً عن حقائق «الحياة الطويلة» في هذا العالم ، كما نقول : الثلوج الأبديّة أو صمت النجوم الأبدي أو عودة الأشياء والفصول الأبديّة .. نقص في معنى الكلمات !

أنتم مدفونون معه في المعمودية التي فيها أيضاً أقمتم معه بإيمانكم بعمل الله الذي أقامه من بين الأموات . وحين كنتم أمواتاً في الزلاّت وفي تلف أجسادكم ، أحياكم معه مسامحاً لكم جميع زلاّتكم . ومحا الصكّ الذي كان علينا بموجب الأقضية الذي كان لهلاكنا وأخذه من الوسط وسمّره في الصليب وخلع الرئاسات والسلاطين وشهّرهم بأبّهة ظافراً عليهم فيه . (كولسي ٢/١٢–١٥).

ولا تعني مطلقاً حياة جامدة .. الحياة الجامدة تعني «حياة مائتة» اذ إنّ الحياة حيويّة وحركة . كلا ! الأبديّة هي صفة لحياة الله . فهي إذاً ديناميكية بدون حدود وفرح يتحرّك منذ الأزل والى الأبد ، عيد لا يحدّ ولا ينتهي .

وبتعبير أوضح ، الحياة الأبديّة فينا هي علاقتنا — التي لا تموت — بالإله الحي هذا . يقول يوحنا : «في البدء كان الكلمة وكان الكلمة عند الله وكان الكلمة الله . فيه كانت الحياة ..» . بكلام آخر : «إلى الأبد نحن بنو الله وبناته ، الى الأبد نحن معه وقربه . هو فينا ونحن فيه وقد تألّهنا بابنه . الى الأبد نحن مع الله ..» هذه هي الأبديّة . ونحن نعلم ما تتطلّب منّا على هذه الأرض الحياة الأبديّة .

«فكما لبسنا صورة الإنسان الأرضي ، يجب أن نلبس أيضاً صورة الانسان السماوي» يسوع (١كو ١٥/٤٩) بمعنى أنّنا نقدر أن نقول مع بولس : «حياتي هي المسيح !» .

أمّا بالنسبة الى ما تعدنا به عندما تتجلّى ، فنسمّيه السماء . ولكن ما هي السماء ؟

السماء :

وبعد ذلك رأيت فإذا بجمع كثير لا يستطيع أحد أن يحصيه من كلّ أمّة وقبيلة وشعب ولسان واقفون أمام العرش وأمام الحمل . لابسين حللاً بيضا وبأيديهم سعف نخل .. لذلك هم أمام عرش الله يعبدونه ليل نهار في هيكله . والجالس على العرش فوقهم . فلا يجوعون ولا يعطشون ولا تأخذهم الشمس ولا الحر البتّة . لأنّ الحمل الذي في وسط العرش يرعاهم ويرشدهم الى ينابيع ماء الحياة ويمسح الله كلّ دمعة من عيونهم . (رؤ ٧/٩ ..)

نسمع بعض المعمّدين وهم عائدون من الدفن ، يتداولون أفكاراً كهذه : «إنه أوفر حظاً منا !» — «مضت الى عالم أفضل !» .. لكن لا أحد من الذين يقولون هذا يودّ لو يحلّ محلّه أو محلّها .. ليس أحد منهم مستعجلاً لدخول هذا العالم الأفضل ..

فكّروا جيداً : لقد أضاع (اضاعت) كل شيء وترك كل شيء إلى الأبد.. لقد وصل الى حكم ديَّان رهيب.. قد يكون في الجحيم.. على كلّ انّه في مطهر طويل الأمد.. قبل أن يصل الى السماء.. الى سماء لا يودّ أحد أن يصل إليها .

أيّة سماء أظهرناها للناس منذ طفولتهم ؟ سماء عروش ثابتة ومقسّمة علمياً إلى درجات ازاء ثالوث مثلث الاضلاع لا يتحرّك ، سماء قدّيسين يرتّلون الترانيم ، كما يقول جاك بريفر ، «وصحونهم جامده فوق رؤوسهم» ، سماء ملائكة مجنّحين (طيور سماوية» يقول السيّد كان) شبيهين بالعاملات على أبواب قاعة السينما الكبيرة هذه . سماء نفوس طبعاً ، اذ يجب ألاّ يمرّ جسد مهرّب ويضع في خطر «فضيلة الملائكة» .. سماء مضجرة حقاً تجبرنا على محبّة «وادي الدموع» حيث نحن .

أنعجب بعد ذلك إذا لم يجذب المسيحيّون غيرهم ، وان يكون اشعاعهم ضئيلاً كما هي الحالة ، والاّ يتكوّن فرحهم إلاّ من هذا

العالم المسكين كأولئك الذين لا رجاء لهم !

لا شكّ في أن الموت هو ثمن الخطيئة القاسي . لكنه أيضاً ، بيسوع المسيح . فداء عن الخطيئة ؟

طبعاً يصعب تصوّر السماء والتحدّث عنها . هذا سبب اضافي لكي نرجع دوماً الى المعطيات الكتابية التي أوحاها لنا الله. فالكتاب صريح وقليل الكلام عن الجحيم : أما الوعّاظ فراحوا يزايدون على بعضهم البعض . وعلى العكس فالسماء تركتهم غالباً غير مبالين ، بينما الوحي غني وبليغ بهذا الصدد . فإنّه من الأسهل أن نخيف الناس من أن نعطيهم السعادة !

لكنّ إلهنا ليس إله الخوف بل إله الحب ! والإنجيل هو البشرى السارّة ، بشرى السعادة !

عندما يكون الله شاعراً

وجاءني واحد من الملائكة السبعة الذين معهم الجامات السبعة المملوءة من الضربات السبع الأخيرة وكلّمني قائلاً : هلمّ فأريك العروس امرأة الحمل . وذهب بي الروح وأراني أورشليم .. (رؤ ٢١/٩ — ١٠) .

خذوا كتاب القدّاس واقرأوا بتمهّل رسائل وأناجيل الأول والثاني من تشرين الثاني ، وكذلك في قدّاس الموتى . حاولوا تذوّق الصور التي يذكرنا فيها الكتاب بسعادة السماء . فالكتاب قد اختار الشعر ليكلّمنا عن السماء . **فإذ هو يؤكّد على أنّه يستحيل وصف عالم المجد ،** فهو لا يتردّد في أن يذكّرنا به انطلاقاً من الحقائق البشريّة البسيطة واليومية . لماذا ؟ لأنه يتحدّث إلى الإنسان الأرضي والى قلبه البشري . فهو يأخذ لغة يفهمها .

وأكثر من ذلك : لن تكون السماء تنكّراً للإنسان الأرضي بل تكملة له . هي لا تخفي السعادة البشريّة بل تملأها اذ تتخطاها بطريقة الهيّة . فإذا ما أظهرنا سماء لا تملأ رغباتنا الحقيقيّة ، كنّا كمن يكلّم كلباً عن روائع الأدب .. أليس هذا هو السبب في أن قلّة من المسيحيين يشاركون القدّيس بولس قلّة صبره : «انّي على عجل لأموت لأكون مع المسيح» ؟ .

أن أكون مع المسيح

« أكون مع » ، هذا هو حلم الحب : رجاء المنفيّين ، نفاد صبر الخطيبين ، فرح العودة العميق .. لكنّ ذلك يتطلّب أن نكون مأخوذين بالحب أو بالصداقة الكبرى .

لقد كان القدّيس بولس « مأخوذاً بيسوع المسيح » . لذلك كان يتحرّق بانتظار « ان يكون مع المسيح » ، يريد أن يطير الى « ملاقاة المسيح » حتّى لا يكون مفصولاً عنه أبداً .

يجب أن نشعر بنبضات قلبنا عند قراءة عبارات كهذه : « وهكذا نكون دائماً مع الرب ! » (١ تسا ٤/١٧ ..) فيكون عندئذ « التجمّع حوله » ، « الاتّحاد به » لكي « نحيا معه » . سماء القدّيس بولس هي سماء حبّ المسيح ، الحبّ المغمور .

هذه هي السماء التي وعد بها الرب ذاته لصّ اليمين : « اليوم ستكون معي في الفردوس » .

سوف نرى وجهه

لما كنت طفلاً ، كالطفل كنت أتكلّم وكالطفل كنت أفكّر وكالطفل كنت أعقل . فلمّا صرت رجلاً أبطلت ما هو للطفل . لأنّا الآن ننظر في مرآة على سبيل اللغز . أما حينئذ فوجهاً لوجه . اني أعلم الآن علما ناقصاً . أما حينئذ فسأعلم كما عُلمت . (١ كو ١٣/١١ — ١٢) .

لكنّ يسوع لا ينسينا الآب والروح القدس . بل على العكس إنّه يقود اليهما . وهنا أيضاً يقول القدّيس بولس عندما يتحدّث عن الله الثالوث : « سوف نراه وجهاً لوجه » (١ كو ١٣/١٢) .

« سوف نراه كما هو » يضيف القدّيس يوحنا (١ يو ٣/٢) .

في كتابه « الإنسان يتخطّى الإنسان » ، يسرد موريس زندل هذا الحدث الرائع :

« لاحظت إحدى الأمّهات جزع ولدها أثناء غارة جوية ، فقالت : « لما كنت أحملك قرب قلبي ، كنت أتساءل كيف سيكون وجهك . فرح ولادتك كان في أن أكتشف وجهك . هذه هي حالنا مع الله الساكن في نفوسنا . نحيا بقربه ، نحمله في أرواحنا ، لكننا لا نعرف وجهه . الموت يبيّنه لنا في فرح ولادة

أبديّة . ممّا تخاف اذن؟» أثناء الغارة الثانية ، رأته هادئاً تماماً . وفجأة اقترب منها قائلاً بحرارة نيّرة : «أمي ، قد نرى وجهه اليوم» .

هذا الوجه ، نعرف انّه ، قبل كل شيء ، وجه الحب !

أجل ، مهما كان موقف «يوم الغضب» ، الذي لا يمتّ إلى الانجيل بصلة ، نحن نعلم أننا سنرتمي بين ذراعي الأب والأخ والصديق .. ثالوث محبّة منه تأخذ هذه الأسماء حلاوتها القويّـة ..

سوف نعرفه كما هو

يجب أن نتعمّق في هذه الكلمة التي لا يسبر غورها .

«سوف نعرفه كما هو أي باختبار تام ، باتحاد بين الله وبيننا وبيننا وبين الله ، بامتلاك متبادل وكامل . سوف نعرفه كما يعرف الحديد النار التي تخترقه . كما تعرف الإسفنجة ماء البحر ، بغوصة في أوقيانس عظيم وبوجود كل هذه العظمة فينا وكلّ هذا العمق وكلّ هذه التسعة التي لهذا الاقيانوس العظيم» (درويل) . بين الإنسان والله علاقة لا تنتهي .. كما أنه في هذا العالم لا حدود للصداقة بين صديقين .

«أنا بقربه وهو بقربي»

ما وعدنا به شخصياً هو هذه الحياة الحميمة ، أتسمعون ؟ وعدتم بها أنتم شخصياً .

طوبى لأولئك العبيد الذين يأتي سيّدهم ويجدهم متيقّظين ! الحق أقول لكم : انّه يشدّ وسطه ويتردّد في خدمتهم . (لو ١٢/٣٧) .

حتى في عالم الإيمان «من يحبّني ، يقول يسوع ، أبي يحبّه واليه نأتي وعنده نسكن» . كثيرة هي النفوس البسيطة التي تختبر شيئاً من هذه الصداقة الإلهية على الأرض (يو ١٤/٢٣) . وعلى كل حال ، انّ الكشف التام لهذه الحقيقة قريب جداً : «ها أنا واقف على الباب أطرقه ، فإن سمع أحد صوتي وفتح الباب ، دخلت لأتعشّى على قرب منه وهو على قرب مني ..» العشاء ، وجبة المساء ، بعد انتهاء

العمل ، يتسع الوقت ليكون كلّ واحد بكليته لصديقه .. (رؤ ٣/٢٠) .

وجبة الصداقة، خبز الحياة الأبديّة وشراب الفرح ، المسيح ذاته هو الذي يقدّمه : « إنه يشدّ وسطه ويخدمهم » (لو ١٢/٣٧) .

وليمة عرس أبدي

وجبة ؟ كلا .. بل وليمة عرس ! « يشبه ملكوت السماء ملكاً يحتفل بعرس ابنه .. » .

والمدعوون هم نحن ؟ بل أفضل من ذلك : نحن المدعوّة : يرينا سفر الرؤيا الكنيسة — أي جميعنا — كخطيبة تستعد لعرسها . خطبة ، عرس ، عهد .. كلمات سريعة العطب وغنيّة ، وغالباً ما تسحقها وتشوّهها حقائق الحياة المخيّبة . لكنّ السماء سوف تعظمها الى الأبد وبطريقة أفضل ممّا تنتظرها الأحلام الجنونية : عرس تدخل فيه الكنيسة العروس « فرح سيّدها » وتشترك في سعادة الله بالذات .. عرس ملكي حيث تضع الكنيسة الملكة « يدها على المملكة المعدّة منذ انشاء العالم » ..

مملكة حبّ حيث نستمرّ في التعرّف الى بعضنا وفي حب بعضنا !

« جماعة كبيرة »

« فبدا لعيني جمع كثير لا يحصى من كل أمّة وقبيلة وشعب ولسان .. » (رؤ ٧/٩) .

وبعد ذلك رأيت فإذا بجمع كثير لا يستطيع أحد أن يحصيه من كلّ أمة وقبيلة واقفون أمام العرش وأمام الحمل لابسين حللاً بيضا وبأيديهم سعف نخل وهم يصرخون بصوت

القدّيس يوحنا يصف لنا رؤياه النبويّة في السماء : أمّنا مريم ، القدّيسون العظام أصحابنا والقديسون الصغار ، هؤلاء المشاة الذين لا يحصون من القدّيسين المساكين التائبين ، وجدودنا ووالدانا وأولادنا وأصدقاؤنا ...

وأرضنا الحبيبة وقد ازدادت جمالاً ، وأجسادنا المحبوبة أيضاً وقد قامت بشكل اجمل مما كانت عليه سابقاً .. ويتابع القدّيس يوحنا (رؤ ٢١/١ — ٤ .. ؛ ٢٢/٥) .

عظيم قائلين : الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللحمل . (رؤ ٩/٧ — ١٠) .

« ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة .. ورأيت المدينة المقدّسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله وقد تزيّنت كما العروس لبعلها . وسمعت صوتاً يهتف من العرش : « هوذا بيت الله والناس : يسكن معهم ويكونون له شعباً ، الله معهم ويكون لهم إلهاً . يكفكف كل دمعة تسيل من عيونهم . لم يبق للموت وجود ولا للبكاء ولا للصراخ ولا للألم . لأنّ العالم القديم قد زال .. وبها غنى عن ضياء الشمس والقمر لأنّ مجد الله اضاءها .. ولا يحتاجون الى شمس ليستنيروا لأنّ الرب الإله ينشر نوره عليهم أبد الدهور ! » .

كانت القديسة ترزيا الكبرى ، عند كل دقّة ساعة ، تشعر بهزة فرح : « ها نحن نقترب ساعة من السماء ! » .

العذابات الأبديّة :

لنضعنّ النقط على الحروف والحركات في مواضعها !

لا يقول قانون ايماننا : « نؤمن بالخطيئة » بل « بمغفرة الخطايا » . كما أنه ليس هناك بند يقول « نؤمن بالجحيم وبالموت الأبدي » بل « نؤمن بالحياة في الدهر الآتي » . أي نؤمن بالخلاص الذي سينتشلنا من الخطيئة ومن الجحيم ، نؤمن بالخلاص الذي يجعل منا بنين وبنات الله . قانون الإيمان إلهي والإيمان الهي ، أي يتكلّمان على الله .

أيّها العبد الشرير الكسلان ، علمت أني احصد من حيث لا أزرع وأجمع من حيث لم أبذر ، فكان عليك أن تسلّم فضّتي إلى الصيارفة حتى إذا قدمت آخذ مالي مع ربى . فخذوا منه الوزنة وأعطوها للذي معه الوزنات العشر . لأنّ كلّ من له يُعطى فيزداد ، ومن ليس له يؤخذ منه ما يتوهّم انه له . والقوا العبد البطّال في الظلمة البرانيّة هناك يكون البكاء وصريف الأسنان. (متى ٢٥/ ٢٦ — ٣٠) .

لذا فالتعليم المسيحي المنبثق عن المجمع التريدنتيني ، والذي وضع ليكون مرشداً للوعّاظ والكارزين ، لا يحتوي على فصلٍ في الجحيم ، انّه يتحدّث عن الجحيم في صدد الدينونة عندما

يشرح : «اذهبوا عنّي يا ملاعين..» وذلك عندما يقابله بالوجه الثاني للوحة الثنائية «تعالوا ، يا مباركي أبي..» .

طريقة راعوية ولاهوتيّة مثاليّة ، إذ إنّ السماء هي في تصميم الله ، لا الجحيم . لأنّ السماء هي الله بالذات بينما الجحيم غياب . «ليس الجحيم وحده موضوع عظة — من أراد أن يعظ عن الجحيم يجد ذاته مجبراً على التضخيم واجهاد الذات ، فيستحقّ حكم تاليران «كلّ ما نبالغ فيه لا معنى له» . فيبدو الجحيم وكأنه من خلق الإنسان ويصبح من العار أن ننسبه الى الله» . (الآب روكه) . على كل حال ، بينما الصور الكتابيّة حول السماء تذكّرنا بأعمق اختباراتنا ، صور الجحيم توصلنا الى حقائق ليس لنا عنها أي اختبار شخصي .

نار وظلام

صور الجحيم في الكتاب مأخوذة من تاريخ الشعب الاسرائيلي وحياته اليوميّة :

* صور **النار** :

— «**مطر الكبريت والنار**» على سدوم وعامورة : **قد حصت الأرض فأقحلت إلى الأبد** . «أرض محروقة» لم تعد سوى «**دخان أتون**» (**تك ١٩/٢٤..**) وتلميحات الى البحر الميت «**مستنقع كبريت ونار**» (**رؤ ٢٠/١٥ ؛ ٢١/٨**) .

أمّا الجناة والكفرة والرجسون والقتلة والزناة وأصحاب السموم السحريّة وعبدة الأوثان وكل كذّاب ، فإنّ نصيبهم في البحيرة المتّقدة بالنار والكبريت التي هي الموت الثاني . (رؤ ٢١/٨) .

— جهنّم ، وادٍ حزين جنوبي أورشليم حيث تصبّ كل أوساخ المدينة . فهي في آن كومة أوساخ تعجّ «ديدان لا تموت جماهيرها» و«نار» مستمرّة» يتصاعد دخانها ليل نهار. موضع نفايات وحثالات وعفونات ونار مطهّرة .

— عندما لا نأخذ القمامة الى ديدان المقذرة ونارها ، فإنّنا نجمعها في زاوية من الجنينة أو الكرم أو الحقل — قش ، حزمة

شوك ، أعشاب يابسة ، أغصان قطعت من جذورها ، شجرة لا تثمر أو أغصان مائتة — نضع فيها النار « فتحترق » (متى ٣/١٠ — ١٢ ؛ ١٩/٧ ؛ ١٣/٤٠ ؛ لو ٣/٩ ؛ يو ١٥/٦) .

* عندما يشعل العهد الجديد صور **النار** المذهلة هذه ، فهو يتكلّم أيضاً ، وبطريقة تناقض الأولى ، **عن الظلام** ، عن « اللجّة المظلمة » . ممّا يدل على أنه علينا أن نحترس من أن نعتبر هذه الرموز كحقائق مادية . إنها ، كما يقول علم اللاهوت ، تشابيه .

هذه الظلمات هي « **الظلمات البرّانية** » : خارج الملكوت (متى ٨/١٢) أي خارج « البلاد » حيث يسيطر الحبّ ، خارج العهد وعيده ، خارج العرش الإلهي ومحبّته ، خارج العائلة وشراكتها ، خارج وليمة الحياة الوحيدة .

وأيضاً : في الخارج مع الأشياء التي لا قيمة لها ، مع من لا منفعة منه ، مع الذين سقطوا بدون رجعة .

صورة **الظلمات البرانيّة** المؤثرة هذه تناقض بطريقة صريحة ، لأنّها بشريّة الى أقصى حد ، الرموز السماوية الغنيّة في بيت الآب ، الأنوار والموسيقى والرقص والعلاقة والحب والحياة الغنيّة والسعيدة . وفي الخارج الليل البارد في وحدة لا استقرار لها ولا هدف : « هناك يكون البكاء » بكاء اليأس « وصريف الأسنان » من الغيظ : دموع لا جدوى لها ، غيظ عاجز ، غيظ من رفض النور بعناد .

فلمّا دخل الملك لينظر المتكئين رأى هناك رجلاً ليس عليه حلّة العرس . فقال له : يا صاح كيف دخلت الى ههنا وليس عليك حلّة العرس . فصمت . حينئذ قال الملك للخدّام : أوثقوا يديه ورجليه واطرحوه في الظلمة البرّانية . هناك يكون البكاء وصريف الأسنان. (متى ٢٢/١١ — ١٣) .

« ابعدوا عني يا ملاعين »

« ليست الظلمة البرّانية على الأرجح ذلك الليل الذي تتسربل فيه الحريّة في رفضها للنور . بل يبدو ، في الإنجيل ، ليلاً يضعنا فيه المسيح **ذاته** ونحن أحياء بحكم هدّام . هل من كلمة أوضح حقاً وأقسى من كلمات الرفض المطلق الذي نقرؤها على شفاه المسيح ؟.. « إنني لم أعرفكم .. لا أعرف من أين أنتم . ابتعدوا عنّي ... » (متى

حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدّ لكم من قبل انشاء العالم . لأنّي جعت فأطعمتموني وعطشت

فسقيتموني وكنت غريباً فآويتموني .. وحينئذ يقول الملك للذين عن يساره : اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الأبديّة المعدّة لابليس وملائكته . (متى ٢٥/٣٤ — ٤١) .

٢٢/٧ — ٢٧) .

« بما أنّ المسيح هو حقاً الاسم الوحيد الذي به يخلص العالم (أعمال ٤/١٢) ، فإذا ما انسحبت هذه الركيزة الى الأبد ، فلا حدّ للخراب .. ثم إذا كان المسيح هو الكرمة ، فالانفصال عنه يعني الحريق . إذا كان هو خبز الحياة والطريق والباب والنهار ، إذا كان الوجه الوحيد الذي يُظهر الآب ، إذا كان الألف والياء لكلّ لغة صحيحة ، فالذي ينكره هو ، حُكم عليه بالخسارة المطلقة لنفسه ، في الصحراء التي لا طريق فيها ولا شراب ولا خبز ؛ أصبح أمام حائط لا مخرج له ومكان لا معالم له وظلام لا نهار له ؛ وصار الى العدم ومناقضة الله ، إلى عدم امكانيّة شيء سوى صرخة . وقد تكون تجديفاً لا جدوى له إلى الأبد والى الأبد لا يسمعه أحد ! الشك لا حدّ له ، وهذا ما تذكرنا به الكلمة التي لا تُحتمل والتي يلفظها السيد المسيح في انجيل متى : «ابعدوا عنّي ، يا ملاعين ، الى النار الأبديّة **المعدّة** للشيطان وملائكته» (متى ٢٥/٤١) . كيف لا نسلّم لهذا الوضوح وهو أنّ الجحيم من صنع الله ، في نظر الكتاب ؟

« فيبدو عندئذ المأزق ضرورياً : امّا اله محبّ ينفي وجود الجحيم أو جحيم ينفي الله إذا كان الله يقبل بالجحيم وبالأحرى يفرضه ! » (مرتيليه) .

ومع ذلك فنحن نؤمن

* ومع ذلك **فالكنيسة حددت ايمانها بالنسبة الى عقيدة الجحيم** :

١ — الجحيم موجودة طبعاً لا كمكان ، بل **كحالة** « معدّة للشيطان وملائكته بوسع الإنسان أن يلتحق بها .

٢ — والذي يُحتمل هلاكه يدخلها رأساً بعد الموت .

٣ — الجحيم أبدي .

* **الجحيم انفصال عن الله وعداء للعالم** .

الانفصال عن الله يسمّونه علمياً : عذاب الهلاك . إنه « الظلمة البرّانية » . التيه بعيداً عن الآب ، بعيداً عن العروس في البكاء وصريف الإنسان . بكاء وغضب الطفل الذي ذهب والذي راح يضرب الحائط بقبضتيه **ويرفض الدخول لأنّه يرفض الحب**... بكاء وغضب الزوج (أو الزوجة) الذي صفق الباب كبرياء **وقرّر بعناد عدم الرجوع لأنّ كلّ الأخطاء كانت من جهته** .

أنا الكرمة وأنتم الاغصان . من يثبت فيّ وأنا فيه يأت بثمار كثيرة . لأنّكم بدوني لا يمكنكم أن تعملوا شيئاً . ان كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجفّ فيقطعونه ويطرحونه في النار فيحترق . (يو ١٥/ ٥ — ٦) .

صورة النار تذكّر **بعداء المخلوقات** . وهذا يسميّه اللاهوتيون **عذاب الحواس**. الكون بأجمعه هو كون الله . (لقد خلق في المسيح وبه وله ، وهو قائم بكامله في المسيح) (كولسي ١/١٦ ..) . فهو مليء بحضور القائم من الموت وقوّته . لذا فكلّ من انفصل عن الله لم يعد على اتفاق مع شيء ولا مع أحد . من كان من المسيح فهو سيد الكون معه ، ويملأه .. وحيثما وجد فهو في بيته . ومن لم يكن من المسيح ، يصطدم بعالم مخاصم له ، يشعر بألم صدمته . إذا كانت النار لنا ، فهي حرارة ونور وبهاء وغبطة ، سحر وحبّ ، موقد ومنزل. أما إذا كانت علينا ، فهي حريق وعذاب وموت ورماد . بالنسبة إلى الإنسان القائم للحياة ، الكون جسده ومحيطه وكلّ شيء فرح له ، أما بالنسبة إلى الإنسان القائم للموت الأبدي ، فالكون جسم غريب ، يرفض واحدهما الآخر ، يتقيّؤه دون أن يتمكّنا أبداً من الانفصال ..

ومع ذلك فالله محبة

ومع ذلك فتأكيد الإيمان وتمتمات اللاهوتيّين لا تحلّ أبداً المشكلة المطروحة سابقاً والتي يعود فيطرحها العديدون الذين يرفضون الله خاصة بسبب الجحيم . أو إله ينفي الجحيم أو جحيم تنفي الله . إذ إن لم يكن الله محبة ، فأيّ شيء هو؟ وان كان الله محبّة فالجحيم لا تُعقل . لا معنى لها . فما هو ، في ملكوت هذا الإله ، معنى

من منكم إذا كان له مئة خروف فأضاع واحداً منه لا يترك التسعة

والتسعين ويمضي في طلب الضالّ حتّى يجده ! فإذا وجده يحمله على منكبيه فرحاً ، ويأتي الى البيت ويدعو الأصدقاء .. أقول لكم : هكذا يكون في السماء فرح بخاطىء واحد يتوب .. (لو ١٥) .

الاستمرار المؤبّد في بؤس مطلق لأناس قاموا من الموت ! حتّى ولو حكموا هم على ذواتهم بهذا الوجود الضائع . هناك تناقض بين هذا الحبّ المطلق وفرضيّة الجحيم . فإذا ما حُلّ هذا التناقض ، نكون قد مهّدنا قسماً طويلاً من الطريق الذي يقود إلى الإله الحقيقي . فلنحاول .

مفتاح هذه القضيّة ، **كمفتاح سائر قضايا الإيمان** ، هو هذه **العقيدة المركزية** : « **الله محبة** » . لا وجود للجحيم الاّ على هذا النور . لا تقدر نصوص الكتاب أن تناقض التأكيد على حب الله المطلق والشامل والدائم نحو كلّ أحد ، بدون أن نمزّق الإنجيل والمسيح والله ذاته . **الله لا يريد الجحيم** .

لكنّ عظمة الله تأبى إلاّ أن تعطي الملائكة والبشر **حرية حقيقية** ، تلك التي تقول له مواجهة : لا . **بإمكان** الإنسان أن يرفض الحبّ بعناد . هذه **الإمكانية** بالذات تفرضها فكرة الجحيم . « عقيدة الجحيم تعني هذا : حياة الانسان مهدّدة **بإمكانيّة** فشل أبدي **حقيقيّة** . هذا التهديد كامن في أنه قادر على أن يتصرّف بذاته بحريّة وبإمكانه إذاً أن يرفض الله . (كارل رهنر — فوركليمز) .

الله مطبوع في جسده بالحديد الأحمر

« هل تتحقّق فعلاً هذه الامكانيّة ، بالنسبة إلى الإنسان وبأيّة نسبة ؟ للجواب على هذا السؤال ، لا وحي لدينا ولا قرار من قبل الكنيسة المعلّمة » (كارل رهنر) . فمن جهة ، لا تسمح جديّة حب الله وحريّة الانسان بالقول انه لا يوجد هالكون . من جهة ثانية ، وجود هالك واحد يبدو موضوع شك ، لله قبل أن يكون لنا .. في الواقع ، بين الجحيم الممكن والجحيم الفعلي ، يقف الله حاجزاً بكل قوّة حبّه . هنا بالضبط ينتصب صليبه .. فلنقرأ بقلوبنا نصوص العهد الجديد التالية :

فقام وجاء إلى أبيه وفيما هو بعيد رآه أبوه فتحنّن عليه وأسرع وألقى بنفسه على عنقه وقبّله . فقال له الابن : يا ابت ، قد خطئت الى السماء وأمامك ولست مستحقاً بعد أن أُدعى لك

«لم يرسل الله ابنه ليدين العالم بل ليخلّص العالم» (يو٣/١٧) . «لم آت لأدين العالم بل لأخلّص العالم» (١٢/٤٧) . «لا لأدعو الصدّيقين بل الخطأة» (متى ٩/١٣) . «يموت عن الخطأة» (روم ٥/٦) . «لما كنا خطأة ، مات المسيح لأجلنا» (٩) .

ألا يأمرنا بأن «نسامح وسبعا وسبعين مرة» أي ما لا نهاية له (متى ١٨/٢٢) ؟ وبأن ندير خدّنا الآخر للضرب ؟ فهو لا يطلب الينا ذلك الا لانه فعله قبلنا : «يصير الإنسان ملحداً عندما يظهرون له إلهاً أقل صلاحاً منه» يقول برودون . إنّه لعلى حق مئة في المئة .

«لذلك . إلاّ إذا لم يعد الله إله المحبّة الذي يظهره لنا الإنجيل ، لأنّ هناك أناساً . بزيغ لا يُعقل ، يرفضون أن يكون كذلك ، إنّه من المستحيل الاّ يبقى الله إله المحبّة . لذلك أمام الرفض الفظيع له ، يبقى الله الى الأبد هو هو ، أمين لذاته ، يبقى دائماً كما هو الحبّ المعطى بكامله ولو صنع منه الآخرون الحبّ المرفوض الى الأبد . فالرفض الأبدي الذي يصبح ضحيّته ؛ لا ينقص فيه من قوّة الحب . بإمكانه هدم الحب في نتائجه لا في ينبوعه . **فالجحيم ، كرفض مطلق للحبّ ، لا يوجد أبداً الاّ من جهة واحدة أي من جهة الذي يخلقه دائماً لذاته** . لكنه يستحيل على الله أن يشارك ولو قليلاً في هذا الزيغ وبخاصة لكي يجد ، بانتصار عدله ، مجد حبّه المخون ، كما كان يدّعي البعض . فإن كان لدى الله ردّة فعل معاكسة لوجود الجحيم — وكيف لا يكون لديه مثل هذه الردّة — فستكون ردّة ألم لا موافقة ، ردّة عذاب شديد لا ردة رضى .

فلنجرؤ على القول أن الله مطبوع الى الأبد في جسده بالحديد الأحمر ، وذلك بالرفض الذي يلاقيه حبّه . ولهذا الطابع شكل نعرفه ، شكل الصليب . فهناك ليس فقط آلام الله التاريخيّة في أقسى جلجلة ، بل الرفض الذي يجعل من الله ضحيّته الدائمة ، أليس هو أيضاً جلجلة حقيقيّة للمجد الذي يملك أبديّته على طريقته

ابناً . فقال الأب لعبيده : هاتوا الحلّة الأولى وألبسوه . واجعلوا في يده خاتماً وفي رجليه حذاء . وأتوا بالعجل المسمّن واذبحوه فنأكل ونفرح . لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش وضالاً فوُجد . فطفقوا يفرحون . (لو ١٥/٢٠ — ٢٤) .

الخاصّة؟ فألم الله هنا لا يسبر غوره، تماماً كحبّه.. ألمنا تجاه الجحيم إن هو سوى صدى لألمه هو، وعثارنا ان هو الاّ صورة بعيدة لعثاره. والجحيم هو في الله الجرح الذي لا يندمل حيث الحبّ اللامحدود يتحقّق هنا أيضاً (مارتيليه).

سماوات جديدة وأرض جديدة

استحلفكم الله أيها الأخوة، احفظوا الامانة للأرض ولا تصدّقوا الذين يحدّثونكم عن رجاء أسمى. فهؤلاء مفسدون بعلمهم أو بغير علمهم. انّهم يحتقرون الحيـــاة. انّهم يحتضرون وقد تسمّموا. فهم يتعبون الأرض: فليموتوا إذاً! (نيتشه).

شهيرة ومدويّة تلك الصفعة التي لا يزال الملحدون يوجّهونها الى المؤمنين: «بكلامكم على الحياة الأبديّة تنحّون الناس عن الجهاد في سبيل هذه الحياة الأرضيّة.. حوّلوا أنظاركم عمّا تسمّونه «الأرض الجديدة» العتيدة واهتموا بهذه الأرض واجعلوها صالحة للسكن!».

يكتب جان جاك روسّو ساخراً في الفصل الأخير من العقد الاجتماعي: «المسيحية ديانة روحيّة محضة تهتمّ فقط بأمور السماء: ليس وطن المسيحي في هذا العالم. لا شك أنه يقوم بواجبه انّما بغير مبالاة كليّة بالنسبة الى نتيجة اهتمامه. المهم هو ألاّ يوبّخه ضميره! أجرت الأمور على الأرض كما يجب أم لا.. الشيء الأساسي هو الذهاب الى الجنّة وليس الاستسلام سوى وسيلة جديدة لهذه الغاية».

هذه الروحانية السطحيّة، لا تمتّ إلى يسوع المسيح بصلة! فبردّة فعل طبيعية، أثارت ضدّها المادية الملحدة والماركسية المجاهدة..

سماوات جديدة، أرض جديدة

ومع ذلك نبدأ بقولها: لا يولد المرء تماماً إلاّ بدخوله القيامة. لا يتمّ بناء العالم الا عندما تستولي عليه قوّة القائم من الموت التي تبدّله في نهاية الزمن.

سفر الرؤيا (٢١) يبشّرنا بهذه السماء الجديدة وهذه الأرض الجديدة . هذا يعني أن للكون كلّه مستقبلاً وانّ هذا المستقبل كامن في يسوع المسيح في نهاية التاريخ وببادرة من الخالق ، لن يُهمل شيء من المخلوقات : كل شيء سوف يتطهّر ، يتحوّل ، «يقوم من الموت» . لن يفنى شيء لأن «الله خلق كلّ شيء ليبقى» (حكمة ١٤/١) . فهو لن يبدلها بسماء أخرى وأرض أخرى . إنما السماء والأرض يتغيّران .

«فإن انتظار الخليقة يتوقّع تجلّي المجد في أبناء الله . لأن الخليقة قد أخضعت للباطل لا عن إرادة ولكن لأجل الذي أخضعها على رجاء أن الخليقة ستُعتق هي أيضاً من عبوديّة الفساد الى حريّة مجد أبناء الله . ونحن نعلم أن الخليقة كلّها تئنّ وتتمخّض حتى الآن . وليس هي فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح نئنّ أيضاً في أنفسنا منتظرين التبنّي افتداء لأجسادنا» (روم ١٩/٨ ..) .

وهكذا نكتشف على ضوء الله حقيقة هامّة : الكون — أي العالم المادي كله — والإنسان ليسا حقيقتين منفصلتين . لم يخلق الله العالم كما ننصب مسرحاً وندعو فرقة للتمثيل عليه ؛ ولا كما نعدّ مهداً لطفل منتظر . **لقد وُلد الإنسان من العالم وهو متحدّ به** ، كما قلنا . **فهما** من القماشة ذاتها .

فالعالم فعلاً ، منذ مليارات السنين ، يتطوّر ، انطلاقاً من حالة أولى متميّزة ، نحو الحياة . وتبلغ الحياة ذروتها عندما تتحوّل الى روح في الإنسان . ثـمّ يرتفع الروح الى معرفة الله الذي يدعوه الى محبّته ، في عيلته .. وابن الله المتأنّس هو الذي يقود المسيرة ، «ويجذب كل شيء إليه» ليوصل كلّ شيء الى الآب . **فهو** يقود الكون بأسره الى كماله .

فلا نحاولن أن نتصوّر ما سيكون هذا العالم المتجدّد . كلّ حصاد

سماء صليب الجنوب المرسوم في الأفق .. سماء صلبان الجنوب الرازحة تحت آلام الصغار .. سماؤك يا رب !
أراض شاسعة في مرتفعات جبال الأند .. أرض البشر .. أرضك ، يا رب !
هذا المساء ، حيث يهب الليل من جديد على أرض الناس ، كيف لا ينقبض قلبنا ! فالمقتدرون لم يتزلوا بعد عن عروشهم . والمتواضعون لم يرتفعوا بعد . الجياع لم يشبعوا بعد من الخيرات . ولم يُرسل الأغنياء فارغين .. انهض عبيدك يا رب ، ليشعّ النور في عيونهم قبل أن نصير في الغد حتى لا يضيع رجاؤهم (ايف ماترن) .

هو حبّة تبدّلت ، لكن التبديل كلي . لو راحت الحبّة في تشرين الثاني تتساءل عمّا سيصبح الحصاد في تموز ، فماذا تتصوّر؟ حبّة أكبر وأجمل ؟.. فالمطلوب ليس إذاً أن نحلم . فكشف الحياة الثانية تعيدنا الى روسّو ونيتشه وكامو وغيرهم لتشدّنا بقوة الى مهامّنا الأرضيّة التي يجب أن نقوم بها هنا .

حيث يسكن البرّ

انّ هذه السيّدة المسيحية الملتزمة لعلى حقّ عندما تكتب : « ما يجري بعد الموت هو من اختصاص الله لا من اختصاصي . فهو يعدنا بالحياة الأبديّة وهذا يكفيني . لم يدعنا يسوع الى القفز بالمخيّلة الى العالم الآخر بل إلى أن « نطلب أولاً ملكوت الله وبرّه » هنا والآن ، في كل شيء ، في كل مساعي حياتنا ، ففي هذا ما يكفي لإشغالنا ! » والقديس بطرس (٢ بطر ٣/١٣) يخرجنا من الأحلام المريحة : فهو يربط تغيير العالم هذا بالدينونة العامّة : « إنّنا ننتظر سماوات جديدة **يسكن فيها البرّ**» . وهذا صدى لإنجيل متى ٢٥/٣٠.. «كنت جائعاً فأطعمتموني .. » هذا يذكّرنا عملياً بالأجير الذي نشغّله والخادمة التي نهينها والعربي أو البورتغالي الذي لا نؤمّن له مسكناً لائقاً ولا أجراً عادلاً ، والبعيد عن أهله ، والخصم الذي نحوّر كلامه ، والزوجة التي نجهل تعبها ووحدتها .. هو هذا الجوع الفعّال ، هذا العطش اليومي الى برّ الملكوت الذي ، كما يقول القدّيس بطرس ، يُعدّ ويعجّل قدوم « السماوات الجديدة حيث يسكن البرّ » .

هذا لا يعني أنّ العمل الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو عمل الرحمة يمكنه **وحده** أن ينضج عمل الخلاص . فخلاص الإنسان والكون **هو خلاص الله** . لكنّه يتحقّق شيئاً فشيئاً **في عهد** . وقد شدّد على ذلك اساقفة فرنسا في الكتيب الغني الأخير : تحرير البشر والخلاص بيسوع المسيح :

« العلاقة الأساسيّة بين الخلاص والتحرير تكمن في هذا اللقاء

بين الإنسان التوّاق الى الحريّة والمجاهد لتحقيق ذاته واله العهد الحاضر في قلب التاريخ ليقوده الى غايته . وهكذا فالإنسان يلتقي الله لا بخروجه من العالم بل باندماجه فيه وباشتراكه في تصميم الخالق . .

النظرة المسيحية الى نهاية الأزمنة تضفي على هذه المعطيات بعداً من انتظار ملءٍ لا يقدر الإنسان أن ينتظره من غناه البشري وحده . . بما أننا قمنا مع المسيح ، فنعمته تحملنا منذ اليوم على أن نرى في **حقائق هذا الزمن انتظار تجلّي العالم**» . وباختصار : «الإنسان — يسوع هو نموذج المخلوقات . بقيامته وصعوده ، ملأ هذا الإنسان — الاله العالم . وعمليّاً يُترجم فداؤه في هذا العالم بالعمل وبهداية العالم ، انساناً وكونا ، حتّى يصبح بكامله مشحوناً بالروح «حتّى تتخمّر العجنة كلّها ، حتى يتجلّى المسيح فيه كلياً . لكن هذا العمل لا يتمّ بدون الإنسان وكل إنسان . . عندئذ تصبح الخليقة كلّها «الجو الالهي» .

وأخيراً الفردوس الأرضي

قلنا في الفصل السادس أنّ الفردوس الأرضي (**تك ٣**) ليس قصّة من الماضي بل هو تصميم الله وقصده للأزمنة الأخيرة . والآن نفهم أكثر : للتاريخ البشري غاية . والفردوس حقيقة . لكنّه أمامنا : هو «السماء الجديدة والأرض الجديدة حيث يسكن البر» . والحال أنّ المسيح يقول لنا : ويعطي المثل بجهاده الشخصي ، إنّ هذا الفردوس هو أرضي وان مدنيّتنا الزمنيّة هذه يجب أن نزيّنها للعرس الأبدي . من هنا ضرورة التزامنا الواقعي في تاريخنا بمساندة جميع البشر المجاهدين لأجل البرّ .

لكنّ أرض الميعاد هذه ، في الوقت الذي يعمل فيه المسيحي على الاستيلاء عليها ، انّه يعلم أنّها عطيّة من الله بالمسيح القائم من الموت والذي ، كل يوم ، يأتي إلى العالم تدريجياً ، هكذا تصبح

صلاتــه أكثر إلحاحــاً : «**أجـل ! تعـال أيها الرب يسوع !**» (رؤ ٢٢/٢٠) .

هكذا يأخذ تجسّد الله في قلب العالم وقيامته في رأس العالم معناه كاملاً . «تذكرنا قيامة المسيح ببدء هيجان بركان ، أي انّها علامة نار تتأكّل كل قلب الأرض . هذا هو الموضوع حقاً وما الفصح سوى تلك العلامة .

«ففي أعماق الأرض الخفيّة تشتعل نار الله التي ستحمل شعلتها كلّ الأشياء الى التوهّج السعيد .

«وانطلاقاً من قلب العالم السرّي حيث انزله الموت ، هناك قوّات جديدة وطاقات العالم المتجلّي لا تزال تعمل .

«وفي أعماق كلّ حقيقة ، الباطل (ما لا يفيد شيئاً أبداً) والخطيئة والموت غُلبت على أمرها .

ولن يمرّ هذا المتّسع من الوقت الذي نسميّه تاريخ ما بعد المسيح حتى ينجلي ، في كل مكان ، وليس فقط في جسد المسيح ، ما حدث حقاً» . (كارل رهنر) .

في الإيمان مات أولئك كلّهم غير حاصلين على المواعد . انّما نظروها وحيّوها من بعيد واعترفوا بأنّهم غرباء ونزلاء على الأرض . والذين يقولون مثل ذلك يوضحون أنّهم يطلبون وطنهم ولو انّهم ذكروا الوطن الذي خرجوا منه . لكان لهم سبيل للعوده إليه ، لكنّهم يشتاقون وطناً أفضل وهو السماوي فلــذلك لا يستحي الله ان يدعى الههم لأنه أعدّ لهم مـــدينـــة . (عبر ١٣/١١—١٦) .

نؤمن .. آمين

منذ نحو ثلاث مئة سنة ، راحوا يقولون في الطقوس الشعبيّة «هكذا فليكن» . هذا التعبير الضعيف كاد يحلّ محلّ «**آمين**» القويّة والتقليدية التي كانت تدوّي في الصلوات منذ يسوع المسيح ، منذ ابراهيم .. «هكذا فليكن» هو تـمنّ لطيف مكانه في آخر الصلاة . لكن ليس في آخر قانون الايمان . «آمين» هو هتاف غنيّ بالمعنى يؤكّد عادة على قانون الايمان ويعطي الصلاة خاتمة لا تُقهر ويؤيّد كل الأعمال المسيحيّة الكبرى . العقد الفدرالي السويسري سنة

١٢٩١ يبدأ : « باسم الله . آمين ! » في القرن الثامن عشر ، حُرِّرت عدّة وثائق خاصة بالوصيّات تبدأ بالعبارة « باسم الآب والابن والروح القدس . آمين » .

— لكن « آمين » هي كلمة عبرية .

— كما أن كلمة « بازار » هي فارسية و« بيش » انكليزية و« مازوركا » بولندية و« مازوت » روسيّة و« لست » هولنّدية .. « آمين » تأتي من العبرية كما أتى الفرنسيون من جرمانيا ، لكنّها عربيّة وسريانية وارامية ويونانية وروسيّة ... لقد تأقلمت في كلّ اللغات الجرمانية والرومانية والسلتيّـة .. « آمين » هي إذاً فرنسية . تجدها في أوّل قاموس بين يديك . طبعاً بمعناها الضعيف : « فليكن » . لكنّها فرصة لنعرف هنا أكثر من قواميسنا .

في أصلها العبري ، **تحتوي كلمة « آمين » على الصلابة والرسوخ واليقين** . « عندما نقول آمين نعلن أنّ ما نقول نعتبره حقيقياً ، وذلك للموافقة على اقتراح أو للانضمام الى صلاة » (قاموس اللاهوت الكتابي) فالكلمة توحي صورة بناء ذي أساسات لا تتزعزع . أو بالأحرى صورة صخر أقيـم عليه هذا البناء .

* **هناك أشخاص — صخور** إذا صحّ التعبير : أمناء وأقوياء . بإمكاننا الاتكال عليهم والاتّكاء إليهم . **فهم** ثابتون . كلمتهم صريحة ووعدهم أكيد . بإمكانك جسّ زنودهم . لو مد إليك واحد يداً مرتخية واهنة ناعمة ، لشعرت بأنك ممسك بإنسان خرع . ولو توصّلت الى يد معضّلة قويّة ذات عظام — يداً في يد — لشعرت أنّك أمام شخص قويّ ، أمام «آمين» . « اتّفقنا » . بامكانك الاتّكال عليّ . فأنا لست صدفة رخوة بل رجل — صخرة ..

* **هناك حقائق — صخور** : « حقائق حقيقيّة » . **فهي** ، على عكس كـلّ الحقـائـق الانتخـابيّـة وشهـادات الإيمان السيـاسيَّـة

والتأكيدات الصادقة المتعاقبة و«نعم ولكن» و«بين بين» .. آمين . انها تشدّد على حقيقة حياتيّة دائمة لا تتغيّر . أؤمن ايماناً لا يتزعزع . كرزّة غُرزت عموديّاً في العمق في الجهة الشمالية . كالحبل المشدود إليه متسلّق الجبال ، بإمكانك التأرجح عليه في الفراغ .

* **الله هو هذا الآمين** ، يقول اشعيا ١٦/٦٥ . لا يغشّ ولا يخيّب أملاً . اله الحقّ والامانة ، اله الكلمة .

فالـذي يتبارك بهذا الاسم على الأرض ، يتبارك باله «الآمين» . والذي يقسم به على الأرض ، يقسم باله «الآمين» . (أشعيا ١٦/٦٥) .

« آمين الله هو يسوع المسيح . إذ به يحقّق الله وعوده كاملة ويبيّن أن ليس فيه نعم ولا بل نعم فقط » (٢كو ١٩/١ ..) .

ليس يسوع ذاك الذي يقول الحق فحسب عندما يقول كلام الله ، بل هو كلام الله الحقيقي بالذات ، هو الآمين بكل ما في الكلمة من سموّ ، هو الشاهد الأمين والحقيقي (رؤ ١٤/٣) (قاموس اللاهوت الكتابي) .

* **فعلينا أن نراهن على المسيح** ، آمين الله هذا ، وأن نتّحد به لنصبح نحن أيضاً آمين الآب وآمين اخوتنا . هذا هو المعنى التام للآمين التي نختتم بها قانون ايماننا .

— من جهة ، «**أضع أملي بالرب وأنا واثق من كلمته**» .
— من جهة ثانية ، «**يا رب ، انا أتقيّد بحقيقتك لاحياها ، وأنشرها . سوف لا أكون عادم الشخصية بل أكون أميناً ، مثلك وبك**» .

في الليتورجيا الموزارابيّة ، أدخلوا كلمة «آمين» بعد كلّ طلبة من الصلاة الربيّة وبعد كل بند من قانون الإيمان ... فلنحاول ذلك . ولندعها تدوّي !

يخبرنا القدّيس جيروم أن مؤمني روما كانوا يطلقون الآمين «بصوت عال ومن أفواه عديدة بحيث أن سامعيهم كانوا يتصوّرون رعد العاصفة» .. كانوا مسيحيّين أبطالا ! ... آمين .

الفهرس

أنجزت مؤسسة كومبوليث
صف هذا الكتاب
في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول
عيد الميلاد المجيد
سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثمانين

منشورات قسم الليتورجيا في جامعة الروح القدس

الكسليك (لبنان)

١ — الأب يوحنا تابت ، تفسير لسفر التكوين منسوب الى القديس أفرام السرياني ، الكسليك ، ١٩٨٢ .

٢ — الأب يوحنا تابت ، تفسير لسفر الخروج منسوب الى القديس أفرام السرياني ، الكسليك ، ١٩٨٣ .

٣ — تيودول ري مرميه ، نؤمن ، تعريب الخوري يوسف ضرغام ، الكسليك ، ١٩٨٣ .

Th. REY-MERMET, C.SS.R.

CROIRE

Pour une redécouverte de la foi

DROGUET & ARDANT



TH. REY-MERMET

pour une redécouverte de la foi